

مارتن لوتر والإسلام

محمد أبو حطب خالد

المجلس الأعلى للثقافة

مارتن لوتر والإسلام

محمد أبو حطب خالد



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة	
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية	
إدارة الشؤون الفنية	
خالـد ، محمد أبو حطب مارتن لوتر والإسلام، محمد أبو حطب خالد - القاهرة. ط ١ - القاهرة المجلس الأعلى للثقافة ٢٠٠٨ ٣٥٢ ص ، ٢٤ سم ١ - الإسلام والمسيحية ٢ - لوتر، مارتن، ١٤٨٣ - ١٥٤٦ أ - العنوان	٢١٤,٢٧
رقم الإيداع ٢٠٠٨ / ٢٢١١٢ الترقيم الدولي : 8 - 960 - 437 - 977 - I.S.B.N	
الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية	

حقوق النشر محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت: ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس: ٢٧٣٥٨٠٨٤
EL Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo
Tel.: 27352396 Fax: 27358084

**"قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا
نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا
مِّنْ دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ"**

(آل عمران، الآية ٦٤)

„Sag: „o Leute der Schrift! Kommt ihr zu einem zwischen uns und euch gleichen Wort: das wir niemandem dienen außer Allah und Ihm nichts beigesellen und sich nicht die einen von uns die anderen zu Herren außer Allah nehmen. Doch wenn sie sich abkehren, dann sagt: Bezeugt, dass wir Allah ergeben sind.“ (Sura 3- Al Imran: 64)

الفهرس

الصفحة	توطئة	
٧		
١٩	السيرة الذاتية لمارتن لوتر من منظور تاريخي	الفصل الأول
٢١	طفولة وشباب مارتن لوتر في إمارة سكسونيا	١.١
٣٣	مارتن لوتر في إيطاليا	٢.١
٤٥	الحكم على لوتر بالزندقة	٣.١
٥٣	لوتر و البابا و ثورة الفلاحين	٤.١
٦١	زواج لوتر	٥.١
٦٩	قطوف من الأقوال المأثورة لمارتن لوتر	٦.١
	الدور اللغوي لمارتن لوتر وإسهامه في توحيد الأمة الألمانية والنهوض بحركة الإصلاح المسيحي	الفصل الثاني
٧٧		
٧٩	اللغة الألمانية في خدمة حركة الإصلاح الديني	١.٢
٨٧	وظيفة اللغة في دعم قضية توحيد الألمان	٢.٢
٩١	اللغة والمزامير الدينية والغناء الجماعي والموسيقا	٣.٢
٩٦	دور لوتر في تطور مستويات اللغة الألمانية	٤.٢
١١٠	أهمية ترجمة الإنجيل إلى الألمانية	٥.٢
	الحكاية المصاغة على لسان الحيوان كوسيلة تربية للأمة الألمانية	٦.٢
١٢٠		
١٢٥	اللغة في خدمة مواقف حياتية	٧.٢
١٢٨	لوتر في عيون الآخرين- نصب تذكاري لفصحى الألمانية الحديثة	٨.٢

١٢٨	مارتن لوتر فى الموسوعات اللغوية	٩٠٢
١٣٣		
	أحداث حركة الإصلاح البروتستانتي قبل مارتن لوتر	الفصل الثالث
١٣٩	الكتاريون	١.٣
١٤١	الفالدينيون	٢.٣
١٤٢	جون ويكليف	٣.٣
١٤٥	حركة يان هوس و جيروم هيرونييموس فون براج و سافونا رولا	٤.٣
١٤٨	مارتن لوتر وأحداث الإصلاح الأخيرة	٥.٣
١٥٣	الحجج الخمس والتسعين ومحاكمة لوتر	٦.٣
١٥٥		
	مارتن لوتر ومنهجه الإصلاحى - اقتراب من الإسلام أم ابتعاد عنه	الفصل الرابع
١٧١		
	الديانات السماوية الثلاث من منظور إسلامي .	١.٤
١٧٣	اليهودية	٢.٤
١٧٣	المسيحية	٣.٤
١٧٤	الإسلام	٤.٤
١٨٢	حوار الأديان	٥.٤
١٨٩	انشغال مارتن لوتر بالإسلام من منظور بعض علماء اللاهوت الأوروبيين	٦.٤
٢٠٦		
	دراسة بوبسين (لوتر والقرآن)	١.٦.٤
٢١١	لوتر و فالتر بيلتس	٢.٦.٤
٢٢٨	لوتر و لودفيج هاجيمان	٣.٦.٤
٢٣٢	لوتر و إدموند فيبر	٤.٦.٤

٢٤٢	لوتر وفرانسييس نيغل لى	٥ .٦ .٤
٢٤٦	لوتر و باول راجشور	٦ .٦ .٤
٢٥٠	لوتر ومؤسسات المجتمع اللوترى	٧ .٦ .٤
٢٥٥	لوتر و جيرنوت روتر	٨ .٦ .٤
٢٥٨		
	دراسات استهلالية لبعض علماء المسلمين	٧ .٤
٢٦٦	دراسة الدكتور حسين مؤنس	١ .٧ .٤
٢٦٧	دراسة الدكتور محمد خليفة حسن	٢ .٧ .٤
٢٧١	دراسة الدكتور السيد الشاهد	٣ .٧ .٤
٢٧٤	دراسة الإمام محمد عبده	٤ .٧ .٤
٢٧٩	دراسة الشيخ محمد أبو زهرة	٥ .٧ .٤
٢٨١	دراسة الشيخ أمين الخولى	٦ .٧ .٤
٢٨٣		
	الخلاصة والنتائج	كلمة ختامية
٣٠١	سجل بالأحداث التاريخية	
٣١٧	المؤلف فى سطور	
٣٢٢		المصادر والمراجع
٣٣٨		

توطئة

هناك أفكار عدة، قادتني إلى التعرف على إحدى الشخصيات الألمانية خالدة الذكر، ألا وهو المصلح الكبير الدكتور مارتن لوتر Dr. Martin Luther ، والذي قام في عام ١٥١٧ بنشر مقولاته وحججه الخمس والتسعين على بوابة كنيسة القصر بمدينة فتنبرج Wittenberg Schlosskirche بإمارة سكسونيا Sachsen، وتفجرت على إثرها قوة إشعاع داخل وخارج حدود اللغة الألمانية، وانتشرت أفكاره بعد ذلك في كل أنحاء العالم.

وبحكم تخصصي الدقيق كأحد علماء اللغة الألمانية وآدابها واضطلاعى بتعليمها لأبناء العربية لعشرات السنين، في داخل أروقة الأزهر العلمية وفي معظم الجامعات المصرية؛ حيثما يكون للألمانية وجود بها، كان لي أن أضع نصب عيني أن يكون لمارتن لوتر كلغوى موهوب وأديب أريب، قبل أن يكون راهبًا وعالمًا للاهوت، حظ وافر في مناهج علوم اللغة الألمانية وآدابها بما له من فضل لا ينكر في هذا الأمر.

وحينما أتطرق بالحديث عن الألمان وعن مفكريهم وفلاسفتهم وشعرائهم وموسيقييهم، فلا مفر من عرض الإسهام الكبير والدور الرائد الذي قدمه ولعبه مارتن لوتر، والذي تناوله العديد من المؤرخين، كزعيم لحركة الإصلاح المسيحي في أوروبا.

يذكر عنه أنه كان دعامة لكل من هم في حاجة إلى العون، لم يشمخ بأنفه أو يتأنق في ملبسه، وعاش زاهدًا ليواجه الكثير من العقبات التي يصعب التغلب عليها، فكانت لديه الشجاعة والجرأة بما يكفل له أن يتحدى أعداءه، ودون أن يشك في صدق ما يفعل أو ما يقول. ولعله من المفيد أن أذكر لهذا المصلح الثائر، بل والمتمرد أحيانًا، أنه يمثل من وجهة نظرنا أحد عجائب التاريخ الألماني كراهب

بسيط متواضع غيرت أفعاله صورة قارة بأكملها، وليقف على أرض ثابتة كالطود
الراسخ أمام أقوى النظم حصانة، وأشد العادات قداسة في أوروبا، ولم ينس طوال
حياته القصيرة، منشأ أسرته الفقيرة، وأن أباه كان فلاحًا وفحاميًا.

نذكر لهذا الثائر بضع عبارات خالدة قالها في مناسبات تاريخية معينة، قد
تلقى الضوء على فكره ومنهجه، الأمر الذي سوف نعرض له في هذا الكتاب: (*)
"إنني أقف هنا ولا أستطيع أن أفعل شيئًا آخر غير الذي فعلته، وليعينني
الرب على ذلك."

،so Gott mir helfe "Hier stehe ich und kann nichts anderes
Amen!"^(١)

و في عبارة أخرى:

"لو علمت أن العالم سينتهي غدا، فسوف أستمر في زراعة شجرة التفاح."
، dass morgen die Welt unterginge، "Und wenn ich wüsste
so würde ich mein Apfelbäumchen pflanzen"^(٢)

وقوله "إن قدرى الذى خلقت له هو خدمة بنى جلدتى من الألمان"

„Mein Schicksal dreht sich um meine Existenz، meinen
deutschen Menschen dienlich zu sein.“^(٣)

وفي تحذيره لبابا روما :

"لأنك كنت السبب في تكدير روح المسيح وأحزانه لتحترق إذا في النار الأبدية."
Für meine Deutschen bin ich geboren ihnen will ich dienen. Schreckenbach،S.12

(*) رأينا ذكر النص الألماني لترجمتنا العربية لهذه الأقوال الماثورة عن مارتن لوتر من مصادرها الأصلية
بهدف تقديم إضافة تخدم القارئ الملم باللغة الألمانية إذا ما أراد المزيد من التفصيلات عنها. (المؤلف)

(١) قارن: Schlussrede im Reichstag zu Worms :Schreckenbach, S.12

(٢) قارن: <http://www.luther.de/legenden/baeume.html>

(٣) قارن: Für meine Deutschen bin ich geboren ihnen will ich dienen. Schreckenbach،S.12

„Weil du den Heiligen des Herrn (Christus) geschändet, so schände dich das ewige Feuer.“^(٤)

وفى عبارة موجهة إلى أعدائه:

"حتى إذا قاموا بإشعال النار من مدينة فيتبيرج Wittenberg حتى مدينة فورمس Worms و امتد لهيب هذه النار إلى عنان السماء، فلن يمنعنى ذلك من الامتثال أمام المجلس النيابى حاملا راية المسيح و لن أتردد حتى لو وُضِعَتْ رَأْسِي بين فكى الأسد وأنيا به... إن الله سوف يقف بجانبى ولن يخذلنى".

„Auch wenn sie den Weg vom Wittenberg bis nach Worms in Flammen aufgehen lassen und dieses Feuer bis vom Himmel auf dem Wormser Reichstag , wird es mich nicht hindern, lodert mein ,die Fahne Jesus Christi tragen und werde ich nicht zögern Haupt in das Maul des Löwen zu stecken. Gott wird mich nicht sondern an meiner Seite stehen.“⁵ in Stich lassen

تتضمن هذه العبارات من وجهة نظرنا بعض السمات التى تميزت بها الذات الألمانية على مر العصور. فالعبارة الأولى تعنى وقوف المرء بكل ما يملك من قوة و إرادة، كما تعنى الثبات على رأى لا يهتز، و أن يكون مستعدا لأى نتيجة تتبع من هذا الموقف. أما العبارة الثانية والتى مفادها: " أننى لو علمت أن العالم سيهلك غدا، لظللت أغرس فسيلة التفاح التى فى يدي"، وهى عبارة إن دلت على شىء فإنما تدل وتشير إلى دور القضاء و القدر، الأمرين اللذين لعبا دورا مؤثرا عند الألمان على مدى تاريخهم الطويل و فى كثير من مفردات لغتهم.

(٤) قارن: S.13، S.161- Schreckebach، Landgraf

(٥) قارن: S.15، Schreckebach

أما بقية العبارات ومثلها الكثير فسوف نعرض لها فى مجالات مختلفة لهذا المفكر الألماني الكبير، وهى تمثل لنا كعلماء للجرمانيات ركيزة مهمة ومادة شيقة ومحبة لدى أبناء العربية من الدارسين للألمانية. وقد ترتبط فحوى هذه العبارات بوجهات نظر هذا المصلح ضد معاقل فساد الكنيسة الكاثوليكية آنذاك، ومواجهاته وصدامه مع عدوين وقوتين من القوى الكبرى: العدو الأول يتمثل فى بابوية روما والفساد الذى عم بها واستشرى؛ والعدو الثانى المتمثل فى الزحف والهجوم الكاسح للمسلمين الأتراك إلى وسط أوروبا، وخاصة بعد محاصرتهم لمدينة فيينا Wien عاصمة أوروبا آنذاك.

فى خضم هذه الأحداث كان على مارتن لوتر أن يدعم حركته الإصلاحية، بداية بسلاح الكلمة وبالحجة، وكان ما كان من تقبل لآرائه الإصلاحية من البعض ورفضها من البعض الآخر، وكثيراً ما كان يردد بعد انتشار مذهبه أنه لم يكن يبغي سوى إصلاح الكنيسة وعودتها لأصول الإنجيل بعهديه، كتاب المسيحية المقدس، وليس انقسامها.

الدوافع والمحركات التى أدت بى إلى الاقتراب من فكر هذا الرجل سواء فيما يخص إصلاح المسيحية ومدى صلة فحوى هذا الإصلاح بالمبادئ والقيم الإسلامية، ترجع إلى قراءتى المتعددة وعلى رأسها بحثان: البحث الأول للإمام الشيخ محمد أبوزهرة: "محاضرات فى النصرانية - والتى تبحث فى الأدوار التى مرت عليها عقائد النصارى وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم"، الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٦١.

والمبحث الثانى هو ذلك البحث الشيق الذى ألقاه أستاذ الأجيال الأستاذ الدكتور أمين الخولى عام ١٩٣٥ وشارك به فى مؤتمر: "تاريخ الأديان الدولى السادس" المنعقد فى مدينة بروكسل ببلجيكا فى الفترة من ١٦-٣٠ سبتمبر ١٩٣٥ تحت عنوان "صلة الإسلام بإصلاح المسيحية". و كانت مشاركة هذا العالم الجليل بتكليف من فضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر آنذاك، الشيخ محمد مصطفى المراغى

يرى الشيخ المراغى أن موضوع هذا البحث "موضوع طريف وبكر وغريب". وبذلك يضرب فضيلة إمام المسلمين لنا المثل والقذوة فى حرية الفكر، ونزاهة النظر الدينى، فى مناقشة موضوع حساس وشائك، ويرى "أن حركة الإصلاح المسيحى هذه، حادث من الحوادث البارزة فى تاريخ الأديان... وما من حادث فى هذا الوجود إلا وهو أثر لغيره ومؤثر فى غيره". وهنا يتفق رأى الإمام الأكبر مع ما انتهى إليه صاحب البحث الأستاذ أمين الخولى فى ربط ما تم فى الإصلاح البروتستانتى بما هو حاصل فى الإسلام، ولما عرف من صلة رجال الإصلاح بفلسفة العصور الوسطى. هذه الصلة القوية التى دعمتها فلسفة العصور الوسطى المرتكزة على الفكر الإسلامى ، كانت أمرًا طبيعيًا ، حيث لاقى عموم المسيحيين من عنت رجال الكنيسة وصلفهم ما يكفى وحده للثورة عليهم، وما يقود إلى تحرر العقل البشرى من هذه القيود.

وإننى اعتبر هذه العبارات الجادة من الإمام الأكبر لخلقة لأن يقتدى بها علماء الدين فى دراسة الأديان دراسة مقارنة، كما أنها تعين على أداء رسالة الإسلام و توسيع أفق علماء الدين وتزويدهم بصيرة فى دينهم و دنياهم.

من هنا وجدت لزامًا على كأحد أبناء الأزهر المتخصصين فى علوم الجرمانيات، العلوم التى أسهم فيها هذا المصلح البروتستانتى بدور كبير، أن أواصل هذا الجهد العلمى الذى قاده بعزيمة صلبة ونية صادقة، الشيخ المراغى وتلاميذه من بعده، ولإلقاء المزيد من الضوء تمهيدًا للوصول إلى المزيد من المعلومات فى هذا الشأن، واستكمالاً لبعض الإسهامات العلمية التى سبق لنا أن قدمناها فى هذا المجال.

وأود أن أذكر أن هناك العديد من الباحثين الذين تناولوا شخصية لوثر وحياته وإسهاماته على مستوى العالم أجمع، وخاصة فى عالمنا العربى والإسلامى، وكان لكل باحث رأيه الخاص، وهذا ما أدى إلى الكثير من الجدل والاختلاف فى رأى حول شخصية هذا المصلح، إلا أنه يمكن القول بأن هناك قدرًا كبيرًا من الاتفاق لدى البروتستانت الألمان تجاه هذا الرجل، وخاصة بعد أن نجح فى إلغاء

الفروق والميزات بين من هم ليسوا من رجال الدين، وبين الكهنة والقساوسة، وبعد أن وضع نهاية لوصاية هؤلاء الكهنة على المسيحيين، وبعد أن حرر السلطة الدنيوية من دكتاتورية السلطة الكنسية. ويرى البعض من المحبين لهذا الرجل من أمثال الدكتور حسين مؤنس، أنه كان ولياً من أولياء الله، وكان إيمانه حرباً على الفساد، وكانت كراماته ألواناً من الفضيلة الإنسانية والجهاد المخلص في سبيل الناس، داعياً إلى الإيمان بالله وحده، كسبيل لنيل رحمته دون وسيط، وأن رحمة الله هي الجزاء الوفاق للبشر. لقد تجاوز إعجاب بعض مفكرى الألمان الحدود، حتى اعتبروه نبياً للأمة الألمانية ونبياً للغتها عبر إسهامه اللغوي وتجديداته اللغوية. نذكر هنا على سبيل المثال لا الحصر الإعجاب المنقطع النظير للعديد من المفكرين والأدباء أمثال الأخوين جريم Die Brüder Grimm، هرر Herder، جوته J.W.Goethe، فريدريش شيلر Friedrich Schiller، وبعض من العلماء المعاصرين أمثال نايهوس Naiyhauss، نيجيل لي Nigel Lee، إدموند فيبر Edmund Weber، لودفيج هاجمان Ludwig Hagemann، هارتموت بوبتسين Hartmut Bobzin، فالتر بيلتز Walter Beltz، جرنوت روتر Gernot Rotter في ملحمته الشعرية و التي تجاوزت الخمسمائة بيت تحت عنوان "الإسلام والغرب - الاقتراب المفقود Der Islam und der Westen – die verlorene Nähe" والتي حدد فيها بأمانة وموضوعية العلاقة العدائية التي تبناها الغرب تجاه الإسلام والمسلمين منذ ظهوره وانتشاره حتى يوم الناس هذا، مدعين على هذا الدين وعلى أصحابه استخدام منهج الجبروت والإرهاب والسعى إلى نشره بحد السيف.

ورغم قناعتى وبقينى كأحد أتباع الدين الإسلامى، الذى يدعو الناس إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو المبتغى من هذا الكتاب، الذى يعرض للإسلام كدين سماوى، فإنه لم ينتشر بحد السيف كما يدعون، ولم يجبر الناس على الدخول فيه أو اعتناقه بالقوة، وإنما اعتنقه المسلمون الذين دخلوا فيه دون إكراه. وتدل المصادر الموثوق فيها أن حكام المسلمين الذين فتحوا هذه البلدان، كانوا يخبرون الناس فيها بين البقاء على دينهم، مع ضمان حرية إقامة شعائر دينهم الذى

هم عليه، وبين الدخول في الإسلام، تنفيذًا لقول الله تعالى: "لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي". (البقرة الآية ٢٥٦)

ويرى غير المحبين لهذا المصلح، أنه ليس سوى هرطوق وملحد، وهو الادعاء الذي قال به مندوب البابا في مجمع مدينة فورمس Worms الكاردينال الياندر Alliander، والذي وصف مارتن لوتر لبابا روما حينما توجه إلى المجلس النيابي لدحض أقواله:

"لقد دخل هذا المجنون القاعة ضاحكًا، غير آبه بشيء ودون أن يشعر بأى ارتباك أو خوف ناظرًا حوله بعينين تتمان عن شيطنة، ويقول: ليكن الرب حليفى وناصرى".

und bewegt ohne „Dieser Narr trat in den Saal lachend Angst...blickte mit seinen demonischen Augen im Kreise umher und sagte : Gott wird mit mir sein.“⁶

كانت حركة الإصلاح التي قام بها لوتر تمثل دون منازع عملاً من أكبر الأعمال في عصره، وخاصة بعد إعادة بناء كنيسة قائمة على فكره ومنهاجه، تقف جنبًا إلى جنب مع كنيسة روما. وكان من ثمراتها الإنجازية هي ما يطلق عليه المؤرخون "المنة" الكتاب المقدس، والذي اعتبروه من أكثر أعمال لوتر شمولاً وإيجابية وخلوذاً. وتم ذلك بعد اجتياز طريق طويل من الصعوبات ومن خلال جميع اللهجات المحلية والإقليمية وضمها للغة الديوان السكسونى والقيصرى.

كانت ترجمات لوتر الوسيلة المحققة لاستخدام الألمانية في عموم ألمانيا، وكان ذلك هو الطريق الأمثل للغة المشتركة والموحدة للأمة الألمانية. لم يكتف لوتر باستخدامه بساطة لغة الديوان السكسونى، وما فيه من قوة أو ضعف في تصوير الكلمات للمواقف أو محاكاة الأسلوب الغريب لبنية الجمل الطويلة والمركبة، بل ربط بين قوة تصوير اللغة العامية وبساطة بنية الجملة نحويًا وصوتيًا. لقد

(٦) فارن: S. 14, Schreckenbach

استقى لغته الجديدة من علي ألسنة الناس، وظهر ذلك جليا في طبعة الإنجيل الأولى (عهد سبتمبر)، والذي اعتُبر من أسرع وأهم التغييرات التي سجلها تاريخ اللغة الألمانية، والتي جعلت اللغة الألمانية لغة كتابة، وليست لغة لهجات متفرقة بصورة مطلقة.

وكان على أعدائه والحاقدين عليه قبل أصدقائه الذهاب إلى مدرسته، والتزود بالجديد، إذا ما أرادوا تدريس وتعليم اللغة الألمانية أو التخاطب بها، حتى أن البعض اعتبر لغة الديوان السكسوني من التراث التاريخي للألمانية. وتعد لغة لوتر هي لغة الحاضر وكان على المطابع والناشرين في معظم أنحاء ألمانيا الالتزام بمجارية كل جديد أتى به لوتر.

نمت اهتماماتي لمعرفة المزيد عن هذه الشخصية الفريدة والمحيرة لدى الكثيرين من المؤرخين والدارسين، أثناء دراستي للدكتوراة بجامعة ليبزيغ Universität Leipzig في أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات من القرن الفائت، والتي أتاحت لي زيارات عديدة لأهم الأماكن، التي ترك فيها لوتر تراثه الخالد. وكانت هذه الزيارات بدافع فردي وشخصي، للتعرف عن قرب على الرجل وعلى حياته وفكره، وعلى حركة الإصلاح التي دارت أحداثها على الأرض السكسونية ثم تجاوزتها عبر الحدود إلى كافة الممالك الأوروبية. تلت هذه الزيارات الشخصية زيارة سياحية إعلامية، أعدتها حكومة ألمانيا الديمقراطية عام ١٩٨٣، وهو العام الذي احتفل فيه العالم بمرور خمسمائة سنة على ميلاد مارتن لوتر، وذلك أثناء تسلمي لجائزة ووسام ياكوب وفيلهيلم جريم بالعاصمة برلين Berlin، يرافقني زملاء من الحاصلين على نفس الوسام وهم: الأساتذة جينادي فلاديميروفيتش كولشنكسي Genadij Vlandimirovič Kolšanskij (روسي)، بيير باول ساجاف Pierre Paul Sagave (فرنسي)، ديتر شيلر Dieter Schiller (ألماني)، تزينيك مازاريك Zdeněk Masařik (تشيك)، كريستن كارلسون Kerstin Karlsson (سويدية)، رودولف توناندر Rudolf Thunander (سويدي) ورفقة العالم اللغوي الكبير فولفجانج فليشر Wolfgang Fleischer (ألماني)، والذي كان

ضمن المجموعة الحاصلة على نفس الوسام من جمهورية ألمانيا الديمقراطية في عام سابق، هذه الرحلة الإعلامية، التي وضعتها الحكومة الألمانية في صدارة برنامجها كتكريم لهذه المناسبة العلمية.^(٧)

أما الزيارة التالية لى لهذه الأماكن، فقد جاءت كمهمة علمية ورسمية من قبل جامعة الأزهر Al-Azhar Universität ، وبناء على دعوة كريمة من مركز الأبحاث الدينية الدولي لجامعة مارتن لوتر بمدينة هالي Halle ، وبتحفيز من السيد الدكتور فالتر بيلتز Walter Beltz أستاذ علوم اللاهوت المقارن وراعى كنيسة درسدن Dresden، والذي اعتبره صاحب الفضل الأكبر، فى تيسير مهمتى فى جمع المادة العلمية، وأذكر شاكرًا آل شيفر Familie Schäfer التى وفرت لنا مقامًا مريحًا فى مدينة ليبترزج، وأستاذى الذى علمنى طرق البحث والاستقصاء والمشرف العلمى على أثناء دراسة الدكتوراة أ. د. فولفجانج مينرت، Prof. Dr. Wolfgang Mehnert، وزميلي الذى عمل معى لسنوات طويلة، كخبير للغة الألمانية بجامعة الأزهر الدكتور بيرند لاندمان، Dr. Bernd Landmann، والذي لم يبخل عن التضحية بوقته ، ورافقنى فى زيارتى للأماكن العديدة، التى كان للوتر بصماته، التى تركها كعلامات مميزة، لأحداث حركة الإصلاح فيها، أذكر منها، على سبيل المثال لا الحصر، مدينة هالي/ سالى Halle Saale، إرفورت Erfurt، فيتنبرج Wittenberg، أيسلين Eisleben، ماجدبورج Magdurg، جريما Grimma وغيرها.

ولعله من المهم أن يعرف القارئ أن معظم المعلومات التى تضمنها كتابنا هذا قد استقيناها من مصادرها الأصلية المكتوبة بالألمانية، والتى أتاحت لنا، فى كرم بالغ، من المكتبة الألمانية الكبرى ليبتزج Die Deutsche Bücherei - Leipzig، ومن مكتبة مؤسسة الوقف الفرنكشية فى مدينة هالي Die Bibliothek der Franckeschen Stiftung - Halle، و التى تضم أكثر من ١٠٠٠٠٠٠ مجلد عن

(٧) مزيد من التفاصيل: محمد أبو حطب خالد، الألمانية فى خدمة الشعوب، المجلة ط ٢/١٩٨٤، برلين، ص ١٨. قارن أيضًا: (Deutsch als Fremdsprache /1984 und 1 /1986)

عصر الإصلاح الدينى و حتى عصر التنوير، والتي يشرف عليها مدير مركز الأبحاث الدينية الدولية بجامعة هالى أ.د. أودو شترير Udo Sträter ومساعداه، الدكتورة إيريكابابست Erika Papst، والدكتور توماس مولر بالكه Thomas Müller Bahlke^(٨)، كما أخص بالشكر فى هذا المقام كافة العاملين بمؤسسات لوثر التاريخية بمدينة فيتتبرج، وعلى رأسهم السيد الدكتور مارتن تروى Dr. Martin Treu ، والذي واصل إمدادى بالمعلومات عبر البريد الإلكتروني. ولا يسعنى فى ختام هذه التوطئة إلا أن أتقدم لكل هؤلاء بجزيل الشكر والعرفان.

أما زيارتى الأخيرة والتي تمت فى منتصف شهر مايو ٢٠٠٤ وذلك بدعوة من جامعة مارتن لوثر Martin Luther Universität – Halle- Wittenberg للمشاركة فى المؤتمر الدولى السنوى الذى تعقده الجامعة فى مبنى جامعة فيتتبرج القديم "اللوكوريا"، وذلك فى الفترة من ١٩-٢٢ مايو ٢٠٠٤، تحت موضوع "ازدهار وتدهور بعض أنظمة إقليمية ومحلية لمجتمعات تتعايش طوائفها الدينية المتعددة جنبًا إلى جنب". وبعد انتهاء أعمال المؤتمر علمت أن ولاية سكسونيا ستقيم معرضها الثانى تحت شعار: "العقيدة والسلطة دولة سكسونيا فى أوروبا أثناء عصر الإصلاح الدينى" وذلك فى الفترة من ٢٤ مايو ويستمر حتى ١٠ أكتوبر ٢٠٠٤ بالمدينة التاريخية تورجاو Torgau، وهى من ضمن سلسلة المدن الألمانية التاريخية التى أطلق عليها اسم المصلح مارتن لوثر، حيث كانت مسرحًا لأحداث حركة الإصلاح، ومن أهم المدن التاريخية التى شهدت عصر النهضة الألمانية، حتى أن بعض المؤرخين يراها أجمل مدن عصر النهضة فى ولاية سكسونيا فى القرن السادس عشر، إلى جانب كونها أحد المراكز السياسية المهمة فى حركة الإصلاح الدينى، بل والمهد الأول فى ازدهار الموسيقى الكنسية الإنجيلية، وفيها قضت السيدة كاترين فون بورا Kathrin von Bora ، زوجة المصلح مارتن لوثر، سنواتها الأخيرة بعد موت زوجها، وحول البيت الذى عاشت فيه إلى مزار

(٨) قارن:

Luther und Halle – Ausstellung der Marienbibliothek und der Franckeschen Stiftungen - ، Halle 1996، S. 14f.

للمرغبين في التزود والتعرف على المزيد من المعلومات في هذه الفترة التاريخية. وقد تم اختيار قصر هارتنفيلز Hartenfels Schloss، مقر حاكم ولاية سبسونيا الرئيسي، والذي بنيت فيه أول كنيسة تقام فيها شعائر الدين المسيحي وفقاً لتعليمات الإصلاح البروتستانتي الجديد.

ولقد كان لي حظ زيارة هذا المعرض وتفقد معروضاته، التي قدمت لي أدلة جديدة على مدى قوة وتأثير أحداث عصر الإصلاح الدينية والسياسية التي سادت كافة مجالات المجتمع والتي أدت إلى تغيير شامل في المجتمع الألماني والأوروبي ونقلته من ظلمات العصور الوسطى المتأخرة إلى بدايات العصور الحديثة. ولم يكن ذلك الأمر وتطوره على هذا النحو بالأمر اليسير إلا بفضل التغيير الجوهرى الذى حققته حركة الإصلاح اللوثرى.

و قد روعى أن تكون فصول الكتاب بعد التوطئة على النحو التالى:

الفصل الأول: يعرض للسيرة الذاتية لمارتن لوثر وأهم أعماله ومؤلفاته من خلال أحداث حركة الإصلاح.

الفصل الثانى: يعرض لإسهامه اللغوى فى دعم حركته الإصلاحية وانتشارها.

الفصل الثالث: يعرض لأهم قيم الإصلاح البروتستانتي التى سبقت مارتن لوثر وقادته إلى استكمال حركة الإصلاح هذه وإنشاء كنيسة مستقلة عن كنيسة روما، ترعى هذه القيم.

الفصل الرابع: يعرض لحركة الإصلاح من منظور إسلامى، وهى النقاط التى نرى أنها أغفلت من الكثيرين، ممن كتبوا عن مارتن لوثر، وخاصة المصادر والمؤلفات العربية، والتي استندت فى أغلبها على مصادر فرنسية أو إنجليزية، ويعرض هذا الفصل الكثير من المعارف حول قيم حركة الإصلاح المسيحي للمستوحاة من الأصول الألمانية ومحاولة

إيجاد إجابة عن السؤال الذى شغل ومازال يشغل ولسوف يشغل مستقبل الكثيرين من الدارسين ورجال اللاهوت والفكر وعلماء الأديان عن قدر تقارب وتطابق قيم الإصلاح اللوثرى مع قيم ومبادئ الإسلام من منظور أصحاب هذا الرأى، أو عن قدر ابتعاد هذه القيم كلية عن الإسلام من منظور الرأى الآخر وأنها جاءت عبر فكر أوروبى خالص نتج عن التدهور الذى أصاب أحوال الكنيسة آنذاك.

الفصل الخامس: ويعرض للخلاصة والنتائج.

الفصل السادس: ويقدم ثبت بأهم الأحداث التاريخية التى أثرت تأثيرًا بالغًا فى حركة الإصلاح سلبيًا أو إيجابًا.

علاوة على ذلك أرفقت قائمة بأهم المصادر والمراجع التى كانت لنا خير معين وداعم لإنجاز هذا العمل الخالص لوجه الله.

والله أسأل أن ينفع به القارئ أيا كانت عقيدته وتوجهاته ومشاربه، ودون الافتئات على عقيدة بعينها، أو التعصب لأخرى، تاركين ذلك للقارئ.

والله من وراء القصد....،

القاهرة فى

٢ رمضان ١٤٢٨ هـ

الموافق ١٤ سبتمبر ٢٠٠٧م

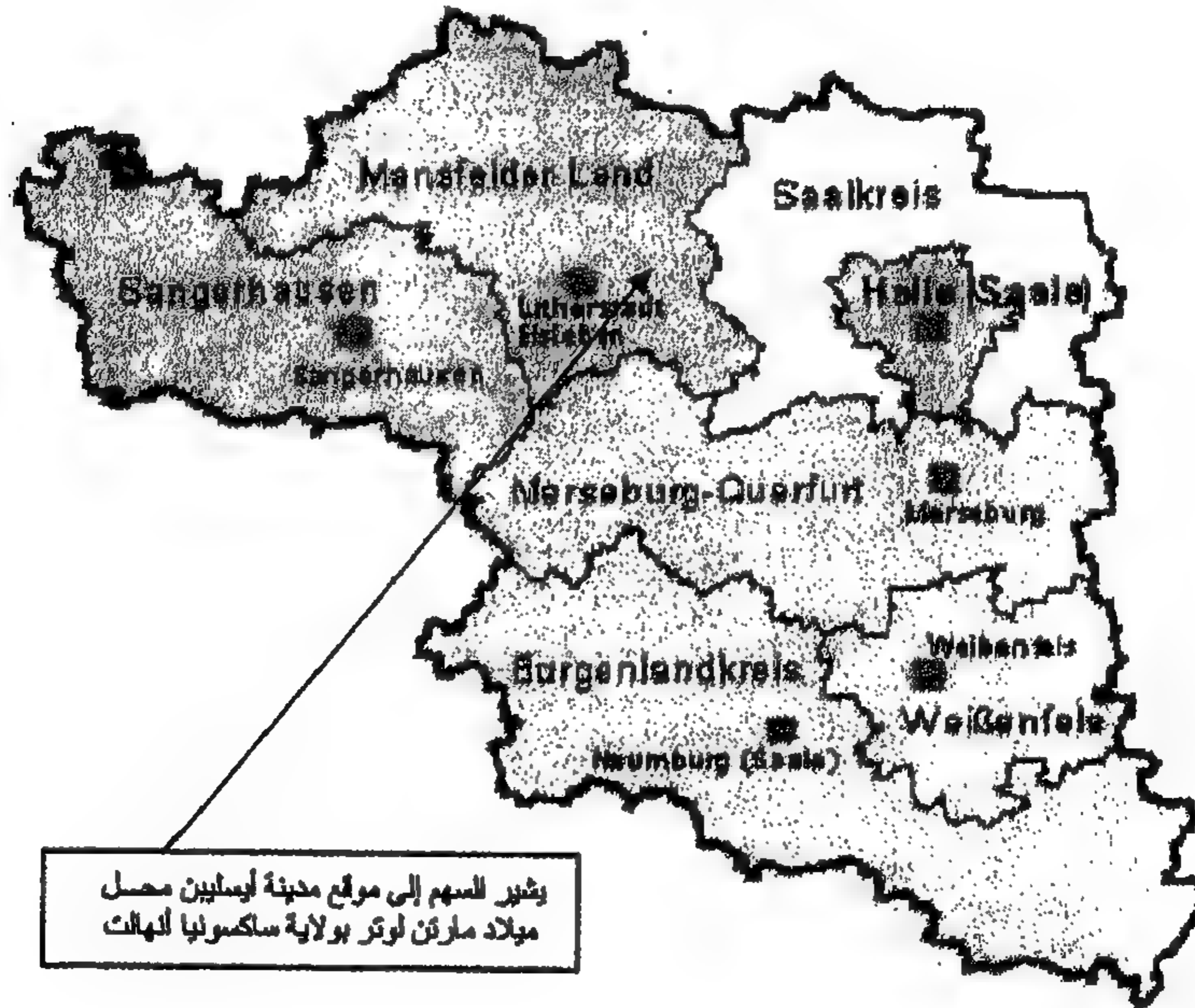
محمد أبو حطب خالد

الفصل الأول

السيرة الذاتية لمارتن لوتر من منظور تاريخي

١٠١ طفولة وشباب مارتن لوتر في إمارة سكسونيا

ولد مارتن لوتر في العاشر من نوفمبر ١٤٨٣ في مدينة أيسلين Eisleben ، وهي من أقدم المدن الألمانية، التي تقع بين منطقة الهارتس Hartz ونهر الإلبى Die Elbe ، وترجع أهميتها إلى أنها كانت من أشهر المدن التي قامت بها صناعة التعدين، وخاصة النحاس الذي اشتهرت به إمارة مانسفيلد Grafschaft Mansfeld. وقد حظيت هذه المدينة بلقب مدينة لوتر Lutherstadt في عام ١٩٤٦ رمزاً لأهميتها كموطن لهذا المصلح الديني الكبير^(١). تقع مدينة أيسلين في ولاية سكسونيا أنهالت الحالية، ولا يتعدى عدد سكانها ٣٠٠٠ نسمة آنذاك.



Lutherstadt Eisleben Geburtshaus Martin Luthers.

www.luther.de/lu96/eisl/gebhaus.html

Martin Luther in Eisleben.

www.luther.de/lu96/eisl/hist.html

(١) قارن:

وقارن أيضاً:

وتوضح الخريطة التالية أهم الأماكن والمدن التي ارتبطت بحياة مارتن لوتر
وحرركته الإصلاحية (١)



استطاع والده بمرور الوقت أن يرفع من مستوى معيشته المتواضعة بعد أن حصل على عمل في مجال التعدين واستخراج الفحم، وكانت طفولته مقرونة بالإملاق، ويحدثنا مارتن لوتر نفسه عن حياته هذه بأنه لم يكن يعرف طفولة جميلة. فإلى جانب حياة العوز، فإنه تربى تحت نظام صارم وقاس، فلم يعرف

(١) على رأس هذه المدن: أوجسبورج Augsburg، فورمس Worms، نرنبرج Nürnberg، كوبورج Coburg، شملكالدين Schamalkalden، إرفورت Erfurt، أيزناخ Eisenach، هالي Halle، ليبزيغ Leipzig، ماجدبورج Magdeburg، آنا بيرج Annaberg، تورجاو Torgau، فيتنبيرج Wittenberg
قارن:

التدليل والحنان من والديه فى المنزل ولم يعرفه أيضًا فى المدرسة، وقد علقت هذه المعاملات القاسية بذاكرته حتى سنى شيخوخته، وكثيرًا ما كان يتذكر أسباب الفقر والبؤس التى عايشها مع والديه، وطموح والده للسعى إلى عمل آخر غير الفلاحة، وعمل أمّه الدعوب فى حمل الحطب والخشب على ظهرها، الأمر الذى لم تكن تؤديه سيدات أسر الطبقة الوسطى. ويروى فى شيء من الدعابة أن أمه جلده وهو طفل صغير من أجل بندقة صغيرة جدًا حتى سالت دماؤه، وأن هذه القسوة رافقته فى سنوات حياته المدرسية، ويذكر أنه قد ضُرب خمس عشرة مرة من مُدرسيه فى يوم واحد^(١).

ولما كان مارتن لوتر الابن الأكبر للأسرة لزم عليه أن يدرس الحقوق تلبية لرغبة والده، والتى نجح فيها حتى أنهى فى مجالها رسالة الدكتوراة، التى كان يمثل الحصول عليها فى هذا العصر ميزة اقتصرت على طبقة النبلاء، والتى استطاع بها أن يرفع من شأن أسرته اجتماعيًا. عاش لوتر فترة من حياته عند عمّة له، هى السيدة أورزولا فون جوتا Ursula von Gotah، وعائلتها التى كانت فى نظر لوتر من أكثر العائلات ورعًا فى المدينة، حيث وفرت له، من منظوره، لارتفاع مستواها الاجتماعى والاقتصادى، حياة مشرقة غرست فى نفسه الاستقامة والصدق والتزود بالكثير من المعارف اللاهوتية. ويتسنى للوتر أثناء إقامته مع هذه الأسرة الالتحاق بمدرسة أفضل. ويلقى لوتر عند هذه السيدة لأول مرة عناية وحبًا وودًا، مكنه من أن يقيم علاقات طيبة مع الآخرين من أقرانه، كانت ذات أهمية كبرى فى حياته مستقبلاً^(٢).

يلتحق لوتر بجامعة إيرفورت Universität Erfurt فى السابعة عشرة من عمره، لينضم إلى ألفين من الطلاب الذين يدرسون بالجامعة، وليقيم فى أروقة إحدى البورصات، التى أعدتها الجامعة لسكنى طلابها، وهى ما تمثل - من وجهة

(١) حنا جرجس الخضرى: المصلح مارتن لوتر - حياته وتعليمه ص ١٤ وما بعدها، قارن: Schreckenbach, Paul/ Neubert, Franz: ein Bild seines Lebens und Werks, mit 384 Abbildungen, vorwiegend nach alten Quellen, Leipzig, 1916, S. 2
(٢) قارن: Schreckenbach Paul/ Neubert, Franz, a.a.O. S.2

نظرنا- أروقة الأزهر، التي كان يسكنها طلاب من أجناس مختلفة، وكانت هذه المساكن الطلابية تحت رقابة صارمة من إدارة الجامعة، ولا يحق للطلاب القبول بها إلا بعد اجتياز اختبارات عديدة علمية وسلوكية، ومنها أن يخلد الطلاب للنوم في الثامنة مساءً، والاستيقاظ في الرابعة صباحًا، ويحظر على الطلاب الذهاب إلى الحانات العامة سواء بالليل أو بالنهار، وكذلك عدم ارتياد الأماكن السيئة والمريية، أو السير في الشوارع بثوب من قطعتين أو بلباس قصير، كما يحظر عليهم التحدث بالألمانية، لأن لغة التعليم بالجامعة هي اللاتينية، ولا يسمح لهم بقراءة كل ما يحبونه ولا مفر من الموافقة على أى كتاب يرغبون قراءته من إدارة الجامعة، كما لا يسمح لهم بالخروج أو الأكل أو النوم حسبما يريدون، وعليهم أولاً وأخيراً مراعاة هذه التعليمات بدقة متناهية لأن عدم مراعاتها يعنى الطرد من السكن وانتهاء الدراسة.^(١)

وينتظم مارتن لوتر وفق هذا النظام الصارم، ويلتحق بكلية الفنانين Artistenfakultät، ليجتاز بنجاح الدراسات الأساسية في هذه الكلية، وعلى رأسها الفنون السبعة المتمثلة في: القواعد Grammatik، الجدل والبلاغة Rhetorik، الحساب والمنطق Mathematik Logik، الرياضيات Arithmetik، الهندسة Geometrie، الموسيقى Musik، الفلك Astronomie. لهذا كانت جامعة إيرفورت إحدى أكبر المعاهد العليا في ألمانيا آنذاك، يتلقى طلابها العلم في أروقتها على أيدي كبار العلماء المتخصصين في علوم الفلسفة الكلاسيكية وعلوم الإنسانيات، وكانت فترة الدراسة الجامعية بالنسبة له فترة متميزة وممتعة، فقد كان ذكياً ومُجدِّاً، وتخرج منها بنجاح باهر بعد أن أصبح له الكثير من الأصدقاء يتسامر ويتناقش معهم.^(٢)

(١) قارن:

Landgraf, Wolfgang: Martin Luther, Reformator und Rebell, Berlin, 1981, S. 26

(٢) كانت تمثل الفلسفة المدرسية منذ القرن الثالث عشر الريادة التي تأسس عليها لاهوت الكنيسة الكاثوليكية في الغرب بدعم من الفلسفة الأرسطوطالية التي حاولت أن توازن بين الاعتقاد الكنسي المستند إلى التصوف والزهد في الدنيا وبين الفكر العقلاني وصلته بالمعارف الطبيعية العقلانية في هذا العالم، ونشأ نظام كنسي مستقل في إطار فلسفة شاملة تربط بين الله والعالم وكانت تعاليم أرسطو بمثابة وحى غير قابل للتغيير وسرعان=

ومع بداية القرن الرابع عشر وحتى السادس عشر عاش تاريخ الكنيسة أزمة كنسية خلال الفترة التي سبقت فترة ما قبل الإصلاح، أو ما يسمى بعصر النهضة، وهي الفترة التي استهدفت تحقيق ثقافة لاهوتية متحررة؛ كان عصر انتقال وتحول، فتطورت المدن ونشأت دول قومية في أوروبا، مما أضعف من مكانة وموقع القيصر، وإمبراطور الغرب المسيحي، وبالتالي موقع ومكانة البابوية، وتحول الاقتصاد من التبادل العيني إلى الاقتصاد المعتمد على النقد، واعتري الحياة الكنسية تدهور وضعف أخلاقي، وكانت سلطة الكنيسة والبابوية سلطة مركزية تهيمن على كل رجال الإكليروس (اللاهوت)، الذين تضخمت ثرواتهم من خلال إيرادات صكوك الغفران، التي لعبت دورًا حاسمًا في تطور فكر لوتر.

واستطاع أحد تلاميذ دون سكوتس Don Scotus، الذي يدعى وليام الأوكامي William von Okam أن ينشئ اتجاهًا لاهوتيًا جديدًا يدحض به وبكل قوة الفلسفة المدرسية^(١).

فبينما كانت تمثل هذه الفلسفة اتحادًا وانسجامًا تامًا بين الفلسفة واللاهوت، أي بين العقيدة والعلم، يجيء الأوكاميون والمجددون منهم باتجاه جديد، وهو الفصل الحاسم بين العقيدة والعلم، واستندوا في رأيهم هذا إلى أن العقل لا يستطيع أن تتأسس عليه العقيدة، لأن تاصيل ذلك يرجع أولاً وأخيرًا إلى الوحي وسلطة

= ما انتقد أهل اللاهوت الكاثوليكي نظام الفلسفة المدرسية مما أدى إلى انقسام رواد هذه المدرسة إلى مدرستين كبيرتين: مدرسة التوماويين نسبة إلى توماس فون أكوين، ومدرسة السكوتسيين نسبة إلى دونس سكوتس. قارن:

Schreckenbach/ Neubert: Martin Luther, a.a.O., S.3

(١) وليم الأوكامي (١٢٨٥-١٣٤٩) عالم وفيلسوف إنجليزي فرنسيسكاني المذهب، تأثر المصلح مارتن لوتر بأرائه فيما بعد، منها: أن الباباوات والمجالس الكنسية يمكن أن تخطئ، وكذلك الفصل بين العقيدة والعلم وبين العقل والوحي، وأمكن بذلك الحصول على معارف جديدة وجيدة في العلوم الطبيعية دون خرق لعقيدة الكنيسة من منظور أنها حقائق أكيدة يجب الإيمان بها وأنه من غير الممكن أن تعلل أسرار العقيدة عن طريق العقل، رغمًا عن أن الإنسان عند لوتر غير حر من خلال ميراث الخطيئة، وأن خلاصه لا يتحقق إلا عن طريق نعمة الله ورحمته.

الكنيسة.^(١) ولعله من المفيد في هذا الشأن أن نشير إلى الرواية التاريخية للأديب والفيلسوف وعالم اللغة الإيطالي "أمبرتو إيكو" Umberto Eco "اسم الورد" Der Name der Rose، والتي ترجمت إلى الألمانية عام ١٩٨٢، متضمنة وصفًا عبقرًا ومشوقًا بكافة التعبيرات لسمات هذا العصر، حتى أن هذه الرواية تم إخراجها في فيلم بنفس العنوان^(٢).

وقد قاد هذا الاتجاه الجديد إلى وجود كنيستين: بابوية روما، وبابوية إيفينيون Papstum zu Avignon^(٣)، وهو الانقسام الذي كان بداية لحركة من حركات الإصلاح، حمل لواءها في إنجلترا جون وكليف John Wyclif، وفي بوهيميا يان هوس Jan Hus. كان وكليف راهبًا وطنيًا انتقد سوء استخدام السلطة البابوية، وطالبها أن تمارس اللاهوت المسيحي من خلال الكتاب المقدس. كان ذلك بداية لنشأة نظائر عديدة لما قام به لوتر فيما بعد، وهذا يعني أنه نتيجة لما قام به وكليف ابتعدت الكنيسة ابتعادًا كبيرًا عن الإنجيل، وطالب وكليف بالعودة إليه والعمل على ترجمة "طبعة الفولجاتا" إلى لغة أهله، الإنجليزية، وكانت آراؤه معادية للبابوية والسلطة الكنسية الهيرارشية (التراتبية)، وضد نظرية التناول، والعشاء الرباني في الكنيسة الكاثوليكية، بشأن قضية التحول الحقيقي للخبز إلى جسد المسيح، وكذلك التصدي إلى تقديس صور القديسين وصكوك الغفران وغيرها، وتم شجب هذه التعاليم الوكليفية من قبل الكنيسة^(٤).

أما في بوهيميا Böhmen فيواصل الراهب يان هوس Jan Hus تعليمات سلفه جون وكليف John Wyclif في شأن الحركة الإصلاحية. وفي مجمع كونستانس Konzil von Konstanz عام ١٤١٥ تُصدر الكنيسة الكاثوليكية

(١) قارن:

Landgraf, Wolfgang: Martin Luther, a.a.O., S. 27f

(٢) قارن:

Umberto Eco „Der Name der Rose“ Aus dem italienischen ins Deutsche von Burkhardt Kroeber übersetzt- Titel des Originals: Il ame della rosa, Milano 1980-Stuttgart. Hamburg. München (1982)؛

(٣) فترة الشقاق داخل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الذي تمخض عنه تنصيب مقرين للبابوية في الفترة من ١٣٧٨ إلى ١٤١٥ أحدهم في مدينة روما بإيطاليا والثاني في مدينة أفينيون Avignon بفرنسا. (المؤلف)

(٤) قارن:

de.wikipedia.org/wiki/John_Wyclif

مرسومًا بكفره وزندقته وموته حرقًا، بعد أن رفض الرجوع عن آرائه.^(١) وحاولت الدول القومية الناشئة مثل إنجلترا وفرنسا أن تدير كنائسها من ذاتها، لتحمي نفسها من استغلال ونهب وسيطرة روما على أموالها. وعلى النقيض من ذلك كان الوضع في ألمانيا الضعيفة والعاجزة، نظرًا للشتات والتشرذم الذي يعيشه نبلاؤها وأمرؤها. ورغمًا عن هذا فقد ساعدت الظروف الكنسية والسياسية في تحاشي دفع الضرائب المرتفعة التي تفرضها الكنيسة عليها.^(٢)

في القرنين الرابع والخامس عشر ينشأ في إيطاليا تيار فكري جديد سُمي بعصر النهضة Renaissance، والذي تضمن رؤية إيجابية للعالم مخالفة لوجهة نظر المسيحية، التي رآها البعض سلبية في تفسير الأمور الدنيوية، والتي اعتبرت أن الفرح والمتعة في الدنيا من الأعمال غير المسيحية، وبهذا قاد الاتجاه الفكري الجديد الناس إلى الإقبال على العالم والتمتع بالنواحي الجمالية فيه، وتطوير بناء شخصية الإنسان، واستدلوا على ذلك بالتراث الأدبي والفني القديم لليونان والرومان، واعتبروا تراث شعرائهم وفنانينهم في القرن الخامس عشر تراثًا عامًا للطبقات العليا في المجتمع الإيطالي. ومن هنا بدأ حصار الفلسفة المدرسية وعدم الأخذ بها، وتركزت الحركة الفكرية لهذا في ألمانيا على دعم الجانب النظري، تلاها الاهتمام بالفن، والعمل على تحسين الأحوال الكنسية، وكان على رأسهم راعي الإنسانيات الألماني يوهان رويشلين Johannes Reuchlin، والذي يعتبر من أوائل الألمان المجيدين للغة العبرية، والذي حاول أن يحافظ على اللاهوت

(١) قارن: www.koenigsfeld.org/m_hus.html

(٢) قارن النص في مصدره الأصلي:

Die Abhandlung Erasmus "Über den Freien Willen" erschien im Jahre 1524. Dagegen schrieb Luther "Über den Unfreien Willen Erasmus wollte mit Stellen der heiligen Schrift beweisen, dass die Mitwirkung des menschlichen Willens unerlässlich sei, wenn der Mensch selig werden sollen, dass er deshalb auch eine Freiheit des Willens haben müsse. Luther will dagegen benfalls aus der Schrift erweisen, dass der Mensch zu seinem Seligwerden gar nichts beitragen könne, dass alles Gute in ihm nur durch Gottes Geistbewirkt werde und dass er also nur durch Gottes Gnade ohne alle seine Mitwirkung zur Seligkeit gelangt. Schreckenbach, S.31 f.

والأدب اليهودي المضطهد آنذاك من الكنيسة الكاثوليكية التي عملت على إدانته وحرقه. كما كان على رأس هؤلاء الإنسانيين المصلح إيرازموس فون روتاردام Erasmus vom Rotterdam في القرن السادس عشر، والذي اتجهت أراؤه اللاهوتية لخلق مسيحية إنسانية تلتزم بضرورة الإصلاحات الكنسية، ورغم هجائه ونقضه الكثير للكنيسة إلا أن معظم الدوائر الكنسية اعترفت به وبآرائه. وينسحب هذا أيضا على كثير من الأمراء، الذين وضعوه في مرتبة عالية ودفعوا له مبالغ مجزية. وكان له سجل طويل مع مارتن لوتر في موضوع حرية الإرادة.^(١)

يحصل لوتر على درجة البكالوريوس في خريف ١٥٠٢ مع ست وخمسين من أقرانه المتقدمين للامتحان وذلك بدعم من والده ماديا وروحيا. ويروي بعض مؤرخي سيرة مارتن لوتر أن والده رق قلبه المتحجر نحو ابنه وزاره في دير إيرفورت وبصحبه عشرون من الفرسان، وتبرع للدير بمبلغ عشرين جولدن Gulden احتفاء وابتهاجا بترسيم ابنه مارتن لمنصب القس^(٢). فرغم انتشار الطاعون الأسود في مدينة إيرفورت وما حولها ينتهي لوتر في يناير ١٥٠٥ من الدراسة بكلية الفنانين، ويحصل على درجة الماجستير، ويواصل إلقاء محاضرات في علوم القانون بنفس الجامعة. وفي الثاني من شهر يوليو عام ١٥٠٥ يتعرض مارتن لوتر لحدث أثناء رحلة عودته من بيت الأسرة في مدينة مانسفيلد إلى مدينة إيرفورت Erfurt، وذلك بعد نقاش حاد مع والده فيما يخص مستقبله الدراسي الذي يريده له. وفجأة يترأى أمام ناظره أثناء سيره على الأقدام أبراج كنيسة بلدة شتوتتر هايم Stotterheim؛ تغضب الطبيعة وتتلبد السماء بالغيوم وتقع الواقعة لتصفعه صاعقة من البرق والرعد وتلقى به طريحا على الأرض مغشيا عليه فاقد الوعي طالبا عون ونجدة القديسة "أنا" Sant Anna ناذرا نفسه أن يصبح راهبا. وقد تأثر لوتر أثناء إقامته بالدير الأوغسطيني بأقوال المتصوف يوهانس تاوولر Johannes Tauler، أحد رهبان الدومينيكان، وهم الرهبان الذين تم طردهم من

(١) قارن: Landgraf ص ٢٧٣ وما بعدها

(٢) قارن: S.4، Schreckenbach/ Neubert: Martin Luther. a.a.O: ، قارن أيضا Landgraf، S.48

ستراسبورج Strassburg عام ١٣٣٩ لوقوفهم مع البابا يوهانس الثاني والعشرين Johannes XXII ضد القيصر لودفيج البافاري Ludwig von Bayern. وهو الأمر الذى أعطى لوتر أملاً كبيراً فى أن يجتاز الهوة الكبيرة بين روح تنزع بطبيعتها إلى الخطيئة، وبين إله مقسط قادر على كل شيء.^(١) ويعيش مارتن لوتر حياة الرهبنة الخشنة والصارمة والورع حتى أنه يروى عنه ما ذكره عن حياته فى هذه الفترة أنه كان راهباً ورعاً، يراعى أحكام الطائفة التى ينتمى إليها بشدة إلى حد أنه قال ما نصه:

"إذا قدر لراهب أن يدخل الجنة عن طريق الرهبنة فإنى أدخلها لا محالة... ولو أن هذا الأمر طال أكثر من هذا لكنت عذبت نفسى حتى الموت بالسهرة والصلاة والقراءة وغيرها من الأعمال."^(٢)

و قد تناولت الأبحاث هذا الحدث تناولاً واسعاً، وبعد تلقى لوتر صدمة البرق والرعد، قرر الانخراط فى سلك الرهبان والدخول إلى الدير وكان من العادة آنذاك أن مثل هذا النذر يعتبر من منطلق خوف شديد لا يكون ملزماً لصاحبه إلزاماً نهائياً، وهذا يعنى أنه لم تكن هناك ضرورة حتمية لتنفيذ هذا النذر، كما يروى أنه قبل تعرضه لحادث البرق هذا كان يعيش فى صراع روحى مستمر، مما أدى بالبعض إلى تفسيره بأن الله سوف يختاره لمهمة خاصة فيما بعد.

كان دخول لوتر الدير سبباً فى غضب والده وحنقه، و انتظم بداخله حتى نُصِّب فى سن الرابعة والعشرين فى مايو ١٥٠٧ قسيساً، وكان والده لا يزال غاضباً عليه، إلا أنه رضى عنه بعد فترة غير طويلة - كما عرضنا لهذا فى موضعه. فى نفس الوقت الذى كان يعاني فيه لوتر من شظف العيش، يرد إليه نبأ هروب صديقه، الراهب أولرش فون هوتن Ulrich von Hütten من دير مدينة

(١) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، جزء ٣، مجلد ٦، الإصلاح الدينى، ترجمه عن الإنجليزية د. عبد الحميد يونس، مراجعة: على ادحم، اصدار: إدارة الثقافة، جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧١، ص ١٣.

(٢) قارن: المرجع السابق، ص ١٢.

فولدا Fulda ليلتحق بجامعة كولونيا وهو فى سن السابعة عشر من عمره ليصبح من كبار علماء الإصلاح المدعمين لحركة مارتن لوتر وتوجهاته فيما بعد^(١).

ويرى المؤرخون لسيرة لوتر أن هذه السنوات الأولى التى قضاها بالدير كانت مشوبة بصراعه الفكرى تجاه العقيدة المسيحية ومحتواه^(٢).

وتتتاب لوتر الكآبة والتفكير العميق أثناء إقامته بالدير، مما جعله يحس إحساسًا جادًا بالواجب المنوط به، فهو كقسيس كان يشعر بخوف كبير من أن يؤدي الصلاة بطريقة خاطئة، أو فى تقديمه الأضحية للإله الخالد^(٣).

وكان لوتر يرى دائمًا أنه خطأ كبير، وكثيرًا ما طرح على نفسه هذا السؤال: "متى يحين الوقت لأن أكون تقيا وأن أفعل ما فيه الكفاية كي أصل إلى هذه التقوى، وحتى يحيطنى الله الرحيم برحمته؟"^(٤)

لم يكن بالطبع نيل رحمة الله وغفرانه مرتبطًا بكم الأعمال الصالحة والإنجازات التقية، وإنما ارتبط ذلك بإيمان الإنسان بالدرجة الأولى، لأن رحمة الله ومغفرته هبة ومنحة منه. هذا التأصيل لم يكن للوتر كراهب فى الدير أن يدركه ويقره بعد، وهذا ما قاده إلى التفكير العميق فى أخطائه وذنوبه الشخصية، والشك فى عدم نيّله هذه المغفرة، وقاده أيضًا إلى الزهد والتقصّف والتعذيب الذاتى من

(١) قارن:

Landgraf: Martin Luther, a.a.O., S. 36f

(٢) من تقاليد الكنيسة أن للبابا فقط ولمجامعه الكنسية المدعوة من قبله، سلطة تأويل وتفسير الكتاب المقدس ونصوصه دون غيرهم.

(٣) كانت شعائر الأضحية والمتعلقة بيسوع المسيح فى الصلاة، أن فى كل صلاة كاثوليكية يتم فيها الاحتفال بالعشاء الربانى المقدس الذى يلقب بمبدأ التناول بهدف غفران ذنوب المؤمنين، لأن المسيحية، من منطلق وجهة نظرهم، تعيش فى عالم ملئ بالشرور، وهو الأمر الذى يمثل الخطيئة المركزية الموروثة عند البشر أمام الرب، والتأكيد على أن عذاب المسيح إنما هو تكفير عن طبيعة الإنسان الخاطئة. وأنه بذلك يكون قد فتح للتائبين أبواب الجنة.

(٤) قارن النص الألمانى:

„O... wann willst du einmal fromm werden um Genugtuung, daß du einen genädigen Gott kriegest?“ (Schreckenbach & Neubert, a.a.O., S. 4)

خلال الصوم عن الأكل والشرب والتعرض للبرد الشديد والصلوات والابتهاال دون توقف، كما كان يفعل أسلافه الأتقياء من قبل، وضعف جسده ووهنت صحته، حتى ساوره الظن بأن الله قد صب عليه جام غضبه ولعنته إلى الأبد. وكثيراً ما كان يعبر عن هذه الفترة من حياته بأنها معاناة جهنمية قادته لآلام مبرحة، جعلته لا يفرق بين الله والشيطان.^(١) ولهذا لم يكن من المستغرب أن يتهمه بعض رفاقه من الرهبان بالجنون، أو بمس شيطاني لروحه. يواصل لوتر استسلامه لقسوة الحياة بالدير الأوجستيني والالتزام بالطاعة التامة. ويروى أنه أنطرح على الأرض، كمن مسه شيطان مارد، أمام لوحة للعشاء الرباني، موضوعة على قبر الراهب يوهانس زخارى Johannes Zachria، ثم يستفسر من معلمه ورئيسه المباشر بالدير، الراهب يوهان فون جريفين شتاين Johann von Greffenstein، والذي هدأ من روعه وأخبره أن صاحب هذا القبر هو الراهب الذي حكم بهرطقة يان هوس وحرّقه في مجمع كونستانس برئاسة البابا يوحنا الثالث عشر Johannes XIII عام ١٤١٥، و يعيش لوتر بعد هذا الحدث في عزلة مميّنة وارثباك لا حدود لهما، ويصف حاله:

"الخوف دفعني لليأس والقنوط،

إذ لم يتبق شيء يمكن الطموح فيه أو النزوع إليه،

حتى أيقنت أن الضرورة تحتم علي أن أسقط في الجحيم."^(٢)

ويعبر مارتن لوتر عن يأسه واضطرابه الروحي ويتساءل: "تري لماذا أحرق رجل استطاع أن يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة؟"^(٣)

(١) قارن :

Landgraf، a.a.O.، S. 46f

(٢) قارن النص الألماني: المرجع السابق ص ٤٧.

(٣) قارن، ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٣، مجلد ٦، ص ١٣.

ويحاول البعض الآخر إرجاع ذلك الارتباك والعزلة إلى ما جاء بالكتاب المقدس، الذى أقرت نصوصه برحمة الله للإنسان. وحاول رئيسه الأعلى داخل الدير، والذى كان بمثابة والده، الراهب الدكتور يوهان فون شتاوبتس Johann von Staupitz، أن يعلمه تلك الدروس فى مودة غامرة، وساعده فى أن يخرج من هذه الوعكة الفكرية سليماً معافى/ كما أكد له فى تعليماته هذه المتمثلة فى أعمال يسوع المسيح فى تقبله لأخطاء وذنوب الإنسان، وتحمله واجب الخلاص القاضى بالعدل للجميع فى الإيمان بالله، ومن منظور أن الإنسان البار بالإيمان يحيا، فلكل امرئ إله رحيم غفور، لا يعتد بأعمال المرء، وإنما بأعمال المسيح، وقد وجد لوتر هذا المضمون فى أقوال القديس بولس الرسول والقديس أوغسطين، فأمن بها ووجد فيها العزاء والسلوى عن صراعه الداخلي، وأصبحت تمثل لديه بعد ذلك الفكرة المركزية فى تعليماته المسيحية التى تستند إلى قوة كلمة الله.^(١)

يذكر لوتر فيما بعد ذلك الحنو والرعاية الأبوية التى تلقاها على يد معلمه شتاوبتس، واعتبر أنه وُلد من جديد فى روح المسيح، ويكون شتاوبتس بذلك هو المؤصل والمبدع الأول لأفكار أحداث الإصلاح، والذى استشعر هذه الأزمة الفكرية والتأملية عند لوتر، مما جعله يُصدر قراراً بنقله هو وستة من أقرانه من الدير للعمل محاضراً لعلوم اللاهوت المسيحى بجامعة فيتنبرج الناشئة، ذات الموارد المالية المحدودة، ومن منطلق عدم دفع رواتب من قبل الجامعة لهم كرهبان كما هو متبع. ويصف مارتن لوتر مدينته على أنها مدينة تعيش على حافة المدنية والبداءة، وكان يُدرّس بها اثنان وعشرون أستاذاً، منهم اثنا عشر من علماء اللاهوت. و كان لزاماً على لوتر أن يلقي محاضرات فى فلسفة أرسطو عن الأسس الفلسفية التى تأسس عليها اللاهوت المدرسى، وكان يرى فى فلسفة أرسطو رداءة وفقراً. واشتهر لوتر كواعظ مٌقوّه من خلال عظاته وإقامة الشعائر والصلوات بكنيسة الجامعة وغيرها من الكنائس الأخرى^(٢).

(١) قارن: المرجع السابق، ص ١٣.

(٢) قارن:

Landgraf، Wolfgang a.a.O وما بعدها ، وقارن أيضاً، Schreckenbach، a.a.O.، S. 5 ص ٥٣

٢.١ مارتن لوتر فى إيطاليا

اصطحب لوتر فى أكتوبر ١٥١٠ صديقاً له من بين رهبان الدير الأوغسطينى بمدينة كولونيا، يدعى الدكتور ناتين Nathen- ويذكر الباحث لاندجراف Landgraf، أن هذا الراهب كان يدعى يوهان ميشيلن Johann Mecheln- فى رحلة شاقة وقاسية على الأقدام، بداية من فيتتبرج Wittenberg، ومروراً بمدن هالى Halle ، أولم Ulm ، كوموا Comoa، فلورنس Floranz، بولونيا Bologna، ونهاية بالعاصمة المقدسة روما Rom. وكانت هذه الرحلة تمثل مهمة رسمية لهذين الراهبين من رئاسة الدير الأوجسطينى، وبهدف لقاء البابا وعرض بعض قضايا الخلاف الخاصة بالدير.

وكانت إيطاليا آنذاك تمثل أرض الشمس والنور، وأرض النهضة، وأرض الفن والثقافة والجمال والمتعة. وكم كانت صدمة لوتر حينما شاهد هناك جشع وعبث وحمق رجال الإكليروس، كباراً وصغاراً، وهذا يعنى كافة أنواع التدهور والسقوط الخلقى للحياة التى يحيها الأساقفة، وحتى القساوسة البسطاء كانوا يتمتعون بحياة مادية وفساد ومجون جنسي، رغم زعمهم أن كافة رجال الإكليروس، من كافة الرتب، محرم عليهم الزواج منذ القرن العاشر، مثلهم فى ذلك مثل الرهبان، وهذا يعنى أنه محرم عليهم ممارسة أى علاقات جنسية. وشاع المثل السائد الذى كان يتغنى به كرادلة روما " أن عاهرات المتعة الجنسية أشد نفعاً من أتقى الراهبات^(١)". وقد أدى هذا إلى أن يحكم لوتر من واقع خبرته على هذا الفساد فى إيطاليا بقوله " كم هو شعب مارق فاسق، ولم يكن يخطر بظنى أن بلاط

(١) قارن النص فى مصدره الأصلي:

„Freudenmädchen seien die Welt nützlicher als die frömmsten Nonnen...“

Schreckenbach, Paul / Neubert, Franz : Martin Luther. Ein Bild seines Lebens und Wirkens, Leipzig. 1916, S.5

قارن أيضاً: جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠، سلسلة إقرأ رقم ٥٥٧، ص ١٩ وما بعدها.

البابوية بهذه الدرجة من الفسق والفجور، وما كان لى أن أصدق ما يحدث لولا أننى رأيته بنفسى، إنها جهنم التى بنيت من فوقها مدينة روما...^(١)

وأرجع لوثر هذا الفساد المستشرى إلى طبيعة الشعب الإيطالى، بل وحمله مسئولية ذلك، ووصفه بعدم الوفاء ونزوعه الدائم للانتقام والخيانة وسوء الظن حتى تجاه نفسه، وأن الإيطاليين بمثابة طعنة خنجر من الخلف فى جسم الكنيسة. وقد كانوا يستخفون بكل أمر حتى فى الأمور المقدسة، وكان يعنى بذلك أن رجال اللاهوت الإيطاليين متكبرون وثرثارون، وليس لديهم ما هو مقدس، وكانوا ينظرون فى غل إلى غيرهم من الأمم الأخرى، خاصة الأمة الألمانية وبشئ من الازدراء والاحتقار، وكان لذلك أثره فى إيقاظ الشعور الوطنى الألمانى لديه، ويبدأ بعد ذلك فى تكوين أفكار عن بنية هذا اللاهوت الذى رآه فى روما ودراسة ظواهر هذا التدهور فيه، ورغم العديد من السلبيات التى عايشها ورآها فى رحلته إلى روما فإنه عاد مخلصاً لكنيستته إلى فينتنبرج.^(٢) ووجد مارتن لوثر مع بداية عام ١٥٢٠ دعماً معنوياً غير متوقع من النبيل أولرش فون هوتن وفرانتس فون سيكنجن Franz von Sickingen وشعورهما المتأجج بحب وطنهما ألمانيا ضد هذا الفساد المستشرى فى إيطاليا وفى روما، بل وطبعهما آلاف المنشورات التى تدعم ذلك، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قول أولرش فون هوتن:

"ثلاثة أشياء تباع فى روما: المسيح، والقسوسة، والنساء. وثلاثة أشياء منبوذة فى روما: المجمع المسكونى العام، والإصلاح الكنسى، وأن يعى الألمان ما يدور حولهم. وأتمنى لروما ثلاثة أشياء سيئة: الطاعون، والمجاعة، والحرب. هذه هى عقيدة التثليث التى وقرت فى قلبى."^(٣)

(١) قارن:

Meisner, Michael, a.a.O, ص ٢٥

„Welch ein greulich Volk ist das Gewesen. Ich hätte nicht geglaubt, dass das Papsttum so eine großer Greuel sei, wenn ich den römischen Hof nicht selbst gesehen hätte. Ist eine Hölle, so ist Rom darauf gebaut, habe ich selbst in Rom gehört.“ S. 25

(٢) قارن: Schreckenbach, a.a.O, S. 5

(٣) قارن النص فى مصدره الأصلى:

"Drei Dinge werden verkauft in Rom: Christus, Priestertum, Frauen. Drei Dinge Sind verhaßt Rom: ein allgemeines Konzil, eine Reformation der Kirche und daß den Deutschen die Augen geöffnet werden. Drei Übel erbitte ich für Rom: Pestilenz, Hunger und Krieg. Das sei meine Trinität." (المرجع السابق ص ٥٩)

ومن خلال موقعه في فيتنبرج، تصحبه مواهبه وتقواه وتشجيع أستاذه شتاوبتس له داخل الدير والجامعة، حصل مارتن لوتر على درجة الدكتوراة في عام ١٥١٢ على يد عميد الكلية وأستاذه، كارل شتيت Karlstadt. وبهذا أصبح لوتر واعظاً كبيراً وأستاذاً للكتاب المقدس، وهذا مما حدا بأمر ولاية ساكسونيا، النبيل فريدريش الحكيم Kurfürst von Sachsen Friedrich der Weise، بعد سماعه هذا الإطراء المتعلق بلوتر من رؤسائه شتاوبتس وشبلاتين، واللذين كانا يعملان كمستشارين وقساوسة في بلاط الأمير، أن يسدد الأمير نفقات مناقشة رسالة الدكتوراة^(١)، وأسند إلى لوتر منصب الأستاذية الذي كان يتولاه رئيسه شتاوبتس، وأخذ يلقي المحاضرات عن الأنجيل بداية من مزامير العهد القديم ورسائل القديس بولس المتعلقة بالعهد الجديد، وعلم التشريعات الذي وجده عند القديس بولس Sankt Paulus في رسالته إلى أهل روما "أن البار بالإيمان يحيا"^(٢)، مما حدا بلوتر أن يعبر عن اكتشافه لهذه العبارة، التي وجد فيها ضالته أثناء صعوده السلم المقدس بمقر الكنيسة البابوية في روما، وأنه سعد بكافة نصوص الكتاب المقدس، التي فتحت له أبواب السماء. وانتابه الشعور بأن الله يدعو بكل قوة للعمل والدفاع عن الكتاب المقدس،^(٣) والمحافظة على فكره الحقيقي من التأويلات الخاطئة والضعيفة التي عمت وتفشيت في تعاليم الكنيسة، فقام بتغيير جذرى في تدريس اللاهوت بجامعة فيتنبرج، فبدلاً من تدريس الفلسفة التي قال بها توماس الأكويني، وبطرس لومباردوس وأرسطو Petrus Lombardius، Thomas von Aquin und Aristotalis، والتي اعتبرت بمثابة تاج الحكمة آنذاك، قام بتغيير جذرى بوقف تعليمها من قبل لوتر، على أن يحل محلها تعليم نصوص الكتاب المقدس،

(١) قارن: Landgraf، a.a.O.، S.78، الذى يذكر أن أمير سكسونيا دفع مبلغ خمسين جولدن تحت شرط أن يضطلع مارتن لوتر بوظيفة محاضر عن نصوص الكتاب المقدس.

(٢) قارن النص الأصلي:

"Der Gerechte wird seines Glaubens aeben" (Schreckenbach، a. a. O.، S.5)

(٣) قارن: أ. موريسون: حياة لوتر، ترجمة: القس باقى صدقة، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٣ وما بعدها.

المنبع الأول للحقيقة والمصدر الأساسى للاهوت، ونهج قويم لعالم اللاهوت الكبير القديس أوغسطين وتعاليمه الكنسية التى سادت فى القرن الخامس عشر^(١).

إن نظرية التبرير بالإيمان التى وقّرت فى قلب لوثر بأنها من أفضل المسيح وهباته، تجعل أعمال الرهبان محل تساؤل، فليس هناك من يلقى التبرير والمغفرة من منطلق تقواه وأعماله الحسنة، وإنما يكون حصول الإنسان على هذه الرحمة والمغفرة ليس من خلال حسنات أعماله، وإنما فقط من خلال إيمانه المطلق بالله، لأن الله يهبها من رحمته ويعطيها للإنسان من خلال أعمال المسيح. وأحس لوثر بمسئوليته تجاه كل الرهبان الذين يعملون تحت رئاسته، مما حدا به إلى نقد نظامه الداخلى المتواصل للكنيسة، واعتبر أنه من خلال هذا النقد يمكن الإصلاح والوصول إلى الأحسن، لأنه هدف أولاً وأخيراً إلى مقاومة سوء الاستخدام الكنسي^(٢)، وهو الذى دفعه عام ١٥١٧ لتعليق حججه الخمس والتسعين على باب كنيسة القصر بمدينة فيتتبرج، وفقّ عادات هذا الزمان، لتكون موضوعاً للمناقشة الأكاديمية وتحدياً بين العلماء.^(٣)

(١) كانت تعاليم أرسطو تمثل بالنسبة للوتر جسد الشيطان، رغم أنها كانت تمثل حضارة العصر القديم، اليونانى والرومانى، والذى يمثل المرجع الأساسى لعلماء الإنسانيات القائلين بأن إرادة الإنسان هى أصل الأشياء، وهو الأمر الذى اعترض عليه لوثر، لأنه يرى أن العقل هو مقياس كل الأشياء، ولهذا تحولت توجهاته الفكرية بما كان يقول به المتصوفون الألمان، أمثال يوهانس تاوئر ومايستر اكهارت: "النور الداخلى الذى يفيض به الإله على المتصوف يقوده إلى معرفة الله". ولا شك بأن هذه التغيرات فى الدراسات اللاهوتية العامة جسدت نهضة وحركة مباركة فى مدينة فتنبرج وارتفعت أعداد طلاب الجامعة وذاع صيتها الإيجابى فى كل الفئات حتى أمير الولاية فريدريش الحكيم، وأخذت شهرة لوثر ترتفع ويكثر توجيه النقد إليه، وفى تقرير للوتر عام ١٥١٣ قدمه العالم اللاهوتى الشهير وأستاذ العبرية رويشلاين الذى نادى الكنيسة بإحراق كتبه التى ألفها عن اليهودية وعن التدهور الكبير الذى يعيشه رجال الإكليروس يقول إنه بدلا من أن يكونوا مربين أتقياء لهذا الشعب البسيط صاروا يعيشون فى ترف وبذخ دنيوى، ورغم نقده هذا اللاذع وموقفه من رجال اللاهوت فإنه انتخب فى عام ١٥١٥ كنائب لرئيس الدير الأوجستينى فأصبح بذلك تحت رئاسته أحد عشر ديراً.

(٢) قارن:

Schreckenbach، a.a.O. S. 7

(٣) مزيد من التفصيلات، أنظر:

Beintker Horst: Martin Luther- Die reformatorischen Grundschriften in 4Bd، Bd I، Gottes Werke und Menschen Werke، München، 1983.

ص ١٥ وما بعدها، قارن أيضاً، جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، ص ٢١ وما بعدها.

كان الباعث وراء تأليف هذه الحجج من قبل لوثر صكوك الغفران، التي تُصبُّ مواردها عند البابوية، والتي أصدرها بداية البابا يوليوس الثاني Julius II عام ١٥٠٦ من أجل التبرع بموجبها لبناء كنيسة القديس بطرس في روما، وحدد محتوى صدورها البابا ليو العاشر Leo X عام ١٥١٤، وهو الأمر الذي لقي نفورًا وإعراضًا في ألمانيا من منظور استغلالها ونهبها لأموالها لتذهب في جيوب الإيطاليين، وأرسل البابا مندوبيه في كل اتجاه من الوعاظ ورجال اللاهوت لجمع هذه الأموال من خلال فرض هذه الصكوك، واتبعوا في ذلك أساليب ووسائل رخيصة تدل على سوء سمعتهم، وقد استغل بعض كبار البطارقة منهم هذه الأموال في سداد ديونهم الكثيرة، والتي سبق لهم اقتراضها من بنوك الفوجر^(١) Fuggers ومؤسساتهم التجارية مثل البطريرك البرشت Albrecht، والذي كلف مندوبه القس يوهان تيتسل Johann Tetzel بجمع هذه الأموال على حدود سكسونيا بعد أن صدر قرار بمنعه دخول الولاية لهذا الغرض، وجاء يجمع المال في مدينة فيتنبرج.^(٢)

و كان لوثر من موقعه الوظيفي كقس على دراية بقضية صكوك الغفران هذه، التي قادتته إلى مناقشة جمهور الناس أنهم ليسوا في حاجة إلى هذه التوبة أو الندم على ما فعلوه، لأنهم سبق وأن دفعوا ما عليهم في هذا الشأن، ولكن الذي حدث هو أن مندوبي جمع الأموال بالغوا في الأمر ونادوا بأهمية منح صكوك

(١) أسرة من أصول نبيلة عاشت في مدينة أوجسبورج بمقاطعة بافاريا في القرن الخامس و السادس عشر، وهي من أول من مهد لعصر الرأسمالية المبكرة، وامتلكت ناصية التجارة العالمية وإقراض المال لكثير من المؤسسات، حتى مستوى البابا و القيصر. (المؤلف)
(٢) ذاعت شهرة مندوب البابا يوهان تيتسل من خلال قولته المشهورة أمام جمهور البسطاء من الناس "أنه في لحظة وضع النقود في الصندوق ويسمع رنينها، وتصعد روح صاحبها فورًا إلى السماء"
„Sobald der Pfennig ins Becken geworfen und klünglt ، sobald wäre die Seele dafür er gelegt“ im Himmel“

انظر:

Schreckenbach، Martin Luther، a.a. O.، S. 7

وصل به القول: إن الإنسان لو ارتكب الفاحشة مع العذراء المباركة نفسها فإن صك غفران البابا كفيل بأن يمنحه الغفران الكامل. "قارن، جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، ص ٢٢ وما بعدها.

الغفران لمن يدفع أكثر، اتقاء لدخول النار، لملايين من السنين مضت أو لملايين مثلها قادمة.

ويقف لوتر بكل قوة ضد هذا الهراء ويقدم حججه الخمس والتسعين، والتي تقول إن توبة الإنسان لا يمنحها أحد سوى السيد المسيح، ولا مكان لسلطة البابا في ذلك إلى يوم الحشر، بمعنى أن البابا ليس في استطاعته قبول التوبة أو غفران الذنوب ومحوها، لأن قبول التوبة يتم فقط من خلال "التناول"^(١)، وعلى يد قسيس الكنيسة، وكان ذلك بمثابة انطلاق شرارة الهجوم الأول على البابا والبابوية.

أما فيما يخص استغلال ونهب الأموال في ألمانيا، فقد لقيت هذه الحجج ترحابًا كبيرًا لدى الألمان وأيقظت شعورهم القومي، وقادت العديد من الأمراء والنبلاء وأتباعهم للوقوف إلى صف لوتر ويرسل كبير الأساقفة البرشت Albrecht هذه الحجج إلى روما، وتعم كثيرًا من الناس موجة من الخوف والهلع ناظرين إلى لوتر، كما لو كان واقفًا على كوم من الحطب يحترق، وهو الأمل الذي راود أعداءه أن يتحقق.^(٢)

وتصدر في مارس عام ١٥١٨ رسالة للدكتور يوهان إيك Johann Eck، يتهم فيها مارتن لوتر بنشر هرطقات يان هوس وسُمّه البوهيمي، كما يتهمه بنشاطه المتواصل في تقويض نظام الإكليروس بأكمله، ولكن لوتر لم يزعجه هذا الاتهام، ويحصل في منتصف عام ١٥١٨ أثناء انعقاد اجتماعات هايدلبرج وأوجسبورج على تأييد الكثيرين من جمهور الحضور، وعلى رأسهم مارتن بوسر Martin Bucer، أستاذ الجامعة. ويواصل لوتر تأليف العديد من المنشورات ضد تاجر

(١) أداء شعيرة تناول العشاء الأخير للسيد المسيح مع حواريه. (المؤلف)

(٢) كانت عقوبة من يتهم بالكفر هي الموت حرقًا والكافر هو صاحب الاعتقاد الخاطئ و المكتسب لروح الشيطان، والذي لا يملك فرصة دخول الجنة. ورغم نشوب الصراع الفكري و الديني في هذه الفترة فقد قوى الاعتقاد بقوة السحر والشعوذة والذي من جرائه تم إحراق ما يزيد عن ١٧٠٠ امرأة وبنت اتهمت بهذا الاعتقاد دون سبب يذكر وعلى رأسهن الفتاة "جان دارك" الشهيرة، ويحصى أن من عوقبوا بذلك يتجاوز بضعة آلاف من الضحايا، والذي يراه المؤرخون أنه نتج عن العلاقة بين الاعتقاد المسيحي السائد آنذاك والعلاقات الجنسية تجاه النساء.

(قارن Haussi, Karl: Kompendium der Kirchengeschichte, 16. Auflage, Tübingen

ص ٢٦٢ f. S. 262 ، 1981

صكوك الغفران تيتسل، كتبها باللاتينية والألمانية وضد مندوب البابا سلفستر بريرياس Sylvester Prierias، وتركت هذه المنشورات لدى الألمان أثراً كبيراً في إيقاظ شعورهم، حتى أن تيتسل نفسه شعر بعدم الأمان أثناء جولاته داخل ألمانيا وذلك من جراء سخرية لوثر منه. مما أدى بتيتسل أن يعبر عن حنقه وغضبه تجاه مارتن لوثر قائلاً: "لم يثر هذا الراهب الأوجسطيني عداوة أهل السلطة ضدى في البلاد الألمانية فقط ولكنه تجاوز ذلك إلى ممالك بولندا والمجر وبوهيميا، حتى أن أتباعه أقسموا على موتى، كان لزاماً على الحبيطة والحذر"^(١)

كان على لوثر أن يمتثل أمام محكمة الملحد في روما في منتصف عام ١٥١٨، إلا أن أمير سكسونيا فريدرش الحكيم كان قد كرس جهده لمنع ذلك، وطالب أن يُحاكم ويُسمع لوجهة نظره على الأرض الألمانية بمدينة أوجسبورج، وعلى يد مندوب البابا، الأسقف الكردينال كاجيتان Cajetan. ويمرض لوثر وتبدو عليه علامات الكآبة، ولكنه تماسك ولم يتراجع عن رأيه، بعد أن أصر مندوب البابا على أن سلطان البابا في تفسير نصوص الكتاب المقدس لا يصح المساس به، ولهذا فقد رفض النقاش معه في هذا الشأن. ويصمد لوثر أمام هذا التحدى وينتهى الاجتماع دون جدوى، ويشتد الصراع بين لوثر ومندوب البابا ويهرب لوثر من أوجسبورج، خاصة بعد علمه أن مندوب البابا تلقى رسالة من روما تأمره باعتقال لوثر وترحيله إلى روما، ويذهب الخوف عن لوثر ويخرج صراحة كل ما في صدره، مردداً أن البابا ما هو إلا بشر عادى يخطئ ويصيب، كما أخطأ من قبل بطرس الرسول.

ويؤكد هذه المقولة في رسالة مكتوبة إلى صديقه فنتسل لينك Wenzel Link بأن البابا في وضعه الحالي وطبقاً لتعاليم بولس الرسول هو "المناهض الحقيقي للمسيحية، بل أعتقد أنه أسوأ من أى تركي"^(٢).

(١) قارن:

Schreckenbach، Martin Luther، a.a.O.، S. 8

(٢) ترجع مركزية سلطة البابا الى موضع ورد في إنجيل يوحنا ونصه: " ويتكلم يسوع مع حواريه بطرس ويقول له: أنت الصخرة التى عليها أشيد لبنتى المقدسة"، وهو الموضع الذى استندت إليه الكنيسة الكاثوليكية باعتبار أن البابا يمثل الخلف المباشر للقديس بطرس، ويصبح الوسيط بين الله والناس والطاهر و المعصوم من الخطأ.

مزيد من التفصيلات انظر: ولد ديورانت، قصة الحضارة ج ٣ مجلد ٦ ص ٢٠ .

وكان على لوتر أن يواجه قرار اعتقاله وتسليمه إلى روما ويكتب إلى صديقه شبالاتين Spalatin ، مستشار الأمير فريدريش مناشدا إياه، أن يحفز الأمير وأقرانه من الأمراء الآخرين الألمان على العمل نحو حماية مواطنيهم ضد هذا التسليم والخضوع الإجباري لروما، ويوافق أمير سكسونيا والإمبراطور الألماني ماكسميليان Maximilian على إعادة التحقيق مع لوتر داخل ألمانيا في مدينة أوجسبورج، ويكلف البابا ليو العاشر النبيل كارل فون ميلتيتس Karl von Milititz الذهاب إلى ألمانيا للإشراف على التحقيق مع لوتر. ويلتقي الاثنان في ١٥١٩/١/٣ في مدينة التنبورج Altenburg، وتسوق الأقدار في العام السابق لهذا ١٥١٨ مجيء الشاب البالغ من العمر ٢١ عامًا، العالم اللغوي وعالم الإنسانيات ميلانشتون Melanchton ، كمحاضر في جامعة فتنبرج، ورغم اختلاف الاثنين في الطباع، حيث عُرف عن ميلانشتون الهدوء والتحفظ وتقبله للتصالح وبدائل الحلول الوسط، على النقيض من ذلك تمامًا صديقه لوتر، الذي اتُصف بالحدة والقسوة، ورغم ذلك الاختلاف فقد ربطت بين الاثنين صداقة حميمة. وتعلم لوتر على يديه اليونانية والعبرية، التي ظهرت ثمارها في المستقبل حينما شرع في ترجمة الإنجيل. وينضم إلى دائرة لوتر الدكتور كارل شتات Karlstadt أحد كبار المناهضين لصكوك الغفران وأكثر المتحمسين للوتر وفكره الإصلاحية، معارضين ومتحدثين توجهات وكتابات الدكتور يوهان إيك في المناقشات التي دارت بمدينة ليبترزج في يوليو ١٥١٩، وهي المناقشات التي حولت حركة الإصلاح من خلاف صغير حول صكوك الغفران إلى تحد كبير للسلطة البابوية، وتجرى هذه المناقشات اللاهوتية الواسعة في ساحة مدينة ليبترزج، وينكر مارتن لوتر فيها التنصيب الإلهي والعصمة للبابا، ويقر بعدم شرعيتها، ويفزع لذلك العديد من الحاضرين سواء من أصدقائه المؤيدين له أو من معارضيه، ويؤكد لهم في اليوم التالي أن الكتاب المقدس هو كلمة الله والمعصوم من الخطأ، بل أن المجامع الكنسية وما يتبعها من

مؤسسات برلمانية أقامتها الكنيسة منذ نشأتها أخطأت ولا تزال تخطئ وترتكب الآثام. وقد سببت تصريحاته هذه إثارة كبرى، وخاصة حينما رمى البابا وسلطاته بعدم شرعية تنصيبه من قبل يسوع المسيح، وأن هذه البابوية لم تكن لها وجود في القرون الأولى لنشأة الكنيسة، وهى الأفكار التى آمن بها الكثيرون وكانت تملأ صدورهم، ولكنهم لم يجرؤوا على التصريح بها علانية.

وانضم إلى صف لوثر الأعداد الغفيرة من علماء الإنسانيات، الذين نما شعورهم الوطني، متفقين فى النقد الذى اضطلع به لوثر ضد الكنيسة.^١ حتى أن إيرازموس فون روتردام Erasmus von Rotterdam كتب العديد من الهجائيات ضد الكنيسة ورجال اللاهوت وسخر منها بما كان يتمتع به من روح الدعابة والذكاء. وإن كان لوثر لم ترق له هذه السخرية، على الرغم من أنه كان من محبى التكتيك والتبكي، وكثيراً ما كان يستشهد بأقوال هذا الرجل فى كتاباته والتى كانت تشبه التوابل فى مؤلفاته، رغم أسلوبها اللفظ الملىء بالغلظة والسخرية والتهم. ورغمًا من أن ذلك الأسلوب قد أغضب أعداءه، إلا أنه كان مثار إعجاب الكثيرين من الألمان المؤيدين له.

وقام لوثر بتأليف العديد من الرسائل التهامية فى مناقشات ليبتزج منها: "رسائل إلى نبلاء الأمة المسيحيين الألمان" „Sendschreiben an den christlichen Adel deutscher Nation – von des christlichen Standesbesserung"، و"تقديس البابوية تجاه السلطة القيصرية" „Eine

(١) على سبيل المثال ما نادى به الراهب أولرش فون هوتن Ulrich von Hütten والذى رأى فى مارتن لوثر المحرر لألمانيا و أن حركة إصلاحه هذه، هى الطريق الوحيد لتحرير ألمانيا من نير روما، وهى مسألة أشد إلحاحًا من تلبية رغبة البابا بحثهم على صد الأتراك، و يصف روما بأنها "دودة ضخمة تمتص الدماء وأنها بحر من الدنس و بالوعة ليس لها قرار من الظلم" و ينضم إلى هوتن ميلانشتون وكارل شتات و فرانتس فون سيكتجن مما شجع لوثر أن يكتب إلى صديقه اشبالاين مستشار الامير فى ١١ يونيو ١٥٢٠ قائلا: " لقد أقيت النرد... و أنا أحتقر الآن غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاءهم ولن أهادنهم إلى الأبد، فليدينوا وليحرقوا كل ما يمت لى بصلته، وأنا فى مقابل هذا سوف أفعل لهم الكثير... إني لم أعد اليوم أخشى أحدًا وسوف أنشر كتابًا بالألمانية عن الإصلاح المسيحي، أوجهه إلى البابا كمناهض للمسيحية".
انظر ويل ديورانت: قصة الحضارة ص ٢٧.

“Verhimmlichung des Papsttums gegenüber der Kaisermacht”
وتأزم موقف هؤلاء النبلاء عام ١٥٢٠ بعد مطالبته بإسقاط البابا وإحلال
المصلحين بدلا من رجال اللاهوت لإدارة أعمال الكنيسة، بعد فشلهم في أداء أولى
واجباتهم المنوطة بهم.^(١)

وعلى هذا النحو أوضح لوثر ماهية الناموس الإلهي للحياة الدنيا ولقضية
السلطة، فكما يخضع الفلاحون وصانعو الأحذية والخياطون للسلطة المدنية،
فلا مناص من أن يخضع رجال اللاهوت لنفس السلطة والتي يتولاها القيصر
ونوابه من الملوك والأمراء، وهم من أطلق عليهم لوثر "أولى الأمر" Die Obrigkeit.

(١) قارن:

Beintker Horst: Martin Luther. Die reformatorischen Grundschriften in 4 Bd., Bd.

II: Reform-Theologie, Kirche und Gesellschaft, dtv, 1983، ص ٦٥ وما بعدها.

في القرن الرابع الميلادي أضحت المسيحية تحت لواء الإمبراطورية الرومانية، وانتظمت تحت إمرتها
إدارات المدن والبلدان وفقا للنظام الهيرارشي، و تحددت واجبات هذه الإدارات حيث يصير الأسقف
هو الرئيس الأعلى، يليه أمير الولاية أو حاكمها في السلطة. وتدرجت بالتالي الوظائف الكهنوتية
بالنسبة لرجال اللاهوت من قسيس إلى كاهن ومرتل وهكذا. ويتم اختيارهم من منظور الأسرار الكنسية
المقدسة وتتم مباركتهم من البطريق الأعلى، ولهذا تمتعوا بدرجة اجتماعية عالية فاقت ما يتمتع به
غيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى، وقدمت لهم الدولة الكثير من الامتيازات واقتصرت عملهم على
الأمر اللاهوتي، وحُرِّم عليهم الزواج الذي كانت تتبعه العقائد الوثنية، لأن ممارسة العمل الكنسي
والتفرغ له، لا يسمح بممارسة الزواج ويؤدي إلى إضعاف التقوى لديهم في أداء عملهم اللاهوتي من
صلوات وخدمات ربانية. واشتد تعميم هذا التيار في القرن الثالث الميلادي وأصبح يسرى على كافة
وظائف الإكليروس من الأسقف وحتى الخادم البسيط داخل الكنيسة، حتى أنه طلب من بعض القساوسة
المتزوجين الاستغناء عن ذلك، إلا أن ذلك لم يتحقق بصورة كاملة، إلا مع بدايات القرن الحادي
والثاني عشر. وكان الهدف من ذلك تحريم الممارسة الجنسية من قبل رجال الكنيسة و منع الزواج من
أجل صالح الكنيسة، وأن يكون ذلك مؤديا لتركيز وتفرغ رجال اللاهوت لأعمال اللاهوت فقط والعمل
الرباني وخدمة الله ومجتمعه الكنسي، وكان من جراء ذلك أن شاع نوع من الفوضى بين صفوفهم
ودب الفساد وكانت الصورة سلبية بوجه عام، وانسحب هذا التطور على رهبان الأديرة الذين كان
عملهم التفرغ الكامل للزهد والتقشف من أجل خدمة الرب اتباع كنيسته والابتعاد عن حياة الرفاهية
والمتعة. وهذا يعني أن المسؤولية أقيت على أصحاب السلطة المدنية والأمراء والقيصر الجديد كارل
الخامس وعليهم أن يقوموا بكل ما يملكون بإصلاح الكنيسة. لقد استند مارتن لوثر في دعواه هذه
الإصلاحية سواء ما يمس رجال اللاهوت أو المؤمنين على موضع في الإنجيل في الرسالة الأولى
للقديس بطرس والتي تقول: "إن كل من يتمتع بتعميد المسيح صار من المسيحية". ولهذا أنهى دور
الوساطة، التي سادت المسيحية والتي كان يتولاها رجل اللاهوت، بين الله والعباد، وعلى الأمة أن
تختار من تراه ليبشر بكلمة الله والسر المقدس، إلا أن ذلك لا يميزه عن الرجل الآخر البسيط سوى
نوعية العمل الذي يؤديه والوظيفة التي يتقلدها، وبالتالي لا يوجد فرق بين رجال اللاهوت وبين الفئات
المدنية الأخرى، وينسحب ذلك حتى على البابا نفسه، والذي يعتبر وفق هذا التصور مجرد إنسان
عادي كغيره من بقية المسيحيين.

ويعتبر كتاب "رسائل إلى نبلاء الأمة المسيحيين الألمان" العمود الفقري للحركة الإصلاحية، وذلك لما حواه من برامج شاملة بشأن هذه الأمة، وربط الشعور القومي لدى الألمان بأبعادها المختلفة وخاصة الاستغلال المادي من جانب الإيطاليين للشعب الألماني النبيل، الذي أسند إليه هذه المهمة الربانية، وتحقيق هذه الرسالة لإصلاح الكنيسة، ولهذا كان أثر مضمون هذا الكتاب ونصوصه كبيراً، لدرجة أن الطبعة البالغة أربعة آلاف نسخة قد نفدت في خلال أسابيع قليلة من طبعها، واتخذت الإجراءات لإنجاز طبعة جديدة.

واعتماد لوتر على تطبيق أسلوبه اللفظي والخشن للنيل من رجال اللاهوت ومن تدهور سلوكهم، واضطره ذلك ألا يصمت عن الكلام، كرسالة من الرب أناطها بشخصه، وعليه أن يفتح فمه ليتحدث دون خوف أو مواربة.

ويواصل لوتر الكتابة في هذا الاتجاه ويجيء مؤلفه عن "السبي البابلي للكنيسة" "von der babylonischen Gefangenschaft der Kirche"،^(١)، ويهاجم لوتر في مؤلفه هذا كنيسة روما وأسرارها السبعة،^(٢) وما تضمنته من شعائر مقدسة، فأنكر هذه الأسرار، ولم يعترف إلا بسرين منها وهي: التعميد، والتناول، والتوبة التي شرعها المسيح، وبهذا يكون فهم لوتر لسر الكنيسة بأنه الوحي الرباني المقرون بالرحمة والمرتبط بكلمة الرب، والعقيدة الصحيحة. لقد نقد مبدأ التناول الخاص بالعشاء الأخير، والذي يتم ممارسته في القداس الكاثوليكي، وأنه ليس تكراراً لتقديم الأضحية، ولقناعته باستحالة التحول الفعلي للخبز والخمر

(١) و رد هذا المصطلح في مواطن عدة من العهد القديم (التوراة) وهو لا يزال حتى يومنا هذا مركز الثقل اللاهوتي داخل الكنيسة، ومن المؤكد أن المسيحية كانت لها وجهة نظرها الخاصة تجاه عقيدة بنى إسرائيل وفهمها. وحدث في القرن السادس قبل الميلاد أن احتلت مملكتهم من قبل مملكة بابل وتم ترحيل عليا القوم من اليهود إلى السجون كسبائيا أو للعمل كعبيد، واعتبر اليهود هذا الحدث عقوبة لاهوتية لهم من عند الله. ويقارن لوتر هذا الحدث بما يحدث في الكنيسة المسيحية التي حلت عليها عقوبة الله و يجعل منها أسيرة لسلطة أجنبية ، وهي الفكرة التي أول و فسر بها الزحف التركي وخطورته بعد محاصرته للبلدان المسيحية. قارن ، Beinteker ، a.a.O. Bd 3 ، Die Gefangenschaft der Kirche ، dtv ، 1983 ، ص ١٧ وما بعدها

(٢) هذه الأسرار هي: المعمودية Taufe، التثبيت Firmung، الاعتراف Beichte، العشاء الرباني Abendmahl، الرسامة Weihe، الزيجة Ehe، المسحة المقدسة letzte Ölung.

إلى جسد المسيح. فالخبز والخمر يبقى خبزًا وخمرًا، وأن تكرار هذه الشعيرة ما هو إلا ارتباط معنوي معجز بجسد المسيح، مثله في ذلك مثل بقاء الحديد حديدًا حتى ولو كان ساخنًا. لقد كانت توجهات مارتن لوتر نحو هذه الشعيرة امتدادًا لتوجهات نظر جون وكليف، أستاذ علوم الأديان بجامعة أكسفورد بإنجلترا في القرن الرابع عشر الميلادي، والتي ترفض استحالة تحول الخبز والخمر إلى جسد المسيح ودمه، وتبعه في ذلك القس المصلح هولدرائش تسفينجلى، وكثيرًا ما ساور مارتن لوتر الشك في وجود الخبز والخمر، فنظر إليهما بمنظار رمزي كحل وسط، وذلك لوجود نص في العهد الجديد وإنجيل متى الإصحاح السادس والعشرين وما بعده، والذي يقول: "وفيما هم يأكلون أخذ يسوع الخبز وباركه وكسر وأعطى التلاميذ وقال: خذوا، كلوا هذا هو جسدي (٢٧) وأخذ الكأس وشكر وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلكم (٢٨) لأن هذا هو دمي للعهد الجديد الذي يسفك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا (٢٩)".^(١) ويكون لوتر بتوجهاته هذه قد حطم كرامة وسيادة طبقة رجال اللاهوت، ولم يعد رجل اللاهوت تحوطه الأبهة والعظمة ومظاهر الجلال الناشئة من معجزاته الباهرة والساحرة، لقد تحطم هذا التصور بعد نيل المرء رحمة الله وغفرانه عبر تكراره للأضحية، والتي تمثل بالنسبة له حصناً منيعاً ضد الشدائد. ويقر لوتر أن التوبة من الإثم تكمن في استعداد المرء للندم على ما فعله، وفضلاً عن ذلك أن الله يحب أصحاب القلوب المؤمنة، فمنها تنشأ الأعمال الصالحة، لأن غفران الله يناله المرء من خلال الصوم والانخراط في الأديرة. فرحمة الله وغفرانه من الأمور التي لا تباع ولا تشتري. كان مؤلفه "السبى البابلي للكنيسة" مثار جدل كبير ورفض وإنكار لما جاء به، وخاصة من قبل أساتذة الجامعات مثلما حدث في جامعات باريس، وإن كان هذا لم يعق المؤيدين له عن إبداء موافقتهم، والمشاركة في هذا النضال، وعلى رأسهم القس يوهانس بوجنهاجن Johannes Bugenhagen.

(١) قارن: إنجيل متى في الكتاب المقدس بالعهد القديم والجديد القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٩ ج.
 "So heißt es in der Bibel: Nehmet, esset, das ist mein Leib" und "trinkt alle daraus, das ist mein Blut". Meisner, Michael: a.a.O., S.197

١. ٣ الحكم على لوتر بالزندقة

واجتمعت روما لمناقشة قضايا الكفر والزندقة، ويصدر في الخامس عشر من يونيو ١٥٢٠ مرسوم بابوي يتضمن إحدى وأربعين مقولة، تدلل على هرطقة مارتن لوتر، وإحراق كافة مؤلفاته، إن لم يرجع عن آرائه هذه في خلال ستين يومًا من صدور هذا المرسوم، وإلا سوف يصدر مرسوم آخر بإلحاده وكفره - وهذا يعنى أن يتم حرق لوتر وإلقائه على كومة من الحطب، كما حدث لأسلافه من قبل- وجاء مندوب البابا الذى يحمل مرسوم تكفير لوتر إلى ألمانيا، النبيل كارل فون ميليتيتس Karl von Milititz، تشيعة سخرية المواطنين وتهكمهم اللاذع، فى الوقت نفسه يُنصح لوتر من أحبائه بكتابة رسالة مهادنة سلمية يكبح بها جماح غضب البابا، تحت عنوان: "عن حرية الإنسان المسيحى" التى ضمنها أن المسيحى هو سيد كل الأشياء، وفى نفس الوقت فإن له مطلق الحرية أن يكون عبدًا وخادمًا للآخرين، انطلاقًا من حرية روحه وذاته، والتى هى منحة السيد المسيح، التى قدمها له وجعل منها من يكون ملكًا ومن يكون قسيسًا أو ما شابه ذلك.

وعلى المسيح أن يمنح رحمته من أجل محبته لمن هم ضعاف فى عقيدتهم وإيمانهم، ألم يتبع المسيح نفسه ومريم وبولس شرائع اليهود؟^(١) ولم يقلل من شأنها! رغم عدم احتياجه إليها، وذلك تفاديًا لعدم التصادم بها، ولأن الأعمال الصالحة ليست ضرورية فحسب لنيل درجة الجنة، ولكن تكمن أهميتها بالدرجة الأولى، فى أنها تحفز ضعفاء العقيدة لتثبيت إيمانهم والشد من أزرهم، لأن لوتر ركز توجهه إلى الجانب الروحى الضعيف، والذى على الكنيسة أن تدعمه و تقويه.

(١) فى الواقع أن اتباع المسيح لشرائع اليهود لم يكن مهادنة لهم لأن المسيح لم يأت مغيرًا للشرعية اليهودية ولقوانينها وإنما جاء ليخفف من غلو اليهود فى شكلياتهم وعدم اعتقادهم العميق لهذه الأحكام. فالمسيح جاء ليثبت الناموس لا ليغيره، وهو نبى يهودى و بعث فى اليهود، إلا أنهم لم يعترفوا به كعادتهم فى نكران وجدد الأنبياء وقتلهم إياهم ولذلك فإننا نجد قوانين الفقه المسيحى تستمد من العهد القديم الذى هو مضمون التوراة، وأن العهد الجديد الذى يتناول الإنجيل Die Bibel ليس فيه تشريع وإنما هو تعاليم للتطبيق الصحيح للتشريع القديم بالأخلاق الفاضلة وتهذيب النفس. (المؤلف)

هذه الرسالة، التي هي بالنسبة للبابا شائنة وغير مهذبة، لم تصله أو شاء المحيطون به عدم إيصالها إليه. وبدأ الناس في مدينة لوفن Lauffen في إحراق كتب ومؤلفات لوتر أمام الملأ، كرد على ما قام به لوتر من إحراقه لمرسوم البابا الخاص بتكفيره وإخراجه من الكنيسة أمام أساتذة وجمهور مدينة فنتبرج على كومة من الحطب، وعمّ الجزع والهلع بين جموع الشعب، وصدر المرسوم البابوي بحرمان لوتر وخروجه عن طاعة الكنيسة.

يجتمع برلمان الرايخ الألماني Reichstag بمدينة فورمس Worms لأول مرة تحت رئاسة القيصر الجديد، كارل الخامس Karl V، والذي عقد العزم على حل سريع لهذا الصراع وإنهاء القلاقل التي أثّرت ضد الكنيسة. وتوجه الدعوة من قبل القيصر إلى لوتر لسماعه، ورغم أن أحواله الصحية والنفسية لم تكن مرضية، فإنه كان متفائلاً ومتيقناً بصدق دعوته، التي هي هبة من الله له ضد الشيطان، وقد منحه إياها الرب، كسلاح يقاوم به الفساد الذي شاع في أرجاء الكنيسة البابوية.^(١)

وفي السابع عشر من أبريل ١٥٢١ يتم إبلاغ لوتر بأوامر القيصر في المثل أمامه وأمام جمهور الحضور من النبلاء والأمراء والفرسان وكبار رجال الإكليروس في الرابعة مساءً، لسماع التهم الموجهة إليه من روما. ويلبى لوتر دعوة القيصر ويخترق شوارع مدينة فورمس، والتي ضاقت بجماهيرها الوافدة من كل صوب وحذب، ليروا الراهب الشجاع، الذي تترصد له الذئاب في كل مكان، أو لرؤية الراهب الهرطوق. إلا أن جماهير المشجعين فاقت كل وصف، موجهين له الصلوات والدعوات ومرددن الشعارات: "أيها الراهب إن كنت سائراً على طريق الحق ومتيقناً من صحة ما تدعو له، فسر على بركة الله، فهو حسبك، ولن يتخلى عنك".^(٢)

(١) قارن:

Schreckenbach، a.a.O.، S. 13

(٢) قارن النص في مصدره الأصلي:

so geh im Gottes "Es heißt: bist du rechter Meinung und deiner Sache gewiss Michael Meisner(Namen und sei nur getröst Gott wird dich nicht verlassen."

a.a.O (ص ٧٦ وما بعدها

ويتلقى لوثر الأمر القيصري بالآلا يتكلم، إلا حينما يسأل أو يطلب منه الكلام^(١)، يلى ذلك تلاوة تقرير مندوب البابا ألياندر، الذى يصف فيه مارتن لوثر بأشع الألقاب، حتى أن القيصر نفسه كان يخشى على نفسه من أن يؤثر عليه هذا الراهب بهرطقته. وتبدأ المحاكمة باللغة اللاتينية ثم بالألمانية على يد رسول القيصر، يوهانس فون إيك، موجهًا إليه الاتهام: "الإقرار بأن الكتب المرسومة على المائدة من تأليفه، وإقراره بذلك، ثم إقراره بإنكار ما جاء فيها ودحضها." ويتروى مارتن لوثر فى الرد على هذا الاتهام، ويطلب فى أدب جم إعطاءه مهلة من الوقت للتفكير، وحتى لا يرتكب إثماً أو ذنباً تجاه فحوى الكتاب المقدس. ويوافق القيصر على منحه هذه المهلة، ليتقدم بالرد فى اليوم التالي، ويخرج لوثر من قاعة برلمان الرايخ تصحبه دعوات جماهير الشعب الألماني بالنصر، والهزيمة لكل أعدائه. ويحل اليوم التالي، وهو الثامن عشر من أبريل ١٥٢١، ليقف مارتن لوثر، الراهب الزاهد بمعطفه البالي، وهو فى السابعة والثلاثين من العمر، أمام القيصر وكافة قيادات الرايخ، تملأ روحه الطمأنينة والشجاعة، محدثاً نفسه أنه لن ينكر حرفاً واحداً مما كتبه طالماً أن ذلك موافق لما أملاه عليه ضميره، وأنه غير مخالف لما جاءت به نصوص الكتاب المقدس، وأن المسيح سنده ودعامته فى ذلك. وفى صوت هادئ خفيض ورزين تصحبه قوة قناعة الإحساس بالموقف يبدأ لوثر دفاعه بلغة جديدة، ترن أصداؤها فى أركان قاعة برلمان الرايخ، لغة لم يُسمع مثلها من قبل، مناشداً القيصر وقيادات الرايخ الحضور، بأن كل ما كان يقوم به من تعليمات لجمهور المؤمنين لم تكن سوى تمهيد وتعظيم للرب وتمجيد للحق، وأنه لا يمكن أن يخالف ضميره وينكرها ويدحضها طالباً فى النهاية عون الرب ومساعدته فيما انتهى إليه.^(٢)

(١) قارن: الأصل الألماني، المرجع السابق ص ١٣ وما بعدها.

„Du hast nur zu reden, wenn du nur gefragt wirst.“

(٢) قارن: المرجع السابق ص ٧٩ وما بعدها.

So heißt der Schlußsatz seiner Verteidigung „Wenn also Euer ... Majestät und Eure Fürstlichkeiten eine einfache Antwort forden, will ich sie ... folgendermaßen geben: Wenn ich nicht überwunden werde durch die Zeugnisse der Schrift oder durch evidente Vernunftsgründe, bin ich durch die von mir angezogenen

وينتهي لوثر من خطبته أمام أعضاء البرلمان التي ألقاها في اقتناع تام في بادئ الأمر بالألمانية، ثم باللاتينية، بناء على رغبة القيصر، الذي لم يكن يفهم الألمانية، ولم يتراجع عما جاء بمؤلفاته ضد البابا وكنيسته، بل أصر على أن المجامع الكنسية والبابا نفسه معرضون للوقوع في الخطأ، وليس لديهم العصمة التي يدعونها، ورغم صعوبة وجود دلائل مضادة تنقض ما يقول به لوثر من نصوص بالكتاب المقدس، فإن خطبة لوثر أمام البرلمان تركت انطباعاً مبهراً على جموع الحاضرين من الألمان، باستثناء الملوك والأمراء وبعض عليّة القوم، الذين ناشدوا القيصر الحكم على لوثر بالكفر والعصيان فيما انتهى إليه. وصدر ما يسمى بمرسوم فورمس، الذي عبر عن مروق لوثر وأتباعه عن العقيدة المسيحية، والأمر بمواصلة إحراق كتبه ومؤلفاته، وفرض نوع من الرقابة على مثل هذه الأوراق، لضرب توجهات الكفر والزندقة في الصميم.

كان من الصعب على لوثر إثر ذلك أن يعود إلى بلده، فيتتبرج بطريق علني. ويدبر له الأمير فريدريش الحكيم، أمير المقاطعة خطة لتهريبه من الأعداء ومن الخطر المحدق به بعد إصراره وانتصاره في جلسة البرلمان. ويجهز له وسائل تخفي شخصه، مسبقاً عليه مسمى النبيل جورج Der Junker Gerorg، ويغير من ملامحه وزيه، وينقله إلى مكان سري عرف فيما بعد بقلعة الفارتنبورج Wartburg، والتي قضى بداخلها فترة تبلغ عشرة أشهر، أنجز فيها أعمالاً تراثية زاخرة، رغم شعوره المتزايد بالوحدة والعزلة والكآبة، التي كانت كثيراً ما تنتابه، ورغم الرقابة الصارمة والمنفى الذي فرض على لوثر، فإنه واصل التأليف والكتابة داخل منفاه، وركز همه في هذه الفترة على المؤلفات اللاهوتية المتعلقة

Schriftstellen besiegt und das Gewissen ist im Wort Gottes gefangen‘ und ich kann und will nicht irgendwas widerrufen‘ weil es weder gefahrlos noch heilsam ist‘ gegen das Gewissen zu handeln. Ich kann nicht anders‘ hier stehe ich‘ Gott helfe mir. Amen.”

قارن النص الكامل للخطاب: Karin/ Ebling·Bornkamm: Gerhard (Hersg.): Martin Luther- , Frankfurt M. 1982, Aufbruch der Reformation, Bd I·Ausgewählte Schriften ص ٢٦٥ وما بعدها.

أقيمت هذه الخطبة في الثامن عشر من أبريل عام ١٥٢١ بمقر برلمان الرايخ بمدينة فورمس.

ببناء الكنيسة والبابوية، والتي اتسم أسلوبها بالتهكم والسخرية اللاذعة والهجوم الضاري، والذي كان يبغي من ورائه إنماء سخرية الشعب وازدياد ازدرائه للكنيسة البابوية وإنكار أى دور لها، حتى أنه وصف البابا بأنه عدو المسيح الأول، ويصعب على المرء فى هذا الزمان القول بمثل هذه التعبيرات، والتي شاعت آنذاك منذ العصور الوسطى. لقد نبعت توجهات لوتر من منظور الشعائر السائدة فى تلك الفترة بسرد وإحصاء الخطايا والاعتراف بها مقابل التوبة.

ولم يعد يبقى أمام لوتر إلا سران من أسرار الكنيسة المقدسة ألا وهما: التعميد، والتناول، أما ماعدا ذلك فقد أعد له لوتر عدته فى مشروعه الكبير، ألا وهو ترجمة الإنجيل. فحتى هذا التاريخ اعتادت الكنيسة أن تقدم نصوص الكتاب المقدس للمؤمنين باللغة اللاتينية، وهى النسخة التى أطلق عليها مسمى إنجيل الفولجاتا، والتي كانت نصوصها من الصعوبة بمكان على جمهور الكنيسة من بسطاء المسيحيين.

ويرى لوتر أن النتيجة المنطقية لتعاليمه وأفكاره فى أن يشارك جمهور المسيحيين أعمال اللاهوت بالكنيسة، وأن يقدم للجمهور نصوص الكتاب المقدس فى لغته، ولكى يتمكن هذا جمهور من فهم نصوصه. لقد رأى لوتر استحالة العودة إلى النصوص الأصلية للإنجيل، أى فى لغتها الأصلية، والتي يعنى بها اللغة اليونانية، التى كُتِبَ بها العهد الجديد، واللغة العبرية، التى كُتِبَ بها العهد القديم، وهو كتاب التوراة الخاص باليهودية، ولم يكن لوتر الرائد الأول الذى شرع فى ترجمة الإنجيل، فقد سبقته ترجمات عديدة ولكنها كانت محظورة باستثناء الترجمات الشرعية مثل ترجمة الفولجاتا، وترجمات لاتينية أخرى للإنجيل، تمت ترجمتها عن اليونانية إلى اللاتينية، وكانت نسخها تتكلف علاوة على ذلك تكاليف باهظة جدًا لا يستطيع الشعب البسيط أن يقتنيها.

ويواصل لوتر تعلمه ويدرس اليونانية والعبرية على يد صديقه الشاب ميلانشتون، أثناء إقامته للدراسة بجامعة فييتبرج، ويغدو هذا الصديق و غيره من الأصدقاء الآخرين عونًا كبيرًا لمساعدة لوتر أثناء ترجمته للإنجيل، وخاصة ما شاع

فى ألمانيا آنذاك من العديء من اللهجات فى اللغة الألمانية؁ وكان عليه أن يستء فى ترجمته هذه على لهجة و لغة الديوان السكسونى؁ التى وء فى مفرداتها ما كان يعينه على أداء هذا العمل الصعب مسبقاً عليه مما تعلمه؁ بهدف إثراء وتوسعة هذا العمل. وقال قولته المشهورة فى هذا الشأن: "إذا أردنا أن نقدم نص الكتاب المقدس؁ ويكون مفهومًا من قبل جماهير الشعب؁ فلزام علينا أن ننظر إلى أفواه الناس لنعرف كيف يتكلمون ويخرجون الكلمات؁ وخاصة حينما يعبرون بها عن أحاسيسهم ومشاعرهم." (١) ويبدل لوتر فى هذا الشأن جهودًا كبيرة وعسيرة؁ ليضيف على ترجمته هذا المبدأ؁ وأن يكون النص سهل الفهم للبسطاء من الناس وقريبًا من النص الأصلى. ويترجم لوتر تصوراته عن الكلمات والمفردات من وجهة نظر ثقافية وتاريخية مبسطة؁ حتى يحفز القراء من الشعب على التفكير أثناء قراءته؁ فعلى سبيل المثال لا الحصر؁ يترجم لوتر موضوعًا من العهد القديم اختاره من الأغنية الشامية للنبي سليمان؁ وهى أغنية تعبر عن الحب وتنص كلماتها:

"كم هى جميلة وجناتك؁

خلف حجاب رأسك"

ويستبدل لوتر بمرادف آخر ألمانى لفظة "وجنات" فيقول:

"أنت تملكين و جنات جميلة

بين خصلات شعرك" (٢)

(١) قارن: a.a.O., Landgraf, ص ١٩٦, يرى ول ديورانت صاحب قصة الحضارة أن ترجمة لوتر حاولت أن تفسح الطريق للغة الألمانية الجديدة الرفيعة فى مقاطعة سكسونيا العليا؁ ويفسر منهج لوتر بمقولته المشهورة: "ينبغى ألا نطلب؁ كما يفعل الحمير (ويعنى بالحمير الباباوات ورجال الكنيسة)؁ من الحروف اللاتينية أن تعلمنا كيف نتحدث الألمانية." لهذا كان لترجمة لوتر فى ألمانيا نفس الأثر والجلال اللذين حظيت بهما نسخة الملك جيمس المترجمة بعد قرن. كان لترجمة لوتر تأثير حميد لا حد له على لغة الحديث القومية ولا تزال أعظم عمل نثرى فى الأدب القومى. قارن: قصة الحضارة؁ ج ٣؁ مجلد ٦؁ ص ٥٤ وما بعدها.

„ Man muß nicht die Buchstaben in der lateinischen Sprache fragen - wie die Esel tun - wie man soll Deutsch reden ..."

(٢) قارن ص ٥, Kostproben seiner ' Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut, Maess, S. 5
, sprachlichen Kunst. Leipzig, 1981

وجاءت ترجماته هذه من منظور تصوره أن الشعب الألماني قد لا يفهم معنى الحجاب أو غطاء الرأس، والذي ورد في النص الأصلي للأغنية، و لهذا لم يكن مستغرباً أن أخذ عليه معارضوه، ولاموه بأنه قد حرف بعض مواضع من رسالة القديس بولس إلى أهل رومية، والتي كانت - ترجمته هذه - ذات صلة بقضية الإصلاح ويترجم: "إننا نرى أن الإنسان يمكن أن يُبر، دون الارتباط بالأعمال الصالحات، من خلال الإيمان." ويحرف لوثر هذا الموضع و يضيف عليه كلمة "فقط" أو "دون غيره" وأصبح ... "أن يُبر الإنسان من خلال الإيمان فقط."^(١) لم تكن علوم اللغة في عصر لوثر قد لحقها تطور كبير، بل عاشت مهد هذا التطور على يديه، وكانت الترجمة تجسد المولود الجديد لهذا التطور آنذاك، لهذا كانت ترجمته ذات أثر عظيم في كل مكان ولقيت استخداماً عريضاً، وساعدت على إيجاد معيار قومي لتوحيد اللغة الألمانية، التي سرعان ما وجدت طريقها كلغة للعلوم.

ويروى عن لوثر عزلته وحالات الكآبة التي كانت تنتابه أثناء إقامته الجبرية في حصن الفارتنبورج، كتصوره بأن الجن والشياطين تلاحقه، وتجتثم على صدره، وتجعله يعيش في شك قاتل. ولم يكن ذلك من وجهة نظرنا شكوكاً نفسية مَرَضِيَّة مرجعها خوفه الزائد من الأعداء، وإنما كانت كآبة لشكوك حقيقية تنبعث من تصورات الناس لهذا العصر الوسيط، وما به من خرافات سائدة عن قدرة الجن والشياطين والسحرة والمشعوذين بمس البشر وأجسادهم بالضرر. ويتنامى الإحساس لدى لوثر أثناء إقامته في محبسه بالقلعة أن الشيطان يطارده، ويقف له بالمرصاد بحكم اختياره الرباني لقضية الإصلاح، وكان كثيراً ما يتهيا له ظهوره أمامه أثناء عكوفه على الكتابة والتأليف، وأنه اضطر ذات مرة أن يلقي بقنينة الحبر أو بالمصباح الذي ينير له الغرفة في وجهه.^(٢)

(١) قارن النص الأصلي:

"so halten wir es nun، dass der Mensch geredet werde، ohne des Gesetzes Werke durch den Glauben..." Luthers Übersetzung "allein durch den Glauben" (Arndt، a.a.O.، S. 104)

(٢) قارن النص في مصدره الأصلي:

وكثيراً ما يُطرح السؤال عن أهمية أبحاث لوتر والتركيز عليها، رغم ما شاع من فساد وانحلال الجانب اللاهوتي الذي حصر لوتر نفسه في إطاره ولم يتجاوزه، وكان على النقيض من ذلك ما حدث من صديقه ميلانشتون وغيره من زعماء الإصلاح، والإجابة على السؤال الذي يطرح نفسه، بأن أفكار لوتر تضمنت فكر العصر القديم والحديث كخليط متوافق ومتناسق، هي إجابة قد تكون مستندة إلى توجهاته الاجتماعية، وخاصة أنه عاش طفولة صعبة في بلدة صغيرة يحترف أهلها التعدين واستخراج المعادن من باطن الأرض، مدينة مليئة بالأخاديد والأودية وهوآت الجبال التي يأوى إليها ويقطنها العديد من الجن والشياطين، وفقاً لاعتقاد هذا العصر. وهذا يعني أنها كانت بيئة خصبة لكثير من الاعتقادات الخرافية، علاوة على ذلك أنه كان راهباً، وعاش يصارع هذه الثقافات السائدة طوال إقامته داخل الدير، حتى أنه قيل بسيطرة الوهم عليه ومس الشيطان والسحرة، الأمر الذي كانت تستحسنة الكنيسة الكاثوليكية في القرن الخامس عشر، وهو الأمر الذي كان يمثل جزءاً من المعتقدات آنذاك.

لقد اتسع نطاق الحركة الإصلاحية وانتشرت بسرعة رغم صدور مرسوم فورمس ضد لوتر و تعاليمه، ويرجع تفسير ذلك إلى ضعف شخصية القيصر كارل الخامس في ألمانيا، والذي كثيراً ما تورط في حروب لا طائل من ورائها، ولعدم تواجده الدائم داخل ألمانيا، علاوة على انضمام عدد غير قليل من النبلاء والأمراء الألمان إلى جانب لوتر وحركته. وكثيراً ما أجّل تنفيذ بنود مرسوم فورمس من خلال جلسات برلمان الرايخ المتتالية، وذلك لتراخي القيصر وتردد أجهزته في البحث عن لوتر، أو الإمساك به، أو اتخاذ الإجراءات لإيقاف حركته، وحمل لواء ذلك القساوسة والرهبان المؤيدون للحركة وغيرهم من العلماء المتحمسين للعودة إلى الإنجيل ورسائل لوتر الجديدة، التي كان يتلقاها الناس في صورة منشورات.

كان جنوب ألمانيا وفتنبرج ومجاوراتها مركزاً مهماً للحركة، والتي عمل أولئك المتحمسون على نشرها، في الوقت الذي كان لوتر حبيس قلعة فارتنبورج،

"Wirklich heißt es: Luther verfällt in Grübelein. Zweifeln Packen Ihn, ob er Gott auch richtig verstanden, ob er nicht vielleicht Unfrieden in die Christenheit gesät habe. Hat Gott ihn zur Strafa in die Einsamkeit verbannt." (Landgraf, a.a. O. ص ١٩٠ وما بعدها).

بل والعمل على تطبيقها فى الواقع العملى، وسعد لوثر كثيراً بذلك وهو فى مخبئه، لأن الحركة أيقظت الأمة الألمانية بأكملها وعمّ الاضطراب فى أرجائها، بل وقامت حركات التمرد فى أماكن كثيرة، قام بها الكثير من الأمراء والفرسان والفلاحين وكافة الطبقات الدنيا من الشعب الألماني، الذين يقطنون المدن الصغرى والقرى.

١. ٤ لوثر والبابا وثورة الفلاحين

لم يكن لوثر يرغب فى قيام مثل هذه الثورات، بل ركز جهوده على تأثير الكلمة وقوتها، وعارض هذه الثورات فى كل مكان من خلال كتابة المنشورات، وشجب أعمال التخريب التى تستهدف الكنائس واعتبرها من عمل الشيطان، وأن على السلطة المدنية، التى أطلق عليها أولو الأمر، مواجهة مثل هذه الثورات والتمرد، مفوضين فى ذلك من قبل الله، واستخدام تأثيرها على إخماد هذه الثورة، وعمت الفوضى والقلق فى أحياء وشوارع فيتبرج، التى افتقدت الانضباط بين الجماهير، ويتزعم هذه القلاقل أحد أتباع لوثر، والذى يدعى كارل شتات فى غيبة لوثر، ويتزوج رغم أنه كان من رجال اللاهوت، متحدياً بذلك تعليمات الكنيسة، ويلغى مسائل الاعتراف التى كانت تعقد بين المواطنين والقساوسة، ويصدر التعليمات بخروج الرهبان من الأديرة، وأن يقدموا على الزواج وترك حياة العزوبة، وتتغير مراسيم وطقوس العبادة والصلاة، ويشرع الغوغاء فى تحطيم الصور والتماثيل فى الكنائس، وتكونت جماعات أطلق عليهم، "المريدون المتغنون بحركة الإصلاح"، وقاموا بدور الوعاظ، كما كان يُطلق عليهم "المعمدون لجماهير البسطاء من الشعب"، مؤكدين لهم قرب نهاية العالم، وأن مملكة الله هى المدخل الأول للجنة، وأن الخلاص، أصبح قريباً ولا مفر من القضاء على الملحدين والكفرة المارقين، الذين انشغلوا بتشريعات العقل والإحساس باعتبارها المحك الأساسى للإنسان، ولم تعد محاسن الإنجيل لديهم بلا نفع أو فائدة. ويواجه لوثر هذا التطرف فى آرائهم هذه المستندة إلى طرد آدم من الجنة وادخارها من قبل الله لطبقة الفلاحين وليس لطبقة اللاهوت، والتركيز على أن كل ما يفيد الإنسان

يخصص للفلاحين وحدهم دون غيرهم، بأن نص الكتاب المقدس جاء بوحى من الله، لهذا كانت كلمات الإنجيل هي كلمات الله التى لا يأتيتها الباطل من قريب أو من بعيد، وهنا يكون العقل ضعيفاً بالقياس إلى الإيمان بوحى من لدن الله، وكان علينا الخيار أن نقبل ما جاء بالإنجيل أو ما يجىء به العقل، ويكون فهم نور عجائب الله التى لا تدرك بأن يفسح العقل الطريق لما جاء بالإنجيل. ويشدد لوتر دفاعه: "إن كل آيات عقيدتنا المسيحية، التى كشف لنا الله عنها فى كلمته هى أمام العقل مستحيلة تماماً ومنافية للمعقول وزائفة، فإذا كيف يعتقد ذلك الأحقق الصغير الماكر أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يعطينا جسده لتأكله ودمه لنشربه فى العشاء الأخير؟... أو أن الموتى سوف يبعثون من جديد يوم القيامة!... وأن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء، وولده ثم غدا رجلاً يتعذب، ثم يموت موتاً مخجلاً على الصليب!... إن العقل هو أكبر عدو للإيمان، إنه أفجر صنائع الشيطان."^(١)

وتعم الفوضى و السلب و النهب مدينة فيتنبرج، ويفقد الحاكم السيطرة على الناس، و يقدم لوتر من قلعة الفارتنبورج يملؤه التفاؤل، وينجح فى خلال أسبوع من إرجاع الأمان واستتباب الأمن وإيقاف الفوضى من خلال خطبه، وإيقاف الإصلاحيين الجدد عن غلوهم، الذين فهموا حركة الإصلاح فهمًا خاطئًا، بل إنهم أساءوا إليها بسوء فهمهم هذا، لأنهم فرقوا بين ما هو لاهوتى وما هو عملى واقعى، وهذا ما كان مؤلماً له، لأن أعداءه لم يحدث منهم مثل هذه الأحداث الشائنة، فقد كان الإصلاحيون على يقين بأن الكثيرين من مريديه من بين هؤلاء الفلاحين وبسطاء الناس، ولكن يبدأ خطر ثورة الفلاحين فى التزايد وتتسع الهوة بينهم وبين طبقة الأمراء والنبلاء.

(١) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٣، مجلد ٦، ص ٥٦ وما بعدها، قارن أيضاً، جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، ص ٢٧ وما بعدها.

ويكتب لوتر في خضم هذا الصراع رسالة عن الموقف الفكري الخاطئ لوضع البابا والأساقفة مما زاد في إشعال النار، وقامت ثورة بين فرسان الرايخ بقيادة أسقف مدينة تريير Trier ضد البابا، رغم أن ثورتهم هذه قد قضى عليها في حينها، لأنها قد انبثقت من فهم خاطئ لتعاليم لوتر، وهو الأمر الذي حدث في أماكن أخرى، رغم أن لوتر حاول شرح العلاقة التي تربط جماهير الناس بأولى الأمر في رسالته التي كتبها عام ١٥٢٣ " عن سلطة أولى الأمر الدنيوية ومدى التزام الإنسان بها:

(١) "Von weltlicher Obrigkeit, wie weit man ihr Gehörsam sein kann"

وكان الجديد في هذا المؤلف هو القول بعدم شرعية الثورة من جانب الفقراء ضد الأغنياء وفقا للأساليب التي كانت سائدة في العصور الوسطى السابقة وما شابه ذلك، ولكن في كيفية التفريق بين ما هو جائز وما هو ملزم تجاه السلطة الدنيوية " المدنية"، وهي السلطة التي ليس للبابا فيها ناقة ولا جمل، وهذا يعني أنه ليس للكنيسة حق فيما يخص هذه السلطة. هذا الحق هو من اختصاص القيصر وحده ومن معه من أولى الأمر. وفي مقابل ذلك لم يكن لهذه السلطة الدنيوية أية ولاية أو سلطان على مسائل العقيدة. ويحدث أن أحد الأمراء من الكاثوليك أمر رعاياه بأن يسلموا الأناجيل من نسخ لوتر للعهد الجديد، والتوقف عن استخدامها.^(٢)

أما ما يخص أميره فريديريك الحكيم حاكم مقاطعة ساكسونيا و نائبه النبيل يوهان فون ساكسن فقد أعجبهما هذا المؤلف وأمر بإعادة طبعه ونشره. ولهذا لم يكن الفراغ السياسي الذي نشأ من جراء هذه الصراعات مثار خوف للوتر لأنه لم يتوقف عن سخريته التي عرف بها تجاه رجال الكنيسة والذين كان يطلق عليهم من باب التهكم "البابا ويون".

ويقترّب زحف السلطان التركي، سليمان القانوني، ويتم في السادس والعشرين من أغسطس ١٥٤١ فتح عدة مدن ألمانية، وعلى رأسها مدينة لوفن،

(١) قارن: a.a.O., Landgraf, ص ٢٢١.

(٢) قارن المرجع السابق ص ٢٢١.

وذلك بعد أن أصبحت المجر ولاية عثمانية ومعظم مناطق البلقان. ويكون هذا العدو القادم إلى أوروبا حافزًا للوتر على المزيد من السخرية من البابا وأتباعه، وخاصة حينما أحس بالمخاوف التي بدأت تسرى في أوصال الألمان. لقد أحس الغرب بخطورة هذا التهديد وهذا الزحف، الذي حاول العالم الغربي بسببه أن يوقف الصراع الدائر بين البابا ومارتن لوتر في اجتماعات برلمان الرايخ في مدينة ريجينسبورج ١٥٤١، وفي مدينة شباير ١٥٤٢، لأن الأمر أصبح يهدد وجود عالم الغرب من أساسه، إلا أن مارتن لوتر استغل هذا الموقف ناقدًا وساخرًا، ويقول: "ماذا يمكن لهؤلاء البلهاء أن يفعلوا تجاه العدو التركي" (١)

ويواصل لوتر سخريته من البابا والقيصر وأتباعه بأن التركي مقارنة بهم أتقى وأذكى منهم عشرة أمثال مرة. (٢)

وينضم إلى لوتر أسقف آخر، وهو أسقف مدينة فورتسبورج Würzburg ورئيس كاتدرائيتها فريدرش فيشر Friedrich Fischer ويرد في سخرية على طلب مساعدة البابا من قبل الكاردينال توماس كاجيتان Thomas Cajetan في أمر القبض على لوتر وتسليمه وفقًا لمرسوم فورمس، ويقول: "أتريدون صد الأتراك وضربهم؟ لقد أخطأتم حقًا في اسم العدو الحقيقي!، لا تبحثوا عنه في آسيا، بل عليكم أن تبحثوا عنه في إيطاليا. ويمكن لكل نبيل أن يدافع عن نفسه ضد هذا الآسيوي، أما العدو الآخر فلا تكفى لمقاومته وصدّه كل قوى العالم المسيحي، وليس أمامكم أن تقهروا هذا الكلب الجهنمي إلا بتلال من الذهب" (٣)

(١) قارن النص الأصلي:

"was soll solchen Narren wider den Türcken gelingen، die Gott zu hoch versachen und lästern"

(٢) قارن النص الأصلي:

"der Türcke sei zehnmal klüger und frommer"

(٣) قارن النص الأصلي:

Aussage des Domherren Friedrich Fischer، Würzburg:

„Den Türken wollt ihr schlagen? Ihr irrt euch im Namen. Suchet ihn nicht in Asien، sucht ihn in Italien?! Gegen den asiatischen kann jeder Fürst selbst nicht، den anderen zu bändigen reichen die ganze christliche Welt nicht aus. ihr könnt diesen

بل لقد نعت البابا بأنه كجرباب لدودة تعاني سكرات الموت. لهذا حاول البابا بكل السبل الإمساك بلوتر والقبض عليه واعتقاله، وذلك من خلال دفع المال والرشاوى للأمرأء والنبلاء لتنفيذ مرسوم فورمس، بل ويحاول دفع مؤيديه من النبلاء لإرغام أمير سكسونيا على تسليمه وتنفيذ مرسوم فورمس. وتتدلع حرب الفلاحين في أغسطس ١٥٢٤ في ألمانيا لفهمهم الخاطئ رسالة وتعاليم لوتر الواردة في الإنجيل الجديد، وتطبيق ما جاء فيها عليهم خاصة دون غيرهم، وكان وضعهم صعباً للغاية لما أصابهم من معاناة شديدة من الضرائب المفروضة عليهم من قبل أسيادهم من النبلاء وأساقفة الكنيسة والأديرة، وانسحبت هذه المعاناة على الكثير من العمال الحرفيين البسطاء في المدن الصغيرة، والذين عاشوا معاناة الفقر والديون كالعبيد للطبقات العليا، ولم يغفل لوتر عن هذه المساوئ ويكتب عن اقتصاديات المال وعمليات استغلال الطبقات الدنيا من خلاله، ويكتب عن تحريم الربا وتجريمه، ويهاجم بعنف التجار والمؤسسات التجارية، التي تمارسه لخداعهم الذي مارسوه على الفقراء من الفلاحين والحرفيين من تقديم السلع بأسعار مرتفعة وإيقاعهم في الديون التي يصعب عليهم سدادها، وشجب الطمع والجشع للطبقات المالكة والغنية، التي واصلت استغلالها للمعدمين.

ويواصل لوتر تضامنه مع هذه الطبقة البائسة في مؤلفه: "عن حرية الإنسان المسيحي"^(١) ويجسد هذا الاستغلال لهذه الطبقة من قبل رجال الكنيسة والأشراف، ويحس الفلاحون والحرفيون الفقراء بوقوف لوتر إلى جانبهم، وبجهوده المتواصلة في دعمهم، والوقوف إلى صفهم، وعلى أن يتم كل ذلك بقدر من التعقل وعدم التجاوز. كان ذلك الموقف مثار جدال طويل في الأبحاث المتعلقة بموقف لوتر تجاه الفلاحين، وكثيراً ما يُطرح السؤال "هل كانت توجهات لوتر وكتابات الإصلاحية هي الحافز والدافع المشجع لثورة الفلاحين ضد أولى الأمر؟" ويقر غالبية الباحثين

Höllenhund nur mit Strömen Goldes besänftigen." (Landgraf, Wolfgang : Martin Luther Reformator und Rebell, Berlin 1981 S. 113)

(١) قارن: Bd , Horst: Martin Luther- Die reformatorischen Grundschriften, Beintker 1985, dtv, Die Freiheit eines Christen, IV ص ٩ وما بعدها.

الإجابة بالإثبات، لأن ذلك كان الأمر الطبيعي في تسلسل أحداث حركة الإصلاح، ورغم أن لوتر لم يستطع أن يقر ذلك صراحة، فإنه اتخذ موقفًا مضادًا من هذه الثورة، مما كان مثار دهشة للكثيرين من موقف لوتر، والذي بدا مستغربًا ومستهجئًا.

ويتزعم ثورة الفلاحين القس توماس مونتر Thomas Münzer، الذي كان من رواد حركة الإصلاح الجدد المتحمسين وأصحاب المواقف المتشددة ضد الكنيسة الكاثوليكية، وضد الأمراء، ثم أصبح غريمًا وعدوا للوتر، وخاصة بعد تحديده العلاقة بين الرعية وأولى الأمر، ويكتب رسالة مضادة في ذلك ضد آراء لوتر عام ١٥٢٤ " عن حياة الشرف والفساد الروحي والخواء"، ويثير مشاعر الناس بخطبه ويحثهم على الثورة ضد أولى الأمر. وتسرى الثورة في كافة أجزاء ألمانيا سريان النار في الهشيم، و لم يستطع لوتر كبح جماحهم لاقتناعهم بأنهم على حق، ولأنهم يفسرون نصوص الكتاب المقدس بالشكل الذي يرونه، وليعطوا من خلاله الشرعية لثورتهم، ويبدأ الثوار بإشعال النار في الأديرة ومقر النبلاء والفرسان.

ويشكل الفلاحون اتحادًا لهم و يصدروا بيانًا من اثني عشر بندًا أوضحوا فيه حقهم الإلهي المشروع لطلباتهم ولشرعية ثورتهم، ويكتب لوتر رسالة مضادة لذلك تحت اسم: "عظات ونصائح للسلام فيما يخص البنود الاثنا عشر في منطقة شفاين"، محاولا تهدئة الأمور، والإقلال من العنف وأعمال القتل، ويقول بأن على الأمراء التفاوض سلميا مع الفلاحين، وأن على الثوار ألا يقارنوا أنفسهم بالأمراء، و يجيء رد فعلهم على توجهات لوتر ونصائحه هذه: "أن من يرفع السيف عليهم، فلا مفر من رفع السيف عليه بالمثل"، تطبيقًا للمثل القائل: "لا يقل الحديد إلا الحديد".

ويجىء رد فعل لوتر الغاضب المتشدد بعد سماعه عن الأعمال الشائنة التي قام بها الفلاحون، ضد الكثيرين من الأبرياء ويطلب من السلطات وأولى الأمر، القضاء على هذه الثورة بقوة، وذلك بعد رسالته: "ضد أعمال القتل والنهب التي

ارتكبها الفلاحون البلهاء والحمقى" Wider die mörderischen und räuberischen Rotten der Bauern، ويلقى ثوار الفلاحين هزيمة منكرة فى ١٥ مايو ١٥٢٥ فى معركة فرانكنهاوس Frankenhaus من جموع جيوش الأمراء، وتنتهى ثورة الفلاحين بهذه الهزيمة المفجعة. ويعقد الأمراء المحاكمات لإعدام الثوار منهم شنقاً، وفقاً لعادات العصر. فيتم شنق مونتسر زعيمهم ورفاقه، وهذا ما دعا لوتر إلى كتابة رسالة أخرى وجهها للأمراء: "الرسالة الصعبة ضد الفلاحين" "Sendbrief vom harten Büchlein wider die Bauern"، مطالباً الأمراء العفو والرحمة ضد المهزومين، ولعن كل سلوك ظالم.

كانت نتائج حرب الفلاحين خيبة أمل لدى قطاعات عريضة من الشعب الألماني، ومثار كراهية تجاه لوتر، الذى تغير موقفه تجاه البسطاء من الناس من جراء هذه الثورة التى وضعت فى موقف اليأس أمام تحرير الشعب من آلامه المستعلة، ويقود مرة أخرى حركة مضادة لكبت هذه الطبقة، وشغلها بخدمات السخرة وحتى لا تفكر مرة أخرى فى إثارة القلاقل، و ينأى عن مشاركتهم فى بناء النظام الكنسى الجديد المرتبط بمبادئ حركة الإصلاح، وقصر ذلك على السادة من الأمراء والنبلاء وأولى الأمر، والذين طالبهم ببناء المزيد من المدارس والمؤسسات التعليمية، والذين توقع منهم الكثير من الأعمال والإنجازات، فاقداً ثقته بأى إنجاز من قبل جماهير الشعب. بهذا تتوارى تعاليم اللاهوت عند كل المؤمنين فى الظل ولم يعد لها الصدارة، ويرجع لوتر السبب فى ذلك أن جماهير الشعب لم تكن ناضجة بالقدر الكافى، ويلزم الأمر تثقيفهم وتربيتهم لكى يمارسوا العقيدة ممارسة صحيحة، ولأن مستواهم الفكرى حالياً لا يصل إلى فهم واستيعاب نصوص الإنجيل المترجم، ولهذا كان من الخطأ أن تقع هذه النصوص بداية فى أيديهم.^(١) و يقود كل ذلك إلى أن يفكر لوتر فى إنشاء نظام للتفتيش. وذلك بقيامه برحلات تفقدية لكثير من الأماكن والمؤسسات لرؤية ما يدور فى داخل هذه الكنائس بنفسه. فكثيراً ما كان يصطدم بالعديد من المعمدين المتشددى الجدد، وخاصة بعد الهزيمة النكراء التى لقيها

(١) قارن: Schreckenbach، S. 25f.

الفلاحون في حربهم ضد أولى الأمر مما حدا به إلى وصف هؤلاء الفلاحين بالجبروت والخطورة. ويعلل لوثر هذه الخطورة عند الفلاحين بأخذهم بكلمة الله بشيء من الجدية، بتحليل الأحداث وفقاً لما جاء في موعظة الجبل.^(١)

وهذا يعني أن طاعة كلمة الله هي الحد الفاصل المهم للإنسان، أكثر من طاعته لأولى الأمر. واعتبر لوثر هذا التوجه مشوباً بالتشدد ولا يقدم أوساط الحلول، أو حلولاً بديلة، وينهى خبرته لهذا الصراع المرير بسلام الكلمة، ويعنى كلمة الرب التي كان لها أثر السحر ضد صراعه مع الكنيسة، وهي الآن تبوء أمام عينيه بالفشل. وكان لوثر يود تحت كل الظروف أن يتحاشى انتقاداتهم، ولذلك ناشد أولى الأمر باستخدام القوة ضدهم، بداية من توجيه النصيح، وانتهاءً بطردهم من إطار الكنيسة الجديدة. وهنا ينشأ الصراع ضد بعض الطوائف التي خالفت في اعتقادها الكنيسة الإنجيلية، بكل مالها وما عليها من التزامات. ويرى لوثر في أبحاثه وزياراته للهيئات الكنسية اختلاط الحابل بالنابل، والهمجية المطلقة التي انتابت الفلاحين، الذين أخذوا على عاتقهم تحقير البابا وحركة الإصلاح حتى أنهم رفضوا رفضاً باتاً أن يتعلموا آية البدء في الصلاة "أبانا الذي في السماء" "Vater unser im Himmel"^(٢). وكانت هذه الصلاة طويلة ومملة بالنسبة لهم، ويرى لوثر أن الوضع العام للاهوت ورجاله يحتاج لنوع جديد من التربية، و يكتب ما ينبغي عمله في حصص التدريس، وأنهى بحثه بكتابين، هما: "قواعد و تعليم الدين المسيحي الكبير؛ وقواعد و تعليم الدين المسيحي الصغير"، واللذين تضمنتا أساسيات دروس الدين المسيحي، كما تضمنت مؤلفاته في هذا الاتجاه قضايا التعميد، والزواج، وما يتعلق به من عظات من جانب القساوسة، وناشد هؤلاء تعليم الجنسين من الشباب والشابات من

(١) موعظة مشهورة للسيد المسيح ورد ذكرها في الأناجيل، وتضمنت أساساً أموراً تمس الخلق، والسلوك، وعن كيفية سلوك المسيحي سلوكاً طيباً وخاصة في مجال المحبة والسلام والعدالة.

راجع الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، إنجيل متى، الإصحاح الخامس، الآية رقم ١ وما بعدها .

(٢) وهي ما تمثل أهم صلاة أداها السيد المسيح وورد ذكرها في الأناجيل وهي الصلاة التي ناشد فيها المسيحيون منذ الازل: " أبانا الذي في السماء مقدس اسمه ومملكته وإرادته في السماء وفي الارض امنحنا خبزنا اليومي واغفر لنا ذنوبنا وديوننا، ولا تقودنا إلى طريق الغواية واجعلنا من المخلصين من الشرور لأن مملكتك وقوتك وبهاءك هي ما ننشده منك. آمين"

نصوص الإنجيل، إلى جانب الإكثار من بناء المدارس، ودعمها من عوائد الأديرة. وتتطرق أفكاره لإنشاء مدارس شعبية عامة يختار من بين تلاميذها من يراد تثقيفه اجتماعيا وسياسيا لكي يتحمل المسؤولية مستقبلا. علاوة على كل هذا فقد كان لوتر شاعرا بكل ما فى الكلمة من حقيقة، وكان يقرض الكثير من المزامير الكنسية والأغاني الدينية، يستقيها من العهد القديم، ويصيغ منها الأناشيد الكنسية مثل ملحمة الإصلاح المشهورة "إلهنا هو حصننا" ويعرف عن اللوتريين الألمان أنهم من محبى الغناء الكثير، ولا يزالون يتغنون بها حتى يومنا هذا.

١.٥ زواج لوتر

فى عام ١٥٢٥ يُقبل لوتر على الزواج من الراهبة "كاترينا فون بورا" (^١) Katharina von Bora، والتي هربت مع تسع من الراهبات منذ سنوات من الدير، وكان هروبهن ذلك مرجعه للمؤلفات النقدية لحياة الراهبة فى الأديرة، التى جعلت الرهبان والراهبات يستغنون عن حياة الزهد والرهبة والعمل الشاق. وبالطبع أحدث لوتر الكثير من الجدل حول زواج أهل اللاهوت من رهبان وقساوسة. وأصر لوتر على رأيه وتصميمه على حرية الناس فى هذا الاتجاه (^٢) وتركت قضية زواج الرهبان على الناس أثرها الضخم، ويروى عن مؤرخى سيرة

(١) قارن: In: Kloster ، Ernst: Katharina von Bora- Martin Luthers Frau، Kroker
Nimbschen und Katharina von Bora – Sachsverlag- Beucha، 1993 ص ٤٢ وما بعدها.
(٢) صاحب خبر زواج لوتر صدمة وانزعاجا كبيرين فى أوساط معارفه، وشن عليه خصومه حملة شعواء تجاه هذا الحدث، وخاصة بعد وقوع اختياره لراهبة من عائلة نبيلة أحنى عليها الدهر، وأرادت العودة إلى حياة البشر الطبيعية، ويتم الزواج فى الثالث عشر من يونيو فى عام ١٥٢٥ من منظور قداسة الحياة الزوجية، التى هى هبة الله وفرض من فروضه الخلقية كما نص عليها الكتاب المقدس. قارن، Schreckenbach، a.a.O.، ص ٢٧.

„Wo Luther meint، daß der Ehestand heilig، von Gott gestiftet und gottwohlgefällig sei، und daß der Christ die sittliche Pflicht habe، in diesen Stand heimzutreten“ ويعقب أ. موريسون بأن زواج لوتر هذا أثار ضجة لا تقل عن الضجة التى وقعت يوم تعليق لوتر لحججه الخمس والتسعين على باب كنيسة القصر قبل ذلك بثمان سنوات، ويتهم لوتر ساخرًا من أعدائه الذين اعترضوا على زواجه فى خطاب أرسله إلى صديقه شبالاتين قائلا: "إننى أعتقد أن زواجى هذا أضحك الملائكة وأبكى الشياطين."

لمزيد من التفاصيل انظر، أ. موريسون ص ١١٣ وما بعدها.

مارتن لوتر أنه كان يتمتع بحياة زوجية سعيدة مع زوجته "كيثي"، والتي كانت تمثل له زوجة اقتصادية، قوية البنیان وموهوبة في فكرها، حتى أنها كانت أثناء الإقامة في الدير المجاور في مدينة فيتبرج تدير أمور الدير وترشد اقتصادياته، كما كانت تقوم بتأجير الغرف للطلبة، والعمل على رعايتهم وإعالتهم، وكانت مناصرة له مع الفقراء، وأسبغت على لوتر سمة التواضع، وكانت أما رعوماً وأحبت أولادها حبا كبيراً، رغم ضيق وقتها، وكان بيت لوتر ممثلاً بالضيوف ليأكلوا، ويستمعوا إليه حول المائدة.^(١)

ويعبر لوتر عن حبه لزوجته الذي فاق حبه لنفسه، وكان يتمنى موته قبل موتها:

"إنني أحببت زوجتي كيثي (تصغير للتدليل لاسمها كاتارينا)، وأقر أن هذا الحب قد فاق حبي لنفسى. ولكم تمنيت أن يكون موتى سابقاً لموتها وموت أبنائها".^(٢)

(١) تم الزواج في ٢٧ يونيو ١٥٢٥ إرضاء لرغبة أبيه وحفاظاً على اسم الأسرة، و يقدم لهم أمير سكسونيا الدير الأوجستيني في فيتبرج هدية كدار لسكنهم، ويروي عن لوتر أن هذا الزواج كان موفقاً ويقول: "أن أعظم نعمة يمنحها الله للإنسان زوجة نقيّة رقيقة تخشى الله و تحب البيت." كما يروي عن لوتر أنه كان والداً مثالياً ومربيّاً فاضلاً لأطفاله ومؤلفاً لكثير من الأغاني التي كان يغنيها لهم عازفاً على العود كما كان يزوى في منزله أحد عشر يتيماً من أولاد إخوته وقام على حسن تربيتهم وتكون حصيلة ذلك كله تدوين ما يزيد عن ٦٥٩٦ حديث جمعها زوجها البارة ويضمنها لوتر في مؤلفه أحاديث حول المائدة.

(٢) قارن النص الأصلي:

„Ich habe meine Käthe lieb und ich weiß, daß ich sie lieber habe als mich, d.h.: ich wollte lieber sterben, als daß sie mit den Kindern sterben müßte.“ (Meisner Michael, a.a.O., S. 183)



Marina Tachet and her husband

وفى مواقف أخرى يعبر فيها عن حبه الجم لزوجته:

"إنه يفوق جميع رجال الإكليروس سعادة وغنى، ويكفينى أن الله رزقنى بستة أطفال شرعيين، وهذا ما لم ينعم به على أحد من رجال اللاهوت." ويقول أيضاً: "أنت يا زوجتى ملكتى، ولا يسعنى إلا أن أشكر الله على ذلك لأن عناية الله فاقت كل المقاييس فى منحى زواجاً سعيداً، وزوجة مخلصنة، تملك قلب رجل يعتمد عليه. ثم يقول: " يا إلهى ليس الزواج لمطلب جسدى طبيعى فحسب، بل إنه هبة من الرب تحوطه حياة العفة، والتي تفوق حياة الرهبنة." (١)

وكان لوتر يحب الطعام الجيد و شرب الجعة والنبيذ، إلا أنه كان لا يحب المغالاة، وكان ينادى بالوسطية والاعتدال، وهى من الأمور التى كانت تبعث فى روحه الفرح والسرور ويروى عنه قوله: إن الرقص لكلا الجنسين رجالاً ونساء من الأمور المستجدة، ولم يشأ لوتر أن يمنع هذا التوجه، إلا أنه نصح وناشد الرجال أن يلتزموا الوقار وعدم الابتذال تجاه النساء، وتشجيعهم على التعرف سوياً مما يكون مؤداه الزواج فيما بعد، ولا مانع من أن يدعى المرء لمثل هذه الحفلات،

(١) قارن: المرجع السابق ص ١٨٤ .

وليحدث كل هذا في إطار الحدود الرشيدة. وكانت حياته داخل المنزل قدوة مثلى لقسيس إنجيلي، وهذا يعنى أنها صورة مثلى للقساوسة الإنجيليين فيما بعد. وتبدأ أعداد القساوسة غير المتزوجين تقل وتتحسر، وتختفى علاقاتهم غير الشرعية مع الخادومات والطاهيات وغيرهن، وهى من الأمور التى كانت سائدة بشكل مستشر فيما سبق.

لقد وصل الفساد وظلم الإنسان لنفسه أن تتبنى الكنيسة الإنجيلية مثل هذه الإباحية التى يمارسها فى أيامنا هذه رجال الدين أمام الملاء، ويظهرون فى التلفاز فى أوضاع شاذة، لا تحدث إلا فى المواخير وأماكن اللهو والمجون. إن احتفال إحدى الكنائس الإنجليزية الكبرى بإباحة اللواط واقتران النساء بالنساء، إنما يمثل بداية لفوضى عارمة وثورة على الخالق الذى خلقنا أزواجاً نساءً ورجالاً، لنتكاثر ونلد ذرية، يباركها بفضله وكرمه.

وتعليقنا على هذا أن مثل هذا التيار الجارف سيجرف معه كل الشرائع والمقدسات، ويفتح الباب مرة أخرى أمام كل الرذائل والموبقات، ويتناسى هؤلاء أن الله هو الذى خلق فينا حرية الاختيار، وأودع فينا الميل الطبيعى إلى المرأة، وحب الذرية، ودفء العائلة، وحنان الأمومة والأبوة، وأن الشذوذ الذى يمارسونه، ما هو إلا صناعة من صنائع الشيطان، بل وأين هذا كله من الوسطية والاعتدال، التى نادى بها المصلح العظيم مارتن لوتر، الذى أراد من القساوسة أن يكونوا القدوة الحسنة لغيرهم من جماهير المواطنين.

وتمتد الصراعات بعد ذلك داخل المعسكر الكنسي، ليس فقط مع المتشددين والمتحمسين الإنجيليين، بل يشمل أيضاً رواد الإنسانيات، والذين كانوا يمثلون فيما سبق، الحليف ضد كنيسة البابا. وتحدث للمواجهة بين الملك هاينرش الثامن Heinrich VIII ملك إنجلترا فى صراع فكرى مع لوتر. ويفوض الملك المصلح إيرازموس فون روتردام فى تأليف كتاب ضد توجهات لوتر فى مقابل منحه المال اللازم لذلك. ويلبى الصديق القديم رغبة الملك، ويتقدم بآراء مضادة لحركة الإصلاح، وخاصة ما تمخض عنها من تمرد جماهير الفلاحين البسطاء. ويؤلف كتابه "عن حرية

الإرادة "über den Freiwillen"، والذي تضمن أن أعمال الناس هي الضرورة لنيل الجنة، وهي الطريقة التي نقضها لوثر بكتاب مضاد تحت عنوان "عن الإرادة غير الحرة" "über den Unfreien Willen"، والذي تضمن أن رحمة الله هي الطريق الوحيد لخلاص الإنسان ودخوله الجنة، ويعتبر المؤرخون لحركة الإصلاح، أن هذين الاتجاهين بين لوثر وإيرازموس من الأسباب التي خلقت شرخاً بين كلا المفكرين، وكانت نتيجة هذا الصراع أن كثيراً من مريدي الإنسانيات والمحبين للوثر تراجعوا عنه وعادوا لمعتقدهم القديم.^(١)

وتظهر حركة إصلاح أخرى في سويسرا، تحت زعامة القس "تسفنجلي" Zwingli المتأثر بآراء إيرازموس، التي نادت بمبدأ العقلانية كقيمة مركزية فيما يخص توجهات العقيدة، وهو ما كان يخالف أيضاً ما قال به لوثر، من أن العقيدة ما هي إلا خليط من التصوف والعقلانية، لأن في بعض اللحظات تتحكم المشاعر والأحاسيس وما شابهها، في الوقت الذي لا تصلح فيه العقيدة لهذا. ويقود لوثر صراعات مضنية مع آراء "تسفنجلي" وخاصة في قضية التناول، والعشاء الرباني، رغم أن معظم أتباع تسفنجلي رأوا أن هذا الأمر ما هو إلا هراء. فتسفنجلي يرى أن التناول إجراء رمزي، ولوثر يتمسك حرفياً بكلمة المسيح التي وردت بالإنجيل "هذا هو جسدي"^(٢)، "das ist mein Leib" بمعنى أن لوثر أراد وجود المسيح في الخبز، من منظور هذا النص الإنجيلي. ويدور بينهما الجدل والحوار الديني في خريف عام ١٥٢٩ في مدينة ماربورج Marburg، بعد هيمنة الضغوط السياسية، بداية على مارتن لوثر، ونهاية في توحيد توجهات البروتستانت، والتي انتهت بخصومة شديدة بين كلا المتجادلين.^(٣)

(١) قارن: Schreckenbach، ص ٣١.

(٢) قارن: Schreckenbach، ص ٣١.

(٣) يتقابل الفريقان المتجادلان وفقاً لما ورد في قصة الحضارة لول ديورانت ج ٢ مجلد ٦ ص ١٢٥، في ٢٩ سبتمبر ١٥٢٩، ويتنازل تسفنجلي في هذا اللقاء بسخاء عن بعض أوجه الاختلاف لمارتن لوثر، وخاصة فيما ساوره من شك في الوهية المسيح، كما قبل تسفنجلي العقيدة النيقاوية، والمذهب الفائل بالخطبة الأصلية، ولكنه لم يتراجع عن رأيه في مسألة القربان المقدس باعتباره رمزاً وذكرى، أكثر منه معجزة.

ويريد الأمراء الإنجلييون عقد تحالف مضاد للقيصر من منطلق أن هذا القيصر والمتحالفين معه من الأمراء والأساقفة الكاثوليكين، لا يزالون يلوحون بتنفيذ مرسوم فورمس واعتقال لوثر وتسليمه لروما، وخاصة بعد انتصار القيصر على ملك فرنسا، هذا الانتصار الذي فتح له الطريق لتهديد البروتستانت الألمان وزحفه إليهم. ويجتمع برلمان الرايخ في عام ١٥٢٩ ليؤكد من جديد العمل على تنفيذ مرسوم فورمس، ويواجه القيصر بذلك اعتراض الأمراء الإنجلييين في عدم تنفيذ ذلك، وكان الأمراء الإنجلييون يمثلون نصف الأمراء الألمان، ويتمسك الأمراء الإنجلييون برأيهم، مما أدى إلى أن أطلق الناس على توجهاتهم هذه لقب "البروتستانت"، أو الامراء المحتجون على مرسوم البابا. وكان المتوقع بعد هذا الرفض نشوب حرب بينهم وبين القيصر، إلا أن كلا الطرفين وجد نفسه في مواجهة خطر الأتراك المحاصرين لفيينا، ولم يكن أمام القيصر إلا الاستسلام، والخضوع ودعم المعسكر الإنجليي والوقوف معه ضد الخطر التركي.^(١) وهنا يضطر القيصر أن يخضع خضوعًا تامًا لتوجهات البروتستانت، الأمر الذي انتهى بعقد صلح نورنبرج Nürenberg في يوليو ١٥٣٠.

وفي عام ١٥٢٨ يؤلف لوثر كتابًا عن "الحرب ضد الأتراك" Vom Kriege wider die Türken، وفي ١٥٢٩ يتبعه كتاب "عظات للجيش الألماني ضد الأتراك" Heerpredigt wider die Türken. ويرفع لوثر لواء الكفاح من قبل المسيحيين بقوله: "إنه قد وجبت الطاعة على المسيحي نحو ولي الأمر في أن يحمل السلاح في يده لينخرط في صفوف جيش المحاربين ضد الأتراك" لأن لوثر كان يرى أن سلطة ولي الأمر نابعة من سلطة الله، وليست من المواطن الفردي.^(٢)

(١) قارن: المرجع السابق ص ٣٣.

(٢) قارن: النص في مصدره الأصلي:

wörtlich heißt es : „Luther erscheint als Helfer und Bundesgenosse.. er redet mit aller Kraft seiner Beredsamkeit den Deutschen ins Gewissen um Kampf gegen die große Gefahr, die damals die Christenheit bedrohte. Hier vertritt sogar die Meinung , dass das Christentum seine Anhänger nicht von der Pflicht entbinde, feindliche Angriffe mit der Waffe zu bestehen ... und der Obrigkeit zu gehorchen , wenn sie ihn zum Kriegesführen aufrufe“ (Schreckenbach, ٣٦ ص)

ويسعى البابا فى اجتماع الرايخ فى أوجسبورج للتفاوض مع البروتستانت، الذين استولوا على الكثير من ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية فى الإمارات التى كانت من نصيبها، وتنتهى المفاوضات بلا نتيجة، إلا أن القيصر يمنحهم فرصة أخرى للتفكير والتروى، وإعادة النظر فى رد الأملاك الكنسية للأديرة وإعادة صيانتها وبنائها. وتكون استجابة أمراء البروتستانت على هذا المطلب بتحالف عسكرى سُمى بتحالف مدينة شمالكالدين "Das Schmalkaldenbund"، والذى وضع البابا فى موقف يصعب الرد عليهم فيه بطريقة عسكرية، لأنه كان يقع تحت ضغط الفرنسيين من جانب والأتراك من جانب آخر، وكان عليه أن يتقبل الوضع كما هو فى ألمانيا، ويوقع انطلاقاً من هذه الضغوط مع الأمراء البروتستانتين فى يوليو ١٥٣٠ ما سُمى "بصلح السلام الدينى" فى نورنبرج - كما ذكرنا، وحتى ينعقد المجمع الدينى الثانى، والذى يطلب فيه الأمراء البروتستانت توضيح الفروق الدينية بين الكنيستين، وأن على كل الفئات الحفاظ على السلام فيما بينها، وألا يحاول طرف منها مهاجمة طرف آخر فى شئون العقيدة. ويتمكن هذا المجمع المسكونى من التوصل الى تحقيق هذه التوجهات، التى كان من شأنها اتساع حركة الإصلاح، ويستمر رغم ذلك موقف الكنيسة السياسى واللاهوتى الغامض أكثر من قرابة عقدين من الزمان حتى ١٥٥٥، وهو العام الذى تم فيه عقد صلح مدينة أوجسبورج للسلام الدينى^(١)، وهو الصلح الذى بارك الانقسام المذهبى لألمانيا، واستقلالية المناطق التى يشيع بها كلا المذهبين فى المقاطعات المختلفة، وإن كان هذا لم يمنع من انبعاث أمور جديدة لصراع خفى جديد، نشأ من توجهات إصلاح مضادة من جانب الكنيسة الكاثوليكية، والذى تمخض عن نشوب حرب الثلاثين ١٦١٨-١٦٤٨، والتى انتهت بصلح السلام الفيستالى Westfalen.

(١) مزيد من تفاصيل هذا الاتفاق انظر، جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، وخاصة إقرار ما تم الاتفاق عليه فى مجلس مدينة شباير عام ١٥٢٦ وتحديد مصير أملاك الكنيسة الكاثوليكية التى آلت إلى المناطق البروتستانتية، ص ٣٥ وما بعدها.

لقد تمثل حزن لوتر فى أن انتشار حركته الإصلاحية وتعاليمه، لم يصاحبها تحسن فى السلوك الخلقى، ومراعاة الآداب العامة، وكثيراً ما كان يتحسر على ما يشاهده من سلوك مشين لطلاب جامعته فيتتبرج، الذين كانوا يعيشون حياة عابثة ماجنة، يبالغون فى الشراب وإحداث الكثير من الصخب والشغب، ولم ترق له تصرفاتهم، ولا ملابس النساء التى بدت فى تصميمها فى التركيز على إبراز مفاتن الجسد، وتدعو إلى الغواية والشهوة، وقد أدى هذا كله إلى انخداع لوتر فى سلوك الناس، وعلت وجهه الكآبة لتصرفاتهم الشائنة، حتى أنه كان يرى فى كل هذه الأفعال السيئة أن يوم القيامة قريب، وأنه قادم لا محالة بعد أن ينس نهائياً من تحسن العالم من حوله، العالم الذى بدا عارياً أمامه من كل بداية ونهاية فى كل زواياه، ومن بداياته إلى نهاياته.^(١) ويسقط البابا ويشند الصراع فى حركة الإصلاح حتى مع مريديه وأصدقائه، ويعاود لوتر المرض عام ١٥٣٧، وتغلب على كتاباته التى ألفها فى هذه السنوات الأخيرة الغلظة والسخرية، وتموت ابنته العزيزة، لينشن Lenchen فى الثالثة عشر من عمرها عام ١٥٤٢، ويلحق بها وهو فى أشد حالات الحزن عام ١٥٤٦ بمدينة أيسلين، بمقاطعة مانسفيلد Mansfeld، فى المنزل الذى ولد فيه عن عمر يناهز ٦٣ عاماً.^(٢)

(١) قارن: المرجع السابق ص ٣٨ .

(٢) تم استدعاء لوتر فى بداية يناير ١٥٤٦ من قبل أميرى مانسفيلد للحضور والتوسط بينهما فى حل نزاع دائر على قضايا الإرث، وفجأة يهاجمه المرض العضال ليلقى وجه ربه فى الثامن عشر من فبراير ١٥٤٦، ويتم نقل جثمانه بعد يومين من وفاته إلى مدينة فيتتبرج، ويدفن بكنيسة القصر، ويتم دفنه فى احتفال مهيب، ويلقى كلمة التأبين على قبره الصديقان، بوبنهاجن وميلانشتون. مزيد من التفاصيل قارن، المرجع السابق ص ٤١ .

Schreckenbach schließt sein Werk ab :

„er hat das Christentum gerettet“ das in höchster Gefahr stand“ von Heidentum des Humanismus völlig durchsetzt zu werden und in ihm unterzugehen“ als die Leiter der Kirche in heidnische Welt- und Sinnenfreudigkeit“ die von ihnen geleitete Masse des Volkes in dumpfen Aberglauben versunken waren.“

١. ٦ قطوف من الأقوال المأثورة لمارتن لوتر

شغلت المأثورات والتعبيرات المسكوكة حيزًا كبيرًا في معظم أعمال ومؤلفات لوتر، وبها يرجع الفضل في اتجاهي نحو دراسة اللغة الألمانية مع بداية ستينيات القرن العشرين واستشهدت ببعض منها في أول بحث لي كتبته بالألمانية عام ١٩٦٤ كبرهان وحجة للأثر الفائق الذي تركه في نفسي، علاوة على قوة وسرعة انتشار فكره - حين علق مارتن لوتر حججه الخمس والتسعين على مدخل كنيسة القصر بمدينة فينتبرج - في داخل وخارج ألمانيا، الأمر الذي أشرت إليه في مقدمة الكتاب، ولا ضير أن أذكر اثنين منها مرة أخرى:

• "إنني أقف هنا و لا أستطيع أن أفعل شيئًا آخر غير الذي فعلته، وليعنيني الرب على ذلك"

• "لو علمت أن العالم سينتهي غدًا، فسوف أستمر في زراعة شجرة التفاح"^(١)

ذلك لأنهما مثلاً بالنسبة لي ركيزة مهمة استطعت من خلالها الاقتراب من فهم فكر هذا الراهب وتقديمه للدارسين بالجامعات من أبناء العربية من هذا المنظور.^(٢)

(١) قارن:

Muhammad Abu-Hattab Khaled : Betrachtungen über das deutsche Wesen im Wandel der Jahre، Zulassungsarbeit eingereicht beim Goethe Institut –München zum Erwerb des Sprachlehrers-Diploms، München 1964، S. 12

(٢) قارن أيضًا، محمد أبوحطب خالد: قطوف من الأدب الألماني، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٨ وما بعدها.
قارن أيضًا، محمد أبوحطب خالد: الذات الألمانية على مر العصور- تأملات عربي متخصص في علم الجرمانيات - إشراف، دورية تصدرها الإدارة العامة للبحوث الثقافية، قطاع الشؤون الثقافية و البعثات - وزارة التعليم العالي، جمهورية مصر العربية، العدد ٢٦، يونيو ٢٠٠٢، ص ٢٤ وما بعدها.

نقدم للقارئ مختارات قليلة من هذا الفيض في ثوب عربي ومصحوب بنصه الألماني والتي عبر فيها المصلح الناصر مارتن لوتر عن توجهاته ومواقفه ومواجهاته لأحداث حركة الإصلاح وكذلك مواقف الآخرين منها سواء المؤيدين أو المناهضين، وقصدنا بها أن يعيش القارئ فكر هذا المصلح وأن يستشعر مواهبه وقدراته اللغوية: (١)

• الخطاب والكلمة هما أعظم إنجاز للإنسان، وهما في نفس الوقت العمل الذي يرقى به، لأن الجسد والروح شريكان في صنعهما.

- „Die Rede‘ das Wort – das ist also das höchste Werk des Menschen und zugleich die Arbeit‘ die ihn am stärksten fordert: „Leib und Seele arbeiten daran.“^(٢)

• من الصعب أن تجابه كل الأساقفة والأمراء، ولكن ليس هناك ثمة طريق آخر يجنبنا غضب الرب والذهاب إلى الجحيم.

- „Es ist schwer‘ zu allen Bischfen und Fürsten in Widerspruch zu stehen. Aber es gibt keinen anderen Weg‘ um der Hlle und dem göttlichen Zorn zu entrinnen.“^(٣)

• إنه من عبث القول وجود عالم اللاهوت بدون أرسطو، بل العكس تمامًا، وهو أن يصبح المرء عالمًا لللاهوت دون أننى حاجة إلى أرسطو، لأن

(١) مزيد من التفاصيل حول المأثورات التي أوردنا منها جزءا متواضعا يمكن للقارئ أن يرجع إلى المصادر الآتية:

Martin Luther: Sprichwortsammlung. Hersg. von Rudolf Große, Leipzig: Insel, 1983

Zitelmann, Arnulf: Ich, Martin Luther – Starke Sprüche über Weiber, Fürsten, Pfaffen undsoweiter, Frankfurt a. M.: Eichborn, 1982

(٢) قارن:

Ebeling, Gerhard: Luther, Einführung in sein Denken, 4.Aufl., 1981, ص ٣٨

(٣) قارن: المرجع السابق ص ٧٥.

الادعاء بأن عالم اللاهوت لا بد وأن يكون عالمًا بالمنطق والفلسفة هو في واقع الأمر ليس سوى هرطقة مذمومة.

- „Es ist ein Irrtum zu sagen, ohne Aristoteles werde man nicht Theologe. Im Gegenteil, man wird Theologe nur, wenn man es ohne Aristoteles wird. Die Behauptung, ein Theologe, der nicht Logiker ist, sei ein scheußlicher Häretiker, ist selbst scheußlich und häretisch.“^(١)

• لن يُبر ويصلح إيماننا من خلال عدل الإله، بل من خلال أعمالنا وتصرفاتنا.

- „Wir werden nicht gerecht durch Tun des Gerechten, sondern als gerecht Gemacht bringen wir gerecht Handlungen hervor.“^(٢)

• لزاما على أن أتحدى بالصبر مع الشيطان، ومع رفاق الإصلاح من المتطرفين والمزايدين، ومع زوجتي كيتي فون بورا، لم تكن حياتي سوى سلسلة متواصلة الحلقات من الصبر.

- „Ich muß Geduld haben mit dem Teufel; ich muß Geduld haben mit den Schwärmern, ich muß Geduld haben mit den Scharrhansen, ich muß Geduld haben mit der Käthe von Bora, und es ist der Geduld noch zu viel, dass mein ganzes Leben nichts anderes sein will als Geduld.“^(٣)

(١) قارن: المرجع السابق ص ٩٤.

(٢) قارن: المرجع السابق ص ٩٦.

(٣) قارن:

Maess, Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut, Leipzig: Koehler, 1981 ص ٧٦

- كان فيليب ميلانكتون لاذع الكلمة، إلا أنه كان يؤديها من خلال إحساس مرهف وبإبر غير مؤلمة، ألا أن لسعاته هذه يكون الشفاء منها صعب، وألمها مبرح، أما لسعاتي أنا فكانت تتم من خلال أسياخ حديدية.
- „Philipus Melanchthon sticht auch‘ aber nur mit Pfriemen und Nadeln. Diese Stiche sind schwer zu heilen und tun weh. Ich aber steche mit Schweinspießen.“^(١)
- كنت أود أن أكون على دراية باليونانية والعبرية، حتى أكون جديرًا بالتلاقى مع أهلها. واللغات بعامة لا تصنع رجل اللاهوت، ولكنها الأداة والوسيلة المساعدة، وعلى الإنسان ألا يتكلم عن أمر ما دون سابق علم أو معرفة.
- „Ich kann weder Griechisch noch Hebräisch‘ Ich will aber dennoch einem Hebräer und Griechen geziemend begegnen.(Luther untertreibt hier in ironischer Form entgegen der Meinung seiner Gegner und Kritiker‘ denn er konnte sehr wohl griechisch und Hebräisch)Aber die Sprachen machen für sich selbst keinen Theologen‘ sondern sind nur eine Hilfe. Denn‘ soll einer von einem Dinge reden‘ so muß er die Sache zuvor wissen und verstehen.“^(٢)
- أينما وجدت جهنم، فإن روما تقع فوقها.
- „Gibt es eine Hölle‘ so steh Rom darauf.“^(٣)

(١) قارن: المرجع السابق ص ٧٦.

(٢) قارن: المرجع السابق ص ٧٧.

(٣) قارن: المرجع السابق ص ٧٩.

• هالى، أيتها المدينة العظيمة، ليحفظك الرب من الضياع، لأنك أحببت كلمته، ولهذا لن يتخلى عنك.

- „Halle, du werthe Stadt, der barmherzige Gott erhalte dich, dass du nicht versinkest. Du hast Gottes Wort immer geliebt. Darum wird dich Gott erhalten.“^(١)

• يتصرف أهل منطقة مايسن Meissen كما لو كانوا من أهل الحضر، وهم ليسوا كذلك البتة. أما أهل تورنجيا Thüringen فهم محبوبون للتملك والجشع متناسون دومًا الواجب المنوط بهم. وأهالى بوهيميا Böhmen يفوقون فى برودهم كل الأجناس الأولى، أما البافاريون Bayern فيتمتعون بالغباء لعدم الموهبة، إلا أنهم محبوبون للحق والإنصاف. والفرنكيون Franken والشفابيون Die Schwaben بسطاء، وأهل عدل وأداء وخدمة صادقة. أما السويسريون Die Schweizer فأهل الصفوة والرقى من بين كل الألمان يتسمون بالشجاعة والمرح. والفنديون Die Wenden (قبائل السلاف الغربيين) لصوص ونوعية غير سوية من البشر. أما أهل هولندا Die Niederländer والباتافيون Bataver فهم أفاقون، يجازفون وليس لهم سوى مصالحهم.

- „Die Meißner sind hofärtig und maßen sich eine Klugheit an, die sie gar nicht haben. Die Thüringer sind pflichtvergessen und habgierig. Die Böhmen übertreffen alle andern an sprder Kälte. Die Bayern sind dumm und unbegabt, dafür aber rechtschaffender. Die Franken und Schwaben sind einfach, rechtschaffen und diensteiferig. Die Schweizer sind die vornehmsten unter den Deutschen, sie sind mutig und heiter. Die Wenden sind Diebe und eine ganz üble Sorte von Menschen.

(١) قارن: المرجع السابق ص ٨٠.

Die Niederländer، Bataver، sind rechte Gaukelmenschen. Die Rheinländer sind verschmitzte Abendteuer und auf ihren Vorteil bedacht.“^(١)

- إن القدر أوجدنى لخدمة بنى جلدتى، ولهذا ولدت ولهذا أعيش.
- „Mein Schicksal dreht sich um meine Existenz، meinen deutschen Menschen dienlich zu sein. Für meine Deutschen bin ich geboren، ihnen will ich dienen.“^(٢)
- لأنك كدرت السيد المسيح وأهنته، فلن يكون مصيرك سوى الإحراق فى نار جهنم.^(٣)
- “Weil du den Heiligen des Herrn (Christus) geschändet،، so schände dich das ewige Feuer.“
- حتى لو أشعلوا النيران بداية من مدينة فيتتبرج حتى فورمس، وارتفع لهيبتها إلى عنان السماء، فإن ذلك لن يثني عن أن أحمل لواء يسوع المسيح، ولن أتردد لحظة فى ذلك، حتى لو وضعوا رأسى فى فم أسد. فالرب لن يتخلى عنى، وسيقف إلى جانبى.
- „Auch wenn sie den Weg vom Wittenberg bis nach Worms in Flammen aufgehen lassen und dieses Feuer bis vom Himmel lodert، wird es mich nicht hindern، auf dem Wormser Reichstag die Fahne Jesus Christi tragen und werde ich nicht zögern، mein Haupt in das Maul des Löwen zu stecken. Gott

(١) قارن: المرجع السابق ص ٨١.

(٢) قارن: a.a.O.، Schreckenbach، ص ١٢.

(٣) قارن: المرجع السابق ص ١٢، وقارن أيضا Landgraf، a.a.O.، ص ١٦١.

wird mich nicht in Stich lassen، sondern an meiner Seite stehen.“^(١)

• إن مُتُّ، فسوف أصبح روحًا تقف عقبه كثودًا أمام الأساقفة والكرادلة والرهبان والقسس الملاحدة، ولن يستطيعوا اتخاذ إجراء ما ضد لوتر، الذى قضى نحبه، لأنهم سيجدون ألف لوتر آخر مازالوا على قيد الحياة.

- „Sterbe ich، so will ich ein Geist werden und die Bischöfe، Pfaffen und die gottlosen Mönche dergestalt plagen، daß sie mit einem gestorbenen Luther mehr zu schaffen haben sollen denn mit tausend lebendigen.“^(٢)

(١) قارن: Schreckenbach ص ١٥.

(٢) قارن: Thomas، Maees، a.a.O.، ص ٨١.

الفصل الثانى

الدور اللغوى لمارتن لوتر وإسهامه فى توحيد الأمة الألمانية
والنهوض بحركة الإصلاح المسيحى

٢. ١ اللغة الألمانية فى خدمة حركة الإصلاح الدينى

كما سبق أن عرضنا فى مقدمة هذا المبحث، أن المصلح البروتستانتى مارتن لوتر، اعتُبر وما زال يُعتبر أحد أهم الشخصيات التاريخية، التى قدمها الشعب الألمانى. وهو بلا شك من الأشخاص الذين لا تموت سيرتهم، رغم اختلاف وجهات نظر الكثيرين ممن كتبوا عنه. وكما ذكرنا أنه كان محبوبًا ومحتفى به من البعض، ومكروهًا ومحقرًا من البعض الآخر. لقد جعل لوتر الشعب الألمانى من خلال قدراته اللغوية، أكثر نشاطًا وبقظة، وقربه من بعضه البعض، رغم أن كتبه التى وقعت بين أيدينا كانت مصاغة بلغة عسيرة، ولا يفهما إلا فئة محدودة من الدارسين. ويرجع ذلك إلى الكم الهائل من المفردات الأجنبية والمصطلحات الدخيلة، التى كان يستخدمها فى صياغة أفكاره، إلى جانب صعوبة وتراكيب الجملة الألمانية فى تلك الفترة وينسحب ذلك كله على أسلوبه بوجه عام، والذى وصف فيما بعد بالسهل الممتع والممتع، وذلك لما ابتدعه واشتقه من مفردات ومصطلحات شاع استخدامها بين جماهير الناس، وخاصة حينما يتطرق لوتر فى حديثه إلى قضايا الأمة الألمانية، الأمر الذى جعل منه عبقرية لغوية، دعمت بكل قوة حركته الإصلاحية.^(١)

لقد استطاعت الكنيسة الإنجيلية التى أنشأها مارتن لوتر بنجاح وبدعم من قوة الكلمة، وعلى أسس مضادة للكنيسة الكاثوليكية، أن تقف شامخة إلى جوارها، بل ويعتبر الكثير من المؤرخين أن هذه الكنيسة اللوترية من الأعمال العظيمة فى تاريخ البشرية، وتمثل إضافة للحياة الفكرية عند الألمان أكثر من أى عمل آخر. ويتمثل ذلك كله فى إنجازاته المتعلقة بالكتاب المقدس، وترجمته إلى الألمانية،

(١) قارن النص فى مصدره الأسمى:

Wo es wörtlich heißt: „Kraft und Würde, Zartheit und Innigkeit hat er ihr (der deutschen Sprache) gegeben. Er besaß das feinste Sprachgefühl, und deshalb musste er viel feilen, ändern und mit der Sprache ringen, ehe seine Übersetzung ihn befriedigte.“

„seinem Grundsatz: zum deutschen Volke muß Deutsch gesprochen werden, ordnete er alles unter.“ Vlg. a. Schreckenbach, a.a.O, S. 17f.

وبكتب الترانيم والأنشيد الدينية، وذلك من خلال اللغة الفصحى لدى فئات الشعب الألماني وطبقاته كافة. ويمكن أن يقال إن الوعظ وإلقاء الخطب، من أحب الأعمال التي كان يمارسها مارتن لوتر، بالرغم من خشيته وهيبته لها في بداية حياته. كان يخشى الصعود إلى المنبر أو التحدث أمام حشد كبير من الناس، ولكن مع الممارسة وتشجيع صديقه ميلانشتون له، سرعان ما اختفت هذه الخشية، وبعد أن لقي استحسان الجمهور وفئات الشعب كافة، حتى النبلاء والأمراء وحكام الولايات.

يُقيّمه المؤرخ "ول ديورانت" في موسوعته: "قصة الحضارة"، بأنه أقوى من عرفه التاريخ في الجدل، وكانت كتاباته تمثل صراعًا ممزوجًا بعبارات لاذعة تفيض سخرية، وترك خصومه يتأنقون في بحور اللغة اللاتينية، حيث لا يقرأ لهم إلا قلة من الباحثين، أما هو فكان يكتب باللاتينية عندما يريد مخاطبة العالم بأسره، بيد أن الجانب الأكبر من أهاجيه كان يصوغه بالألمانية أو يترجمه فورًا إلى الألمانية، لأن ثورته الدينية كانت وطنية في أساسها، ولم يبزه مؤلف ألماني آخر في وضوح ألفاظه أو قوة أسلوبه وفي مباشرة عباراته وحدثها اللاذعة أو في تشبيهاته الموفقة، والتي كانت تبعث على الابتهاج في ألفاظ تمتد جذورها في كلام الناس وتلائم عقلية الألمان وهويتهم، وكانت أربعة أخماس الكتب التي تطبع بدعم من لوتر ومساندته، لأنها تؤيد الإصلاح، تجد طريقها إلى البيع السريع، أما الكتب التي كانت تدافع عن العقيدة الكاثوليكية المحافظة فلم تجد من يشتريها، وكانت مؤلفات لوتر هي الأكثر رواجًا وتباع في المكتبات، ومع الباعة الجائلين، والطلبة، والمسافرين بالآلاف، داخل و خارج ألمانيا، وفي فينيسيا وإيطاليا وإسبانيا وهولندا وإنجلترا، وكان وراء ذلك النجاح اكتشاف الطباعة بالحروف المتحركة، على يد يوهان جنزفلايش جوتنبرج Johann Gensfleisch Gutenberg، والذي لولاه ما كان نجاح مارتن لوتر ممكنًا.^(١)

(١) قارن: ول ديورانت: قصة تاريخ الحضارة، ص ٧٣ وما بعدها.
يذكر عن ردود أفعال مارتن لوتر اللاذعة أنه حينما كان يذكر الناس بأن الله قوة مدركة كونية موجودة، عند ذلك يسأله شاب لحوق من علماء اللاهوت " أين كان الله قبل خلق العالم؟" أجاب بأسلوبه اللفظي المبالغ: "كان بيني جهنم لهذه الأرواح الفضولية المقلقة المغرورة من أمثالك" ول ديورانت ص ٥٩.

كما كان لوثر يفتخر بفظاظته، حينما ينقضُ على خصومه، وكثيراً ما كان يردد هذه المقولة "ما فائدة الملح إذا لم يكن لاذع الطعم"^(١) كما كانت تعاتبه زوجته في رقة قائلة له: "أنت فظٌ يا زوجي العزيز" و يرد عليها بكل هدوء: "إن الغصن يمكن قطعه بسكين الخبز، أما شجرة البلوط فتستلزم الفأس."^(٢)

ولعل أبلغ مثال لهذا اللون لأسلوبه قصيدته التهكمية التي مثلت هجاءً مريباً ضد بابا روما ليو العاشر Leo X آنذاك والتي أعطاها عنوان "أنشودة تهكمية عن بابا روما":

وهكذا أبعدنا البابا،

خارج أبواب مدينتنا،

يصحبه خداعه ومكره،

فهو بحق عدو المسيحية الأكبر.

وأسقطناه من فوق عرشه العالي،

ليلقى حتفه الأبدى جراء ما ارتكبه تجاهنا،

فانه لم يعد بإمكانه خداعنا من خلال تعاليمه وأكاذيبه الباطلة^(٣).

(١) قارن: المرجع السابق، ص ٥٩.

(٢) المرجع السابق ص ١٣٧.

(٣) قارن النص الأصلي للأغنية:

So treiben wir den Papst aus
durch unsere Stadt zum Tor hinaus،
mit seinem Betrug du Lüsten،
als rechten Antichristen.
Wir stürzen ihn über Berg du Tal،
damit er sich zum Tode fall،
und uns nicht mehr betrüge،
durch falsche Lehre und Lüge.

(ص ٣٩ Maess 'Dem Luther aufs Maul geschaut'، a.a.O. ،)

وتشتد فظاظة مارتن لوتر التهامية تجاه بابا روما مما يمكن اعتباره تجاوزاً
للخطوط الحمراء وحدود اللياقة في الخطاب الديني:

أيها البابا، يا والد كل المخدوعين من المسيحيين

لقد جالت اسمك بالعار و اللعنة،

ولتذهب مملكتك إلى الجحيم،

وسرعان ما تذبل إرادتك الشيطانية،

وسوف لا يعطيك الرب خبزنا اليومي،

ولن تخلصنا من خطايانا عبر صكوك غفرانك الخادعة،

والتي لن تغفرها لك، لأنك لم تعد قادراً على غوايتنا،

وسوف يخلصنا الرب من كل آثامك. آمين. (١)

ورغمًا من هذا يذكر الدكتور موزيلانوس Mosellanus رئيس جامعة ليبتزيج
أنذاك بعضًا من السمات البارزة عن لوتر وعن لغته ويقول: "كان مارتن لوتر
متوسط الطول، يتمتع بجسم هزيل نحيل، تبدو عليه مشقة الدراسة وتحمل الأعباء
مما جعل للناظر إليه أن يحصى ضلوعه من خلال جلده، إلا أنه رغمًا من ذلك
يصحبه دومًا شباب يافع، وصوت رائق، وخبرة عميقة بنصوص الكتاب المقدس
في لغتيه اليونانية والعبرية، واللتين كان يجيدهما حق الإجادة مما ساعده على

(١) قارن النص الأصلي المرجع السابق ص ٩:

Papst، Vater aller verleugneten Christen،
geschändet werde dein verfluchter Name،
dein Reich komme in die Hölle،
dein teuflischer Wille muß bald vergehen.
Unser täglich Brot geb dir Gott nicht.
Und erlaß uns unsere Schuld nicht durch deinen verlogenen Ablass،
wie wir dir auch nicht vergeben haben، dass du uns nicht mehr
müssest führen in Versuchung.
Sondern erlöse uns Gott von deinem Übel. Amen.

تكوين مخزون لغوى لا ينضب، وكان سلوكه تجاه من حوله مشوبًا بالود والأدب الجم، وكان اجتماعيًا ومخالطًا لجماهير الناس، يقول الدعاية والمزحة بوجه بشوش، إلا أنه لم يتورع فى نفس الوقت إذا لزم الأمر عن التلطف بتعبيرات لغوية شرسة وقاسية ضد خصومه، الأمر الذى لم يتعوده الناس أن يصدر من أحد رجال اللاهوت.^(١)

نود بداية أن نؤكد أن لوتر ظل طوال حياته مخلصًا وشاكراً لما تعلمه فى بيت والديه، وخاصة ما غرسه الأم فى عقله ووجدانه، رغم ما عرف عنها من ولعها بأعمال السحر والشعوذة والشياطين، إلا أنها كانت تسحره وأقرانه الأطفال بالكثير من أقاصيصها وأمدت ابنها لوتر بالعديد من الأقاصيص السائدة آنذاك، وكان إنصاته لها فاتحة الطريق للتعرف على طريقة جماهير الناس، الأمر الذى ساهم فيما بعد فى تأثير قوة الكلمة عند الجماهير وكيفية الوصول إلى قلوبهم وإيقاظ مشاعرهم.

تعلم لوتر فى السنوات ١٥١٨-١٥٢١ العبرية واليونانية، ويذكر أنه قد استوعبها على مدى عام واحد، مما أهله فيما بعد لترجمة الكتاب المقدس إلى الألمانية.

وإذا ما أراد المرء أن يتعرف على المزيد من لغة لوتر ومراحل تكوينها، فلا بد من العودة إلى البداية لنأمل سيرته الذاتية ومراحل حياته التى عاشها فى منطقة شرق ووسط ألمانيا، وهى المنطقة التى سادت فيها لغة أهالى تورنجيا وسكسونيا، والتى اتسمت بأنها لغة الأدب الرفيع لأهم ولايات وممالك ودويلات ألمانيا تحضرًا وتقدمًا. وما من شك فى أن ذلك كان من الأمور التى ساعدت على تنمية وعيه اللغوى، كى يسمو فيما بعد بوحدة اللغة وإدراك دورها وأثرها الأدبى والسياسى والاجتماعى، وليتغلب بها على الشتات والتشرذم الذى كان يعيشه الشعب الألمانى آنذاك.

(١) قارن المرجع السابق ص ٨ وما بعدها.

في عام ١٥٢٥ تزوج من الراهبة كاترينا فون بورا Katharina von Bora، التي كانت صاحبة الفضل في تجميع خطبه وأحاديثه وعظاته، التي كان يؤديها مع ضيوفه، والتي أنجبت له ستة من الأولاد والبنات، الذين تم إنجابهم في الفترة من ١٥٢٦ - ١٥٣٤،^(١) وفي هذه الفترة ظهر له أول مؤلف بالألمانية عن شرح مزامير التوبة السبع، الذي يرى المؤرخون أنه أول محاولة لمارتن لوتر لترجمة نصوص الإنجيل فيما بعد "Auslegung der sieben Bußpsalmen"، ولتدعيم حركة الإصلاح قام لوتر بتأليف سلسلة من الرسائل والكتب ابتداءً من عام ١٥٢٠، أنجزت بعد حوارات لبيبترج المفتوحة مع الدكتور "إيك" Eck والدكتور "كارل شتات" Karlstadt وتحت إشراف رئيس جامعة ليبترج آنذاك الدكتور "موزيلانوس" Mosellanus " والتي استمرت من ٢٢-٦ حتى ١٥-٧-١٥١٩، لينطلق الدكتور "إيك" بعدها إلى روما ويستصدر من البابا قرار حرمان لوتر وإخراجه كلية من حظيرة المسيحية في ١٥-٦-١٥٢٠. ومن أهم المؤلفات التي أصدرها لوتر:

- "عظة عن الأعمال الصالحة" "Syrmon der guten Taten"، وقد كتبها لوتر كتوطئة لمؤلفاته الإصلاحية، وفيها تستبين روحه المبدعة وكأنها معين لا ينضب، ويقول: "لديّ يدٌ لا تمل من الكتابة وذاكرة حاضرة، حيث إنني عندما أكتب، يتدفق إلىّ سيلٌ من المعاني والأفكار دون جهد أو عناء."^(٢)

- "عن السبي البابلي للكنيسة" "Von der Babylonischen Gefangenschaft der Kirche"

- "إلى نبلاء المسيحيين للأمة الألمانية" "An der christlichen Adel deutscher Nation"

(١) قارن Arndt، a.a.O.، ص ٢٣.

(٢) قارن النص في مصدره الأصلي:

Wirklich heißt es: "Ich habe eine rasche Hand und ein promptes Gedächtnis، wenn ich schreibe، so fließt mir es nur so zu. Ich brauche nicht zu pressen und zu drücken." Landgraf، a.a.O.، S.143 .

- "عن حرية الإنسان المسيحي" "Von der Freiheit eines Christenmenschen"

وهي مؤلفات كُتبت باللاتينية، ثم تُرجمت إلى الألمانية. تلا ذلك العديد من المؤلفات ابتداء من ١٥٢٤-١٥٣٠ من أهمها "مواعظ الدعوة للسلام"، وكتب أغاني الأطفال الكنسية والصلوات وقواعد تعليم العبادة المسيحية الكبيرة والصغيرة. وتعتبر هذه الفترة فترة خصبة للإنتاج العلمي لمارتن لوتر، حيث شرع في ترجمة العهد الجديد طبعة سبتمبر ١٥٢١، تلاها ترجمة ديسمبر ١٥٢٢ و انتهت الترجمة الكاملة في ١٥٢٤. إلى جانب هذا فقد قام بتأليف الكثير من أغاني أعياد الميلاد والمواعظ وأساطير الأطفال و"رسالة المترجم" "Sendbrief vom Dolmetschen"، التي أوضح فيها مهام وواجبات المترجم، يضاف إلى هذا الثراء اللغوي، قيام لوتر بالعديد من الرحلات لأهم المدن الألمانية ومراسلاته الكثيرة مع العلماء المؤيدين منهم والمعارضين على السواء، في داخل ألمانيا وخارجها.

في عام ١٥٤٥ ظهر له آخر كتاب بعنوان "ضد بابوية روما - إهداء من شيطان مارد"

„Wider des Papsttum zu Rom – Von Teufel gestiftet“

وهو الكتاب الذي يمثل قمة نضاله وصراعه ضد البابوية بالألمانية.

ظهرت أول طبعة للإنجيل أعدها في حياته في صيف ١٥٤٦ أي بعد موته ببضعة شهور (مات في ١٥٤٦/٢/١٨) في مدينة أيسلين Eisleben ودفن في كنيسة القصر في مدينة فيتنبرج Wittenberg (١٥٤٦/٢/٢٢).

و يذكر المؤلفون أنه قد تم تجميع مؤلفات لوتر فيما سُمي بالطبعة الفايمارية، نسبة لصدورها في مدينة فايمار Weimar عام ١٨٨٣ والتي يرمز لها بالاختصار WA، وتعني طبعة مدينة فايمار، وشملت عشرات المجلدات (١٠٦ مجلدًا) تحت مجالات أربع:

- المجال الأول تضمن الأعمال الرئيسية، (Ausgabe.Weimarer (WA)

- المجال الثانى تضمن ما يسمى بخطب المائدة (Tischreden (TR .

- المجال الثالث تضمن الإنجيل الألماني (Bibel (B.

- المجال الرابع تضمن الرسائل (Briefe (Br.

وقد يكون من المفيد للقارئ أن يعلم، أنه قد ظهرت أكثر من أربعمئة طبعة من أجزاء الإنجيل التى تمت ترجمتها فى حياة لوتر، أى حتى وفاته عام ١٥٤٦ وظهر ما يربو عن ٣٧٠٠ طبعة حتى عام ١٩٦٦ لأعمال لوتر. الأمر الذى أدى إلى ازدهار وارتفاع مكانة مدينة فيتنبرج Wittenberg كمدينة رائدة فى الطباعة، بفضل لوتر وأعماله وارتفاع الطباعة بوجه عام على مستوى ألمانيا، و خاصة طباعة الأعمال المؤلفة باللغة الفصحى، والتى شارك فيها كافة طبقات المثقفين من وسط ألمانيا وجنوبها، وهو الأمر الذى أدى إلى أن تكون اللغة الفصحى هى المعيار القومى، واستطاع الكتاب الألماني أن يتفوق على نظيره اللاتينى، بل ويحل محله. لقد ارتفعت مكانة اللغة الألمانية بفضل ترجمة لوتر للإنجيل، وصارت بذلك أحد أهم اللغات المقدسة شأنها فى ذلك شأن العبرية، والعربية، واليونانية، واللاتينية. و كان لوتر بجيد اللاتينية ويتحدثها كلغته الأم، ويذكر أن مراسلاته التى أخصيت بلغت ٢٥٣١ رسالة، ذُوْن أكثر من نصفها باللاتينية، لأنه كان كثيراً ما يكتب بها إلى العديد من الجامعيين المثقفين. لقد كان من فضل لوتر أنه بداية من منتصف القرن السادس عشر، ازدادت أهمية اللغة الألمانية عن اللاتينية من جراء تيسير فهم موضوعات العقائد وقضايا الإصلاح، التى أثارت اهتمامات الكثيرين من طوائف وطبقات المجتمع، وأدى ذلك بعدها إلى أن تحل الألمانية محل اللاتينية فى الجامعات ومختلف المؤسسات التعليمية، ولم يكن ذلك ليحدث إلا بما أبدعه لوتر فى ألمانيا الممزقة إقليمياً .

٢.٢ وظيفة اللغة فى دعم قضية توحيد الألمان

لقد أدرك لوتر إدراكًا تامًا أحوال اللغة فى عصره، وجاهد لى يتحدث بها الشخص العادى عند احتكاكه بالآخرين، حتى يساعد ذلك فى فهم كل منهم للآخر، وخاصة حينما ساد طبقات المجتمع الدنيا من سكان المدن والقرى التكلم بلغة أقرب إلى العلمية، ذات الصلة بالفوارق اللغوية والاجتماعية المرتبطة بالحدود الجغرافية ارتباطًا وثيقًا. وحاول لوتر أن يخلق نوعًا من الطموح بين هذه الطبقات، فى استخدام اللغة الأدبية كلغة تفاهم، والتي يمكن بها تجاوز الحدود الجغرافية الضيقة الخاصة بالولايات الألمانية، وهى اللغة التى أراد لها لوتر أن تكون المعيار القومى.

لقد ركز لوتر على أسلوب حوار الإنسان العادى، وأن يكتب ويتكلم بطريقة مفهومة. ويروى عنه أنه أثناء ترجمته للكتاب المقدس بقلعة الفارتنبورج Wartburg كان يطلب من صديقه العالم اللغوى الكبير شبالاتين Spalatin دعمه بالكلمات البسيطة، كلمات عامة الشعب، وليست كلمات القصور والبلاط وعلية القوم، وكذلك إمداده بمسميات الحيوانات والطيور والزواحف التى وردت بالإنجيل، وحتى لا يختلط عليه الأمر بمسمياتها العبرية واليونانية واللاتينية، بل يذكر أيضًا أنه كان يستعين بأحد الجزارين لمعرفة أسماء أجزاء الذبيحة ومكوناتها، ولهذا ترك مارتن لوتر ترجمة الفولجاتا ولم يعرها أى اهتمام، وهو الاتجاه الذى جعل من ترجمته للإنجيل ميزة كبيرة فى لغتها لم يصل إليها أحد من قبل، واضعًا نصب عينيه أن يجعل من نص الكتاب المقدس نصًا لعامة الشعب، ويستطيع قراءته البسطاء من الناس.^(١) ينجح لوتر فى السنوات الأخيرة من حياته، وبمساعدة رفيقه على الدرب العالم اللغوى يوهانس أجريكولا Johannes Agricola، وأستاذه يوهانس لانج Johannes Lang، وفيليب ميلانشتون، خاصة فى الأعوام ١٥٢٨

(١) قارن النص فى مصدره الأصلى:

So heißt es: „Luther wollte die heilige Schrift zum Volksbuch machen, auch der Ungebildete sollte verstehen, was er las.“ Schreckenbach, a.a.O., S. 16.

و ١٥٢٩ فى جمع العديد من المأثورات والمُلح والحكم والأغاني الشعبية التى تجاوزت المئات، وتم طبعها فى موطنه، فى موطن الطباعة الأول مدينة فيتنبرج، وبهذا جعل لوتر اللغة الأدبية وسيلة مرغوبة وجذابة للتفاهم بين كل طوائف الشعب و قاسمًا مشتركًا فى المؤسسات التعليمية.^(١)

تلقى مارتن لوتر مساعدات عدة من معلميه فى تحصيل وتعلم اللغة الأم، وغيرها من اللغات الأجنبية، فقد حصل فى اجتهد منقطع النظر قواعد اللغة اليونانية من أستاذه يوهانس لانج Johannes Lang وفيليب ميلانشتون Philippus Melanchthon، وكان ذلك بداية لتأليفه العديد من الكتب والرسائل؛ مثل "رسالة إلى المترجم"، و"رسائل إلى نبلاء الأمة الألمانية المسيحيين"، و"مقدمة فى السبى البابلى للكنيسة". وقد أظهرت هذه الكتابات من وجهة نظرنا، مدى الوعي القومى عند مارتن لوتر، حتى أن البعض اعتبره آنذاك متحدًا رسميًا للأمة الألمانية، لأنه كان يحمل فى قلبه ووجدانه حبًا غامرًا لأمته، وأنها الأمة المناط بها إصلاح الكنيسة من عبث الرومانيين وضلالهم، وكان سلاحه فى كل ذلك حججه القوية مدعمة بلغته الحية والمؤثرة. (ونذكر فى هذا الصدد أن كتابه الموجه إلى نبلاء الأمة الألمانية، طُبعت منه ٤٠٠٠ نسخة نفدت فى خلال ثمانية أيام رغم قلة من كانوا يستطيعون القراءة آنذاك. ويعبر لوتر فى هذا الكتاب بقوله: "لقد مددت يدي إلى خصومى بالسلام مرارًا وتكرارًا، ولكنى أعتقد أن الله قد منحنى التصميم على الحق، والدفاع عنه، ولن أصمت أبدًا"^(٢)). وتبلغ قمة قوة الكلمة لدى لوتر، وعظمة

(١) على سبيل المثال:

„Gott allein ist die Weisheit. Das Wort Gottes bleibt, solange die Welt steht. Die beste Tugend ist die Geduld. Wo du nicht Herr bist, da lass einen jeglichen geben, tun und machen, wie er will. Undankbarkeit ist das allerschändlichste Laster. Keine Liebe ohne Leid. Ein gutes Werk, ist das, was anderen wohltut. Du schadest dir selbst am allermeisten, wenn du einem anderen schädigst. Gott schütze mich vor meinen Freunden- wider meine Feinde wehre ich mich selber. Was verboten ist, dagegen handelt man besser.“

مزيد من التفصيلات انظر أيضًا:

<http://berg.heim.at/tibet/450000/god/luther-sprueche.htm>

و أيضًا: a.a.O., Thomas, Maess, ص ٩٧ وما بعدها

(٢) قارن النص فى مصدره الأصيل:

سلوكه الذى لا يعرف الخوف منتزعا بذلك نصرا ساحقا ليصبح بطلاً للأمة الألمانية، وذلك بدفاعه الذى عبر عنه باللاتينية والألمانية، حينما طلبت منه الكنيسة سحب مؤلفاته، وتراجع عما جاء بها فيقول أمام نواب البرلمان والقيصر ما نصه: "يا صاحب السمو والجلالة الملكية تريدون إجابة واضحة وبسيطة وسوف أفعل، وهى أننى على اقتناع تام بما كتبت لأسباب واضحة وجليّة ممثلة فى أننى لا أؤمن بالبابا أو بهذه المجالس الملكية، لأن من تولوها ضلوا كثيرا [...]. ولأننى أثناء كتابة هذه المؤلفات كنت متأثرا بإيحاء من الله وكلمته، [...] وإنى لا أريد أن أتنازل عن أى شيء كتبت لأن هذا سوف يكون شؤما وخطرا يودى بى إلى إتهال كاهلى وضميرى بالهموم، فليساعدنى الله. آمين!"^(١)

لقد ارتبط مارتن لوتر بكيان اللغة، وبالكلمة وقوتها، ارتباطاً وثيقاً، وهو أمر طبيعى وبديهي، انطلاقاً من طبيعة مهنته، وجاءت إجادته للغة من خلال دراسته المتعمقة لعلوم اللاهوت، وإدراكه لدور اللغة وتأثيرها الفعال، فى التفريق بين لغة علم اللاهوت ولغة الخطباء والوعاظ. يمثل هذا الارتباط الوثيق مركز النقل عند لوتر كمصلح ومحرك لحركة التجديد التى قام بها تجاه الكنيسة، وما عم بها من فساد. وقد كانت قوته اللغوية التى كتب بها مؤلفاته مثيرة للقلق، ومقلقة للمضاجع.

احتلت ترجمة الإنجيل إلى الألمانية أعلى مرتبة لأنها تضمنت كافة الدوافع اللاهوتية، والتى على اللغة الألمانية أن تبرزها، حتى يكون لها التأثير المطلوب على الحياة اليومية والعامة لكافة طبقات الشعب الألمانى، ومن هنا حتم هذا العمل، الفريد من نوعه، على لوتر كمترجم أن يقدم صورة عالمية وأدبية فائقة لتاريخ

Es heißt : Luther macht sich hier zum Sprecher des deutschen Volkes, trägt alle die Klagen vor, die lange schon die unsichtigen Freunde des Vaterlandes gegen Rom auf dem Herzen hatten.“ Schreckenbach, a.a.O. S. 12f.

(١) قارن:

Meisner, Michael: Martin Luther Heiliger oder Rebell, Leipzig, S.83

انظر النص الكامل للخطاب فى:

Gremmels, Christian: Luther- Lesebuch, Darmstadt, 1983, 43ff

قارن أيضاً: ول ديورانت ج ٣، مجلد ٦، ص ٤٢.

البشرية من خلال محتوى الإنجيل. ويقول لوتر في هذا الشأن: "يمكننا عن طريق الكلمة أن نجعل من العالم فكرة هادفة، وبها يمكن أن نعيد إلى الكنيسة قدسيتها وتطهيرها"، وهو يعنى بمصطلح الكلمة "الله" ويعنى أيضا الجانب اللغوى، وهو الاهتمام من خلال الكلمة بعلوم اللاهوت: "فى البدء كانت الكلمة..." فالإنجيل بذلك يمثل لدى لوتر الكلمة الدنيوية لكلمة الله، والتي لم يجدها لوتر فى محتوى المراسيم البابوية، أو محاضر اجتماعات رؤساء الكنائس أو المجالس الملكية أو فى الشعائر أو الطقوس، ومن هنا كانت مناداة ومناشدة لوتر المؤمنين الإحاطة بكلمة الله. لقد اكتسبت اللغة الألمانية أهميتها ومكانتها بهذا التاريخ الثقافى لترجمة الإنجيل، وارتباط فحواه، لأنها أصبحت لغة عموم الشعب، ووسيلة التفاهم وإدراك معانى المصطلحات والمفردات الواردة بالإنجيل.

لعبت اللغة عند لوتر دورًا لا يستهان به، فى صياغته للحجج الخمس والتسعين، والتي صاغها باللاتينية ضد صكوك الغفران، والتي سرعان ما ترجمت فى خلال أسبوع إلى الألمانية، وانتشرت كانتشار النار فى الهشيم فى كل أنحاء ألمانيا ليقراها العامة والخاصة، والتي أصبحت فيما بعد القوى المؤيدة له فى رفضه لسلطة البابا والكنيسة، بل ويرى الكثير من المؤرخين أن الإصلاح الذى نادى به وحققه، لم يكن ليحالفه النجاح لولا قوة الكلمة والحجة اللغوية، واستعماله اللغة الألمانية. لقد نحا لوتر فى استغلال اللغة اتجاهين، الأول: إعادة النظر فى شرح المفاهيم والشعارات اللاهوتية التى كانت تحصن الكنيسة بها سلطتها وتأثيرها، وخاصة فيما يمس فرض صكوك الغفران وجسد المسيح وأكل الربا. وهى اللغة التى كان يستعملها بابا روما كلغة يخفى بها حقائق الأمور. ونجح لوتر فى معركة اللغوية هذه بعد تقديمه فهمًا دقيقًا وبرهانًا دامغًا ضد تعاليم البابا والكنيسة الكاثوليكية. وبذلك حاول لوتر من خلال هذا الشرح المبسط للعديد من الكلمات والمصطلحات والمفاهيم، القضاء على كل ما يراه غير صحيح فى مهده؛ الاتجاه الثانى: استغلال لوتر لقوة الكلمة ليغير من خلالها أفكار الناس وآرائهم، عن أمور علقت وتأصلت فى عقولهم عبر توجيهاته وأحاديثه المدعمة بالتراكيب العديدة والمتنوعة للكلمة واستخدامها استخدامًا صحيحًا، وحتى يتسنى له بذلك حرية التعبير

عن مشاعرهم وعواطفهم الإنسانية، وكان سلاحه في كلا الاتجاهين الحوار،
كسلاح ماضٍ يتسلح به معلمو التربية الدينية.

ولا يمكن لأحد أن ينكر الاختراع الذي أنجزه يوهان جينزفلايش فون
جوتنبيرج، Johann Gensfleisch von Gutenberg للطباعة بحروف
متحركة، والذي أدى إلى أن أصبحت الكلمة المطبوعة متاحة لفئات كثيرة، بعد أن
تم كسر احتكار الأديرة لإنتاج الكتب والإقلال من دور الكنيسة، كحاملة رئيسية
لوظيفة التعليم على مدى قرون طويلة، والذي سنعرض له بالتفصيل على
الصفحات القادمة.

٢. ٣ اللغة والمزامير الدينية والغناء الجماعي والموسيقا

كثيرا ما كان مارتن لوتر يتساءل عن الكيفية التي يتكلم بها المواطن الألماني
في موقف ما، وكان ذلك شغله الشاغل الذي حاول الإجابة عليه من خلال مؤلفه
عن الأناشيد الدينية عام ١٥٣٥ Summarien über die Psalmen. وكان يهدف
من وراء ذلك أن يكتب بالقوة اللغوية، التي تتيح له القدرة والإمكانية على التفاهم
مع قرائه ومستمعيه من طبقات الأمة كافة، وحاول تحقيق ذلك ليس من خلال
أسلوب واضح وسهل فقط ، وإنما من خلال ما يتركه هذا الأسلوب من أثر فعال
عليه.

لقد أبانت الدراسات البحثية في تاريخ اللغة الألمانية، عن تفرد وتميز
مارتن لوتر بامتلاك لغة خاصة به، حتى أن العديد من المؤرخين انتهوا إلى الرأي،
بأنه يستحق دون منازع أن يطلق عليه مبدع ومجدد اللغة الألمانية الحديثة، وذلك
بعد أن وضع معياراً قومياً موحداً للغة الأدبية. ويذكر الباحثان، جيزيلا براندت
Gisela Brandt وإرفين أرندت Erwin Arndt أنه قد صدر في سبعينيات القرن
العشرين ما يزيد عن ٤٥٠ مؤلفاً، بمناسبة الاحتفال بمرور خمسمائة عام على
ميلاد لوتر وحركة الإصلاح الديني، ويرجعان ذلك إلى أنه لم يكن لأديب أو لشاعر،
بدءاً من العصر الوسيط وحتى العصر الحديث، الأثر العميق والخالد حتى يومنا

هذا، مثلما كان لمارتن لوتر، وذلك لما تضمنته مجمل أعماله عن الأوضاع الاجتماعية لأمتة ناقدًا لها كعالم دين، وكأستاذ جامعي، وكواعظ، وكأديب، وكمترجم بارع للإنجيل، وكمؤلف للعديد من الأغاني والأنشيد الكنسية المستقاة من الإنجيل وانسحابها على القضايا التاريخية للعصر^(١).

كانت اللغة بالنسبة للوتر ساعده الأيمن، حينما وجه تركيزه لفهم العقيدة من خلال نصوص الإنجيل باعتبارها وحيا إلهيا، متجنبًا بذلك كافة الاتجاهات الفلسفية الإنسانية آنذاك. ونما تأثره اللغوي المبكر من قراءته واقتدائه بكبار المتصوفين معتبرًا ذلك مثله الأعلى، وعلى رأسهم لمتصوف الأملنى لكبير يوهانس تاولر Johannes Tauler، والذي استفاد من مواعظه، أثناء إقامته الجبرية بقلعة الفارنبورج Warteburg عام ١٥٢١. وبدأ هذا التأثير واضحًا عام ١٥١٨ في المقدمة التي كتبها هذا الصوفي، والتي أسماها "اللاهوت الألماني" "Eyn deutsch Theologia"، والذي مدحه مارتن لوتر باعتباره من الرسائل المهمة، والخادمة للإنجيل مثلها في ذلك مثل مؤلفات القديس أوغسطين Augustin^(٢). ولهذا لم يكن مستغربًا من مارتن لوتر بعد الجهد الشاق الذي بذله في تعلم العبرية من خلال العهد القديم، واليونانية من خلال العهد الجديد، إلى جانب اللاتينية والتي ترجم الإنجيل إليها مرات عديدة سابقة، أن تؤدي به المناشدة العاجلة، لفهم واستيعاب نصوص الإنجيل فهمًا صحيحًا، وللمطالبة عند أمراء وحكام الولايات والمدن الألمانية ببناء المزيد من المدارس، لدراسة هذه اللغات على مستوى جماهيري.

لقد تعلم لوتر من تأملاته وتعمقه في دراسة العهد الجديد، أن هناك روايات متعددة من إنجيل لآخر، وأن معرفتها واستيعابها ليس مرتبطًا بالضرورة بصياغة ما أو بلغة ما، لهذا أقدم على ترجمة الإنجيل إلى لغته الأم، انطلاقًا من مقولته الأساسية في علم الترجمة، بأن الكلمة هي خادمة المعنى وليس العكس^(٣).

(١) قارن:

Arndt, Erwin/ Brandt, Gisela, a.a.O., S. 9ff

(٢) حازت كتابات يوهانس تاولر اهتمامًا كبيرًا عند لوتر، ولم يكن مستغربًا أن تعتبر الكنيسة الكاثوليكية كتابه هذا المشار إليه في القرن السادس عشر من كتب الهرطقة. مزيد من التفاصيل أنظر:

www.heiligenlexikon.de/Biographien/Johannes_Tauler.html

(٣) المرجع السابق ص ١٨:

"das nicht der sinn Worten / sondern die Wort / den sinn dienen und folgen sollen."

ولقد استبان له دور وظيفة اللغة، ليس فقط في مجال الاتصال والتفاهم بين الناس، بل على أساس ألا يتفصل هذا عن دورها في مجال المعرفة واكتسابها، ولم يكن ذلك من فراغ، بل جاء من خلال نشاطه الدائب بين الناس عن طريق اللغة. وهذا ما جعله يبتعد عن الفلسفات اللاهوتية ويعرض عن فلسفة أرسطو، ليركز في مقابل ذلك على دراسة الإنجيل ولغته وجعلها في مكان الصدارة. ويرى بعض المؤرخين أن لوثر بذلك قد مهد الطريق للعالم اللغوي الكبير فيلهيلم فون هومبولت Wilhelm von Humboldt في القرن التاسع عشر، في التمييز بين اللغة كعمل واللغة كفعل ونشاط. وقاده ذلك إلى أن يساوى في محاضراته التي كان يلقيها عن الأناشيد والمزامير الدينية ١٥١٣-١٥١٤، بين الكلام والفعل (Sprechen und Tun)، ومن منطلق أن أفعال الرب ماثلة في عباراته، وحين يصمت الرب ولا يتكلم فهو إذن يعرض عن الناس. ولم يكن من المستغرب أن يؤكد ذلك الباحث بيتر ماينهولد Peter Meinhold في كتابه "فلسفة اللغة عند لوثر": "إن تأملات وأفكار فلسفة لوثر اللغوية وصلت إلى أعلى قممها، في إبراز الوظائف الخلاقة للكلام الإنساني ومن خلال الدور الحي والفعال للكلمة".^(١)

كم كان لوثر فخورًا في مديحه للكلام الإنساني بوجه خاص، وخاصة لشعر المزامير، والأغاني الكنسية، والتي رأى فيها قوة جاذبة مجدها في مقدمته لكتاب المزامير ١٥٢٨ فيقول: "ليس هناك أقوى وأعظم لدى الإنسان من قدرته على الكلام، وهي الصفة المميزة له والتي تميزه عن غيره من الحيوانات".^(٢)

كانت ريادة لوثر اللغوية مبرزة لدوره القيادي في عصره كمتحدث ومناقش ومجادل، ويروى عنه مقولته الشهيرة: "إن الشيطان لا يخشى روجي وفكري بقدر ما يخشى لغتي وقلمي حين أكتب".^(٣)

(١) S. 9 ff., Berlin, Peter Meinhold: Luthers Sprachphilosophie

(٢) قارن النص الأصلي a.n.O., Arndt, Erwin، ص ١٩:

„und kein kräftiger noch edler Werk am Menschen ist, denn reden, sentimal der Mensch durchs Reden von anderen Tieren am meisten geschieden wird, mehr denn durch die Gestalt oder andere Werk.“

(٣) قارن النص الأصلي، المرجع السابق ص ١٩:

وهذا مما جعل لوتر يلتزم بكل دقة في الحفاظ على سلامة لغته المنطوقة، وأن يكون قادرًا على انشاء واستخدام تركيبات لغوية واضحة، يفهمها الجميع، وهو الأمر الذي أكدته العلامة اللغوي الكبير ياكوب جريم Jacob Grimm في مقدمة معجمه الألماني حينما قال:

"لا تزال لغة لوتر في ترجمته للإنجيل نابضة بالحياة، رغم أن فهمها واستيعابها يرتبط بسياق عصرها، وهي بنقائها وصفاتها الأصل وتأثيرها القوي تمثل الأساس والنواة لفصحى الألمانية الحديثة".^(١)

وضع لوتر نصب عينيه تبسيط النصوص، من أجل فهم أفضل للرجل العادي وللأم في المنزل وللأطفال في الأزقة، مثلما حدث في صياغته لحديث الملاك الموجه إلى السيدة العذراء:

"سلام الرب لك يا مريم..."

ولم يكتف بذلك، بل طلب أن يفعل صديقه شبالاتين Spalatin نفس الشيء وأن يعيد صياغة المزامير إلى أغان كنسية ترددها طبقات الشعب بشكل ميسر ومتداول. وحين واجه لوتر ترجمة مينتيل Mentel اللاتينية للإنجيل عام ١٤٦٦ وجد بها الكثير من الغموض، الذي يؤدي لسوء فهم النص، مما حدا بلوتر أن ينحو منحى لغويًا سهل الفهم والاستيعاب لعامة الشعب، ولهذا أخذ على عاتقه مواصلة رعاية وصيانة كل ما جاء في الكتاب المقدس، بعد دراسة ومتابعة نظم وأساليب اللغة العبرية واليونانية واللاتينية، وأدى هذا بدوره إلى انصهار عديد من الترجمات، جعلت لغة لوتر بمثابة نبع جديد للغة، نبع يعطي التأثير المطلوب كمصدر للتفاهم، وبه يستطيع الناس التكلم بوضوح، وأن ما يكتب يفهم من الجميع ويحقق التأثير المرجو منه. كان يستعمل لغة الأدب المناسبة المطابقة لمقتضيات التفاهم بين الناس، وخاصة أولئك الذين لم يتح لهم الحصول على قدر كاف من

„Der Teufel achtet meinen Geist nicht so sehr als meine Sprache und feder in der Schrift. „

(١) قارن: Jacob Grimm: Deutsches Wörterbuch، 1845، S. 25.

التعليم الدينى، وحتى يمكن للرجل العادى أن يصبح مسيحيا صالحًا. وكما سبق أن أشرنا إلى أهمية موقع وطن لوثر الجغرافى واللغوى وانتشار مراكز الطباعة الكبرى فى المدن الرئيسية الواقعة على أنهار الراين والماین والإلبى والزالى فورمس Worms، فرانكفورت Frankfurt، شتراسبورج Strassburg، تورجاو Torgau، فيتبرج Wittenberg، إيرفورت Erfurt، كوبورج Coubourg، ايزناخ Eisnach، فايمار Weimar، ليبزيج Leipzig .

وكان لإنشاء الجامعات الألمانية فى مدن: إيرفورت Erfurt ١٣٧٣، ليبزيج Leipzig ١٤٠٩، فيتبرج Wittenberg ١٥٠٢ دور مهم فى تخريج القساوسة وأهل الإدارة والموظفين ومقصد الآلاف من الدارسين، ونذكر على سبيل المثال لا الحصر أنه كان يدرس بجامعة فيتبرج Wittenberg أربعة آلاف طالب، وهم يمثلون ضعف سكان المدينة آنذاك. حاول لوثر تطوير اللغة كأستاذ بالجامعة، خلفاً لأستاذه ومدعمه يوهان فون شتاوبيتس Johann von Staupitz (أستاذ الكتاب المقدس بجامعة فيتبرج Wittenberg وهو المنصب الذى تقلده لوثر حتى وفاته) من كونها لغة الوثائق والأعمال التجارية، إلى لغة الوعظ والأدب الدينى والدنيوى، مستنداً فى ذلك على لغة وطنه، شرق ووسط ألمانيا، وساعده فى ذلك حركة الإصلاح التى بدأها والتى أدت إلى ازدهار مدينتى فيتبرج وليبزيج Wittenberg، Leipzig وكانتا مقصد الأساتذة والطلاب وأهل الطباعة ودور النشر والتجار من بقية أقاليم ألمانيا، وأدى هذا كله إلى تقارب الصيغ اللغوية فى المجال المكتوب والمنطوق، ولهذا يرى الكثير من المؤرخين أن لهجة شرق ووسط ألمانيا هى المصدر الأساسى لنشأة المعيار القومى للغة الأدب. ويذكر لوثر فى هذا الصدد وجهة نظره، التى ترى أن "اللغة فى حد ذاتها لا تصنع عالماً فى اللاهوت، ولكنها وسيلة مساعدة لذلك. وإذا ما أراد المرء التكلم أو التحدث عن أمر ما فلا مفر من أن يتيقن من معرفة هذا الأمر وفهمه، قبل أن يتحدث عنه"^(١): "لم أكن أتحدث

(١) قارن النص فى مصدره الأسمى:

„Die Sprachen machen für sich selbst keinen Theologen, sondern sind nur eine Hilfe. Denn, soll einer von einem Dinge reden, so muß er die Sache zuvor wissen und verstehen.“ (Macss, Thomas, Dem Luther aufs Maul geschaut, a.a.O., S. 77)

لغة خاصة بي، ولكنى تحدثت الألمانية العامة والشائعة، والتي يستطيع أن يفهمنى من خلالها كل مواطنى جنوب وشمال ألمانيا. إننى أتحدث طبقاً لما هو فى الدواوين السكسونية، التى يسير على نهجها كل الأمراء والملوك والنبلاء.^(١) وكانت وجهات نظر لوتر هذه السبب فى اعتبار القيصر ماكسيميليان والأمير فريدرش حاكم سكسونيا الألمانية لغة ذات كيان مستقل فى الإمبراطورية الرومانية، وهنا يتمثل بجلاء دور لوتر فى عملية توحيد الأمة عن طريق لغة مشتركة، لغة أدب موحد، ولهذا لم تواجه ترجمة الإنجيل مصاعب كبيرة، بل حدث بها تقارب أكبر فى الثروة اللغوية.

٢. ٤ دور لوتر فى تطور مستويات اللغة الألمانية

تطورت اللغة الأدبية المحلية مع الألمانية العامة فى كافة الولايات الألمانية، بل وتجاوزت حدودها إلى أن وصلت إلى السلاف فى الشرق، والفرانكيين فى الغرب. وكما سبق الإشارة أن اختراع الطباعة بالحروف المتحركة عام ١٤٥٠ على يد يوهان جينزفلايش جوتنبرج Johann Gensfleisch Gutenberg كان له دور داعم، وفضل كبير، وإمكانيات أرخص، فى انتشار الكلمة المكتوبة، مقارنة بما كانت تتكلفه الطباعة اليدوية من مال ووقت، وبعد أن كانت الطبعة لا تتجاوز المائة أو المائتى نسخة، أخذت تتجاوز بعض الطبوعات الآلاف. نذكر على سبيل المثال كتاب لوتر إلى نبلاء الأمة المسيحية (١٥٢٠) ثلاثة آلاف نسخة، وعهد سبتمبر الجديد (١٥٢٢) خمسة آلاف نسخة، وهى طبوعات لا تقدر أعدادها حالياً بأى ثمن. كانت تتكلف طباعة النسخة من العهد الجديد نصف جولدن، وهو ما يعادل أجر عامل لمدة أسبوع. وفى عام ١٥٣٤ تكلفت اثنين ونصف جولدن، وهو ما يعادل ثمن خمسة عجول، وأصبح الكتاب بذلك سلعة تجارية مهمة، وأقيمت له المعارض الدولية فى ليبترزج وفرانكفورت، وازدهرت صناعة تجليد الكتب وفن الجرافيك والرسم، وبهذا أصبح للكتاب مهام جديدة فى مواجهة جمهور القراء.^(٢)

(١) قارن: S.58 Krell / Fiedler S.83 und Arndt / Brandt

(٢) قارن: Arndt / Gisela، ص ٦٣ وما بعدها.

وكان على لوتر أن يتخيل ما يهم القارئ فيما يكتب ويطبع، وخاصةً المواعظ والرسائل التي مثلت نقطة تحول مهمة وجوهرية ومباشرة ومحسوسة في الاتصال بال جماهير.^(١) وليس من باب الصدفة أن تكون تأملات لوتر وتوجيهاته للأُم في البيت وللرجل العادي في الشارع أو السوق وللأولاد في الأزقة بمثابة المقولة التاريخية، التي قدم بها مؤلفه "رسالة إلى المترجم"، ويدافع فيها عن ترجمته للكتاب المقدس موضحاً أنه على الإنسان ألا يسأل حروف الألفبائية اللاتينية، كما يفعل حمير هذا الزمن، ولكن عليه أن يتجه إلى هؤلاء الناس.^(٢) لقد أدت الطباعة إلى وصول الألمانية المطبوعة إلى كل أجزاء المناطق المتحدثة بالألمانية، وبدونها ما كان للإصلاح الديني أن ينجح، وبدونها أيضاً ما كانت لتنتعش طباعة الكتاب، لهذا يؤكد مارتن لوتر الأهمية البالغة لهذا الكشف العظيم، الطباعة بالحروف المتحركة، في خطبة له في اليوم الثاني من أيام أعياد البشارة، وأثناء إقامته في قلعة الفارتنبورج سنة ١٥٢٢. ولا شك أن هذا الاكتشاف يعد، من وجهة نظرنا، من أهم الإنجازات الحضارية الفائقة التي لا يعادلها شيء آخر حتى يوم البعث.^(٣) لقد غدت بفضلها كل أنواع الفنون في متناول الناس، وما ارتبط بذلك من لغات شتى ومن علوم الحكمة، والتي يرجع فضل بزوغها إلى هذا الكشف الجديد.

ومع مطلع القرن السابع عشر أصبحت اللغة الأدبية لغة تعبير، أكثر منها لغة تعليم، وتطلب ذلك رعاية فائقة من قبل النحويين والمعجميين ومديري المدارس والمطابع والشعراء والمفكرين. وكان ثمرة ذلك أن تأسست في ١٦١٧/٨/٢٤ أول جمعية لرعاية اللغة الألمانية تحت مسمى: "جمعية جنى ثمار اللغة" "Die Fruchtbringende Gesellschaft"،^(٤) التي كان من أحد مهامها العمل على استيعاب الألمانية لنص الكتاب المقدس بعد ترجمته بحرص وإتقان شديدين.

(١) يذكر جيرهارد ايبلينج في مؤلفه عن لوتر أنه بمجرد أن تشرع أحد مطابع مدينة فيتنبرج في طبع أحد رسائل لوتر، فسرعان ما تتبارى دور النشر وأصحاب المطابع في مدن أخرى مثل ليبتزج ونورنبرج وأوجسبورج وشتراسبورج وبازل في إعادة طبعها مرات ومرات.

قارن، ص ٥٦.

(٢) قارن: Maess: Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut، a.a.O.، ص ٥.

(٣) قارن: Arndt/ Gisela، a.a.O.، ص ٦٨.

(٤) قارن: المرجع السابق ص ٧٣.

ولقد قال العالم اللغوى المعروف يوستوس جيورج شوتيل Justus Georg Schottel بحق، أن لوثر هو الصانع الماهر للغة الألمانية التى غرس فيها كل ألوان الجمال والزخرفة والقوة والإبهار،^(١) صاغها فى العديد من مؤلفاته. لقد قدر لوثر قوة الكلمة حق قدرها، وأكد أنه أراد أن يتكلم ويكتب وأن يكون مفهوماً فى كافة أرجاء ألمانيا، من الأصدقاء والأعداء على السواء. كان لوثر يركز عاطفته وعقله على أساليب اللغة السائدة، وعلى القصد المراد مما يقال للجمهور وبمقتضى النظام اللغوى المتاح، كمتحدث وككاتب وكمترجم ليس المراد لديه، هو اتباع مدلول الكلمة، وإنما أن تكون الكلمة فى خدمة المعنى المراد. كان يسعى دائماً وراء تسلسل الأفكار. وإلى اختيار الكلمة وبناء وترتيب الجمل فى خطبه ومنشوراته الغنية بالمفردات وجزالة الألفاظ، وهو الأسلوب الذى اتبعه فى صياغة كتابى قواعد الدين المسيحى الكبير والصغير. وفى خطاب لصديقه فينسلويس لينك Wenzeslaus Link عام ١٥٣٥ ردد ندائه إلى ربه الرحيم، أن يوفق فى التحدث بالألمانية وألا يرى فيها صعوبةً أو طولاً أو ضحالة، مثلما كان يحدث بالنسبة للكثيرين فى صناعة الكتب باللغة اللاتينية. وعلينا الآن أن نتعلم بقوة كيف نؤلف الكتب بالألمانية. كان نداؤه إلى الله: "يا أبانا الذى فى السماوات، أعطنا خبزنا اليومى، الخبز الذى يغذى الجسد، من طعام وشراب وملبس وحذاء، من منزل وفناء وحقل وماشية ومال، وروحانية تقية وأبناء أتقياء صالحين وخدم أوفياء، وأولى أمر صالحين وحكام ملتزمين وطقس معتدل وسلام وصحة وتربية نافعة، وشرف ومعارف وأصدقاء كرماء وجيران أوفياء وبررة."^(٢) صاغ لوثر كتابى "التعاليم المسيحية" على هذا النحو، واعتبرا من الأعمال الخالدة له بسبب أسلوبهما المهذب والمنقح، وكثيراً ما كان يعاد طبعهما ونشرهما بعد موت لوثر حتى يومنا هذا. ونذكر هنا على سبيل المثال أنشودة الإصلاح المشهورة، والتى قام بتلحينها بنفسه: "إلهنا، حصننا المنيع، وسلاحنا وسندنا القوى..." وكان لوثر فى هذه الكتب يقتدى بعظات المسيح للشعب البسيط، بالأمثال والمأثورات والحكم،

(١) قارن: المرجع السابق ص ٧٤.

(٢) قارن: المرجع السابق ص ٨٤ وما بعدها.

وتقديم كل ما هو بهيج بالطبيعة، كمضى الليل وإقبال النهار. ساعد لوثر على هذا كله اتساع ثقافته وموقعه الوظيفي. وانتشرت آداب المواعظ في كافة أرجاء ألمانيا، وهي عادة ما كانت تختار من بين النصوص المترجمة من الإنجيل، وهي الترانيم التي كانت تقرأ أيام الأحاد والجمع وأيام الأعياد الكنسية طوال العام، وتمت صياغتها على غرار ما كان يقوم به يوهانيس تاوُلر Johannes Tauler. ويعكف لوثر، بعد حصوله على الدكتوراة في اللاهوت عام ١٥١٢ ويتقلد وظيفة الواعظ إلى جانب أستاذه بالجامعة، على جمع هذه العظات، التي بلغ عددها ١٩٧٨ موعظة، يضاف إليها ترانيم أخرى لأعياد البشارة والميلاد، واعتبرت من أهم الأعمال التي أنجزها ويقيمها العلماء كإسهام لغوي لا يقل شأنًا عن ترجمة الإنجيل وكتابي قواعد الدين المسيحي، وظهرت بعد موته في طبعات عديدة، لما تضمنت من حسن البيان اللغوي والتقبل والارتقاء لدى السامع. وينسحب نفس الأمر على المنشورات التي كتبها لوثر بنفس الأسلوب، ولقيت أيضًا إقبالًا كبيرًا، لأنها تؤدي إلى تقارب مباشر مع المستمع. وظهرت مع مطلع عام ١٥٢٠ ما سمي بحرب المنشورات الأدبية، بين لوثر ومناصريه ومعارضيه، وازدادت شدتها وعنفوانها سياسيًا وعقائديًا، وكانت تطبع وتوزع بسرعة الريح، وذات صفحات موجزة لا تتجاوز الخمسين صفحة. وكثيرًا ما كان يعاد طباعتها مئات المرات وفقًا لتخطيط كل فريق ووفقًا لاحتياج القراء. وكان مواطنو الطبقة المتوسطة هم المستهلكون الأساسيون لهذه المنشورات، تلاهم السادة النبلاء والأمراء. وعادة ما كانت تتضمن هذه المنشورات إبداعات أدبية في أبيات من الشعر الساخر، أو الرسومات والمواعظ الموجهة لأغراض ومقاصد محددة.^(١)

(١) يعتبر جيرهارد ايبيلنج Gerhard Ebeling أن هذا النتاج الأدبي جعل من مارتن لوثر أدبيًا وكتابًا بارزًا، لما تضمنه هذا النتاج من مبادئ وقيم حركة الإصلاح، التي قام بها والتي أظهر فيها عبقرية لغوية فائقة تجاوزت تعبيراتها أحيانًا الخطوط الحمراء، ويجد له العذر في ذلك باعتبار أن هذه التعبيرات كانت تمثل سمة من سمات لغة العصر. مزيد من التفاصيل:

So heißt es: „Luther als Schriftsteller ist begreiflicherweise vor allem durch seine reformatorischen Kampfschriften geprägt, in denen er ein geradezu unheimliches Talent schlagkräftiger Polemik entfaltete, zuweilen bis über die Grenze des Erträglichen.“ (Gerhard Ebeling, S. 50)

ويرجع لوتر أهمية المنشورات هذه، والتي صيغت من كلا الفريقين، إلى أنها ألهمت الوعي السياسى لدى عامة الشعب، وساعدت فى انتشار الألمانية على نطاق أوسع، بل وساعدت كمعيار لغوى موحد للأمة فى اجتياز الحدود الإقليمية وقد احتلت مساحات واسعة لدى الجمهور المستقبل، وهذا أدى بدوره إلى تطوير لغة الأدب وتعميمها على جموع الشعب فى فترة مليئة بالصراع. لقد أدت كتابة المواعظ والمنشورات الأدبية هذه دورها فى جعل لوتر شاعراً موهوباً يقرض الشعر الغنائى ويستخدمه فى الترتيل الكنسى وكوسيلة جيدة للاتصال بالجمهور، وكان لا ينافسه فى هذا الشأن سوى غريمه توماس مونتر *Thomas Müntzer* نصير الفلاحين، الذى قام بترجمة العديد من الأغانى الكنسية من اللاتينية إلى الألمانية.

وقد حاول لوتر أن يقلل من شأن الصياغات اللاتينية للأغنية، محاولاً إبدالها بالألمانية، ولتكون معياراً جيداً أثناء أداء طقوس القداس مركزاً على الأغنية الجماعية ذات التأثير الجماهيرى العريض، وجمع كتاباً للأغانى فى عام ١٥٢٤، تضمن اثنين وثلاثين أغنية ألمانية وخمس أغنيات لاتينية، حاول فيها إبراز النغمة المناسبة للكلمة وإعطائها القوة المرادة، وجاهد مراراً فى أن يشجع الأطفال والشباب والكبار على ممارستها وغنائها بصورة جماعية، وعلى ألا يقتصر غناؤها داخل الكنيسة، بل على الناس أن تغنيها فى المدارس وفى أماكن العمل. كانت الأغنية بالنسبة للوتر وسيلة خاصة ومهمة لاكتمال تأثير الموعظة وتثبيت الإيمان، كما أنها أثرت فى أعمال الترجمة وفى تطويرها إلى الأحسن.^(١) وساد تأليف

(١) فارن: a.a.O., Landgraf، ص ٢٢٨ وما بعدها.

ويورد السيد لاندجراف ميل مارتن لوتر منذ طفولته للغناء فى الشوارع أمام بيوت المواطنين هو وأقرانه التلاميذ، لأن الأغنية تعطى النص حياة، وقد استند لوتر فى تأليفه للأغانى كما فعل أثناء ترجمته للإنجيل إلى تراث وعادات الشعب، مما أعطى أغانيه سمة التأثير الجماهيرى العريض. ويذكر المؤلف إلى جانب ذلك كما هائلا من الأغانى الخالدة التى تغنى بها جماهير الكنيسة الإنجيلية مثل "إلهنا حصننا، يا إلهنا فى السماء، فى معترك حياتنا، افرحوا يا شعب المسيح، ويختتمها بالأغنية الشعرية للحدث الذى هزه من الأعماق فى الأول من يوليو ١٥٢٣، حيث تم إعدام شابين من أتباعه حرقاً بالنار فى مدينة بروكسل فى بلجيكا بتعليمات من القيصر كارل الخامس، وأعطاهما عنوان "أغنية شهيدى المسيح" *Lied von den zwei Märtyrern Christi*، والتى بدأها:

Ein neues Lied wir heben an

أشعار المزامير العديدة المحتوية للاعتقاد المسيحي والتي ضمنها لوتر في كتابيه "قواعد الدين المسيحي" (١٥٢٥)، منها على سبيل المثال لا الحصر: أغاني الوصايا العشر، أبانا الذي في السماوات، عقيدة التثليث، التعميد، العشاء الرباني، أغاني أعياد الميلاد، وأعياد الفصح والعنصرة. لقد ضمن لوتر هذه الأغاني تجاربه ومعاشاته الشخصية وأحاسيسه ومشاعره الداخلية، والمبرزة لتجاوبه مع الكتل العريضة من الجماهير، ولعلنا نتذكر قصيدته الغنائية للأطفال عام ١٥٤٢، والتي كتبها ضد البابا والأتراك: "احفظنا يا إلهي في كلمتك!" "Erhalt uns Herr bei deinem Wort" أو ترنيمة للمزمور ١٣٠: "من ضيقى الشديد أصرخ إليك" "Aus tiefer Not schreie ich zu dir" والتي كان يطلق عليها أحياناً أغنية استقبال الموت، وعلى رأس هذه الأغاني ترنيمة الإصلاح والتي مثلت لديه تاج المزامير والتي استقى كلماتها من المزمور ٤٦، ويدور محورها حول المسيح المخلص. وأقدم للقارئ هذه الترنيمة في نصها الألماني وترجمة لها إلى العربية:

Ein feste Burg ist unser Gott،	إلهنا حصننا المنيع
eine gute Wehr und Waffen،	وقوتنا وسلاحنا
Er hilft uns frei aus aller Not،	عوننا في ظل ضيق شديد
die uns jetzt hat betroffen	ألم بنا الآن
Der alt böse Feind،	والشيطان المارد المؤذي
mit Ernst er s jetzt meint:	وصادق مبيت النية
groß Macht und viel List	واستخدام سلاح وحشى

sein grausam Rüstung ist	مدعم بالحيلة والبأس الشديد
auf Erd ist nichts seins gleichen. ^(١)	ليس كمثله شيء على الأرض
Mit unserer Macht ist nichts getan،	وقوتنا واهنة عاجزة
wir sind gar bald verloren.	ومصيرنا الهلاك العاجل
Es streit، für uns der rechte Mann،	ويناضل الرجل الحق من أجلنا
den Gott hat selbst erkoren.	اختاره الله واصطفاه
Fragst du، wer der ist ؟	ولك أن تسأل من هو ؟
Er heißt Jesus Christ،	إنه يسوع المسيح
der Herr Zebaoth،	الملقب بياهو
und ist kein ander Gott،	ليس من إله غيره
das Feld muss er behalten.	ولا مفر من انتصاره في ملكوته

(١) قارن: <http://www.cs.ualberta.ca/~wfb/cantatas/80.html>

وقارن أيضاً، مارتن لوتر: شرح موجز لأصول التعليم المسيحي، الكتاخيسمس الصغير، كتاب عن العقيدة المسيحية، ترجمه إلى العربية: مورييس أديب جهشان، بيروت: المركز اللوثرى للخدمات الدينية في الشرق الأوسط، ١٩٨٨، ص ٨.

Und wenn die Welt voll Teufel wär	حتى لو امتلأت الدنيا بالشياطين
und wollt uns gar verschlingen،	وأرادوا أن يلتهمونا
so fürchten wir uns nicht so sehr،	فلن نخشاهم كثيراً
es soll uns doch gelingen.	ويكون النجاح حليفنا
Der Fürst dieser Welt،	وأمر شياطين هذه الدنيا
wie sauer er sich stellt،	ملتحفاً بالمرارة والجهامة
tut er uns doch nicht;	فلن يملك الضر بنا
das macht، er ist gericht.	ذلك أنه مدان
ein Wörtlein kann ihn fällen.	فكلمة صغيرة تستطيع أن تهلكه
Dass Wort sie sollen lassen stahn	ولا مفر من أن يدعوا الكلمة باقية
und kein Dank dazu haben;	فلا فضل لهم في ذلك
er ist bei uns wohl auf dem Plan	إنها رسمت في صدورنا

mit seinem Geist und Gaben.	بروحها وآلاتها
Nehmen sie den Leib.	فإن سلبونا الجسد
Gut، Ehr، Kind und Weib،	والضياع والشرف والزوج والولد
lass fahren dahin،	فلنمت ويهب الجمل بما حمل
sie haben 's kein Gewinn،	فسيكون حصادهم مثلاً زرعوا
das Reich muss uns doch bleiben.	ويبقى لنا في النهاية ملكوته
(Entnommen aus :WA 35،S.455 ff.)	(قارن: طبعة فايمار، ج ٣٥ ص ٤٥٥ وما بعدها

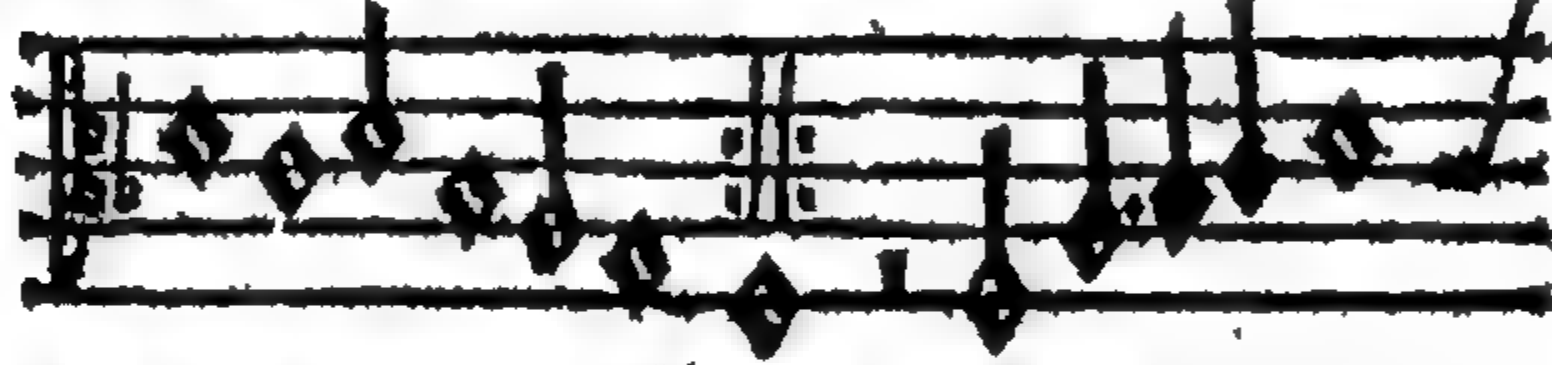
كانت قوة الكلمة في هذه الأغاني، تضيء على من يشدون بها تفاؤلاً وبشرى بالنصر وعمق الإيمان ضد كل أنواع الصراعات الضارية. ومن الجدير بالذكر أن مارتن لوتر لم يكن يقرض الشعر فحسب، بل إنه كان يضع لبعض أشعاره الألحان الموسيقية المناسبة، ونقدم للقارئ على سبيل المثال لا الحصر لحن ترنيمة الإصلاح، التي وضع نوتتها الموسيقية بنفسه:

Der xlvj. Psalm/ Deus
noster refugium et
virtus/ &c.

Martinus Luther.



Ein feste burg ist unser Gott Ein gut
Er hilfft uns frey aus aller not/ die uns



te wehr vnd waffen/ Der alt bö
ist hat be troffen/ se feind

Liedseite und Holzschnitt, die Ausgießung des Heiligen Geistes
darstellend, aus der zweiten Ausgabe des
Klugschen Gesangbuches, 1533

صورة طبق الأصل من ترنيمة قصيدة الإصلاح مكتوبة على لوحة من الخشب
وهي موجودة في الطبعة الثانية لكتاب الأغاني و المزامير الصادر عام ١٥٣٣م.

يروى أن شاعر ألمانيا هاينرش هايني Heinrich Heine وفيلسوفها
Friedrich Engels فريدريش إيجيلز أطلقا على كورال النصر: "إلهنا حصننا"،

والمعروف بترنيمة الإصلاح أنشودة مرسيليز Marseillaise القرن السادس عشر، وذلك من منطلق أنه أصبح أنشودة النصر للبروتستانتية ضد كل أعدائها.^(١)

وكان لوتر فى كل صياغاته يقتبس بعض الألحان السابقة له، والبعض الآخر يقوم هو بصياغتها وبتلحينها بنفسه، وبذلك يقدم لنا مارتن لوتر إسهامًا آخر لتاريخ الموسيقى الألمانية، مما حدا بالكثير من المؤرخين إلى تبني الرأى الذى يقول إن ازدهار الموسيقى الألمانية يرتبط ارتباطًا عضويًا بحركة الإصلاح الإنجيلي، التى خلقت القوة الدافقة لجماهير الشعب الديمقراطية، متمثلة فى جذور الموسيقى البروتستانتية الألمانية. فنرى على سبيل المثال اقتناع المؤرخ الإنجليزى الكبير ول ديورانت بأن: "حركة الإصلاح الدينى الألمانية لم تكن سوى ثورة فى الموسيقى، مثلما كانت ثورة فى اللاهوت" ويأتى اقتناع ديورانت من منظور الأرستقراطية المفرطة عند أداء طقوس الكنيسة الكاثوليكية واحتقار أدائها عند الكهنة. وعلى النقيض من ذلك ينادى الإصلاح الدينى اللوتري بتواجد جماهير الشعب داخل الكنيسة وأداء القداس بلغته القومية، وينفتح الطريق أمام مارتن لوتر إلى خلق موسيقى دينية تحرك مشاعر الناس وفيها تسود اللغة القومية محل اللاتينية، وتتحول على يديه أغانى فرق الإنشاد من الطباق إلى شكل إيقاعى مفهوم، يقوم فيه المصلون والمرتلون بدور إيجابى فعال.^(٢)

ويرجع البعض منشأ الأغنية المرتبطة بحركة الإصلاح البروتستانتى إلى ثلاثة مصادر:

١. تراثيل وأغان ملحمة كنسية قديمة سبق صياغتها باللاتينية.

أغان ألمانية قديمة سادت الكنائس وتحولت بالتدريج إلى أغان شعبية.

(١) قارن Arndt، ص ١١١، وقارن أيضًا، لاندجراف Landgraf ص ٢٢٨. قارن أيضًا:

Heine، Heinrich: Zur Geschichte der Religion und Philosophie

نقله إلى العربية : صلاح حاتم تحت عنوان : "فى تاريخ الدين و الفلسفة، اللاذقية، سوريا، ١٩٨٨، ص ٥٦ وما بعدها.

(٢) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٥، مجلد ٦، الإصلاح الدينى، ترجمة محمد على أبو درة، مراجعة على أدهم، إصدار، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٣، ص ٢٢٣ وما بعدها.

٢. أغان ألمانية شعبية علمانية.

لقد قدر لوتر الموسيقى حق قدرها ووضعها في أعلى مصاف الفنون، وهي عنده تطرد الشيطان، وتغمر الناس بالفرح والسرور وتكبح الغضب والثورة ولها مكانتها الشرفية الأولى، بعد علوم اللاهوت ولها وظيفتها التربوية في تهذيب مشاعر وعواطف الناس وفي سمو سلوكهم وأخلاقهم.^(١) لقد ملك لوتر شفافية موسيقية عميقة نظريا وعمليا وساعده في ذلك إجادته للغناء والتلحين، ويروى عنه أنه كان يجيد أصوات التينور والتي تؤدي إلى نغمات متعددة الأصوات. وكثيراً ما شدا لأطفاله بالمنزل بأغاني تصور دنيا الطفل وعالمه، وكان يقتبس صياغتها الشعبية اقتباساً نصياً أحياناً أو يغير بعضاً من قوافيها أحياناً أخرى، ومثال لذلك:

Volkslied:	النص الشعبي:
Ich kam aus fremden landen her	لقد أتيت إليكم من أرض غريبة،
und bring euch vil der newen mär:	حاملاً معي الكثير من الحكايات الجديدة،
mer dann ich euch hie sagen will	لأتحدث إليكم عنه
Luther:	النص اللوتري

(١) قارن: Michael Meisner ، a.a.O.، ص ١٣٥ وما بعدها، وقارن أيضاً، Arndt ص ١١٠ .

Vom himel hoch da kom ich her،	لقد قدمت إليكم من السماوات العلا،
ich bringe euch gute neue mehr،	حاملًا معي بشارات جديدة،
der guten mehr bring ich so viel،	أمور حسنة وخيرات كثيرة جئت بها،
davon ich singen und sagen wil. ^(١)	لأتحدث وأتغنى بها معكم.

لهذا لم يكن مستغربًا من لوتر أن يؤكد القول: "لن أتخلى عن موهبتي الموسيقية المتواضعة، مقابل أى شيء مهما كان عظيمًا وأنا لا أرى أنه ليس هناك فن بعد اللاهوت، يمكن أن يضارع الموسيقى لأنها بعد اللاهوت تمنحنا راحة القلب ومسرة الفؤاد.^(٢) ونؤكد مرة أخرى أن لوتر منح الموسيقى وسامًا شرفيًا لم ينله غيرها سوى علوم اللاهوت. لقد درسها وهو طالب وأجادها نظريًا وعمليًا وكثيرًا ما قرظها بأحلى الكلام، فى مجموعات الأغاني الجنائزية وجاهد فى تشذيب هذه الأغاني الشعبية، ليجعلها بعيدة عن أغاني العشق الفاسد وشهوات الجسد، وأجاد أيضًا دراسة الأصوات اللغوية وتنعيم الجملة، وهو ما نتبينه بوضوح فى أغاني أعياد الميلاد وتمجيد شهداء المسيحية الأول، وبشعره المقفى الذى يعطى النبرة الطبيعية للكلمة المنطوقة. هذا الوسام النابع من تقدير لوتر لفن تعدد الأصوات والطباق الموسيقى وتعبيراته المليئة بالحماس والحمية، التى سجلها بنفسه عام ١٥٣٨ "إذا شحذ الفن الموسيقى الطبيعية وصقلها، يبدأ الإنسان يدرك فى عجب

(١) قارن، a. a. O. Arndt ، ص ١١١.

(٢) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٣، مجلد ٦، ص ١٣٠.

ودهشة، حكمة الله العظيمة البالغة حد الكمال فى موسيقاه الرائعة، حيث يقوم صوت واحد بدور بسيط، ويغنى حوله ثلاثة أو أربعة أو خمسة أصوات أخرى، تثب وتتطلق هنا وهناك، تزين الدور البسيط، وكأنها رقصة تربية فى السماء. إن الذى لا يجد فى هذا معجزة تفوق الوصف من عند الله، ليس إلا غيباً حقيراً، لا يستحق أن يعتبر إنساناً.^(١)

كثيراً ما كان لوتر يحاول أن ينتقى النص والفكرة التى يتضمنها ليؤم محتواهما فى عقول الناس ووجدانهم، عن طريق اللحن الموسيقى وخاصة الألحان الكنسية القديمة. لقد رأى لوتر أن النبر اللغوى يتبع الإيقاع الموسيقى، وهذا يعنى جعل النص واللحن يتبعان بعضهما بعضاً، ويقدمان كوحدة إمكانيات أكثر لتدريب التلاميذ وخاصة صبيان المرتلين، على الغناء الكنسى الجماعى، وحتى ينضم ويلتحم معهم بقية جمهور الكنيسة لهذا اللون من الغناء. لقد رسخ الشعر الغنائى عند لوتر بنية الجملة فى اللغة الألمانية وفى محتواها، وخاصة ما كان يرمى إليه النص من تعاليم وحكم ومأثورات، موجهة بوجه خاص لأولئك الذين لا يستطيعون القراءة والكتابة، وذلك من خلال السماع والحفظ عن ظهر قلب. لهذا لم يكن غريباً أن يرجع عظماء مفكرى القرن الثامن عشر وعلى رأسهم هردير Herder، وجوته Goethe إلى أسلوب لوتر، فى صياغتهم وتأليفهم للأغاني والقصائد. وهى الصيغ التى بقيت حية فى وجدان الناس وفى الاستخدام اللغوى، وخاصة فى حلقى الشعر والنثر لما بهما من عناصر الجذب والتشويق.^(٢)

(١) قارن: ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٥، مجلد ٦، ص ٢٢٩ .
(٢) بيرز جيرهارد إيبلينج الإسهام الفائق للغة مارتن لوتر فى كونها القدوة والمثل الأعلى، والتى مهدت الطريق لتحرير العقل والضمير الإنسانى فى فترات عصر التنوير وعصر العاصفة والاندفاع وانتهاء بالتوازن بين العقل والعاطفة والذى ساد فى العصر الكلاسيكى والرومانتيكى. هذا التطور الذى شهدته تلك العصور الأدبية جعل لمارتن لوتر سهماً وافراً فى التغيير الجذرى الذى نقل العالم من ظلمات العصور الوسطى إلى أنوار العصر الحديث. قارن، ص ١٢ .

٢. ٥ أهمية ترجمة الإنجيل الى الألمانية

ولعلنا لا نبالغ في القول أن أكبر إسهام لغوى أنجزه مارتن لوتر، هو وضع اللغة في خدمة الإنجيل، وليس من المستغرب أن نعلم أن أعداد طبعات بعض أجزاء من الإنجيل، التي ترجمت على يد لوتر فاقت كل تصور، وذلك لفاعلية اللغة التي حوت نصوصها. وقد بلغ عدد الطبعات منذ ترجمة "عهد سبتمبر (١٥٢٢)"، وحتى ممات لوتر (١٥٤٦) ما يزيد عن أربعمئة، منها ١٠١ طبعة، في مدينة فيتنبرج الصغيرة، كانت تنشر وتوزع في جميع أنحاء ألمانيا باستثناء منطقة الجنوب الشرقي (بافاريا)، والتي بقيت كاثوليكية حتى أيامنا هذه. قدمت مدينة أوجسبورج ٦١ طبعة، ومدينة شتراسبورج ٤٦ طبعة، ونورنبرج ٣٥ طبعة، ولم يطبع الإنجيل اللوثرى في مدينة ليبزج إلا بعد وفاة دوقها الكاثوليكي جورج. لقد ساعدت ترجمة لوتر على تقبل عامة الناس للغة الفصحى، ولاسيما في مناطق الشمال التي كانت تتحدث بلهجات مخالفة، ويذكر أنه في خلال نصف قرن ١٥٣٤ - ١٥٨٤ بيعت في الأسواق ما يزيد عن مائة ألف نسخة، ثم زيدت إلى نصف مليون ليتداولها ما بين ١٢ - ١٥ مليون ألماني. ويعقب الباحث شريكناخ على الأهمية اللغوية، التي جعلت من ترجمة لوتر للإنجيل قداصة خاصة عند أتباعه، وغرمائه سواء بسواء، وذلك من منظور أن لغته مثلت وعاء لحفظ اللغة الألمانية من التدهور.^(١)

وعود على بدء، فإننا نذكر أن فكرة ترجمة الإنجيل من قبل لوتر نمت ونضجت لديه أثناء إقامته الجبرية عام ١٥٢١ في قلعة الفارتبورج، وهي الفترة التي اختفى فيها بعد صدور الأمر البابوي بتكفيره.

واستغرقت ترجمته للعهد الجديد أحد عشر شهراً، كان يؤلف بجانبها كتاب المواعظ. طبعت ترجمة العهد الجديد هذه تحت مسمى "عهد سبتمبر (١٥٢٢)" والذي دبجه ودعمه بلوحات فنية من رسومات الفنان الألماني الكبير لوкас كراناخ

(١) قارن:

ص ١٦ وما بعدها، Schreckenbach، a.a.O.

Lucas Cranach والتي بلغ عددها إحدى وعشرين لوحة، وتبرز هذه اللوحات الهجوم اللوثرى على بابا روما وكنيسته. وتنامى الطلب على هذه الطبعة ولكن سرعان ما ظهرت طبعة ديسمبر ١٥٢٢، التي عدل فيها أكثر من مائة موضع، وأعقبها في السنوات التي تليها بمواصلة ترجماته العديدة، حيث بدأ في ترجمة الأسفار الأولى من العهد القديم (التوراة) ١٥٢٣، سفر أيوب، المزامير، الأمثال، وهي الأمور التي تضمنها فيما بعد كتاب الأنبياء. استكمل لوثر الإنجيل على هذا النحو وأرفق به سبعة عشر نقشاً خشبياً، وطبعت منه في مدينة فيتنبرج اثنتا عشرة طبعة، وفي ليبزيج ثمان عشرة طبعة، وشيبه بهذا العدد بمدن أخرى، كأوجسبورج وزيورخ وشتراسبورج وفرانكفورت وفورمس. وقد حاول بعض الدارسين عقد مقارنة علمية للصيغ المختلفة، التي قدمها مارتن لوثر لمواعظه ذات الصلة بالكتاب المقدس يتبين منها العمل الشاق والجهد المضني الذي بذله لوثر في صياغتها بترجمة دقيقة، وبأسلوب سلس، والتي تعتبر اللبنة الأولى والخطوط الرئيسية لتطور التاريخ اللغوي للألمانية منذ بداية القرن السادس عشر. ومن المفيد أن نذكر أن هذا النصر الذي أحرزه لوثر وهذا الجهد الفائق لم يكن جهداً فردياً من لوثر، وإنما ساهم في ذلك استعانه بدائرة واسعة من أصدقائه ومعارفه العالمين ببواطن الأمور، والذين لم يخلوا عليه بالرأي والنصح والاستشارة وعلى رأسهم على سبيل المثال لا الحصر:

١. جيورج رورر Georg Röhrer (١٤٩٢ – ١٥٥٧) وكان المسئول والقائم على تصحيح الطباعات الجديدة من إنجيل لوثر.

٢. فيليب ميلانشتون Philipp Melanchthon (١٤٩٧ – ١٥٦٠) وكان يعمل أستاذاً للغة اليونانية والعبرية بجامعة فيتنبرج وصديقاً حميماً لمارتن لوثر، والذي قاد حركة الإصلاح بعد وفاته.^(١)

(١) يروى عنه أنه كان معلم ألمانيا، ويصف عمق صداقته للوثر بمقولته: "إنه من الأفضل لي أن أموت ولا أفترق عن هذا الرجل." "Ich würde lieber sterben als von diesem Manna getrennt zu sein"

قارن: www.luther.de/themen/melanch.html

٣. يوهانس بوجنهاجن Johannes Bugenhagen (١٤٨٥-١٥٥٨) أحد قساوسة منطقة بومرن وأستاذ اللاتينية ورئيس كنيسة فيتنبرج. وكان منظمًا بارعًا لحركة الإصلاح في ألمانيا وفي الدول الإسكندنافية، وكان يلقبه لوثر بالدكتور البوميراني نسبة إلى المنطقة التي ينتمي إليها. كما أنه تولى رعاية أرملة لوثر وأبنائه بعد وفاته.^(١)
٤. ماتيوس أوروغالوس Matthäus Aurogallus (١٤٩٠-١٥٥٣) وكان أستاذًا للغة العبرية بالجامعة.
٥. كاسبار كروسيجر Caspar Cruciger (١٥٠٤-١٥٦٤) بعد أحد تلاميذ الدكتور Petrus Mosellanus وكان أستاذًا لللاهوت والغة العبرية بجامعة فيتنبرج، ورئيسًا لمدرسة يوهانس بمدينة ماجدبورج، وشارك مشاركة فعالة في حركة الإصلاح بمدينة ليبتزج، وإعداد مؤلفات مارتن لوثر للطبع.^(٢)
٦. يوستوس يونا Justus Jonas (١٤٩٣-١٥٥٥) درس الحقوق وعلوم اللاهوت، وكان أستاذًا للقانون بالجامعة، وأحد كبار مترجمي اللاتينية منها وإليها. ربطته صداقة حميمة بلوثر، عمقتها مساعدته للوثر المستمرة في ترجمة الإنجيل وفي رفقته إلى برلمان الرايخ الذي عقد بمدينة فورمس ومدينة أوجسبورج، كما رافقه في رحلته الأخيرة إلى مدينة أيسليبين، وشارك في مراسم دفنه بكنيسة القصر.^(٣)
٧. جيورج شبالاتين Georg Spalatin (١٤٨٤-١٥٤٥) وكان من كبار أساتذة علوم الإنسانيات واللاهوت وأحد رجال بلاط الأمير فريدريش الحكيم، وكان يمثل حلقة الصلة بين لوثر والأمير الحاكم، وكثيرًا ما كان

(١) قارن: www.luther.de/themen/bugenh.html

(٢) قارن: www.alt.wittenberg.de/seiten/personen/cruciger.html

(٣) قارن: www.luther.de/themen/jonas.html

يقدم الدعم لحركة الإصلاح من خلال موقعه، وكان يمد مكتبات الجامعة بالكتب والدوريات العلمية اللازمة، وكان شبالاتين صاحب معرفة أصيلة بالكتاب المقدس. وكانت تربطه بلوتر علاقة حميمة لدرجة أن مارتن لوثر قد كتب له ما يربو على أربعمئة رسالة يوصيه فيها بدعم الجامعة وحركة الإصلاح.^(١)

٨. لوкас كراناخ الكبير Lucas Cranach der Ältere (١٤٧٢-١٥٥٣) وهو أحد كبار فناني الحفر على الخشب، وكبار الرسامين الألمان وكان يعمل ناشرًا. تزوج من ابنة عمدة مدينة جوتة Gotha، وشهد وزوجته على عقد زواج مارتن لوثر والسيدة الراهبة كاتارينا فون بورا. وبعد كراناخ من أغنى مواطني مدينة فيتنبرج، وكان عضوًا لسنوات طويلة في مجلس بلديتها حتى تولى منصب العمدة فيها.^(٢)

٩. يوهانس جينزفلايش جوتنبرج Johannes Gensfleisch Gutenberg تجلى إسهامه في تيسير طباعة مؤلفات ورسائل لوثر، والتي أدت إلى سرعة انتشار قيم ومبادئ الإصلاح في كل ألمانيا وفي خارجها، وخاصة خفض تكاليف أسعار طباعتها.

١٠. فريدريش الحكيم Friedrich der Weise (١٤٦٣-١٥٢٥)، وهو صاحب الدور الأكبر في الحفاظ على أمن وحماية مارتن لوثر، ونجاح حركته الإصلاحية. وهو الابن الأول للأمير المنتخب أرنست Ernst، الذي ينتمي إلى عائلة الفيتنجين Haus der Wettenger وذلك عام ١٤٦٣ في قصر هارتنفيلز Hartenfels بمدينة تورجاو Torgau. تولى الحكم بولاية سكسونيا الأرنستية عام ١٤٨٦ مشاركة مع أخيه الأصغر يوهانس Johannes. كان الأمير فريدريش من أكبر المدعين للعلوم

(١) قارن: www.luther.de/themen/spalatin.html

(٢) قارن: www.luther.de/themen/lac.html

والفنون في عصره وهو المؤسس لكنيسة القصر وجامعة فيتنبرج، التي خرجت منها حركة الإصلاح اللوثرى، ووجد لوثر فيه الحماية الكافية بفضل حنكته الدبلوماسية وعدم موافقته على تسليمه أو محاكمته خارج ألمانيا. توفي عام ١٥٢٥ بعد أن وقف لوثر على أقدامه في حركته الإصلاحية.^(١)

إن نظرة دراسية تعود بنا إلى وطن هؤلاء العلماء والأمرء، المشار إليهم بعاليه، فنرى أنهم يمثلون دائرة واسعة لكافة أنماط اللغات واللهجات الإقليمية لأوطانهم الصغيرة، والتي ظهرت ثمارها فيما بعد في صياغة النصوص المنقحة والملاحظات الهامشية، والتي كان يعدها لوثر في مؤلفاته، وذلك من أجل حماية وتأمين النص المنقول عن اللاتينية. ولا بد من القول أن النص اللوثرى للإنجيل تفوق تفوقاً كبيراً من خلال هذا التعاون الجماعي والإضافات والتعليقات الموضحة على أية ترجمة أخرى، بل على كافة الصيغ الكنسية اللاتينية الشائعة والتي كانت تعتمد عليها البابوية في روما.^(٢)

كانت ترجمة لوثر للإنجيل تمثل، من وجهة نظرنا، واجباً تاريخياً حيث وضع نصب عينيه أن يكون العهد الجديد مفتاحاً لاستيعاب مفهومه الاعتقادي والديني والذي يرى في الإنجيل رسالة فرح وحبور وحياة ومنتعة، ودون التقيد بقيود اللوائح والوصايا التي تضمنها العهد القديم وهي من الأمور التي دفعت لوثر لتأليف كتابه المشهور: "عن حرية الإنسان المسيحي" (١٥٢٠) "Von der Freiheit eines Christenmenschen". كانت قيود اللوائح والوصايا التي تضمنها العهد القديم هي أيضاً القوانين واللوائح التي سار عليها باباوات روما ممثلة في النظام المتدرج في الرئاسات، Hierarchie، التي انسحبت على كافة الوظائف في المقر البابوي، وخلقت ما سمي بنظام الرهينة وألوان أخرى من القداست التي قادت الكنيسة أن تكون على قمة النظام الإقطاعي، فارضة على كافة الطبقات

(١) قارن: www.luther.de/thmen/friedr.html

(٢) قارن: Gerhard: Martin Luther-ausgewählte Schriften-، Karin/ Ebeling، Bornkamm 1982، Frankfurt M.، BdVI، Briefe ص ٣٠٥ وما بعدها.

المزيد من الضرائب و الإتاوات والهبات وبيع صكوك الغفران، مقابل افتداء الآثام وهي الأمور التي حدثت بلوتر في البداية إلى كتابة حججه الخمس والتسعين الخاصة بحركة الإصلاح في ١٥١٧/١٠/٣١، والتي جعلت وضع الكنيسة والباباوية محل تساؤل كبير. وهنا يجيء دور لوتر ليرى الحاجة الماسة لدى الناس في استيعاب وفهم الإنجيل بلغة جديدة، وليقدمها للربان والقساوسة وأساتذة الجامعة وعامة الشعب.

لقد سبقت لوتر ترجمات للإنجيل عديدة نذكر منها على سبيل المثال:

ترجمة إنجيل منتل Mentel والتي ظهرت في عام ١٤٦٦ في شتراسبورج، وطبعت منها أربعة عشر طبعة، وأخذ على هذه الترجمة صعوبة النص وفهمه للقارئ. ويسجل المؤرخون إحصاءً بوجود ٧٢ ترجمة ألمانية سابقة لترجمة لوتر.^(١)

ترجمة الأسقف فولفيل Wulfila في القرن الرابع إلى القوطية، والتي ترجمها عن اليونانية.

ترجمة جون وكليف John Wyclif (١٣٢٠ - ١٣٨٤) إلى الإنجليزية.

ترجمة يان هوس Jan Hus إلى التشيكية.

لقد هدف مارتن لوتر بترجمته للإنجيل، إلى تحقيق هدفين أو أمرين: الأول: توفير المعرفة لكافة المؤمنين للاقتراب من كلمة الله، وخاصةً لأولئك الذين لا يعرفون اللاتينية؛ والأمر الثاني: مواجهة جمود الاعتقاد البابوي والعمل على توفير كنيسة بسيطة بعيدة عن الشبهات، تُلغى فيها وساطة القساوسة الإلهية للبشر، إلى جانب تلبية رغبات الطبقة الوسطى وتحاشي فلسفة أرسطو وفلسفة العصور الوسطى المدرسية، وليحل محل كل ذلك نصوص الإنجيل الأصلي في مكان الصدارة وخاصةً في الدراسات الجامعية.

(١) قارن: Arndt ص ١٣٠.

لقد فاق لوثر أسلافه المشار إليهم في ترجماتهم وفي طلاقة اللسان والوضوح وقوة التعبير اللغوي المناسب لعصره، بعد أن استوعب كل الاتجاهات في تاريخ اللغة. وقد أثبتت أبحاث هـ. فولف H. Wolf: "أن النجاح الذي حظيت به ترجمة لوثر يرجع في المقام الأول إلى سهولة ووضوح جمال لغته."^(١) ولا ينكر جاحد المعاناة التي كان يعيشها لوثر، أثناء إنجاز هذا العمل وتحمله بما لا يمكن أن تتحمله نفس بشرية، ولكن جهده الفائق هذا لم يذهب هباء، خاصة بعد أن انتشرت ترجمته انتشاراً مدهشاً، وفي فترة تاريخية محدودة. لقد كان لهذا الإنجاز دور مهم في الصراع السياسي والاجتماعي والعقائدي وكذلك في أعمال الترجمة، والتي كان يرى الكثيرون أنها كانت مطابقة لأحاسيس ومشاعر لوثر المرهفة، ولتخصصه الدقيق، ولإدراكه المتنامي، لدور اللغة كوسيلة اتصال وتفاهم مما أعطى الترجمة رهبة وقدسية للقارئ والسامع على السواء. ولم يكن ليحدث هذا الإنجاز القيم إلا بعد استفادة لوثر من الدراسات والنتائج العلمية المتعلقة بنقل النص من اللغات القديمة. لقد تحمل لوثر بترجمته هذه مسئولية كبيرة تجاه حياة ومعتقد جماهير الشعب في الأمور الدينية والثقافية، واعتبرت أحاديثه وعظاته وخطبه ومنشوراته وتجاربه ودراسته اللغوية عاملاً مدعماً في دقة اختيار اللفظ والكلمة، ولهذا لم يكن مستغرباً أن يظل لوثر طوال حياته يُحسَّن ويُطور ويُنقح ويُزين من ترجمته للكتاب المقدس، بداية من طبعة سبتمبر وحتى طبعة ديسمبر.

كان لوثر يفكر مراراً وتكراراً أثناء تأملاته للأساليب التي اتبعتها من سبقه من المترجمين، في عامل القدسية التي تضمنها النص اللاتيني، وليستلهم من خلال ذلك، العناصر اللغوية الأسمى المتوافرة في العبرية واليونانية، والعمل على ترجمتها بمكافئاتها في الألمانية. ولقد أشارت أبحاث "شتولت" Stolt عام ١٩٨١ إلى إنجاز لوثر في التمييز الوظيفي للتعبير، وذلك حينما يصوغ ما يكتب به:

(١) قارن: H. Wolf: Eine Einführung in germanistische Lutherstudien، Stuttgart-Berlin 1980، ص ١٤٠.

"حدث أن Es begab sich... وذلك لأمر يتعلق بسرد قصة ما أو حينما يبدأ: "كان يا مكان... Es war einmal حين يتعلق الأمر بسرد خرافة أو أسطورة للأطفال، كما كان يستخدم لوثر لفظة: "انظر... Siehe... وهي اللفظة التي اقتبسها لوثر كحرف نداء من اللغة العبرية محاكيًا بذلك ما كان يحدث في الصيغ اليونانية واللاتينية المماثلة. كما كان يفضل بداية التعبير بصيغة المفرد في الخطاب. أما استخدامه لصيغة الجمع، فكان عادة يفضل استخدامها حينما يتطلب الأمر أو الموقف ذلك والأمثلة على ذلك كثيرة نذكر منها ما ورد في عهد سبتمبر (١٥٢٢):

" أنا معكم كل الأيام وإلى انقضاء الدهر...

،،Siehe،، ich bin bei euch alle Tage bis ans Ende der Welt أما أسلوب الجمع: "ونظر إليهم الملاك قائلاً: لا تخافوا ها أنا أبشركم بفرح عظيم..."

،،Sehet،، und der Engel sprach zu euch،، Fürchtet euch nicht،،
"Sehet ich verkündige euch große Freude"

كما نود أن نشير إلى مؤلف له في هذا المجال بعنوان "مجموعة الأمثال والحكم لمارتن لوثر" (١٥٤٠)، والتي أشرف على إصدارها الدكتور رودلف جروسه^(١)، وذلك عام ١٩٣٠ بمدينة ليبتزج وتضمنت ٤٨٩ مثل وحكمة، وأحجية. استخدمها في المقام الأول كعامل مشوق في مؤلفاته ومواعظه ولكي تساعد في انجاح حركة الإصلاح الديني التي نادى بها^(٢). لقد أجاد لوثر في تطوير وتنقيح العديد من المأثورات الشعبية والصور البلاغية والصور الثابتة التي استقاها من بطون اللغات الشرقية. نذكر منها على سبيل المثال:

"فإنه من فضلة القلب يتكلم الفم"

(١) قارن:

Große, Rudolf: Martin Luther Sprichwortsammlung, Leipzig, 1983.

(٢) قارن نفس المرجع ص ٩٣ وما بعدها.

„Wes Herz voll ist, des gehet der Mund über“

"من يعكر صفو بيته يرث قبض الريح"

„Wer sein eigen Haus betrübt, der wird Wind zu erbeil haben“

"السلام يطعم ويبنى والحرب تلتهم وتدمر"

„Friede neeret. Unfriede verzeret“

"حيث لا توجد الأبقار تبقى المعالف نظيفة"

„Wo nicht Ochsen sind, Da ist die Krippen rein“

"إنسان غير راغب في العمل، إنسان بلا نفع"

„Wo man nicht arbeitet, da gewinnt man auch nichts“^(١)

"العمل الجماعي ييسر العمل ويرشده"

„Viel Hände machen Leichtarbeit“

"على المرء أن يتم عمله بدقة وسرعة"

„Ich muß tun, als hätte mich ein Hund gebissen“

"يطرب النساء الثناء، ولو من باب الرياء"

„Frauen soll man loben, sei es wahr oder erlogen“

"إسداء النصيحة لا يأتي متأخرًا على الإطلاق"

„Guter Rat kommt nie zu spät“

"لا يستطيع التقديم أو التأخير"

(١) قارن، Arndt ص ١٣٥.

„Kann weder gackern noch Eier legen“

"الذى لا يقدر القليل، لا قيمة للكثير عنده"

„Wer einen Pfennig nicht ehrt, wird keines Guldens nicht Herr“

"الذى يريد أن يعايش الذئب، لابد وأن يعوى مثلهم"

„Wer bei den Wolfen sein will, muß mit ihnen heulen“

"الطائر الكبير، يؤويه العش الكبير"

„Ein großer Vogel muß ein großes Nest haben“

"كل ما تقع عين الطفل عليه، يحب امتلاكه"

„Was die Kinder sehen, das wollen sie haben“

"العبرة بالخاتمة"

„Wenn's Ende gut ist, so ist alles gut“

لقد كان ذلك يمثل لدى لوثر استعمالاً مبتكراً للغة، من أجل تحقيق أكبر قدر ممكن من وسائل التفاهم الملموس بين طبقات المجتمع، وكانت لغة لوثر لغة حية بكل ما فى الكلمة من معنى بالنسبة لعصره، حيث تركت قيماً وجدانية عمّت سلوك الناس فى غدوهم ورواحهم. وقد أبانت الباحثة "بريجيت شتولت" Brigt Stolt أن لوثر استغرق وقتاً طويلاً فى ترجمته للكتاب المقدس، أكثر من أى مؤلفات أخرى، حرصاً منه على تنقيح الأسلوب المستقى من لغة الحديث اليومى، لغة الأم فى المنزل، والرجل العادى فى الشارع، والأطفال فى الأزقة، هادفاً بذلك الإدراك التام للمعنى المطلوب من تعبيرات الإنجيل.^(١)

(١) قارن:

Stolt, Brigt: Sakralsprache – zu Luther Zeit und heute. In: Linguistische Studien, Berlin, Heft 77, ص ١١٩

٢. ٦ الحكاية المصاغة على لسان الحيوان كوسيلة تربوية للأمة الألمانية

لقد برزت براعة مارتن لوتر اللغوية بوجه خاص فى حقل أدبى رفيع، وهو حقل الحكاية المصاغة على لسان الحيوان، والتي تعد، من وجهة نظرنا، من الإسهامات الأدبية واللغوية الفائقة التي تركها لوتر لأمتة، هادفاً منها إيقاظ وجدان جماهير شعبه من الصغار والكبار، من الحكام والأمراء ومن المحكومين.

ولعل المرء يتساءل ما الذى دفع لوتر إلى هذا الاهتمام بهذه الحكايات، التي صيغت على لسان الحيوان؟ وتكون الإجابة كالتالى:

كان مارتن لوتر يهدف من خلال حكاياته هذه، إلى تحقيق هدفين جليلين: أولهما أنه قصد بها تربية وتقويم أخلاق الشباب وتهذيبها، من منظور أنها تحث الصغار والشباب على تعاطى الحكمة والفن، وهو الأمر الذى هم فى حاجة ماسة إليه، ليصبحوا مواطنين أفاضل، علاوة على أنها تؤدي وظيفة أخلاقية للأسرة، على اعتبار أنها من الموضوعات ذات التسلية المفيدة والنابعة من مواقف حياتية تحدث من قبل الحيوان والطير، وثانيهما أنه أراد أن يقول للأمراء وغيرهم من عليّة القوم، مالم يجرؤ على قوله لهم صراحة من خلال هذه الحكايات، حيث كان قول الحقيقة فى عصره جريمة يعاقب عليها القانون البابوى: "كل العالم يكره الحقيقة، عندما يواجهها ولا يريد أحد أن يسمعها، رغم احتياجه الشديد إليها، لذلك يلجأ أهل الحكمة إلى تأليف مثل هذه الحكايات على لسان الحيوان والطير مسبيين عليها كل ألوان الزينة والزخرفة الكاذبة، متجنبين بذلك عدم سماعها من أفواه البشر. وتسرد هذه الحكايات كأساطير تقرأ يتحدث فيها حيوان مع آخر كحديث ذئب مع حمل، أو دب مع أسد، وذلك من خلال صياغة يعجز عن صياغتها العديد من الوعاظ والدعاة، سواء كانوا من المؤيدين أو المعارضين لحدث بعينه".^(١)

(١) قارن:

"Alle Welt hasset die Wahrheit, wenn sie einen trifft. Darum haben weise hohe Leute die Fabeln erdichtet und lassen ein Tier mit dem anderen reden, als wollten sie sagen: Wohelen, es will niemand die Wahrheit hören noch leiden, und man Kann

وبذلك كان لزاماً على المرء أن يصوغها في قالب أدبي، عبر الحكايات المتضمنة لهذه الحقيقة، والتي تقال على لسان الحيوان، دون أن تسبب لصاحبها أى نوع من الحرج والاضطهاد.

ويعبر لوتر في أسلوب رفيع في مقدمة كتابه الذي تناول فيه هذه الحكايات، وتمت طباعته عام ١٥٣٠، والذي كان ثمرة من ثمرات مواهب لوتر الأدبية منذ طفولته وفي مراحل تعليمه بعد أن حفظ حكايات إيسوب^(١) المصاغة على لسان الحيوانات وخاصة في فترة إقامته في قلعة الكوبورج، حيث تمكن أن يصيغها بثوب ألماني، قائلاً: "عدا الكتاب المقدس لا يوجد الكثير من الكتب مثل هذا الكتاب الجدير بالتقدير"^(٢). ولم يقتصر لوتر في تدعيم كتابه على الحكايات القديمة اليونانية واللاتينية فقط، بل اعتمد أيضاً على ما ترجمه سلفه هينريش شتاينهوفل Heinrich Steinhöwel عام ١٤٨٠م إلى اللغة الألمانية "Der deutschen Esopum".

ولم يترجم لوتر حكايات إيسوب من جديد إلى الألمانية، ولكنه اعتمد على ما هو متداول في عصره من الترجمات التي سادت وازدهرت في القرن السادس عشر كفن دعائي استغله رجال الإصلاح وفي مقدمتهم لوتر كسلاح نضال ضد الكنيسة الكاثوليكية.^(٣) وقام بصياغة هذه الحكايات، ولكن وفقاً لاتجاهاته الفكرية التي جعلها ذات مغزى بالنسبة للشباب وغيرهم من أفراد الشعب غير المتعلمين وغير المثقفين لكي تصبح ذات فائدة عظيمة للألمان.

doch der Wahrheit nicht entbegren, so wollen wir sie schmücken und unter lustigen Lügenfarbe und lieblichen Fabeln Kleiden! Und weill man sie nich will hören aus Menschenmund, das man sie doch höre aus Tier – und Bestienmund. So geschiehts denn, wenn man die Fabeln liest, dass ein Tier dem andern, ein Wolf dem andern die Wahrheit sagt, Ja zuweilen der gemalte Wolf oder Bär oder Löww im Buch dem rechten zweifußigen Wplf und Löwen einen guten Text Heimlich liest, ren ihm sont kein Predlger, Freund noch Feind legen dürfte.

(١) عاش إيسوب في القرن السادس قبل الميلاد في مدينة فريجيين أحد مدن آسيا الصغرى، وعانى من رق العبودية في بداية حياته، ثم ما لبث أن اعتق وفقاً لرواية هيرودوت و بلوتارك – وتوفي عام ٥٦٠ ق.م. ومع اختلاف المؤرخين حول سيرته الذاتية فإنهم يتفقون أنه كان يمثل تجسيد روح الفكر الإغريقي في هذا القالب الأدبي.

قارن Parabeln und Gleichnisse; Paderborn; München; Reinhard: Fabeln Dithmar S. 165. 1995, Wien; Zürich; Schöningh

(٢) قارن: Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut, Maess ٨٢ ص
Wo es wörtlich heißt: „Dies Buch von der Fabel... ist ein hochberühmt Buch gewesen bei den Allergelehrtesten auf Erden.“

(٣) قارن: BdV Kirche – Gerhard: Martin Luther, Karin/ Ebeling, Bornkamm ١٦٢ ص 1982, Schule, Gottesdienst وما بعدها.

ولقد تناول لوتر في حكايته الأولى موضوع الصراع الدينى السائد فى وقتها مع الكنيسة، وحتى الحكاية السابعة تناول موضوعات أخلاقية وصفات إنسانية وهى (البلاهة أو الغباء، الكراهية، الخيانة، الحقد والحسد، الطمع والجشع، الإثم والذنب، القوة والبطش). ولقد اتخذت هذه الحكايات عنوانها من خلال المغزى الأخلاقى الذى تقصده، ونجد هنا لوتر كما قال عنه أحد رواة هذه الحكايات، وترسيخا لدور مارتن لوتر كمصلح دينى أنه وضع قائمة بالصفات الإنسانية السيئة، وسوء عواقبها ووضحها عبر طريقة مقنعة ومرحة.

ولعل من المفيد للقارئ هنا أن نعبر له عن اعتقادنا بمعرفة لوتر لحكايات كليلة ودمنة Kalila und Dimna Fabel، والتي ظهرت لها عدة ترجمات من اللغة الفارسية إلى اللغة العربية والتي قام بها عبد الله ابن المقفع مع بداية القرن الثامن الميلادى، حيث ألبسها لباسا اسلاميا ووفقا لأخلاقيات الدين الإسلامى ومزدانة بآيات بينات من القرآن الكريم وأحاديث نبوية وحكم وأمثال عربية، حتى ذاع صيتها أكثر من الأصل الهندى، حيث ترجمت بعد ذلك إلى العبرية فى القرن الثانى عشر ومنها إلى اللاتينية فى القرن الثالث عشر، ثم إلى الألمانية عام ١٤٨٥ فى مدينة أولم Ulm، ولا شك أن ذلك كان مصدرا رئيسيا، انتفع به لوتر واقتدى به فى حكاياته التى أشرنا إليها.^(١)

ونسوق بعض أمثلة من صياغاته لعدد من هذه الحكايات، والتي تبرهن على وجهة نظرنا هذه:

(١) قارن Bothmar، Hans-Casper Graf von: Kalila und Dimna : Ibn al-Muqaffa's Fabelbuch، Reichert Verl.، Wiesbaden 1981، S. 17f.

قارن أيضا: عبد الحميد عبد الرحمن محمود: حول وظيفة الحكاية المصاغة على لسان الحيوان فى أدب عصر التنوير الألمانى، رسالة ماجستير، المنيا ٢٠٠٥م، ف١، ص ٣٦ و ما بعدها.

Abdulrahman، Abdulhamid: Zur Funktion der Fabel in der Literatur der deutschen Aufklärung، MA، Al-Minia 2005، 1. Kapitel، S. 36ff.

المثال الأول

الطمع

حكاية الكلب والماء

مر كلب بجدول صغير وكان في فمه قطعة لحم، وعندما نظر في الماء بدا له ظله المعكوس في الماء فأخذه الشره والطمع وأراد أن يقتنص قطعة اللحم الأخرى، وبمجرد أن فتح فمه ليلتقطها من الماء، سقطت من فمه قطعة اللحم الحقيقية، وسقط معها في الماء، وبذلك خسر القطعة التي كانت في فمه وخسر نفسه.

الدرس المستفاد

يجب على المرء أن يكون قنوعًا بما قسم الله له، وأن يرضى بالقليل، ومن يرد الحصول على كل شيء سيفقد في النهاية كل شيء.

المثال الثاني

القوة فوق الحق

الذئب و الحمل

ورد ذئب وحمل جدول ماء يريدان الشرب، وكان الذئب يشرب من أعلى الجدول والحمل من أسفله، وحينما لمح الذئب الحمل ذهب إليه مسرعا ومهددا بقوله: "لقد عكرت على الماء حتى لا أستطيع أن أشرب". فأجابه الحمل: "كيف ذلك وأنت ترد الماء من مكان أعلى يأتي منه الماء إلى وتدعى أنني قد عكرتة". فرد الذئب معنفًا: "إن لم تكن فعلتها فقد فعلها أبوك من قبل منذ ستة أشهر".

فأجاب الحمل مستعظفاً: "وكيف تحاسبني على أمر فعله أبى قبل مولدى." فأجابه الذئب باتهام جديد بأنه قد ألتهم العشب الأخضر الذى فى أرضه، وأهلكها.

فأجابه الحمل مستكراً: "كيف لى أن أصنع هذا ولم تظهر لى أسنان بعد." وأخيراً يحسم الذئب الأمر قائلاً: "لقد سئمت كثرة كلامك وحججك الكاذبة"، ويقدم على خنقه واقتراسه.

الدرس المستفاد

عندما يسود مبدأ القوة فوق الحق والقانون، فلا مناص من معاناة أصحاب الحقوق الضعفاء عند استخدام هذه القوة فى سلب حقوقهم والتكيل بهم.

ولعل من الملاحظ من هذين المثالين، أن لوتر جاء بنص الحكاية، ثم بالدرس المستفاد منها، وهو يضع بذلك مناهجاً جديداً فى هذا المجال على عكس غيره من المؤلفين، الذين يتركون القارئ يستنبط الدرس المستفاد بنفسه من خلال مطالعته لنص الحكاية.

ونجد أيضاً فى حكايات لوتر ميزة أخرى فى أنه يختتمها بأمثلة شعبية وحكم مأثورة، وذلك من منظور أن الحقيقة أكثر الأشياء مرارة عند الناس على وجه الأرض.

ويواصل مارتن لوتر سرده لعدد آخر من هذه الحكايات، وعلى نفس النسق مثل حكاية "طائر اللقلق (أبى منقار) والذئب" „Kranich und der Wolfe“ ، "الضفدع والفأر" „Vom Frosch und Maus“ ، "الديك واللالئ" "Vom Hahn und Perlen" ، "الأسد والثعلب والحمار" „Vom Löwen und Fuchs und Esel" "الغراب والثعلب" „Vom

"Raben und dem Fuchs" ... إلخ، والتي يمكن الرجوع إليها في الكتاب المشار إليه أو في المراجع المتخصصة.^(١)

٢. ٧ اللغة في خدمة مواقف حياتية

لقد تبلورت قوة مارتن لوتر اللغوية في العديد من المواقف الحياتية نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر، حينما عبر عن مشاعره النبيلة بعد علمه بالمرض الشديد الذي ألم بوالده مع بداية عام ١٥٣٠ وهو ملازم لقلعة الكوبورج. يكتب خطاباً يبدى فيه رغبته الصادقة في استضافة والديه بمنزله في الفترة الباقية من حياتهما قائلًا:

"كم هي من سعادة بالغة لنا جميعًا، إذا سمحت ظروفكما بالقدوم إلينا، الأمر الذي لو تحقق، فإن زوجتي كيئي سوف تذرف سيلًا من دموعها تعبيرًا عن شدة فرحها بقدومكما ونحن كذلك."^(٢)

ولكن القدر لم يشأ أن يحقق لمارتن لوتر هذه الرغبة، ويلقى الوالد وجه ربه في ٢٩ مايو ١٥٣٠، ويعبر لوتر عن فجيئته في فقدته لوالده بالعبارات التالية: "لقد سألت دموعي مدرارًا على فراقه وإنني أذكره بكل ما قدمه لي؛ فبه رأيت نور الحياة وأصبحت على ما أنا عليه الآن، ولعل ما يعزيني ويواسيني في فقدته أنه مات مؤمنًا على عقيدة المسيح، ورغمًا من ذلك فإن فراقه قد هزنى من الأعماق، مما جعلني أنظر إلى الموت بكراهية وبغض شديدين."^(٣)

لعل مثالاً آخر من هذه المواقف الحياتية التي ربطت مارتن لوتر بأسرته، وخاصة بأبنائه الخطاب الذي كتبه في التاسع عشر من يونيو ١٥٣٠، وهو مقيم بقلعة الكوبورج إلى ابنه هانز الذي كان يبلغ من العمر آنذاك أربع سنوات،

(١) قارن:

ص ٨٤ وما بعدها. Maess, Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut, a.a.O.

(٢) قارن:

Meisner, Michael, a.a.O., ص ٢٢١.

(٣) قارن: المرجع السابق ص ٢٢١.

سارداً له حكاية يتقمص فيها لغة هذه المرحلة العمرية، ليعيش فيها مع ابنه طفولته فيقول: "ابنى الحبيب! بنعمة وسلام السيد المسيح وكلى أمل أن تكون مجد في درسك ومنتظم في صلواتك، وعليك يا بنى العزيز أن تواصل هذا، وحينما آتى إليك سأحضر لك هدية جميلة. إننى أعرف حديقة جميلة مليئة بالسورور والبهجة يزورها كثير من الأطفال بملابسهم الذهبية، وهم يلتقطون ثمار التفاح والكمثرى والكريز والبرقوق والأراسيا، متغنين بأجمل الأناشيد ويقفزون بلهو الطفولة البرى فى سعادة غامرة ويستمتعون بامتطاء ومداعبة خيولهم الصغيرة الجميلة ذات اللجم الذهبية والأسرجة الفضية. وسألت صاحب الحديقة، مَنْ يا ترى أولئك الأطفال؟ فأجابنى: إنهم الأطفال المحبون لإقامة الصلوات والتزود بالتقوى وحب العلم والتعلم. فقلت له يا عزيزى لى ابن كهؤلاء ويدعى هانز لوتر وأود أن يكون من رواد الحديقة وأن يشارك هؤلاء الأطفال فى جمع التفاح وأكل الكمثرى وامتطاء الخيل المطهمة ويشارك أولئك الأطفال ألعابهم، ويجب صاحب الحديقة وحارسها قائلاً: إذا كان طفلك من محبى إقامة الصلاة والتزود بالعلم والتقوى، فلا حرج من مشاركته لرواد الحديقة." (١)

وفى أغسطس من عام ١٥٤٢ علت سماء أسرة مارتن لوتر سحابة داكنة حزينة، خاصة بعد أن أرسل الوالد ابنه هانز البالغ من العمر ستة عشر عاماً، لمواصلة تعليمه على يد الأستاذ كرودل Crodel فى مدينة "تورجاو" (Torgau) (٢)،

(١) قارن، المرجع السابق ص ٢٢٢، قارن أيضاً، Thomas, Maess a.a.O ص ٣٠ وما بعدها.
(٢) سبق أن نوهدنا بمكانة هذه المدينة والدور المهم الذى لعبته فى حركة الإصلاح الدينى والكنسية. مقر حاكم إمارة سكسونيا، وفيها بنيت أول كنيسة إنجيلية على الأرض الألمانية. اشتهرت المدينة بمدرستها التى تأسست عام ١٢٧١ كمنشأة تعليمية ذات صلة وثيقة بالحياة الكنسية. تطورت المدرسة إلى "جمنازيوم" بناء على نداء مارتن لوتر لأولى الأمر تأسيس مزيد من المدارس تقوم مناهجها على قيم الإصلاح اللوتري. وقد نشأت علاقات حميدة بين لوتر وإدارة المدرسة، وكثيراً ما توسط لإعفاء بعض الفقراء من الطلاب من دفع الرسوم المدرسية وخاصة فى عهد مديرها ماركوس كرودل Marcus Crodel والذى اعتبره لوتر أحد العمد الثلاثة من أصحاب القداسة بجوار يوهانس بوجنهاجن Johannes Bugenhagen وجورج رورر Georg Rörer. فى عام ١٥٤٣ أهدى لوتر كرودل نسخاً موهورة بخط يده من ترجمة الإنجيل ومن كتاب "ضد البابوية، إهداء من الشيطان". ويذكر فضلاً عن ذلك أن كرودل كان أحد مشاهير عصره، وخاصة إجادته اللاتينية واليونانية والعبرية واعتبر كتابه "قواعد اللاتينية" - طبعة بازل ١٥٤١ ثورة فى استخدام شرح الدروس من خلال اللغة الألمانية تيسيراً لتعلم المبتدئين من الطلاب. وتتوج العلاقة

وكانت تربط الابن هانز بأخته ماجدالينا Magdalena علاقة أخوية حميمة؛ جعلت منهما كما لو كانا توأمين بقلب واحد، وكان فراقه عنها بالغ الصعوبة مما جعلها تعاني سقمًا لا خلاص منه. ويدرك الأب الرحيم دنو أجل ابنته؛ فيكتب إلى معلم ابنه كرودل خطابًا، يعبر فيه بلغة جميلة عن رجائه الحار ألا يخبر ابنه هانز بمرض أخته ودنو أجلها^(١)، ويعبر له عن شدة شوقها لرؤية أخيها، ويرسل له مركبة لإحضاره، بغية أن تراه أخته التي تحبه حبا جما، ولعل حضوره إليها يمثل قوة متجددة تبعث فيها الحياة من جديد. ويناجي لوتر ربه، في لغة حانية، خارجة من قلبه المكلم، أنه لا اعتراض لديه على مشيئة الرب في رحيلها إليه، حتى لو كانت ترغب البقاء مع أبيها، فلربما الأفضل لها الصعود إلى أبيها الذي في السماوات.^(٢)

ويختتم لوتر مداريًا حزنه مناجيًا إياها وهي راقدة في نعشها: "عزيزتي ماجدالينا سوف تبعثين من جديد وتُثيرين الدنيا كنجم ساطع ... نعم، كالشمس! ورغم حزني فأنا أعلم يقينًا أنك تتعمين بسلام في السماوات العلى"^(٣).

وتظهر المهارات اللغوية الفاتكة لمارتن لوتر حينما يعبر عن أحاسيسه ومشاعره الرقيقة نحو زوجته التي كان يكن لها حبا جما، خلده في كثير من كتاباته ورسائله. ويتضرع إلى الله شاكرًا إياه على منحه زوجة صالحة حملت عنه مشاغل بيته وتربية أولاده، وبلغ حبه لها أنه لا يرضى لها بديلا حتى لو كان بدولة فرنسا أو البندقية، وأن حبه لها يفوق حبه لنفسه ولأولاده.^(٤) وكثيرًا ما شبهها بالإمبراطورة

بين لوتر وكرودل بإرسال ابنه يوهانس وابن أخته زوجته فلوريان فون بورا إلى المدرسة التورجاوية للدراسة.

- (١) قارن: 'Biographien zur Reformation', Martin : Martin Luther und Torgau, Treu : 2. Auflage, S.58, Wittenberg 2001.
(٢) قارن: Michael, Meisner, a.a.O., ص ٢٧٢.
(٣) قارن: المرجع السابق ص ٢٧٣.
(٤) قارن: المرجع السابق ص ١٨٣.

والملكة، ولا يملك إلا شكر ربه الذى وهبه إياها، كزوجة تقية صالحة مخصصة له ولربها.^(١)

٢. ٨ لوتر فى عيون الآخرين - نصب تذكارى لفصحى الألمانية الحديثة

فى بحث طريف للدكتور هانز كريستوف جراف فون ناى هاوس Hans Christof Graf von Nayhauss بعنوان "مارتن لوتر النبى فى اللغة"^(٢) يذكر وجهات نظر عدد من كبار مفكرى ألمانيا فى العصور التى تلت حركة الإصلاح البروتستانتى، فيذكر:

مقولة يوهان جوتفريد هردير Johann Gottfried Herder -أبو الرومانسيه الألمانية:- "أنه الرجل الذى أيقظ بترجمته للإنجيل مارد اللغة من سباته، وحرره من أغلاله... ودفع من خلال حركته الإصلاحية أمة بأكملها إلى إنماء الفكر والحس لديها... إنه معلم الأمة الألمانية والمصلح الرائد لكافة أوروبا المستتيرة."^(٣)

(١) قارن: المرجع السابق ص ١٨٤.

(٢) قارن:

Nayhauss, v.Graf Hans Christof: Martin Luther, der Prophet in der deutschen Sprache, In: Lettres européennes. Paris, Hachette, 1992, S. 276 - 280

(٣) قارن النص الأصيل:

"Er ist es, der - durch seine Bibelübersetzung- die deutsche Sprache, einen schlafenden Riesen aufgeweckt und losgebunden... Er hat durch seine Reformation eine ganze Nation zum Denken und Gefühl erhoben."

Er ist Lehrer der deutschen Nation, ja als Reformator der ganzen aufgeklärten Europa"

، وقارن أيضاً، S.650, 1953, Bd. I, München, Herder: über die neue Deutsche Literatur 1881, a.a.O., Gerhard, Ebeling ص ٢٠.

يمتدح شاعر ألمانيا الأكبر يوهان فولفجانج فون جوته Johann Wolfgang von Goethe لوثر عام ١٨١٧، وذلك بمناسبة مرور ثلاثمائة عام على حركة الإصلاح، مؤكداً: "يحق لنا أن نعبر عما في صدورنا عن مدى أهمية شخصية لوثر في هذه المناسبة، وأعني بها تلك السمة الفريدة، التي أثارت جماهير الناس وحركت عواطفهم وما عدا ذلك لم يكن سوى لغو تلوكة الألسن كل يوم."^(١)

أما هاينرش هايني Heinrich Heine فيقول في كتابه "الدين والفلسفة في ألمانيا" Zur Religion und Philosophie in Deutschland: "من يرد أن يتحدث عن الأدب الألماني الحديث، فلزاماً عليه أن يبدأ بمارتن لوثر"^(٢).

ويواصل هايني هذا التقريظ عن لوثر في مؤلفه -المشار إليه- أنه بعد أن أطلقت المطابع آلاف النسخ من ترجمة لوثر إلى طبقات الشعب كافة، وانتشرت لغته في سنوات قلائل في كل أرجاء ألمانيا، لتصبح اللغة العامة المكتوبة ولتوحد الأمة بعد تمزق، ولتجدد بذلك الانتماء السياسي لكل الألمان.^(٣)

أما كلوبشتوك Klopstock فيتحدث عن لوثر بانبهار ويقول: "هل هناك من يعرف معنى اللغة وقيمتها قبل لوثر! الذي منحها شرفاً لم تحظى به لغة أخرى، وذلك لما قدمه لها من اشتقاقات وتركيبات كثيرة"^(٤).

(١) قارن المرجع السابق ص ١٩ .

„Unter uns gesagt, ist in der ganzen Sache nichts interessant als Luthers Charakter und es ist auch das Einzige, was der enge eigentlich imponiert. Alles übrige ist ein verworrener Quark, wie ihr uns noch täglich zur Last fehlt.

(٢) قارن النص الأصلي:

"Wer über neuere deutsche Literatur reden will... muß mit Luther beginnen"

هاينرش هايني، الترجمة العربية لكتابه تاريخ الدين والفلسفة في ألمانيا، صلاح حاتم، ص ٥٨ وما بعدها (٣) قارن:

Heine, Heinrich: Zur Religion und Philosophie in Deutschland, Bd.II, Berlin, 1969, ص ٤١٩. انظر الترجمة العربية: صلاح حاتم: "من يريد الكلام على الأدب الألماني الحديث فيجب عليه أن يبدأ بلوثر وليس بهانز ساكس" ص ٥٨ وما بعدها.

(٤) قارن النص الأصلي:

„Niemand, der weiß, was eine Sprache ist, erscheine ohne Ehrerbietung vor Luthern. Unter keinem Volke hat ein man so viel an seiner Sprache gebildet. Ebeling, a.a.O. ص ١٩

أما إعجاب فريدريش شليجيل Friedrich Schlegel رغم انتمائه العقائدى للكنيسة الكاثوليكية فقد تجاوز حدود المدح فى حكمه على ترجمة لوتر للإنجيل. "كانت قوة اللغة والفكر التى تمتع بها لوتر هى الإسهام الذى لا يمكن إنكاره على مر القرون، وبين كل شعوب الأرض"^(١).

ويحصى نايهاوس إنجازات مارتن لوتر التى نشرت تحت مسمى طبعة مدينة "ينا" "Jena" عام ١٥٥٥ وحتى ١٥٥٨ والتى بلغت اثنى عشر مجلداً، منها ثمانية بالألمانية، وأربعة باللاتينية، وكانت مؤلفاته هذه ذات صلة لصيقة بوظيفته كمصلح ومجدد، وكانت تمثل عملاً جامعاً لكل الأنواع الأدبية وذلك على النحو التالى: محاضرات عامة، مناقشات ومجادلات، مقولات وحجج، برامج مكتوبة، منشورات، عظات، ترجمات الإنجيل، أغاني كنسية، كتابات دينية وتعليمية، والعديد من الحكايات التى نقلها إلى الألمانية وخطب المائدة والعديد من الرسائل. ولا عجب أن يخلد الأديب الألمانى الكبير كونراد فرديناند ماير Conrad Ferdinand Meyer هذا النتاج الأدبى الكبير بقصيدة شعرية، يبرز فيها فضل لوتر فى التمهيد لعصر جديد تعيشه أوروبا:

لقد حمل لوتر فى صدره نضالا كامناً،

ملأ به نصف المعمورة،

تاركاً الرهبنة وأديرتها فى شجاعة منقطعة النظير،

(١) المرجع لسابق ص ٢٠:

„Nichts desto weniger bleibt bei ihm selbst, was die Kraft der Sprache und den eigenen Geist, diese große und starke Art des deutschen Ausdrucks betrifft, ein unverkennbares Verdienst. Denn auch in seinen eigenen Schriften findet sich eine Beredsamkeit, wie sie im Laufe der Jahrhunderte unter allen Völkern nur selten in dieser Kraft hervortritt.“

لينجز الحدث الأكبر الذى لم يستطعه غيره،
ورغم إحساسه بانقسام الأمة المسيحية إلى كنيستين،
يظل فى ثبات متشبثاً بإنجاز إنجيله^(١).

ويرى الفيلسوف الألمانى فريدريش نيتشه Friedrich Nietzsche أن إنجيل لوتر، يمثل تحفة عظيمة من النثر الألمانى Meisterstück der deutschen Prosa لهذا لم يكن من المستغرب أن يرى لوتر ضرورة ملحة بعد تأليفه للعديد من الكتب والرسائل وإتاحة كلمة الله كاملة لعموم الشعب الألمانى، وبعد نقله لتسعة عشر مزموراً إلى الألمانية أثناء إقامته فى حصن الفارتبورج، ينتهى فى وقت قصير - كما سبق أن ذكرنا - من ترجمة العهد الجديد والقديم، والذى قام بطبعه ونشره كاملاً هانس لوفت Hans Lufft بمدينة فيتنبرج عام ١٥٣٤. لهذا اعتبر لوتر أن هذه الطبعة التى أنجزها هى قمة أعمال حياته الرئيسية، التى كانت سبباً فى شهرته فيما بعد. ولأنه كان يحرص فى ترجمته على النقل الدقيق للمعنى دون أن يكون عبداً للكلمات المفردة، ومعروف مبدأه فى هذا أن المعنى يخدم الكلمة وليس العكس، ومن هذا المنظور كانت ترجمته للإنجيل من منطلق فهمه الكلى للإصلاح الدينى، وهو استقلال المسيحي باعتقاده الإيمانى.

كان هدف لوتر الأول والأخير أن يتكلم المواطن الألمانى لغة واضحة، بمعنى أن تكون مفهومة ومستوعبة من كل من يسمعها. ولقد قرظ الكثير من الأدباء والشعراء إنجيل لوتر كعمل أدبى ولغوى رائع، من أمثال ليسنج،

(١) (قارن، Gerhard Ebeling، a.a. a.O. ص ١٣ وما بعدها:

„Er trug in seiner Brust den Kampf verhüllt،
Der jetzt der Erde halben Kreis erfüllt،
Er brach in Todesmut den Klosterbann،
Das Größte tut nur، wer nicht anders kann!
Er fühlt der Zeiten ungeheueren Bruch،
Und fest umklammert er sein Bibelbuch

وكلوبشتوك، وهامان، وهيردر، وجوته، وحتى توماس مان، وبرتولد برشت. هذا ولا تزال إبداعاته الشعرية الخاصة بأغاني الكنائس، تغنى حتى يومنا هذا، وهي مستقاة من عبقرية لغة ترجمة الإنجيل، التي جعلت من لوتر شاعرًا دينيًا وداعيًا ومناضلًا في دعايته من خلال الكتابة النثرية وخاصة أحاديث المائدة التي كان يؤديها مع أصدقائه وأقرانه، وكذلك مراسلاته مع زوجته وأبنائه وغرمائه، والتي حوت الكثير من المأثورات التي جعلت منه مربيًا للشعب، ونذكر على سبيل المثال أحد هذه المأثورات التي صاغها شعراً:

"ليس لك أن تصدق كل ما تسمع؛

وليس لك أن تفعل كل ما تريد وترغب؛

ولا تقل كل ما تعرف؛

ولا تستهلك كل ما تملك؛

ولا تشتتر كل ما ترغب؛

وهكذا تبقى سالمًا غانمًا في كل وقت." (١)

ويقدم مارتن لوتر هذه المأثورات لشباب وطنه كنصائح وعظات لا يرتبط محتواها بزمان أو بمكان، ولكنها صالحة لكل زمان ومكان. (٢)

(١) قارن، النص الأصلي:

"Glaub nicht alles, was du hörst;
tu nicht alles, was du magst;
sag nicht alles, was du weisst;
brauch nicht alles, was du hast;
kauf nicht alles, was du siehst;
so bleibst du wohl zu jeder Frist."

Nayhauss, v.Graf Hans Christof: Martin Luther, der Prophet in der deutschen Sprache, In: Lettres eurpéennes. Paris, Hachette, 1992, S. 280

(٢) قارن: Thomas, Maess, a.a.O., ص ٩٦ وما بعدها.

٢ . ٩ مارتن لوتر فى الموسوعات اللغوية

وقد يكون من المفيد بعد هذا العرض عن البعد اللغوى فى أعمال وحياء مارتن لوتر، والذي أدى إلى نجاح حركته الإصلاحية وتوحيد أمته الألمانية، أن نوجز مكانة لوتر فى التاريخ اللغوى الذى استقيناها من الموسوعة الألمانية الصغيرة.^(١) وذلك على سبيل المثال لا الحصر، حيث يجد الباحث كما بلا حدود فى هذا المجال حوته بطون الموسوعات الكبرى.

تورد هذه الموسوعة أهمية لوتر الكبيرة فى نشأة وتكوين اللغة القومية للألمانية الفصحى الحديثة. ويتفق على هذا رأى العديد من علماء اللغة الألمانية بداية من ياكوب جرم Jacob Grimm ، وموزر Moser ، وإربن Erben ، وفليشر Fleischer ، وجروسه Große ، ويصف أولئك العلماء لوتر بأنه كان رائداً من رواد الكلمة بالنسبة لعصره تماماً كما كان ليسنج Lessing ، وكلوبشوك Klopstock ، وفيلاند Wieland ، وهيردر Herder، وجوته Goethe بالنسبة للقرنين الثامن والتاسع عشر. كما تؤكد هذه الموسوعة أنه ظهر فضل اتصال لوتر الوثيق مع الطبقات الاجتماعية المختلفة، والذي كان عظيم الأثر فى تطور لغته، وخاصة فيما يتعلق بامتلاك زمام المفردات اللغوية، وقدرته على التجول خلالها أنى شاء، علاوة على رحلاته العديدة لبيئات لغوية ألمانية تختلف اختلافاً كبيراً عن بيئته اللغوية. وتعدد الموسوعة فى هذا السياق رحلته التى قام بها سيراً على الأقدام إلى روما عام ١٥١٠-١٥١١، والتى عايش خلالها اللهجات الألمانية، والشفابية، والبافاروية، ولهجات مناطق نهر الراين، أثناء عودته عبر فورمس، ومايسن. كما لا تنسى الموسوعة أن تضيف إلى ذلك دراسة لوتر للعديد من اللغات القديمة والتعمق فيها.

(١) قارن:

Kleine Enzyklopädie – Die deutsche Sprache ، in zwei Bänden، Autorenkollektiv، Leipzig 1967، Band 1، S. 222ff.

ومن إسهامات لوتر اللغوية أنه لم ينقل المفردات كما وجدها، وإنما كان يجدد ويغير معانيها في أغلب الأحيان، وخاصة المصطلحات المرتبطة بالأمور الدينية كمصطلح التوبة، الخطيئة، الرحمة، الإيمان، التقوى، الكاهن، الواعظ^(١). وقد تمت صياغة هذه التجديدات في رأس لوتر، الذي تُشَبَّه الموسوعة بورشة حدادة رائعة. كما تورد الموسوعة عددًا غير قليل من الكلمات الجديدة التي كان يكيل من خلالها اتهامات فظة لرجال الكنيسة الكاثوليكية، وعلى رأسهم بابا روما.

ولم يكتف مارتن لوتر بهذا التجديد اللغوي على مستوى علم الكلمة، ولكنه تعداه بالتجديد في علم الجملة والقواعد النحوية المتعلقة بالجملة الأساسية والفرعية والجملة السببية والروابط والتوابع^(٢).

وتختتم الموسوعة عرضها عن الإسهام اللغوي، الذي تركه مارتن لوتر بكفاحه المرير أثناء ترجمته للعهد الجديد والقديم من اليونانية والعبرية إلى الألمانية الفصحى الحديثة. وتورد الموسوعة العناء الكبير الذي يعبر عنه لوتر بقوله: "إننا كنا نبحث عن كلمة واحدة ونسأل عنها مدة أربعة عشر يومًا، أو ثلاثة أو أربعة أسابيع، وكنا أحيانًا لا نجدها... كنا نعمل بصبر أيوب لدرجة أننا كنا نمكث أحيانًا أربعة أيام ولا ننتهي من ثلاثة أسطر. وما قد تمت الترجمة، ويمكن للمرء أن يقرأ ثلاث أو أربع صفحات منها دون أن يتلثم ولو مرة واحدة، ويقرأها كما لو كان يسير على لوح خشبي مصقول. لقد حرث لوتر الأرض حرثًا جيدًا، ونقاها وطهرها وجردها من الغابات والأخشاب الملقاة^(٣). وكل ذلك من الأمور التي لا يمكن أن يتحملها سوى أولى العزم.

لقد امتلك لوتر زمام اللغة وأجادها، بما أتاحت له أن يؤثر في الجدل الديني الذي أيقظ الشعب، وأثاره بأكمله. وبهذا يكون قد ساهم مساهمة جوهريّة في إسراع

(١) قارن المرجع السابق ص ٢٢٤.

(٢) قارن المرجع السابق ص ٢٢٥.

(٣) قارن المرجع السابق ص ٢٢٦.

الخطى، نحو عملية التوحيد اللغوى لألمانيا. ومن إنجازات لوتر الجلييلة فى هذا الشأن، أن أصبحت لهجات وسط وشرق ألمانيا Ost-Mitteldeutsch وخاصة لغة الديوان السكسونى، الدعامة الأساسية للغة الألمانية القومية. وبهذا يكون لوتر قد أخرج لغة الكتابة الألمانية من مكانها، وحررها من تأثير اللغة اللاتينية.

يؤكد ذلك الباحث الألمانى رودلف جروسى Rudolf Große حينما يذكر أن أقران لوتر من العلماء المعاصرين له أقرؤا بالتأثير الأمتل للغة، مما دفع أديب عصر التنوير كلوبشتوك أن يسجل عن قناعة موقع لوتر الرائد فى تاريخ اللغة الألمانية، والذي ضمنه فى كتابه "جمهورية العلماء" Gelehrtenrepublik عام ١٧٧٤:

"إن من يعرف قدر لغة ما فليس أمامه إلا أن يقف بكل إعزاز أمام لوتر الذى قدم لشعبه هذا الإسهام اللغوى العظيم." (١)

يسترسل جروسى فى بحثه ويذكر عبارة مشهورة ضمنها رفيق عمره يوستوس يوناى Justus Junas أثناء تأبينه وتشجيعه إلى مثواه الأخير فى الثامن عشر من فبراير ١٥٤٦:

"كان لوتر متحدثاً فذاً، ومترجماً فائقاً، الأمر الذى بعث اللغة الألمانية مرة أخرى، حتى أن المؤسسات والدواوين الرسمية قد استخدمتها كنموذج للكتابة والقراءة الصحيحة." (٢)

(١) قارن، Rudolf Große، Luthers Bedeutung für die Herausbildung der nationalen Akademie der deutschen Literatursprache. In: Martin Luther – Kolloquium S. 42f، Berlin: Akademie 11G، Wissenschaften der DDR

(٢) قارن النص فى مصدره الأسمى:

„Es war ein trefflicher، gewaltiger Redner. Item ein überaus gewaltiger Dolmetscher der ganzen Bibel. Es haben auch die Cantzleyen zum teil von im gelernet rechtdeutsch schreiben und reden، denn er hat die Deudsche sprach wider recht herfür gebracht، das man nu wider kann recht deutsch reden und schreiben und wie das viel hoher leut müssen zeugen und bekennen.“

المرجع السابق ص ٤٢ .

ونوجز فى ختام هذا الفصل الذى يعرض لمجال خصب، قدم فيه مارتن لوتر إسهامًا وافرًا بحسب له كرائد لحركة الإصلاح البروتستانتى، حيث إن جل مؤلفاته وترجماته كانت تُقرأ من قبل العارفين للحدود الدنيا بالقراءة، والذين يمثلون بضعة ملايين من الألمان، ويُقدر عددهم آنذاك بنسبة ١٠% وتبقى نسبة ٩٠% من الألمان الذين كانوا أميين.

كما أنجز لوتر صياغات لغوية جديدة، أضافت إسهامًا آخر لأساسيات اللغة الألمانية الحديثة، وساعده فى ذلك التطور التقنى الذى تمثل فى الطباعة بالحروف المتحركة، إلى جانب اشتداد الحس الوطنى والسياسى والاجتماعى، ونشوب حرب الفلاحين. كل ذلك أدى بلوتر أن يضيف المزيد من الإسهام اللغوى، عبر ترجمة الإنجيل وآلاف المنشورات والعظات والأناشيد، مما يمهد القول أن مارتن لوتر وضع المقياس الأمثل لمبادئ الترجمة الناجحة.

ويعنى لوتر بقوله هذا "أن على الترجمة أن تقدم نصا مفهومًا للقارئ كما لو كان نصا غير مترجم."^(١)

وليس من المستغرب أن تكون أهم إنجازات لوتر اللغوية أنه جعل من النصوص المراد تقديمها للنشء، صورة تعكس الواقع الذى يعيشه المجتمع، مصاغة فى قوالب يفهمها البسطاء من جماهير القراء، وقد حقق هذا النجاح كما سبق أن أشرنا فى استخدامه:

* اللغة المكتوبة لشرق ووسط ألمانيا،

* اللغة العامية الشعبية المنطوقة،

* المنشورات والحكم الشعبية السائدة،

(١) قارن: النص فى مصدره الأصل:

„Übersetzung muss ein verständlicher Text sein“ der als Übersetzung nicht erkannt.“

gexnel/teaching/landesk/luther.html~http://eis.bris.ac.uk/

*تبنى الجديد من التعبيرات المتوافرة في لغات أخرى، لتكون خادمة في ترجمة مقابلاتها في الألمانية،

*اتباع الأسلوب الأدبي والبلاغي في مخاطبة الجماهير، مما أدى إلى تقبلها السريع وفهمها، وبـل وحفظها عن ظهر قلب.

ونقدم في ختام هذا الفصل بعض المصطلحات التي تبناها لوتر، لتصبح رصيـداً مهماً للثروة اللغوية في اللغة الألمانية الحديثة، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

<u>Medizin</u> Patient, Retzept, Chirurgie, Anatomie	مجال الطب: المريض، الروشته، الجراحه، التشريح
<u>Recht:</u> Advokat, Testament, Prozess, Kaution	مجال القانون: المحامى، الوصية، القضية، الضمان
<u>Mathematik:</u> , Produkt, Multiplizieren Summe, Problem	مجال الرياضيات: عمليات الناتج، الضرب، المسألة، حاصل الجمع
<u>Geldwesen:</u> , Konto, Bilanz, Risiko Giro, Kredit	الماليات: المخاطرة، الموازنة، الحساب البنكى، الإئتمان، الحساب الجارى
<u>Bildung:</u> Examen, Rektor, Gymnasium, Professor	التعليم: الامتحان، رئيس الجامعة، المدرسة الثانوية، الأستاذ

<u>Musik:</u> ، Alt، Allegro، Sonett، Partitur Tenor	الموسيقا: نوتة موسيقية، قطعة شعرية منغومة، لحن موسيقى سريع الإيقاع، صوت أنثوى أحادي، صوت رجالي أحادي
<u>Militär:</u> Galopp، Rakete، Soldat، Kanone، Alarm	الشؤون العسكرية: الركض، الصاروخ، الجندي، المدفع، الإنذار
<u>Allgemeiner Wortschatz:</u> ، ausverkauft، Die Ausgabe ، lkerung، die Bev، der Begriff der ، die Epoche، dolmetschen der ، die Gasse، Fachbegriff der ، der Geselle، Gelehrte die ، lateinkundig، Holzschnitt der ، das Maul، Leserschaft ، der Neologismus، Nachdruck der ، schaffen، rasch، der Papst ، das Sprichwort، Sendbrief der Zeitgenosse ^(١) ، das Tor	ثروة لغوية عامة: الطبعة، نفاذ السلعة، المصطلح، السكان، المترجم، الفترة الزمنية، مصطلح فني، منشور، الحارة، العالم، الصبي، لوحة خشبية محفورة، عالم، القراءة، الفم، المستل، مساعد البابا، سريع، ينجز، خطاب دوري، ماثورة، بوابة، معاصر

(١) قارن: المرجع السابق.

الفصل الثالث

أحداث حركة الإصلاح البروتستانتي قبل مارتن لوتر

لم يكن الراهب مارتن لوتر أول مصلح نادى بشكل ثورى بإصلاح الكنيسة فقد ظهرت قبله بقرون عديدة بداية من العصور الوسطى حركات تمرد ثورية أطلق على روادها مسميات الهرطقة والملاحدة والعصاة، الأمر الذى حفز كنيسة روما إلى محاربتهم واضطهادهم من خلال محاكم ديوان التفتيش فلقد قادت هذه الثورات إلى تصدع وانشقاق الكنيسة وانفصالها إلى كنيستين: الكنيسة الشرقية فى بيزنطة والكنيسة الغربية فى روما.

وفى هذا المناخ المضطرب ظهر العديد من الجماعات الإصلاحية موجهة نقدها الحاد والمريز نحو الكنيسة حيث شككوا فى بعض أساسيات العقيدة المسيحية التى يمارسها رجال اللاهوت وعلى رأسهم بابا روما نفسه. نعرض لبعض هذه الجماعات على النحو التالى:

٣. ١ الكتاريون^(١) Die Katarer

هم من أكثر الجماعات تطرفاً وتأثرت عقيدتهم بمبادئ وقيم البوجوميليين Bogomilen السائدة فى بلدان البلقان وازداد تطرفهم بعد اعتناقهم لأفكار الديانة المانوية Manichäismus والتى كانت تدعو إلى الإيمان بثنائية العالم أى بوجود إلهين، إله للخير وإله للشر، واعتبروا أن إله الشر هو الإله الحقيقى وأن العالم الذى نعيش فيه هو من خلقه، ولهذا لزم عليهم رفضه وعدم استمراره وبقائه وصبوا لعنتهم على المجتمع الإنسانى المتمثل فى الإقطاع السائد فى العصور الوسطى واعتبروا أن جماهير العامة مغلوبين على أمرهم ومقهورين من أولى الأمر، ولزم أن تأتى نهاية هذا المجتمع فى أسرع وقت ، ومن أجل تحقيق ذلك تنصلوا من ممارسة العمل وكافة متع الحياة بداية من تربية الأطفال والزواج وأكل اللحوم والأسماك والبيض والجبن، وكانت لهم أتباع منتشرة فى داخل الأديرة

(١) ترجع هذه التسمية إلى المكان الجغرافى الذى عاش فيه أتباع هذه الجماعات فى القرن الثالث والرابع عشر بمنطقة جبال البرانس جنوب فرنسا. (المؤلف)

بجنوب فرنسا، علاوة على جماعات أخرى من المتقنين متبعين جميعًا أسلوب
التقشف والزهد وكثرة التعبد وأقاموا كنيسة خاصة بهم شبه سرية نصبوا فيها
أساقفة وشمامسة من بينهم وكانوا يقرأون العهد الجديد باللغة اللاتينية ورفضوا
رفضًا باتًا العهد القديم (التوراة) وأسرار الكنيسة المقدسة في اللاهوت المسيحي
الأمر الذي اضطر كنيسة روما إلى محاربتهم واضطهادهم والقضاء عليهم بالقوة.^(١)

٣. ٢ الفالدينون Die Waldenser

يستهل الدكتور القس فايز فارس في كتابه "أضواء على الإصلاح الإنجيلي"
بالمقولة التي ترى أن جذور الإصلاح الإنجيلي موجودة منذ عصر الكنيسة الأول،
بحكم أن مبادئها وتعاليمها مؤسسة على الإنجيل، ويهيئ الله بين فترة وأخرى من
الرجال الأتقياء للعمل على المحافظة على الأصول، لإحياء الميراث الكنسي،
والذي تسلموه من المسيح، رب الكنيسة، ورساله الأطهار.

من بين هؤلاء الرجال من أطلق عليهم المؤرخون اسم جماعة الفالدينين، الذين
كونوا ما يسمى "برابطة الأخوة المسيحية"، والتي كان أعضاؤها من غير رجال
اللاهوت. هذه الحركة تنتسب إلى رائدها التاجر الغني ورجل الأعمال بييتروس
فالدوس Petrus Waldus، المولود عام ١١٤٠ بمدينة ليون Lyon بفرنسا،
وكان يعنى اسمه في اللاتينية والإغريقية، "الصخرة"، لأنه كان من عامة المؤمنين
من المسيحيين، وقد كان له فضل سبق بأن كلف أحد القساوسة العمل على ترجمة
الإنجيل إلى الفرنسية.^(٢) وقد اعتنقت هذه الجماعة الإيمان بالمسيح عليه السلام
كوسيط وحيد بين الله والناس، وتمسكت بالكتاب المقدس كقانون وحيد للحياة،
ورفضت قيم عبادة الصور والتماثيل وتقديسها، باعتبارها من أعمال الوثنية، ولم

(١) قارن:

Karl Heussi: Kompendium der Kirchengeschichte, 16. Auflage. Tübingen 1981.
S. 217f.

(٢) قارن فايز فارس: أضواء على الإصلاح الإنجيلي، القاهرة، ط ١، ص ٨.

يكن أمام بابا روما آنذاك لوكوس الثالث Lucus III إلا إصدار مرسوم أعد لهذا الغرض في مدينة فيرونا Verona ١١٨٤ بحرمان أعضاء هذه الجماعة من عضوية كنيسة روما، واتهامهم بالهرطقة مما أدى إلى اضطهادهم وهجرهم لوطنهم، واللجوء إلى الجبال والأودية في مناطق جبال الألب، مستمرين في المحافظة على حرية العبادة والعقيدة، التي نادوا بها، وأعلنوا أن كنيسة روما ما هي إلا باب المرتدين، وقد نجحوا في إتمام ترجمة الإنجيل إلى لغتهم الوطنية، ولم يتبرموا من حياتهم الشاقة في الجبال، والتي اعتبروها حصناً منيعاً لثبات عقيدتهم. كما تدربوا على الصبر والقسوة وضبط النفس والعمل الشاق، متمسكين بالكتاب المقدس، باعتباره السلطة الوحيدة المعصومة من الخطأ، رافضين بذلك سيادة البابا والأساقفة. وقد دأبوا على قيام مجتمع بينهم خال من الخصومات، مزيّناً روح الوفاق والمحبة الأخوية، واضعين نصب أعينهم أن يجعلوا نور إيمانهم يشرق على من هم في الظلمة "Das Licht scheint in der Finsternis"، وهو الشعار الذي وضعوه على العلم المميز لهم، والمدبج بهذا النور الساطع ونجومه السبعة، المقتبسة من إنجيل يوحنا (٢٠/١)، وكان مظهر الزهد والفقر يمثل محورياً مركزياً في معتقد الفالدانيين رغم أن عدداً غير قليل من مواطني مدينة ليون كانوا من الأغنياء المنتمين لهذه الجماعة^(١) أتباع فالدوس، حتى أن البعض منهم قد تبرع بممتلكاته، ورغم أن فالدوس كزعيم لهذه الحركة لم تكن لديه نية الانفصال عن كنيسة روما فإنه بدأ يتصل من أتباع تعاليمها مع بداية ثمانينات القرن الثاني عشر، خاصة بعد أن اتهمته كنيسة روما باتباع مبادئ الكتاريين الإلحادية. واستمرت الجماعة في السير على طريق الزهد والعيش في فقر تقريباً من قيم السيد المسيح^(٢). ويكون مصير هذه ويكون مصير هذه الحركة اضطهادهم وطردهم من ليون إلى مدينة فيرونا وليستقروا هناك كوعاظ جائلين في جنوب فرنسا وشمال إيطاليا.

(١) قارن: Heussi: Kirchengeschichte, S. 218

قارن أيضاً مقال: Euan K. Cameron: Waldenser in: Theologische Realenzyklopädie, Bd. 35, S. 388-402

(٢) انظر نفس المرجع، ص ٣٨٢.

ومع بداية القرن الثالث عشر يصدر البابا أنوسنت الرابع Anosent IV ١٢٥٢ مرسومًا بهرطقتهم، ويجيء من بعده البابا أنوسنت الثامن Anosent, VIII ١٤٨٧ ليطاردهم ويجند ضدهم الحملات الصليبية، بل ويتعقبهم بمحاكم التفتيش، ولتطاردهم في فرنسا وفي ألمانيا والنمسا.^(١) وتتكرر فيهم مأساة هابيل البار وهو يسقط صريعًا على يد أخيه القاتل قابيل، ولكن لثبات إيمانهم بعقيدتهم فقد قاوموا هذه الحملات الصليبية بضراوة، وقاموا بتأسيس أول كنيسة لهم على المبادئ التي نادوا بها عام ١٠٣٢ بجبال الألب الكوتية Cottische Alpen، وتنتج حركة الإصلاح إلى سويسرا وتوثق علاقاتها بزعماء حركة الإصلاح هناك، ويمنحهم ملك سردينيا كارل ألبرت Charl Albert عام ١٨٤٨ حرية العبادة، وهم ينتشرون الآن كأقليات مسيحية في إيطاليا والأرجنتين وأرجواى ولهم ما يزيد عن ١٢٠ كنيسة في هذه البلاد. ويذكر المؤرخون أن طريق الهروب الذي قصده الفالدينيون أثناء اضطهادهم هو الطريق الذي يوصل ما بين جبال الألب الكوتية في جنوب فرنسا وبين جبال الألب الإيطالية وهي المنطقة التي استقرت فيها أعداد غير قليلة من الجنود المسلمين على مدى ثلاثة قرون سابقة بداية من القرن العاشر وكانوا يسيطرون على هذه الطرق ومنافذها، وطاب لهؤلاء الجنود المقام حتى أن البعض يرى أن قيم الفالدينيين تقترب كثيرًا من القيم الإسلامية وخاصة تمسكهم الشديد بنص الكتاب المقدس وعدم الاقرار بأي سلطة أخرى بالكنيسة.^(٢)

ومن هنا يمكن أن نقول إن حركة جماعة الفالدينيين وتوجهاتهم ومعاناتهم التي لاقوها من جراء عقيدتهم، أنهم الرعيل الأول من رواد الإصلاح الذين مهدوا الطريق قبل ميلاد مارتن لوتر ونجاح حركته الإصلاحية بقرون عدة.^(٣)

(١) فارن: Le Goff: Hochmittelalter, S. 248

(٢) فارن: Heussi: Kirchengeschichte, S. 219

فارن أيضًا F. E. Vogt: Artikel „Waldenser“, in: Religion in Geschichte und Gegenwart, Bd. 6, 1962, S1530 ff.

(٣) مزيد من التفاصيل انظر، 25.8.2003 <http://de.wikipedia.org/wiki/waldenser>، وفارن أيضًا، 25.8.2003 www.heiligenlexikon.de/glossar/waldenser.html

٣. ٣ جون وكليف John Wyclif

وهو اسم مأخوذ من العبرية، وتعنى رحمة الله وغفرانه، ولقبه البعض بنجمة الصباح، وهو من أحد رجال اللاهوت المصلحين والمجددين فى إنجلترا، ومؤسس حركة اللولارديين^(١)، وتعنى أتباعه من المسيحيين المجيدين لإنشاد الترانيم والمزامير بهدف شفاء المرضى، وكانت دعوتهم تقوم على التجوال بين الناس.

يرى القس باقى جيد بشارة فى كتابه: "أضواء على تاريخ ظهور البروتستانت فى أوروبا وفى مصر" اعتبار حركة جون وكليف ويان هوس وايبورينيموس البراجى ومن ساروا على نهجهم من الحركات المناوئة للكنيسة الكاثوليكية التى أدت إلى ظهور الكثير من البدع والهرطقات وتدهور أحوال الكنيسة^(٢). وهو يعنى بذلك الكنيسة الكاثوليكية فى روما آنذاك.

وُلد وكليف عام ١٣٣٠ بمدينة هبسويل Hebswell بمقاطعة يورك، وتوفى عام ١٣٨٤ بمدينة لوتر ورث Lutterwrth . درس وكليف اللاهوت بجامعة أوكسفورد، وعمل أستاذًا بها حتى عام ١٣٧٢، ثم عين فى نفس الوقت قسيسًا بداية من عام ١٣٦٨، وقد اتبع ويكلف فى خطبه وعظاته الدينية أسلوب التجول Wanderprediger، وكان لذلك أثره الكبير على جماهير الشعب الإنجليزى. كما كان باعًا لنشوب ثورة الفلاحين لدى جماهير الإنجليز عام ١٣٨١، وينادى وكليف كأستاذ للاهوت، ومن منطلق موقعه الوظيفى للكنيسة الإنجليزية بسلطة الإله المباشرة، التى تقدم المغفرة والرحمة دون سواها، بل المناداة بحجبها كلية عن بابا روما وتابعيه من رجال الإكليروس، وأدى ذلك بالتالى إلى صدام شديد تجاه تعاليم كنيسة روما، ويصدر المرسوم البابوى موجهًا إلى كنيسة أوكسفورد بتكفير كتاباته، مما جعله يعتزل العمل، ويتفرغ لترجمة العهد الجديد إلى الإنجليزية عام

(١) نسبة إلى الفيلسوف والمتصوف رامون لول Raymundus Lullus فى العصور الوسطى (١٢٢٢-١٣١٦)
(٢) قارن: باقى جيد بشارة: أضواء على تاريخ ظهور البروتستانت - فى أوروبا وفى مصر، القاهرة، ص ١٨ وما بعدها.

١٣٨٣. كانت عزلته وعمله المضنى سبباً فى مرض عضال أصابه وانتهى بوفاته عام ١٣٨٤، ولكن كنيسة روما كانت له بالمرصاد. ويُعقد مجمع كونستانس عام ١٤١٥ ليصدر مرسومًا بتكفيره وحرمانه من عضوية الكنيسة، بل وانتهى الأمر عام ١٤١٨ بنش قبره وحرق ما تبقى من رفاتهِ.^(١) ويرى الكثيرون من مؤرخى حركة الإصلاح الدينى فى أوروبا أن حركة جون ووكليف التى انبعثت ونشطت مع بداية القرن الرابع عشر فى إنجلترا ومثلت أساسياتها قيمًا محورية تتفق تمامًا مع قيم الإصلاح البروتستانتي وخاصة فى نقد الأطماع المادية لرجال الإكليروس والعودة إلى حياة الزهد والتقشف والارتكان على نصوص الكتاب المقدس. وقد نشطت مبادئ هذه الجماعة الكثير من علماء اللاهوت الذين شاركوا بفكرهم فى جامعات باريس وأكسفورد ولينهلوا من الفكر الإسلامى الذى كان يدرس فى هذه الجامعات، ويواصل جون ووكليف جهوده الإصلاحية الموجهة إلى رجال الإكليروس من خلال برنامج اصلاح شامل ويعمل على ترجمة نص الإنجيل اللاتينى الشائع استخدامه آنذاك تحت اسم الفولجاتا إلى اللغة الإنجليزية، ويكلف مجموعة من أتباعه الذين أطلق عليهم الوعاظ الجوالين والذين أطلق عليهم الشعب اسم اللولارديين وليقفوا جنبًا إلى جنب مع ثورة الفلاحين التى اندلعت عام ١٣٨١.^(٢)

وترى السيدة إلين جيمس وايت E.G.White، مؤلفة كتاب "الصراع الكبير"، أن جون ووكليف كان من أوائل المبشرين لحركة الإصلاح، ليس لإنجلترا وحدها، وإنما لكل العالم المسيحى، وكان احتجاجه ضد روما فاتحة للصراع، الذى قاد إلى تحرير الأفراد والشعوب من عبودية الباباوية^(٣). لقد كان دارسًا متعمقًا

(١) قارن: 25.8.2003 www.heiligenlexikon.de/biographien/john_wyclif.html

(٢) قارن: Heussi: Kirchengeschichte, S. 248

(٣) قارن E.G. White: Der große Konflikt, 1. Aufl.-, München: Inter-Euro Publishing, 1998, S. 74

قارن أيضًا الترجمة العربية للكتاب تحت عنوان "الصراع العظيم بين الحق والباطل" والتى قدمها إسحق فرج الله ونقحها أنطوان عبيد إصدار دار الشرق الأوسط للطبع والنشر، بيروت ١٩٩٧، ط ٣.

للفلسفة وقوانين الكنيسة ومحتوى الكتاب المقدس، ولقد وجد ضالته في كلمة الله، وأن المسيح هو الوسيط الوحيد للإنسان، وأن ادعاء البابا بحق السيادة على الآخرين من حكام ومدنيين مناقض للعقل والوحي الإلهي.

كانت حركة جون ويكليف ضربة مضادة لسيادة البابا في إنجلترا، وخاصة بعد أن اتحد الملك والأمراء في تبني آرائه، وخاصة معارضته الشديدة في قضية بيع صكوك الغفران، والتي كان يجمعها رهبان البابا الجشعين، ويلتهمونها كما لو كانوا سرطانا رهيباً^(١). لقد ساهم ويكليف في صياغة معتقدات الأمة الإنجليزية، مما أدى لتعيينه سفيراً لإنجلترا بهولندا لمدة عامين، ممثلاً لدولته، ومفاوضاً مع مندوبي كنيسة روما، الذين وصفهم بأنهم يستنزفون أقوات الفقراء وخزانة الدولة لأموالها زندقة وهرطقة. ولم تفلح مؤامرات البابا ومحاولاته مع ملك إنجلترا آنذاك إدوارد الثالث Edward III، والذي وافقه المنية فجأة، ويتم انتخاب البابا جريجوري الحادي عشر Gregory XI ويتنافس من بعده باباوان آخران، مما أضعف من سلطات كليهما.^(٢) ويشجب ويكليف هذا التناحر ويدعو فقراء المسيحيين إلى مبادئه في جميع أنحاء إنجلترا وداخل أروقة جامعة أكسفورد، حتى لقبه الناس بدكتور الإنجيل، من منطلق معاناته ومرضه الشديد الذي لم يمنعه من إكمال ترجمة الإنجيل إلى الإنجليزية لأول مرة، وإقبال الناس على قراءته ونسخه بالأيدي لعدم توافر الطباعة آنذاك، واشتراك الأسر في نسخة واحدة واستعمالها بشكل جماعي.^(٣)

لقد أيقظ ويكليف بنشاطه هذا إحساس الجماهير ومناداته بمبدأ الخلاص من خلال الإيمان بالمسيح، وتقف له كنيسة روما بالمرصاد وتؤلب عليه الملك ريتشارد

(١) قارن المرجع السابق، ص ٧٧ .

(٢) يذكر الشماس الأكليريكي باقى جيد بشارة هذه الحقيقة التاريخية وأنه كان لكنيسة روما ثلاثة باباوات في وقت واحد: بينديكتوس الثالث عشر (١٣٩٤)، وجريجوريوس الثاني عشر (١٤٠٦)، ويوحنا الثاني عشر (١٤١٠)، قارن : أضواء على تاريخ ظهور البروتستانت في أوروبا وفي مصر ، ص ١٢ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق، ص ٧٩.

الثاني، لاستدعائه ومحاكمته وسجن كل من يؤمن بمبادئه. ويُستدعى ويكليف أمام المحكمة الإكليريكية لإرغامه على إنكار أفكاره، أو سوقه مباشرة إلى المحرقة، ولكن ويكليف يصمد أمام محاكميه، ويرد عليهم: "لقد تجرأت على نشر ضلالتكم وإتجاركم بنعمة الله، فمن تظنون أنكم تحاربون؟ أشيخاً فانيًا يترنح وهو واقف على حافة القبر؟ كلا، فأنتم تحاربون الحق، الذي هو أقوى منكم والذي سيقهركم".^(١) لقد كان ويكليف كأنه المسيح على مدى سني غربته على الأرض، عاش كأفقر إنسان، طارحاً عنه كل سلطان، داعياً بابا روما، البابا أوربان السادس Urban VI وتابعيه أن يتبعوا تعاليم المسيح. ويستمر ويكليف في دعوته حتى آخر عمره بإبروشية لوتر وورث منذ القرن الرابع عشر. وتتواصل دعوته بعد موته من خلال أتباعه، الذين أطلق عليهم الويكليفيون واللولارديون. الذين لاقوا اضطهاداً كثيراً من قبل كنيسة روما،^(٢) ولكن تعاليم رائدهم، ويكليف لم يخمد سعيها، بل أدت لظهور حركة إصلاح مماثلة في منطقة نائية وبعيدة عن إنجلترا، ألا وهي حركة يان هوس Jan Hus في منطقة بوهيميا في شرق أوروبا، والذي قادها ذلك الراهب البوهيمي محاولاً إقناع الناس بالعودة إلى كلمة الله، إنها نفس التوجهات التي مهدت الطريق أكثر وأكثر للمصلح الألماني الكبير مارتن لوتر.

٣. ٤ حركة يان هوس Jan Hus، وجيروم هيرونيموس فون براج Girom Hieronymos von Prag، وسافونا رولا Savona Rola

ولد يان هوس ١٣٧١ في مدينة هوزينيك Husenac في جنوب مقاطعة بوهيميا، ويعنى اسمه، "رحمة الله وغفرانه". درس بجامعة براج، وحصل عام

(١) قارن المرجع السابق الاصدار الألماني، ص ٨٣.

„Mit wem glaubt ihr..., dass ihr streitet? Mit einem alten Manne am Rande des Grabes? – Nein! Mit der Wahrheit, die stärker ist als ihr und euch überwinden wird.“

(٢) قارن: المرجع السابق، ص ٨٨.

١٣٩٦ على الماجستير فى اللاهوت، وعُيِّن أستاذًا وعميدًا لكلية اللاهوت بالجامعة، وفى عام ١٤٠٠ انتُخب قسيسًا لكنيسة بيت لحم فى براج. وكان يقدم عظاته وخطبه للجمهور باللغة التشيكية وهو الأمر غير المعتاد آنذاك، لأن كنيسة روما جعلت اللاتينية هى لغة اللاهوت، وحرمت الوعظ بأية لغة أخرى، لكن هوس من منظور حسه الوطنى قدم عظاته بلغة وطنه، وحتى يتمكن الناس من قراءة الإنجيل وفهمه باللغة التى يعرفونها. وقد تأثر يان هوس بتعليمات ودعوة جون ويكليف، الذى جلبها له صديقه جيروم البراجى Girom von Prag من إنجلترا، مستقيًا منها النقد القاسى لكنيسة روما وبشاعتها، محاولاً الإصلاح من شأنها.^(١) وتكثر الشكاوى بداية من عام ١٤٠٨ ضد يان هوس، ويُصدر البابا ألكسندر الخامس Alexander V عام ١٤٠٩، وهو أحد الباباوات الثلاثة المتصارعين على السلطة، مرسومًا بحرمان هوس من عضوية الكنيسة، وإحراق كتبه، والأمر بنفيه عام ١٤١٠، مما أسفر عن وقوع قلاقل فى براج، مما أرغم السلطات إلى عودته وممارسة عمله ١٤١٢، و تستمر روما فى مطاردته، ويُستدعى عام ١٤١٤ ليمثل أمام مجمع كونستانس، وذلك فى السادس من يوليو عام ١٤١٥، بعد رفضه التراجع عن آرائه، ليحكم عليه بالهرطقة والحرق، أو العدول عن تعاليمه. ولقد وافق يان هوس بالذهاب إلى المجمع بعد تعهد حاكم بوهيميا، الملك سيجسموند Sigismund بحمايته، إلا أن الملك حنث بعهده وتم إعدامه حرقاً مع كتبه وإلقاء رفاته فى نهر الراين.^(٢)

وكان الأمر الطبيعى أن تتشب الحروب ضد أتباعه من الهوسيين، وعانت براج التى كانت تعيش عصرها الذهبى هذه المعاناة، بعد أن كانت تمتلئ بأبراج الكنائس الذهبية التى تفوق كنائس روما، والتى بلغ عددها ست وسبعين كنيسة

(١) قارن Franz Malichek: Artikel „Hus/Hussiten“ in: Theologische Realenzyklopädie. Bd. 15. S710-735, hier S. 710

(٢) يذكر المؤرخون أنه سيق مكبلاً بالسلاسل أمام جموع الحاضرين وعلى رأسهم القيصر، حيث أصر فى دفاعه على الفساد المستشري فى الكنيسة ورجال اللاهوت. مزيد من التفصيلات انظر، G.E.White, a.a.O. ص ٩٨ وقارن أيضاً، 25.8.2003 www.koenigsfeld.org/m_hus.html

وأربعة وعشرين ديرًا، يمارس العمل فيها أكثر من ألف ومائتين من رجال اللاهوت.^(١) وكان هوس يجيد التشيكية لغته الأم والألمانية، ويكون مصيره الموت بعد أن نقض ملكه عهده بحمايته، ويتم إعدامه حرقًا بمدينة كونستانس في عام ١٤١٥.

ويعود الكثير من طلابه إلى جامعاتهم، يحملون تعاليمه وتعاليم صديقه القادم من إنجلترا، جيروم البراجي، مدعّمًا بآراء المصلح ويكليفي. ويتقبل هوس الموت دون أن يتراجع بكلمة واحدة عن آرائه، ويقف شامخًا أمام الإمبراطور والأمراء والأساقفة، ويقول ساخرًا موجهًا كلامه إلى الملك سيجسموند، الذي تعهد له بالحماية: "لقد عازمت بمحض اختياري أن أمثل أمام المجلس، تحت حماية ملكي الحاضر هنا وبناء على وعده لي بالأمان".^(٢) ويلقى هوس وجيروم من بعده كل ألوان الاضطهاد، ذاهبين إلى النار، كما لو كانا ذاهبين إلى وليمة عرس. ويموت كلاهما، وتبقى تعاليمهم، الأمر الذي كان يقدم دليلًا دامغًا على قسوة روما وغدرها. كانت كلمات جيروم الأخيرة "أتظنون أنني أخاف الموت، لقد حبستموني في سجن رهيب، وقسوتهم في معاملتي أكثر مما لو كنت تركيًا مسلمًا، أو يهوديًا، أو وثنيًا. إن ما يدهشني إنما هي تلك الوحشية التي تعاملون بها إنسانًا مسيحيًا".^(٣) ويتقبل جيروم الموت بالحرق وإلقاء رفاته في الراين، بعد صلاة توجه فيها إلى ربه طالبًا عفوه ومغفرته.

(١) قارن: E.G. White, a.a.O. ص ٩٢ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق الإصدار الألماني، ص ٩٩ .

„Ich bin aus meinem eigenen freien Willen vor dem Konzil erschienen, unter dem öffentlichen Schutz und dem Ehrenwort des hier anwesenden Kaisers..."

(٣) المرجع السابق الإصدار الألماني، ص ١٠٤ .

„Was! Meint ihr, ich fürchte mich zu sterben? Ihr habt mich ein ganzes Jahr in einem fürchterlichen Verlies gehalten, schrecklicher als der Tod selbst. Ihr habt mich grausamer behandelt denn einen Türken, Juden oder Heiden...ich kann aber nicht umhin, meinem Staunen ob solch großer Rohheit gegen einen Christen Ausdruck zu geben .

وتقود روما حربًا شعواء ضد شعب بوهيميا والذي أحرز انتصارات عديدة على جيوشها، انتهت بصلح مع روما، يعطيهم حرية التعبد من خلال الكتاب المقدس، وحقهم كأعضاء في الكنيسة من الخبز والخمر في المائدة السماوية، واعتزال رجال الكنيسة من السلطة المدنية.

يظهر ثائر جديد ليكمل ويواصل رسالة يان هوس وجيروم في مدينة فلورانتسا بإيطاليا، وهو الراهب سافونا رولا Savona Rola، الذي حاول جاهداً أن يطهر الكنيسة في فلورنسا وإيطاليا من الفساد، وأن يواجه الحكام في شجاعة ويأمرهم بطاعة الله وتوخي الفضيلة، بل لم يتورع في أن يواجه البابا ألكسندر السادس، والذي كان بصفه بأنه: "حية رقطاع يستبيح كل القوانين، ويغرق نفسه في الشهوات، ويمعن في القسوة، لدرجة أنه لم يكن يتورع أن يدس السم لأتباعه".

يصف سافونا رولا وضع الكنيسة المتردى في خطبة ألقاها عام ١٤٩٨ :
"إن العار يبدأ في روما ومنها يمر إلى بقية الكنائس. إنهم أسوأ من الترك والمورسكيين، اذهب إلى روما فستجد أنهم حصلوا على مناصبهم الروحية بالمال ... إن طمعهم فظيع ... فأجراسهم تدق من أجل حب جمع المال ... إنهم يبيعون السر المقدس ويقايضون على القديس ، باختصار كل شيء يتم عمله بالمال وعند المساء يذهب الواحد منهم إلى المقامرة والآخر إلى محظيته، وحيث يجب أن يصلوا في هدوء على الميت نجدهم يأكلون أو يشربون بنهم و يثرثرون و يهزرون بشدة."^(١)

ويأمر هذا البابا بإحراق سافونا رولا وأتباعه من الرهبان عام ١٤٩٨، وهو العام الذي بلغ فيه لوثر ١٥ عامًا من العمر.

وكانت هذه النجاحات بمثابة ثمرة من ثمرات تعليمات هوس، وويكيليف، وجيروم، وسافونا رولا. ويتم تأسيس كنيسة تسمى "كنيسة الأخوة المتحددين" Die

(١) قارن محمد خليفه حسن: تاريخ الأديان، دراسة وصفية مقارنة، القاهرة ٢٠٠٠، ص ٢٢٨: نقلا عن Hans- Joachim Schoeps, The Religion of Mankind, P. 303f.

Wurzeln der Brüder Unität"، ويستمر أتباعهم في مواصلة الحياة في الغابات، وأودية الجبال، وينتشر الأمل والنور بعد مرور قرن من الزمان، و يجيء لوثر ليواصل المسيرة حتى يصل عدد كنائسهم في بوهيميا ما يتجاوز المائتين. ويرى المؤرخون نبوءة عن هوس وهو في طريقه إلى الموت فحواها:

"إنه في يوم ٧-٦-١٤١٥، اليوم المحدد لتنفيذ الإعدام في يان هوس، تبدأ المراسم بصلاة قصيرة بالكاتدرائية، وينادى على هوس أن يتراجع عن آرائه، ويكون رد فعله الابتهاال والصلاة مردداً: هكذا يجتمع الجمع في هذا المجمع والحكم على بالموت وتخطيء آرائىء وتعليماتى، وليس لى إلا أن أطلب لكم الرحمة والمغفرة."

ويجىء الكاهن كارل لوفى Carl Loewe، الذى ألف ترنيمة دينية ولحنها تحت مسمى "يان هوس"، متضمنة المقولة الأسطورية التى وجهها إلى من حكموا بإعدام هوس ويقول: "لقد أحرقتم الآن أوزة وكانت تعنى هذه الكلمة فى اللغة التشيكية لقب يان هوس، إلا أنه سيظهر لكم هذا المناضل فى زمن ليس ببعيد كبجعة، ليس من السهل عليكم إحراقها."^(١) ويفسر المؤرخون مقولة "كارل لوفى" هذه على أنها إشارة ضمنية إلى مجىء مارتن لوثر فيما بعد. ويرى بعض المؤرخين أن أتباع يان هوس الذين نزحوا إلى مدينة تابور فى بوهيميا وأطلق عليهم التابوريين فى نشر أفكارهم عن المساواة بين البشر أمام الخالق وتركهم كل طقوس العبادة التى كانت تصر عليها الكنيسة الرومانية كتقديس رجال الإكليروس

(١) قارن: 25.8.2003 www.koenigsfeld.org/m_hus.html

Am 6-7-1415 der Tag der Hinrichtung beginnt mit einer Messe in Münster, Hus wird zum Widerruf seiner Lehren aufgerufen. Er betet: siehe doch her, dieses Konzil hält dein Tun und dein Gesetz für Irrtum der Verkündigung des Todesurteils, betet er: „vergib ihnen“.

Carl Loewe schuf ein Oratorium „Johann Hus“ darin kommt der legenderhafte Satz vor. jetzt berätet ihr eine Gans Hus bedeutet in tschechisch die Gans“ bald kommt ein Schwan „als Hinweis auf Luther gedeutet, den wird man ungebraten lassen"

وصور القديسين وعدم الإقرار بالاعتراف بالذنوب وصكوك الغفران التي تمنح من رجال الإكليروس أنهم بذلك أقرب إلى القيم الإسلامية وهي نفس القيم التي نادى بها المصلح مارتن لوتر بعد قرن من الزمان باعتبارها بعدًا اجتماعيًا يقف فيه كل المؤمنين على قدم المساواة أمام خالقهم.^(١)

٣. ٥ مارتن لوتر وأحداث الإصلاح الأخيرة

استكمالاً للنبوءة التي ترددت عند إعدام المصلح البوهيمي يان هوس، والتي قدر لها أن تتحقق بعد مائة عام، متمثلة في طهي الأوزة باغتيال يان هوس من قبل روما، ولتظهر لهم بعد قرن من الزمان كبجعة ضخمة يستحيل طهيها أو قليها، هذه البجعة هي مارتن لوتر الذي كان يعنيه كارل لوفى.

وكما سبق أن أشرنا في الفصل الأول عن فترة الحيرة والتساؤل التي مر بها الراهب مارتن لوتر حينما ساوره الشك بعد رحلته مع أحد الرهبان، والتي قاما بها بتكليف من رئاسة الدير الأوغسطينى سيرًا على الأقدام إلى روما. ويجد لوتر نفسه وجهًا لوجه أمام أرض الترف والبذخ السائدة في مدينة روما، والواقعة على سبع تلال، وينطرح على الأرض داعيًا ربه "يا روما المقدسة إننى أحبيك". وبعد ما يرى الآثام المتفشية في أوساط رجال الإكليروس، يقول ما نصه: "لا يستطيع أحد أن يتصور مقدار بشاعة الأمور المخجلة، التي ترتكب في روما ولا يصدق بوجودها إلا من رآها بعينه، وقد صار من المعتاد أن يقول الناس: "إذا كان هناك جحيم، فإن روما مبنية فوقه، فهي بؤرة تخرج منها كل الخطايا" وفي أثناء صعوده سلم بيلاطس المقدس راكعًا على ركبتيه، يسمع صوتًا كالرعد "البار بالإيمان يحيا"، ويفسر القس فايز فارس معنى كلمة البار هنا بالعدل، وهذا يعنى أن عبارة "بر الله" عند لوتر تعنى أن الإنسان الذى يؤمن، يحيا بالبر الذى يمنحه له الله، هذا البر هو رحمة ونعمة من الله لا ينالها الإنسان إلا بالإيمان. ويعبر لوتر فى هذه اللحظة بشعوره أنه قد وُلد من جديد، وأن أبواب السماء قد فُتحت له على مصارعها.^(٢)

(١) قارن Malichek: S. 728

(٢) قارن، فايز فارس: أضواء على الإصلاح الإنجيلي، القاهرة ١٩٨٤، ص ٢٧ وما بعدها.

يعود مارتن لوتر إلى موطنه في فيتتبرج، وكما سبق أن ذكرنا يحصل على الدكتوراه، ويؤهل لتدريس الكتاب المقدس مواجهًا مفاصد الفلسفة السائدة والعلوم اللاهوتية التي اتبعتها كنيسة روما، والتي نشرت الإتجار بنعمة الله من خلال إجبار الناس على شراء صكوك غفران كنيسة روما، واضعة موائد الصيافة إلى جوار مذابح الكنائس. ويرسل البابا نوابه إلى ألمانيا وعلى رأسهم الراهب الدومنيكاني الأحمق "يوهان تتسل" لجمع عوائد هذه الصكوك، مدعيًا أنها بسلطة البابا تغفر لمن يشتريها كل خطاياهم، حتى التي يرغب في ارتكابها مستقبلاً، بل امتد أثرها من غفران خطايا الأحياء إلى غفران خطايا الأموات. ويصف المؤرخون مواكب هذا الراهب الأحمق، في أنه كان يحيط دخوله لأية مدينة ألمانية بهالة من القداسة، وبحيث يكون في استقباله موكب مهيب من كبار القساوسة والأساقفة والرهبان ومديرى المصالح والمؤسسات التعليمية وطلاب الجامعات والمدارس وعامة جماهير الناس من طوائف المهنة، حاملين المشاعل والأعلام والشموع، تصحبهم فرق الترانيم والإنشاد الدينى، وينحنى الجميع أمام الصليب الأحمر ذى المسامير الدامية، وعلى قمته تاج من أشواك الأشجار ومرفق به صكوك الغفران^(١)

وقارن أيضاً، حنا جرجس الخضرى: مارتن لوتر، حياته وتعاليمه، بحث تاريخى عقائدى لاهوتى، القاهرة ١٩٨٣، ص ٥٥ - يشرح الخضرى نظرية البر بالإيمان قائلاً: "قبر الله حسب مفهوم لوتر هو هبة الله للإنسان وبه يصبح الإنسان مبرراً فى عينى الله. فإن التبرير (أو الخلاص فى الخطيئة) لا يتوقف على أعمال الإنسان الصالحة كثيرة كانت أم قليلة لكنه بإيمان الإنسان الخاطئ المعترف بخطاياهم والندم عليها من قبله أمام الإله البار، وحتى هذا الإيمان هو عطية الله "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان وذلك ليس منكم هو عطية الله". (أف ٢: ٨-١٠) ولكن على الإنسان أن يفتح قلبه لقبول عطية الله الذى ينير له الطريق ويكشف له حالته على حقيقتها.

(٢) تمثل فكرة صكوك الغفران بدعة يرجع تاريخها إلى عصر الحروب الصليبية، والتي نادى بها بابا روما ضد المسلمين، وقامت هذه البدعة على أساس نيل الخلاص عن طريق الأعمال الصالحة من منطلق رسالة القديس بولس إلى أهل رومية (١-١٧) وكان للعديد من القديسين والشهداء حسنات زائدة وأعمال صالحات، تودع فيما يسمى ببنك الكنيسة، ليتم توزيعها على من لم يقوموا بأعمال صالحة كافية للخلاص أثناء حياتهم على الأرض، وتوزع الكنيسة هذه الأعمال الزائدة كما تشاء ولمن تشاء، حتى تحولت، كما هو معروف، إلى تجارة رابحة، وهذا يعنى أن هذه التجارة ممثلة فى الصك الذى يبرئ الإنسان من الذنوب التي اقترفها والتي سوف يقترفها. (المؤلف)

المخصصة للبيع، تحيطها أعلام وشموع البابوية الموضوعة على وسادة من القטיפه^(١).

يوصل الراهب الدومنيكاني المولود في مدينة برن بسويسرا مواكبه ويردد مقولاته: "إنه حينما ترن النقاد في الصندوق تتحرر النفس التي قدمت لأجلها من عذاب المطهر، وتتطلق إلى السماء في طريقها إلى الجنة، وأن مشترى هذه الصكوك يحول تلال القديسة "أنا" إلى كتلة هائلة من الفضة الصافية" ويبالغ هذا الراهب مخاطبًا الفلاحين ويقول: "لو أن الرجل اغتصب أم الرب وارتكب الخطيئة مع العذراء المباركة فإن الصكوك كفيلة بأن تمنحه الغفران الكامل".^(٢)

ويواجه لوثر هؤلاء المشترين لهذه الصكوك والراغبين في إصلاح حياتهم بالتوبة إلى الله، والحصول على نعمة المسيح، والتي لا يمكن شراؤها بالمال لأنها هبة مجانية. ويحسم لوثر أمره أثناء حلول عيد القديسين والشهداء بمدينة فيتنبرج، ويصطحب صديقه يوهان شنايدر Johann Schneider الملقب بأجريكولا Agricola، والقادمين من الدير الأسود الأوجستيني، قاصدين كنيسة القصر، والتي تبعد حوالي خمس عشرة دقيقة من الدير، ويقوما بتعليق ما سمي بالحجج الخمس والتسعين على بوابة كنيسة القصر الرئيسية، في ٣١ أكتوبر ١٥١٧، ليقرأها الناس في يوم العيد، الموافق الأول من نوفمبر ١٥١٧.

٣. ٦ الحجج الخمس والتسعين ومحاكمة لوثر

ولعله من المفيد للقارئ أن نعرض في إيجاز إلى قضية الحجج الخمس والتسعين التي ضمنها، من وجهة نظرنا، ضلالات صكوك الغفران والابتزاز الجشع للأموال من قبل كنيسة روما. ويبدأ لوثر كرجل وحيد في التصدي وفي

(١) قارن: Landgraf, Martin Luther, a.a.O. ص ٩١.

(٢) قارن: جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، ص ٢٠.

مقاومة أعظم قوى الأرض، الممثلة في سياسة البابا، الذي ترتعد أمامه قياصرة وملوك الأرض قاطبة. ويختار لوثر مقر كنيسة فيتنبرج لإعلان قراراته، من منظور أن الامر يخص الكنيسة بالدرجة الأولى ولا يخص الجامعة، وأنه صاغها من أجل الكنيسة التي يجلها ويحترمها.^(١)



خريطة توضيحية تبين موقع مدينة فيتنبرج التي أصدر منها شرارة حركة الإصلاح الديني من خلال تعليق حجج الإصلاح الخمس والتسعين على بوابة كنيسة العصر، علاوة على أهم الأماكن التي انتشرت فيها دعوته الإصلاحية^(٢)

(١) قارن: حنا جرجس الخضرى، ص ٦٧.

(٢) قارن:

Rößling, Udo/ Ambors, Paul u.a: Reisen zu Luther. Erinnerungsstätten in der DDR, 2. bearb. Aufl., Berlin, Leipzig: Tourist, 1988, S. 188.

يقدم لوتر حججه الخمس والتسعين بالعبارة التالية: "بدافع من الحب للعقيدة والرغبة فى تسليط الضوء عليها، سوف تناقش الآراء التالية فى مدينة فينتبرج، تحت رعاية الأب الموقر مارتن لوتر، أستاذ الآداب واللاهوت المقدس والمحاضر لنفس العلم فى ذلك المكان، ولهذا يرجى من هؤلاء الذين لا يستطيعون الحضور والجدال شفويا أن يفعلوا هذا بخطاب مكتوب". وكانت هذه الدعوة تمثل دعوة مفتوحة وعامة لكافة العلماء والأساقفة والكهنة، من منطلق صياغتها أساسًا باللغة اللاتينية والتي لا يجيدها أو يفهمها أحد سواهم.^(١)

و تبدأ هذه الحجج بالحجة الأولى: "أن سيدنا يسوع المسيح أراد بقوله "توبوا" أنه يجب على كل مؤمن أن تكون كل حياته وسيرته توبة خالصة."^(٢)

وتنتهى بالحجة الخامسة والتسعين: "أن السبب فى حزن المسيحيين ومناشدتهم أتباع المسيح، هو أنه المدخل للصعود إلى ملكوت السماوات، رغم اقتراف الكثير من الآثام، لأن هذا أفضل وأحسن من تحصيل ثقة جسدية وتعزيات سلام كاذب."^(٣)

ويوجز القس حنا الخضرى ما تضمنته الحجج الخمس والتسعين على النحو التالى:

-
- (١) فارن ول ديورانت: "موسوعة قصة الحضارة" فصل ١٦ ص ٩ وما بعدها.
قارن الترجمة الألمانية للحجج الخمس والتسعين: www.luther.de:95Thesen
„Da unser Herr und Meister Jesus Christus spricht „ Tut Buße“ usw. (Matth. 4,17), hat er gewollt, daß das ganze Leben der Gläubigen Buße sein soll.“
- (٢) قارن أيضًا، أديب نجيب سلامه: تاريخ الكنيسة الإنجيلية فى مصر (١٨٥٤-١٩٨٠)، القاهرة ١٩٨٢، ص ١٣.
- (٣) مزيد من التفصيلات قارن ميرل دوينياخ تاريخ الإصلاح فى القرن السادس عشر، ترجمه عن الإنجليزية إبراهيم الحرانى ط٢ بيروت ١٩٨٢ ص ٨٧ وما بعدها.
وقارن أيضًا: www.luther.de:95Thesen
"und daß die lieber darauf trauen, durch viele Trübsale ins Himmelreich einzugehen, als sich in falscher geistlicher Sicherheit zu beruhigen."

- الاحتجاجات من رقم ٢٩-١ تفند سلطان بابا روما لبدعة وتجارة صكوك الغفران، وما تتركه من آثار على الأرواح فى المطهر.
 - الاحتجاجات من ٦٨-٣٠ تتضمن شروط وأساسيات التوبة الحقيقية للمسيحيين من منظور لوتر.
 - الاحتجاجات من ٩٠-٦٩ تتضمن تحذيرًا لمرتكبي الخطايا بعد حصولهم على هذه الصكوك.
 - الاحتجاجات من ٩٥-٩١ تتضمن تحذيرًا ضد رجال اللاهوت الداعين لتبني السلام وهم كاذبون، لأن الخلاص لا يشتري بالمال وإنما بالتوبة.
- وينهى الباحث الخضرى عرضه التفصيلي لهذه الحجج مستخلصًا مقولاته، بأن الإصلاح الجذرى بدأ فى ألمانيا فى ٣١-١٠-١٥١٧ بتعليق هذه الاحتجاجات وطرحها للبحث والمناقشة، وهو على حق بتخريجه هذا، لأن هذا الحدث يمثل - من وجهة نظرنا- القشة التى قصمت ظهر البعير.
- والسؤال الذى يطرح نفسه الآن: ما موقف البابا وكبار رجال الكنيسة الكاثوليكية، بعد انتشار هذا الحجج وترجمتها إلى لغات عدة بين جماهير الشعب؟
- يبدأ رد فعل بابا روما، بتكليف الكاردينال الدومنيكاني توماس كاجيتان، وهو أحد كبار علماء اللاهوت بالفاتيكان بدراسة هذه الاحتجاجات، ثم القيام بالتوسط لدى رئيس الأديرة الأوغسطينية شتاوبتس، وذلك كمحاولة دبلوماسية لتراجع لوتر وسحب احتجاجاته. ويجتمع شتاوبتس مع لوتر فى ٢٥ أبريل ١٥١٨ فى هايدلبرج Heidelberg، وينضم إليهما المصلح الاشتراسيبورجى مارتن بوسر Martin Bucer. وينجح التوسط، ويتم الاتفاق على أن يكتب لوتر خطابًا وديًا فى ١٥ مايو ١٥١٨ للبابا ليو العاشر، يعرض عليه فيه ثقته المطلقة، وأن اعتراضاته ما هى إلا تعبير عن سوء استغلال بيع الصكوك، والتى رأى أنها عار وإهانة للسيد يسوع المسيح.

ويختتم لوثر هذا الخطاب مناشدًا البابا المحبة والسلام والخضوع والوثوق في غيرته على أمة المسيح.^(١) ويجيء رد فعل روما المباغت على هذا الخطاب في أول يوليو ١٥١٨ بقرار البابا بالقبض على لوثر، والعمل على ترحيله إلى روما في خلال ستين يومًا، واعتباره من ذلك التاريخ هرطوفاً، ويتم تكليف الكاردينال كاجيتان بالقيام بهذه المهمة الصعبة.

يخرج لوثر فور علمه بهذا القرار إلى الناس ويؤكد من جديد على عقيدة التبرير بالإيمان، بواسطة النعمة الواردة في رسالة القديس بطرس إلى رومية وبلاطية: "أما الخاطئ يتبرر من خطيئته بواسطة الإيمان وليس بالأعمال، أي أن الله يقبل الخاطئ، ويغفر له خطاياه من أجل محبته. وأن الأعمال الصالحة ما هي إلا محصلة ونتيجة للإيمان، وبرهاناً على توبة الخاطئ، ولكنها في ذاتها لا تجلب الغفران ورحمة الله، لأن هذا الخلاص هو هبة مجانية يهبها الله لمن يشاء: "لأنكم بالنعمة مخلصون بالإيمان، فذلك ليس منكم، هو عطية الله، ليس من أعمال، كي لا يفتخر أحد." (أفسسوس ٢: ٨-٩). ومعنى كل ذلك أن البار الذي يحيا بالإيمان يعني، أن الإيمان هو القناة الوحيدة التي من خلالها تصل النفس القلقة إلى السكينة، مصداقاً لنص الحجة اللوترية رقم ٣٦ والتي تقول: "إن كل مسيحي يتوب عن خطاياه حق التوبة، ينال غفراناً كاملاً، بلا أدنى حاجة إلى الغفرانات البابوية."^(٢)

يتبين للقارئ أن المبدأ الذي وقر في قلب مارتن لوثر "أن البار الذي يحيا بالإيمان" يكون خلاصه مرتبطاً برحمة الله وغفرانه، الأمر الذي يمثل سنة سبقه بها نبي المسلمين وخاتم المرسلين محمد صلى الله عليه وسلم من قرون عديدة موجهًا

(١) "أيها الأب الأقدس إنني ألقى بنفسي أمام قداسكم خاضعاً بكل مالي وحالي. أحيوني أو اقتلونى... إنني أقبل صوتكم كما لو كان صوت المسيح متكلماً عالماً فيكم. فإن كنت أستحق الموت فلن أرفضه. لأن للرب الأرض وما عليها. فليكن اسم الرب مباركاً. وليحفظكم الله للأبد." قارن، فايز فارس، ص ٣٣.

(٢) قارن النص الأصلي:

Jeder Christ, der wirklich bereut, hat Anspruch auf völligen Erlass von Strafe und Schuld, auch ohne Ablassbriefe

حديثه لصحابته قائلا: "لن يدخل أحدكم الجنة بعمله، قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته."

حجة ٤٥: يجب أن يتعلم المسيحي إذا رأى قريبه محتاجًا، فليحسن إليه، لأنه يريد أن يشتري بما يستغنى عنه غفرانًا، وهو بذلك لا يشتري غفران البابا، بل غضب الله عليه.^(١)

حجة ٤٦: إنه يجب أن يتعلم المسيحيون إن لم يكن لهم ما يفيض عن احتياجاتهم، لوجب عليهم أن يحتفظوا بما عندهم لأهل بيوتهم، أو تحصيل ما هو ضروري لسد أودهم، ولا يجوز لهم مطلقًا أن يشتروا به غفرانًا.^(٢)

ونختم بالحجة ٤٩: يجب أن نعلم المسيحيين أن صكوك غفران البابا مفيدة، إذا أغفل المرء ثقته فيها وطرحها جانبًا، لأنه لا يوجد ما هو أضر منها إذا قلل هذا الضرر من صلاحنا.^(٣)

ولعل القارئ يدرك المغزى السياسي والقومي، الذي أراده لوتر من هذه الحجج المشار إليها، حيث إنها مهدت الطريق لحث مشاعر الشعب الألماني وكافة فئاته^(٤)، وخاصة رجال الأعمال وصغار التجار الطموحين وإيقاظ وعي المسيحيين

(١) قارن النص الأصلي:

Man soll die Christen lehren: Wer einen Bedürftigen sieht, ihn übergeht und statt des Papstes, sondern handelt sich gibt, kauft nicht den Ablass dessen für den Ablass den Zorn Gottes ein.

(٢) قارن النص الأصلي:

Man soll die Christen lehren: Die, die nicht im Überfluss leben, sollen das Lebensnotwendige für ihr Hauswesen behalten und keinesfalls für den Ablass verschwenden.

(٣) قارن النص الأصلي:

Man soll die Christen lehren: Der Ablass des Papstes ist nützlich, wenn man nicht sein Vertrauen darauf setzt, aber sehr schädlich falls man darüber die Frucht Gottes fahren läßt.

(٤) مقولة وقيمة شعبية مصرية مضمونها أن "ما يحتاجه البيت يحرم على الجامع" علاوة على أنها قيمة إسلامية من منظور قول الرسول الكريم: "ابداً بمن تعمل" (المؤلف)

أن يتعلموا، عندما يكون لديهم من فائض عن حاجاتهم، يجب عليهم الاحتفاظ به لأهل بيوتهم، بدلاً من شراء صكوك غفران لا جدوى من ورائها.

ويتطور الأمر وتدور عجلة الأحداث بتدخل أمير سكسونيا فريدرش الحكيم، واختيار حل وسط، بناء على توسط صديق لوتر الأسقف شبالاتين، سكرتير بلاط الأمير، وهو أن يتم التحقيق في ألمانيا، وأن يسود فيه جو المودة والبعد عن العنف، ويتم اللقاء في ١٢ أكتوبر ١٥١٨، ويطلب مندوب البابا كاجيتان من لوتر التراجع عن آرائه دون مناقشة، وموجهًا إليه عبارات بذينة، ناعيًا إياه بحيوان فيتنبرج، وأنه جاء من قبل البابا ولا يريد نقاشًا، وإنما يريد اعترافًا وندمًا^(١). ويصمد لوتر أمام هذا التهديد البابوي، ويرفض التراجع في قرار قدّمه في ١٨ أكتوبر ١٥١٨، ويجد أمير سكسونيا فريدرش الحكيم أنه لا مفر من العمل على إنقاذ مارتن لوتر وتهريبه إلى مكان آمن، خشية القبض عليه من قبل رجال البابا، ويقضى لوتر فترة الإقامة في قلعة الفارتبورج، ومن هذا المكان تنطلق رسالته الأولى في أحداث الإصلاح إلى إمبراطور ألمانيا ونبلاء الأمة الألمانية، ليذكر لهم فيها "أنه لأمر مرعب أن يرى الإنسان ذلك الرجل الذي يدعى أنه نائب للمسيح، ويظهر في أبهة ووجاهة لا يكاد يضارعه أي إمبراطور، فأين هو من يسوع المسكين...؟ إن البابا هو المسيح الدجال، لأن كرسيه هو كرسي الشيطان. ويُعطى لوتر مهلة ٦٠ يومًا للتراجع، ولكنه يرفض، ويقوم أمام حشد من الطلبة والأساتذة والمواطنين في مدينة فيتنبرج بإحراق مرسوم البابا وتعليماته، ويقول: "لقد حاول أعدائي إضعاف دعوة الحق بإحراق كتبي، وأنا أعاملهم بمثل معاملتهم وأحرق كتبهم، لقد بدأت العمل باسم الله وسيكمل بدوني وبقوته هو"^(٢). ويُعطى لوتر فرصة

(١) قارن: حنا جرجس الخضرى، ص ٨٣ وما بعدها.

(٢) قارن النص الألماني لكتاب E.G. White، ص ١٢٩ وما بعدها.

„Ich verlache sie (die päpstliche Bulle) nur und greife sie jetzt als gottlos und lügenhaft... Ich bin nur viel freier, nachdem ich gewiss weiß, daß der Papst als der Antichrist und des Satans Stuhl offenbarlicht erfunden sei... Ich habe es in Gottes Namen angefangen; hoffe, es sei an der Zeit, daß es auch in demselben ohne mich sich selbst ausführe.“

أخيرة، بناء على رجاء من الأمير فريدرش الحكيم لدى البابا، الذي يكلف الدبلوماسي الألماني كارل فون ميليتس للقيام بهذه المهمة الخاصة بتنفيذ قرار حرمان لوثر وهرطقته، حاملاً معه هدايا البابا للأمير الحاكم وعلى رأسها وسام الوردية الذهبية. ويلتقى لوثر مع ميليتس في ٥-٦-١٥١٩ بمدينة التنبورج Altenburg ويشهد في هذه الأثناء الهجوم الضاري الذي قاده الدكتور "إيك" الأستاذ بجامعة أينجولشتات على لوثر ومناصريه، أمثال كارل شتات وبوسر وغيرهم. وتشاء الأقدار أن يموت الإمبراطور ماكسميليان في ١٥١٧، ويتم انتخاب حفيده الإسباني كارل الخامس في ٢٨-٧-١٥١٩.

وتبدأ محاكمة لوثر التي نالها كفرصة أخيرة أمام برلمان الرايخ بمدينة فورمس، والتي يستجمع فيها لوثر كل قواه، ويتحدث أمام الجمع الحاضر وعلى رأسهم الإمبراطور والملوك والنبل وسفراء الدول والقضاة والعلماء، وذلك بعد إعطاء الكلمة للسيد ألياندر Aleander مندوب البابا، والذي سرعان ما يصب عليه اللعنات قائلاً: "إن أخطاءه تكفي لحرق مائة هرطوق مثله، وإن هؤلاء اللوثرين ما هم إلا جماعة من الكهنة السفهاء والرهبان الفاسقين والمحامين الجهلة والنبل المنحطين المتآزرين مع جماهير الشعب الساذجة."^(١)

ويقف لوثر في ثبات وشجاعة ووقار وحكمة، يشجعه أحد قادة الجيش الألماني قائلاً له "أيها الراهب المسكين إنك على مقربة أن تقف موقفاً أشرف وأكرم وأنبل من كل المواقف التي وقفتها أنا وكل القادة في أعنف معاركنا الدموية، فإن كانت قضيتك عادلة، وكنت واثقاً من ذلك، فسر إلى الأمام باسم الله، ولا تخش شيئاً، فإله لن يتركك."^(٢) وأمام أعظم محكمة في التاريخ يقف لوثر ويبدأ خطابه

(١) قارن النص الألماني للمرجع السابق ص ١٢٥ وما بعدها.

„Wer dagegen sind diese Lutheraner? Ein Haufe unverschämter Universitätslehrer, verderbter Priester, unordentlicher Mönche, unwissender Advokaten, herabgekommener Adliger und verführten Pöbels.“

(٢) قارن النص الألماني للمرجع السابق ص ١٤١ وما بعدها.

ويسقط روما من فوق عرشها قائلاً: "يا جلالة الإمبراطور الموقر، ويا أصحاب السمو، ويا أيها السادة الأجلاء، إنى أمثل أمامكم اليوم للأمر الذى صدر إلى أمس، وإنى أناشدكم يا أصحاب السمو لتصغوا بحلمكم إلى الدفاع الذى سأقدمه عن قضية أنا واثق من عدالتها وصدقها، فإذا كنت أخالف عادات المحاكم وآدابها جهلاً منى، فأنا التمس الصفح والتجاوز عن أخطائى، لأنى لم أنشأ فى قصور الملوك، بل فى حجرة أحد الأديرة، وحينما تقنعونى بخطأى فسأكون أول من يمسك بهذه الكتب، ويلقى بها فى النار، ثم يوجه كلمته الأخيرة إلى جلالة الإمبراطور، ويقول: "يا أصحاب السمو والعظمة تطلبون منى جواباً واضحاً بسيطاً ومحددًا، فسأقدم جوابى وها هو: "أنا لا يمكن أن أخضع إيمانى فأجعله تحت رحمة البابا، أو المجامع، لأنه واضح وضوح الشمس، أنهم قد أخطأوا فى كثير من الأحيان، وناقض بعضهم بعضًا، وأنا لا أستطيع أن أراجع ولا أريد أن أراجع لأنه أمر غير مأمون العاقبة، أن يتكلم المسيحى ضد ضميره، وها أنا ذا أقف هنا ولا يمكننى أن أفعل غير هذا وليساعدنى الله. آمين." (١)

ويصدر كأمر طبيعى بعد الانتهاء من هذا التحقيق، المرسوم البابوى، الذى أطلق عليه مرسوم فورمس فى ١٥ يونيو ١٥٢٠ بهرطقة لوتر وحرمانه من الكنيسة.

كان لوتر حتى هذا التاريخ كاهناً مثالياً وأستاذاً قديرًا، ولا يشك فى إخلاصه للكنيسة، والتى لم يحاول تركها وبقي بداخلها، الأمر الذى سبق الإشارة إليه حينما علق احتجاجاته الخمس والتسعين على باب كنيسة القصر، والكتابة إلى رئيس أساقفة المقاطعة عن أسباب كتابته لهذه الحجج، ويكون الرد على هذه الثقة رفض

(١) قارن النص الألمانى للمرجع السابق، ص ١٤٧ .

„So bin ich überwunden durch die von mir angeführten Schriften und mein Gewissen angefangen in Gottes Worten; widerrufen kann ich nichts und will ich nichts, weil wider das Gewissen zu handeln beschwerlich, unsicher und nicht lauter ist... Hier stehe ich, ich kann nicht anders, Gott helf mir. Amen.“

وقارن: أيضًا، هنا جرجس الخضرى، ص ١١٥ وما بعدها.

هذه الحجج، بل واتخاذ الإجراءات باحتقار كاتبها واضطهاده، مما يجعل ثقة لوتر تهتز اهتزازًا شديدًا، وخاصة بعد تيقنه بإلصاق تهمة الهرطقة له وتفويض مندوب البابا ميليتس Milititz بالسفر إلى ألمانيا للقبض عليه وإحضاره إلى روما.

ويروى أن القرار البابوي هذا صدر أثناء فترة استجمام البابا ليو العاشر، حينما كان يقضى جزءًا من وقته في أعمال الصيد، ممهدًا في ديباجة القرار بالصلاة: "قم يا رب وانصر حَقَّك ضد الثعالب المفترسة التي تعمل على تخريب كرمك ضد الوحوش البرية التي تدمره... قم يا بطرس واذكر كنيسة الرومانية المقدسة... قوموا يا جميع القديسين وتضرعوا إلى الله."^(١) يلي ذلك نص قرار الحرمان والمتضمن الرد على ٤١ احتجاجًا من احتجاجات لوتر الخمس والتسعين، كان من أهمها:

١. أن يُعلن لوتر بخطأ تعاليمه في خلال ستين يومًا من تسلمه القرار.
٢. أن يمتنع عن الوعظ والتعليم والكتابة والنشر.
٣. أن يحرق كتبه ومؤلفاته.
٤. حث كل الكاثوليك على رفض تعاليمه وعدم التعامل مع كل أتباعه^(٢).

ولم يكن أمام مارتن لوتر مفر من أن يدعو أعضاء هيئة التدريس وطلاب جامعة Wittenberg وأصدقاءه وجماهير المدينة يوم ١٠ ديسمبر ١٥٢٠، ويلقى بقرار الحرمان البابوي في النار، ويعلن لوتر في هذه الأثناء: "بما أنك كدّرت روح القدس، فلتلتهمك النيران" ويعلن لوتر بذلك خروجه وانفصاله عن كنيسة روما. ويتأزم الموقف بين الطرفين: الجانب الكاثوليكي، وجانب أهل الإصلاح في ألمانيا، ويهتز سلطان البابا في أرجاء ألمانيا، ويُقرر أن يحاكم لوتر أمام مجلس برلمان الرايخ بمدينة Worms، وأن تتم الدعوة لحضور لوتر من قبل الإمبراطور الذي وافق على ذلك. وتحرر الدعوة إلى لوتر في ٦ مارس ١٥٢١. ويسود قلق

(١) قارن: فايز فارس، ص ٩٦.

(٢) قارن: المرجع السابق، ص ٩٦ وما بعدها.

الناس على لوثر، خشية أن تنتهى محاكمته بنفس النهاية التى لقيها سلفه Jan Hus فى محاكمة كونستانس.^(١)

ولكن لوثر يقبل الدعوة بشجاعة ويقول: "سأذهب الى Worms حتى لو أصبح عدد الشياطين هناك أكثر من عدد قطع القرميد فوق أسطح المنازل... لأنى قد وضعت نفسى بين يدى الله".^(٢)

ويُستقبل مارتن لوثر استقبالا طيبا تحت حراسة فرسان الأمير فريدرش الحكيم، ويُستقبل من الجماهير المكتظة فى الشوارع. ويبدأ الاجتماع أمام أقوى هيئة حاكمة آنذاك، أمام الإمبراطور كارل الخامس والملك فرديناند رئيس الأمراء وستة من الملوك، و٢٤ دوقا وثمانية من الأشراف و٣٠ من الأساقفة ورؤساء الأديرة وسبعة من السفراء، وأعداد غفيرة أخرى من الأمراء والسيوخ والبارونات ومندوبى البابا. ويقف مارتن لوثر الراهب الفقير ابن الفحام أمام كل هؤلاء، ويُطلب منه التراجع عما كتب من مؤلفات. ويستمر السجال بين لوثر وهيئة المحكمين وتكون إجابته الواضحة والصريحة فى نهاية الأمر بما يلى:

"إن لم تقنعونى من الكتب المقدسة، فلا يمكننى أن أتراجع، لأن ضميرى لم يعد يخضع بعد لا للباباوات، الذين حكم بعضهم على بعض، ولا للمجامع التى ارتكبت أخطاء، وحكمت بعضها على بعض أيضا، وأن ضميرى لا يخضع إلا للكتاب المقدس، ولذلك لا يمكننى أن أتراجع، لأنه ما أخطر أن يتصرف الإنسان ضد ضميره، وهذا ما أؤمن به، ولم يكن من الممكن غير ذلك، وليكن الله فى عونى".

ويعود مارتن لوثر منتصرا إلى فيتنبرج Wittenberg فى ٢٦ أبريل ١٥٢١ ويصدر الإمبراطور فى ٢٥ مايو مرسوما، عرف بمرسوم فورمس

(١) قارن: المرجع السابق، ص ١١٣.

(٢) قارن: E.G. White ص ١٣٨.

Worms بالقبض عليه وتسليمه لسلطات كنيسة روما^(١). وتشاء الاقدار أن يدبر أمير سكسونيا خطة لإنقاذ مارتن لوتر أثناء عودته من فورمس Worms إلى فيتنبرج Wittenberg، ولتبدأ من هذا التاريخ إقامته الجبرية في قلعة الفارتبورج، تحب اسم مستعار هو النبيل جورج Der Junker Georg، وهي الفترة التي كرس فيها مارتن لوتر جهده في تأليف وترجمة معظم مؤلفاته.

ولنا أن نختتم قيم الإصلاح هذه وجوهرها، دون الدخول في تفصيلاتها، مكتفين بما تضمنته وثيقة الاحتجاج التي قدمها الأمراء الألمان في مجمع مدينة شبائر Speyer ١٥٢٩، طالبين من جلالة الإمبراطور أن يعاملهم كسادة مسيحيين، والقبول بتحجيم سلطان الكنيسة وتحكيم سلطان الضمير وعلو كلمة الله فوق كلمة الكنيسة، وأن كل التعاليم البشرية ينبغي أن تخضع لما جاء بالكتاب المقدس. وتمثل هذه الوصية بذلك احتفالية انتصار قيم الإصلاح البروتستانتي، حيث أيدت حق الناس في عبادة الله، بموجب ما تمليه عليهم ضمائرهم. وجاء كل ذلك من منظور السلاح الذي استخدمه لوتر من مقاومة أعدائه بسيف الروح وعدم سفك الدماء.

ولا يمكن في ختامنا لجوهر القيم اللوترية أن نغفل وجهات نظر لوتر تجاه خصومه من الفلاسفة ومفكرى عصر النهضة المنادين بتحكيم العقل، الأمر الذي حاربه لوتر بقوة قائلاً: "إن ضعف العقل لا يصلح كمقياس للوحي الإلهي، بل من الصعب على العقل أن يدرك نور عجائب الله التي لا تُدرك، كما أن المؤمن لا يستطيع أن يقبل كلا من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر، وكثيراً ما كان يردد في حواراته وعظاته كيف يتسنى لأحمق ماكر، أن يكون هناك شيء أكثر مجافاة للعقل واستحالة تصوره، من أن المسيح يعطينا جسده لنأكله ودمه

(١) حينما علم لوتر بصدور مرسوم فورمس ضده نجد رده المفحم في قوله: "إن المسيح سيمنحني روحه لأنتصر على خدام الضلال... لقد قلت إن البابا هو نائب المسيح، أما الآن فأقر أنه عدو ربنا وخصمه ورسول الشيطان." قارن الترجمة العربية لألن هوايت ١٦٦.

„Christus wird mir seinen Geist geben, daß ich diese Widersacher des Satans besiege...Ich habe früher gesagt, der Papst sei der Statthalter Christi, jetzt widerrufe ich und sage, der Papst ist der Widersacher Christi und der Apostel des Teufels.“

لنشره في العشاء الأخير، أو بعث الموتى وأبوة الله للمسيح وحمل مريم العذراء له، حتى يغدوا رجلاً يتعذب ويموت ميتته المحزنة على الصليب. كان العقل عند لوتر أكبر عدو للإيمان، وأفجر صانع للشيطان، ويعود بعد ذلك كله مؤكداً أساس الإيمان المستند إلى تعاليم الكتاب المقدس، ولتكون ثورته الدينية ضد النظام الكاثوليكي وطقوسه، وليس ضد جوهر العقيدة. ويسير لوتر على نهج أسلافه ويكليف وهوس وجيروم وسافونارولا، ويرفض البابوية ومجالسها الدينية ومراتبها الكهنوتية، وهو الأمر الذي اعتبره مؤرخو الأديان، الخيط الرئيسي للتطور الديني في أوروبا، بداية من القرن الرابع عشر وحتى نهاية القرن السادس عشر.

ومن هذا المنظور يرى القس فايز فارس، أن مصطلح البروتستانتية هو الريادة المحركة لحرية الفكر الديني وحرية الاعتقاد، وهي الحرية التي فتحت أمام العالم باب الحضارة والتقدم في مختلف المجالات، حتى أصبح حقاً أساسياً تكفله جميع دساتير العالم المتحضر، الحرية التي هي حق لكل إنسان، سواء كان ضمن الأغلبية أو الأقلية، ويستشهد بما أورده الصحفي أنيس منصور لترجمته في كتب ميشائيل هارت Michael Hart "الخالدون مائة"، ومن بينهم مارتن لوتر، صاحب الإنجازات الرائعة، والتي أثرت كثيراً في تراث الأدب الألماني المعاصر، وأن معظم الخالدين الواردة أسماؤهم في الكتاب، نشأوا في بلاد تدين بالبروتستانتية. ولعلنا نتفق على نهج لوتر فيما نحى إليه أمام قضائه وجلاديه، معبراً بأن "ضميره مقيد بكلمة الله، وليس من الصواب أو الأمان أن يتصرف الإنسان ضد ضميره"⁽¹⁾، ويتحمل لوتر مسئولية ما نادى به وما وقر في ضميره ويقول: "وحدى ولدت إلى هذا العالم، ووحدى يجب أن أجابه الحياة ومسؤولياتها، ووحدى سأقف أمام الديان

(1) قارن الترجمة الألمانية لكتاب E.G. White والتي ظهرت تحت عنوان:

E.G.White, der große Konflikt, S. 147.

Wo es heißt : „So bin ich überwunden durch die von mir angeführten Schriften und mein Gewissen gefangen in Gottes Worten; widerrufen kann ich nichts und will ich nichts, weil wider das Gewissen zu handeln beschwerlich, unsicher und nicht lauter ist.“

العظيم، لن يقف أحد مكاني، ولا بيني وبين الله - لا أسقف، ولا كاهن، ولا مجمع كنسى، ولا قانون كنسى، ولا تقليد كنسى، بل سأقف أمام الله عاريا، وعلى تقع المسئولية تجاه الديان خالقى.^(١)

كلمة أخيرة عن مسار أحداث حركات الإصلاح التى عرضنا لها ضد كنيسة روما بداية ممن أطلق عليهم الزنادقة والعصاة أو الهرطقة وما تعرضوا له من اضطهاد من قبل محاكم ديوان التفتيش ونهاية بتعليق الحجج الخمس والتسعين على بوابة كنيسة القصر بمدينة فينتربرج عام ١٦١٥ الأمر الذى أدى إلى تناقضات فى عقيدة الكنيسة، خاصة الاعتقاد بالتثليث وطبيعة المسيح اللاهوتية والناسوتية والذى أدى إلى ذلك الشقاق بين الكنيسة اللاتينية الرومانية الغربية والكنيسة الأرثوذكسية الشرقية وحتى اشتد ذلك الشقاق خاصة بعد الدعوة إلى الحروب الصليبية لاستعادة الأراضى المقدسة من أيدي الكفار المسلمين؛ الأمر الذى قاد بدوره بعد فشل هذه الحملات الصليبية وعدم تحقيقها لأهدافها إلى استمرار حروب مريعة كان على الكنيستين أن يوقفها ونعنى بذلك الزحف التركى والإسلامى نحو أوروبا واستيلاءه على كثير من ممالكها وحصاره لأهم مدنها وحصونها وهى مدينة فيينا، هذا الزحف التركى الذى قاده الدولة العثمانية والذى أثار قلق معظم شعوب أوروبا الذين كان عليهم أن يتدبروا أمرهم بالدفاع عن أنفسهم أمامه ، وحتى يتمكنوا من إيقاف هذا الزحف بعد وصول الفاتحين من المسلمين إلى مشارق مدينتى ليون وأفينيون ويتمكن كارل مارتل عام ٧٣٢ من إيقافهم عند مدينتى تور وبواتيه والتى اعتبرها الغرب نصرا مؤزرا له. تلك الحروب المتبادلة بين الشرق والغرب تركت دون شك أثرها الإيجابى فيما يخص التبادل الحضارى والتفاعل بين العقيدة الإسلامية والعقيدة المسيحية، حدث ذلك من قبل أسرى الحرب من كلا الجانبين والاستعانة بمعارفهم وأعرافهم فى أدب المنشورات المتبادلة أو عقد لمعاهدات السلام والهدنة الأمر الذى كثيرا ما كان يحدث بين المسلمين والمسيحيين فى هذه العصور.

(١) قارن: فايز فارس: أضواء على حركة الإصلاح الإنجيلي، القاهرة، ط ١، ١٩٨٤ ص ٥٩ .

ورغم اعتراف الإسلام ومعتقيه بالمسيحية كدين سماوى سابق له إلا أن رجال اللاهوت المسيحيين وقفوا شبه عاجزين عن إعطاء إجابة عقلانية ومنطقية واضحة عن أسرار الطقوس الدينية المسيحية اللاعقلانية؛ ومن هنا اختلفوا فى نظرهم الى الإسلام واعتبروه مجرد مذهب مسيحى مملوء بالهرطقة وآخرون نفوا ألوهية وبنوة المسيح من أمثال آريوس وسابيلوس ونسطوريوس، إلا أن العدد الغالب من المسيحيين الشرقيين اعتبروا المسلمين كحكام جدد يغلب عليهم التسامح المرتبط بعقيدتهم الأمر الذى يفتقدونه تحت حكم البيزنطيين مما أدى إلى اعتناق الكثير منهم للإسلام.^(١)

ويشعر لوتر مع بنى جلدته وهو صاحب اللسان المفوه بالقلق والخطر المحدق بشعبه ووطنه من جراء هذا الزحف التركى الخاطف ويستغل موهبته اللغوية والبلاغية الفائقة فى محاربة هذا العدو من منطلقين: منطلق الدفاع عن الوطن ومنطلق حماية العقيدة، ويكون شعاره فى ذلك مواجهة العدو لا بسلاح السيف ولكن بسلاح قوة العقيدة والتقرب إلى الله بالصلوات والدعاء الأمر الذى سنعرض له بالتفصيل فى موضعه فيما بعد.

ثم يجىء تأثيره الفعال على جماهير الألمان من خلال عبارات العزاء والأغاني والمنشورات والكتب والرسائل التى وجهها إلى شعبه متضمنة مبادئه الإصلاحية مثل التنصل من خطيئة آدم الموروثة والمناداة بمبدأ التبرير بالإيمان والمناداة بمنع الرهبانية وحياة العزوبية لرجال اللاهوت، والإقرار بالاستمتاع بمظاهر الحياة الدنيوية لكل المؤمنين، وهى من الأمور التى مست شغاف قلوب الكثيرين من أتباعه ودعت البعض للقول باقتراب لوتر من القيم الإسلامية فى حركته الإصلاحية التى سنعرض لها فى الأبواب التالية بالتفصيل.

(١) قارن: Bobzin, Hartmut: Artikel „Islam II“ in: Theologische Realenzyklopädie, S. 336-349

الفصل الرابع

مارتن لوتر ومنهجه الإصلاحى
اقترب من الإسلام أم ابتعاد عنه

٤. ١ الديانات السماوية الثلاث من منظور اسلامي

من الأهمية بمكان أن نعرض للقارئ الكريم عجالة موجزة عن الديانات التوحيدية الثلاث والتي يطلق عليها المسلمون ديانات أهل الكتاب: "اليهودية، والمسيحية والإسلام". لقد استقينا هذه العجالة من عديد من المصادر التي سنعرض لها في موضعها على الصفحات التالية.

٤. ٢ اليهودية

نشأت اليهودية في مرحلتها الأولى تحت مسمى ديانة وعقيدة الآباء، وهم مجموعة الأنبياء، بداية من آدم عليه السلام حتى موسى وهارون، وتلى هذه المرحلة ما أطلق عليها ديانة بنى إسرائيل، أو المرحلة العبرية، وأخيرًا تجيء المرحلة التي أطلق عليها الديانة اليهودية، والتي جاءت بعد آل يعقوب وحتى القرن الثالث الميلادى، هذه الفترة الأخيرة هي العصر الذى حدث فيه السبى البابلى.

تعرضت الديانة اليهودية للعديد من التغيير والتشكيل، نظرًا للظروف الاجتماعية التي عاشها اليهود، أما كتابهم فهو العهد القديم، وهو المسمى "بالتوراة" والذي تم تدوينه وكتابته فى أكثر من ألف عام، بداية من القرن الثالث عشر قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادى.

يعتبر عصر النبى إبراهيم عليه السلام بداية للاتجاه التوحيدي للديانة اليهودية، حيث كان سيدنا إبراهيم يمثل المتلقى للوحى الإلهى والمستجيب للأوامر الإلهية فى طاعة تامة نابذاً عبادة الأصنام. أما فى عصر النبى موسى عليه السلام فقد تبلورت فيه عقيدة التوحيد بالإله "يهوه"، المحرك لأحداث التاريخ ومخلص الإسرائيليين من عبودية المصريين من منظورهم: "أن الرب إلهك الذى أخرجك من مصر من بيت العبودية، وتلقينه الوصايا العشر المعروفة: أكرم أباك وأماك، لا تقتل، لا تزنى، لا تسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور، لا تشتهى بيت

قريبك، لا تشتهي امرأة قريبك، ولا عبده، ولا أمته، ولا ثوره، ولا حماره... إلخ".^(١)

ولعل ما جاء بسفر الخروج من فرار موسى بفكرة التوحيد إلى خارج مصر، إنما كان بقصد إنقاذها وإعطائها قيمة دينية كبيرة، وهذا كله يجعل من اتهام المصريين باستعباد اليهود آنذاك أكذوبة لا أساس لها، وهناك مواضع بالتوراة تذكر أن المصريين كثيرًا ما ترحّموا على سيدنا موسى عندما تاه مع أتباعه في الصحراء لمدة أربعين عامًا. إلا أنه إذا كان هناك ثمة استعباد لليهود فإن هذا الاستعباد جاء من قبل فرعون مصر. وهذا ما أكدته القرآن الكريم حينما قال المولى سبحانه: "وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم"^(٢). لقد عادت اليهودية أمام غزو الفكر اليوناني، الذي أنكر الوحي وأخذ العقل كمصدر أساسي للمعرفة، واختلفت الردود بين مؤيد ومعارض.^(٣)

٤. ٣ المسيحية

أما ما يخص العلاقة بين اليهودية والمسيحية فقد جاءت المسيحية كامتداد للديانة اليهودية، وتصحيح لأوضاعها من داخلها، لأن عيسى عليه السلام نبي مرسل من أنبياء بني إسرائيل ودعوته موجهة إليهم في المقام الأول، فهي دعوة

(١) قارن: محمد خليفة: تاريخ مقارنة الأديان دراسة وصفية مقارنة، القاهرة، ٢٠٠٠، ص ١٨٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٤٩

(٣) ينكر المؤرخ الفرنسي جاي راخيت Guy Rachet في كتابه: "العهد القديم بين الأسطورة والحقيقة" la Bible mythe et réalités ما يناقض هذا الادعاء الخاص باستعباد المصريين لليهود، بل يؤكد لعديد من الشواهد المصرية الخالصة للنبي موسى عليه السلام أن اسمه مصري وليس عبري ويعني "الذي خرج من الماء" كما أنه كان يتحدث اللغة المصرية؛ لأنه نشأ وتربى في قصر فرعون مصر، وأن فكرة التوحيد التي جاء بها مصرية خالصة سادت عهد إخناتون المعروف بأمينوفيس الرابع. (دكتور أحمد يوسف، جريدة الأهرام ٢٠-٨-٢٠٠٣) (المؤلف)

لا تمثل خروجًا على اليهودية أو إعلانًا عن دين جديد. وبدأت العلاقة بين المسيحية واليهودية في التوتر رغم تضمين الديانتين في كتاب واحد يضم العهدين القديم والجديد.

اتجهت المسيحية بعد ذلك إلى التفرد والاستقلال بعد رفض اليهود لدعوة المسيح وعدم تصديقهم لرسالته، بل ورفضهم أن يكون عيسى هو المسيح المخلص الذي وردت عنه نبوءات العهد القديم، وعمت الاختلافات العقائدية بينهم حول شخص المسيح، وعدم اعترافهم به وفقًا لما جاء في كتبهم، وهو الأمر الذي سيتحدد من خلال موقف لوتر من اليهود وعقيدتهم، الذي كان مفهوم الله عنده في البداية مفهومًا يهوديًا باعتباره إلهًا منتقمًا، وفي النهاية صورة المسيح الذي يمثل القاضى الأخير، ثم انتهى إلى المبدأ الذي يقول بأن الإيمان مسألة ترجع إلى ضمير كل إنسان وعلى السلطة الدنيوية ألا تكرر أحدًا على شيء بالقوة، لأن الإيمان عمل يتم بحرية، ودون إكراه. وكان تسامحه هذا وحمله لكلمة الله أن يترك لليهود حرية الاعتقاد، إلا أنه تحول بعد أن أصبح موقعه آمنًا أن يقود حملة مسعورة ضد بعض أولى الأمر، وخاصة نواب البابا والأساقفة والرهبان الذين تعاملوا مع اليهود بأسلوب يدفع أى مسيحى أن يكون يهوديًا. وكان يأمل لوتر بهذا الرفق تجاه اليهود فى أن يكسبهم بدخولهم إلى المسيحية ويجيئوا إليه زرافات ووحدانا، وذلك من منظور أن توجهاته الإصلاحية ترجع فى مظاهرها كعودة إلى الدين اليهودى، الذى رفض الرهبانية والعزوبة المفروضة على رجال الكهنوت، وتبنيها لأخلاقيات أشد صرامة من تعاليم الكاثوليكية. ويخيب أمل لوتر فى هذا التوجه وينقلب عليهم وخاصة بعد شيوع الفساد والرذيلة والإقراض بالربا، حتى أنه رفض أن يتوسط لدى أمير سكسونيا الحاكم حينما أصدر فى عام ١٥٣٧ مرسومًا بنفى اليهود من سكسونيا. وفى كتابه المتضمن أحاديث المائدة وصف لوتر اليهود والباباوين بأنهم "تعساء وكفرة وأنهم كجوربين صنعا من قطعة قماش واحدة"، وساورته فى سنواته الأخيرة نوبة غضب جامح ضد السامية واليهود، ووصفهم بأنهم أمة من أناس

غلاظ، كفر، متكبرين، خبيثاء، ممقوتين، بل وطالب أولى الأمر بإشعال النار في مدارسهم وهياكلهم، وناشد كل من يستطيع أن يلقي عليهم كبريتاً وزفتاً، وإذا كان في وسع أحد أن يقذفهم بوابل من نار جهنم فإنه يحسن صنعاً لو فعل هذا، وهذا ما يجب عمله كرامة لإلهنا والمسيحية وحتى يرى الله أننا مسيحيون حقاً، وتحطم بيوتهم وتدمر وتنتزع منهم كتب صلواتهم وتلمودهم وكتابتهم المقدس بأسره، وليحرم على حاخاماتهم أن يلقنوا الناس تعاليمهم، وإلا عوقبوا بالإعدام، ولتغلق في وجوههم الشوارع والطرق العامة، ويحرم عليهم الاشتغال بالربا، ولتأخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكتزون من الذهب والفضة، وإذا لم يكف هذا كله، فليطردوا من البلاد كما لو كانوا كلاباً مسعورة.^(١)

لم يكن رأى لوتر هذا بالأمر المستغرب، رغم استغلال فكره من جانب النازيين إبان حكم الرايخ الثالث (١٩٣٣-١٩٤٥) في اضطهاد اليهود وتشيتيتهم. كان لوتر على يقين كمسيحي أن اليهود قتلوا ملوكهم وأنبياءهم، بل وقتلوا المسيح وصلبوه وصفعوه وبصقوا في وجهه ووضعوا الشوك على رأسه ورأى أنهم يمثلون بالنسبة للأمة الألمانية مشكلة كبيرة؛ لأنهم يمارسون حياتهم على أراضى الأمة الألمانية. ورأى بداية أن التغلب عليهم يتمثل في استمالتهم لاعتناق الدين المسيحي، وأن يقبلوا ديانة المسيح، والذي يعتبر من أبناء عمومته لحمًا ودمًا، وانتسابه إلى نسل سيدنا إبراهيم أبو اليهودية. فإذا ما رفضوا قبول الديانة المسيحية، واستمروا في إساءتهم لشخص المسيح واتهام السيدة العذراء بالفجور والزنى وأبناها السيد المسيح بأنه ابن سفاح، فعلينا طردهم من ديارنا وإحراق منازلهم ومعابدهم ومدارسهم، لأنهم بذلك يمثلون العدو الأساسي لنا؛ ولأنهم سيفعلون بنا ذلك لو أُتيحت لهم الفرصة.^(٢) وقد يكون من غير المستبعد أن يكون

(١) قارن: Meisner, Michael, a.a.O., ص ٢٧٦ وما بعدها.

(٢) قارن: www.christen-und-juden.de/html/luther.htm ، يذكر مارتن لوتر في خطابه عام ١٥٤٦ "عظات ضد اليهود" "Eine Vermahnung wider die Juden" ما نصه:

لوتر قد تأثر في رأيه هذا عن اليهود بما جاء من سمات ومعارف نزل بها الوحي القرآن في شأنهم ويمثل ذلك جانبًا من جوانب التقارب بين فكر لوتر وبين ما ورد ذكره في القرآن الكريم، والذي كان شغله الشاغل في السنوات الأخيرة من حياته.

ولننظر إلى ما جاء بحقهم في محكم كتابه حينما تحدوا نبيهم:

"لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرًا" (البقرة: ٥٥)

„O Musa, wir werden dir nicht eher glauben, bis wir Allah unverhüllt sehen.“^(١)

"فاذهب أنت وربك فقاتلا" (المائدة: ٢٤).

„Geh doch du und dein Herr hin und kämpft !“

وطلبهم عوضًا عن المن والسلوى، اللذين هما أطيب الأطعمة وأنفعها، البقل والقثاء والثوم والعدس والبصل، ومن يفعل ذلك لا يُستغرب عليه أن يستبدل الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى والغضب بالرضى والعقوبة بالرحمة. وقد حرقوا الكلم عن مواضعه، وأكلوا الربا رغم أن الله نهاهم عنه، وقتلوا الأنبياء بغير حق، وكذبوا عيسى ابن مريم، رسول الله، ورموه وأمه بالبهتان، وحرصوا على قتله

„Über andere habt ihr auch noch die Juden im Lande, die da großen Schaden tun. Nun wollen wir christlich mit ihnen handeln und bieten ihnen erstlich den Christlichen Glauben an, dass sie den Messias wollen annehmen, der doch ihr Vetter ist und von ihrem Fleisch und Blut geboren und rechter Abrahams Same, dessen sie sich rühmen. (..) Wo nicht, so wollen wir sie nicht leiden, (..) sondern sie weg treiben. Wo sie sich aber bekehren, ihren Wucher lassen und Christum annehmen, so wollen wir sie gerne als unsere Brüder halten. Anders wird nichts draus, sie machen's zu groß, sie sind unsere öffentlichen Feinde, hören nicht auf, unseren Herrn Christum zu lästern, heißen die Jungfrau Maria eine Hure, Christum ein Hurenkind. Uns heißen sie Wechselbälge oder Mahlkälber, und wenn sie uns könnten alle töten, so täten sie es gerne. Und tun's auch oft, sonderlich, die sich als Ärzte ausgeben, ob sie gleich zu Zeiten helfen“

(١) حرص المؤلف على ترجمة معانى الآيات القرآنية التي ورد ذكرها بالكتاب باللغة الألمانية.

وتفردوا دون الأمم بالخبط والبهت والتكالب على الدنيا. الأمر لا يحتاج إلى تعليق بين ما جاء به القرآن وبين ما قال به مارتن لوتر في هذا الشأن.^(١)

نخرج الآن بالقارئ إلى الديانة المسيحية كما جاء بها السيد المسيح عليه السلام ووفقاً لما نص عليه القرآن أنها: "عقيدة التوحيد بكل شعبه، التوحيد الكامل لله خالق السماء والأرض":^(٢)

"ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم". (المائدة: ١١٧)
„Ich habe ihnen nur gesagt, was Du mir befohlen hast,
(nämlich): Dient Allah meinem und eurem Herrn,,

علاوة على الكتابات والمصادر التي تركها تلاميذ عيسى عليه السلام، والتي تعتبر - من وجهة نظرنا - المصادر الأساسية للمسيحية، وهي التي أطلق عليها مسميات الأناجيل وأشهرها أربعة: (متى، ومرقس، ولوقا، ويوحنا)، والتي سُجِّل بها سيرة وتعليمات السيد المسيح عليه السلام، وهي في مجموعها تُعرف بالعهد الجديد، ويذكر الدارسون للمسيحية أن الأناجيل الثلاثة الأول "متى، ومرقس، ولوقا" ركزت على العلاقة العضوية بين رسالة المسيح ورسالات بني إسرائيل، أما الرابع "يوحنا" فيعطى صورة مغايرة تمثل خروجاً وانفصالاً عن اليهودية. ويختلف المؤرخون في الأوقات التاريخية التي كُتبت فيها هذه الأناجيل، فكتب إنجيل مرقس حوالى عام ٦٥م بمدينة روما، وإنجيل متى عام ٧٥م ببيت المقدس، وإنجيل لوقا ما بين عامي ٨٠ إلى ٩٥م، أما إنجيل يوحنا فقد كتب بعد ٧٠ عامًا

(١) مزيد من التفاصيل، انظر شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ٦٩١هـ - ٧٥١هـ "هداية الحيارى فى أجوبة اليهود والنصارى" ص ١٧٥ وما بعدها القاهرة ٢٠٠٣.
(٢) قارن الإمام محمد أبوزهرة، محاضرات فى النصرانية... ص ١٢.

من موت المسيح عليه السلام، كما يقول بذلك المسيحيون، ويعرض صورة خاصة تتعلق بشخص تعاليم المسيح، وما يخص العشاء الرباني، "مبدأ التناول"، الذي اعتبره يوحنا الوحي الأساسى الذى يفسر حياة المسيح وموته وطبيعته المتمثلة فى عقيدة التجسيد والحلول Inkarnation وفكرة التثليث Trinität "الإله الأب، والإله الابن، والإله الروح القدس"، وكان يوحنا متأثراً بذلك بأفكار بولس الرسول، الذى سبقه بجيلين من الزمان، والذى كان يهودياً ثم تحول إلى المسيحية وهو فى الطريق إلى دمشق، وكانت دعوته مشوبة بالأفكار القديمة السائدة فى عصره، والتى اعتبرت آدم خطيئة لذريته من بعده، وتصبح هذه الذرية فانية، ويتحرك الرب برحمته وعدالته ويقدم طريقاً للخلاص، ويختار لهذه المهمة عيسى كواسطة للرب فى الخلق الأصلى للعالم فى صورة بشرية أو إنسانية، ويتم الخلاص من خلال موته وقيامته فى إطار من التواضع، مقارنة بما حدث من آدم من نسيان أمر ربه واقترافه للمعصية، وتقبله الموت على الصليب دون أدنى مقاومة. ويوجز بولس الرسول أفكاره هذه، مركزاً على قيمة التعميد التى تمثل لديه المشاركة الحقيقية للمسيحى المؤمن لجسد المسيح فى موته وبعثه وليتخلص من طبيعته الآثمة، ومن هنا جاءت احتفالات المسيحية بمولد المسيح بعد قدوم الشتاء مباشرة، وقيامته مع بداية الربيع. أما القيمة الأخرى فهى الأضحية، التى ترمز للعشاء الرباني واعتبار المسيح حَمَل الرب المضحى به كى تزول آثام العالم، وهو هنا يمثل الضحية التى تحمّل أوزار الآخرين وذنوبهم - على الرغم من أنه برئ من هذه الأخطاء - إلا أنه يتحمل خطايا العالم من خلال الألم والموت.

وفى إيجاز شديد يمكن القول أن غالبية العقائد المسيحية تبلورت داخل إطار القول بالتثليث، أى وجود ثلاثة أقانيم متساوية: أقنوم الله الأب، والله الابن، والله الروح القدس. فهذه هى المفاهيم التى ظلت موضع جدل وخلاف بين كثير من الطوائف المسيحية وبين غيرهم من أهل الديانات الأخرى حتى يومنا هذا.

نعرض أيضًا لأهم الشعائر المسيحية وعلى رأسها شعيرة التعميد، والعشاء الرباني، فالتعميد يعنى الغسل بالماء، باسم الأقانيم الثلاثة لتطهير النفس من الخطيئة، أما العشاء الرباني فيتمثل في تناول قليل من الخبز والخمر، تذكيرًا لموت المسيح وبعثه وقدومه مرة أخرى. وساد الخلاف والجدل على هذه القضايا وعقدت المجامع الكنسية لحسم هذا الخلاف، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

مجمع نيقية عام ٣٢٥، الذى انعقد بطلب من الإمبراطور قسطنطين، وهو من المجامع الكنسية الشهيرة؛ الذى دار فيه الخلاف بين شماس الإسكندرية المصرى القديس أنثانيوس وخصمه القديس أريوس. السكندري، الذى أنكر ألوهية المسيح وأبوة الله له، وانتهى قرار المجمع إلى الأمر بطرده وحرمانه من الكنيسة. تلا ذلك مجمع القسطنطينية ٣٨١، مجمع أوفسوس عام ٤٣١، ومجمع خلقدونية ٤٥١.

ويقر القس فايز فارس بحدوث أول انقسام داخل الكنيسة مع بداية القرن الخامس الميلادى؛ عندما انفصلت كنيسة بطريركية الإسكندرية وبعض المؤيدين لها عن سائر الكنائس فى العالم، حينما عُقد مجمع خلقدونية، وفيه يقر المجمع بحرمان بطريرك الإسكندرية وعزله ونفيه واتهامه بالهرطقة، يجيء بعد ذلك مجمع القسطنطينية الثانى عام ٥٥٣، والثالث عام ٦٨٠، ومجمع نيقية عام ٧٨٧، ومجمع القسطنطينية عام ٨٦٩ و٨٧٩، والذى انتهى إلى انفصال الكنيستين إلى كنيسة شرقية يونانية، وأخرى غربية لاتينية، وذلك بسبب الخلاف الشديد بين بطاركة الشرق فى القسطنطينية وبطاركة الغرب فى روما، لأن كنائس الغرب كانت تستخدم اللاتينية فى القداس، أما كنائس الشرق فقد كانت تستخدم لغة أهل البلاد، علاوة على أن كنائس الغرب منعت زواج القساوسة، فى الوقت الذى أباحته كنائس الشرق. وأطلقت الكنيسة الشرقية على نفسها مسمى الكنيسة الأرثوذكسية، وهو المصطلح الذى يعنى الشخص المستقيم العقيدة. ضمت هذه الكنيسة بلاد اليونان والبلقان وآسيا الصغرى وروسيا، ولها اتباع فى سوريا ومصر، يعرفون

باسم الروم الأرثوذكس؛ أما الكنيسة الغربية فقد أطلقت على نفسها مسمى الكنيسة الكاثوليكية، وهذا المصطلح يعنى الكنيسة الجامعة دون غيرها. ويبرر السيد فايز فارس أن هذه المجامع المسكونية كانت تقع تحت التأثير السياسى والنزاع على السلطة بين البطرياركيات الكبرى، وحتى يحدث الانقسام الأخير الذى تم فى القرن السادس عشر بسبب أحداث الإصلاح البروتستانتى، والذى برز نتيجة لتعسف قيادات الكنيسة الكاثوليكية وعدم مرونتها فى تقبل محاولات تجديد حياتها من الداخل. ويأتى على قمة هذه المجامع مجمع تريندنتوا الذى انعقد فى الأعوام ١٥٤٢، ١٥٦٣ بهدف مواجهة توجهات وأحداث الإصلاح البروتستانتى^(١).

من هذا العرض الموجز لأهم الأحداث التاريخية للمسيحية، التى قادت إلى انقسام الكنيسة إلى كاثوليكية وبروتستانتية فى القرن السادس عشر، بعد الانقسامات السابق ذكرها إلى شرقية، وغربية فى القرن التاسع الميلادى، والذى جاء نتيجة للخواء الدينى الذى برزت سماته مع نهايات العصور الوسطى، وكثيرة لفشل حروب الكنيسة الصليبية ضد المسلمين ولجوء رجال اللاهوت وعلى رأسهم البابا إلى طرق الكسب غير المشروع، وهى الأمور التى عرضنا لها بالتفصيل فى حركات الإصلاح التى قام بها الفالدينون فى القرن الثانى عشر، والويكليفيون فى القرن الرابع عشر، والهوسيون فى القرن الخامس عشر، حيث اتجه فكرهم الإصلاحى إلى مبدأ العودة إلى الأصول، وهو المبدأ الأساسى الذى اعتمد عليه مارتن لوتر فى توجهاته الإصلاحية مع بداية القرن السادس عشر، والتى ما كان لها أن تتحقق من غير المعاناة التى لقيها المسيحيون من رجال الكنيسة وصلفهم،

(١) قارن: فايز فارس، ص ٦٥ وما بعدها.

عقد بعد هذا المجمع مجمع فى روما الذى تقرر فيه الأخذ بعصمة البابا، والذى كان مثار خلاف بين الكاثوليك والبروتستانت. ومن المعروف بالضرورة أن شارك الآلاف من الأساقفة والبطاركة والرهبان فى هذه المجامع وهم تائهون وحائرون ومختلفون فى أمور المسيح عليه السلام، فمنهم من يقول إنه إله ومنهم من يقول إنه ابن الله ومنهم من يقول إنه ثالث ثلاثة ومنهم من يقول إنه عبد ومنهم من يقول إنه أقنوم واحد وطبيعة واحدة وأخيراً منهم من يقول أقنومان وطبيعتان. (المؤلف)

والذى يمثل أمرًا طبيعيًا فيه الكفاية لثورة زعماء الإصلاح والمناداة لتحرير العقل البشرى من هذا العنت. ولعل ذلك يحسب لمن قالوا بأن حركة الإصلاح شأن أوروبى بحت.

لقد سارت الأحداث على النحو الذى سارت عليه، من اضطهادات شديدة عنيفة ضد مخالفيها واتباع وسائل القتل والحرق لمن أسمتهم بالهرطقة، وتبعثهم بمحاكم التفتيش وإصدار عقوبات الحرمان، والانفراد بالسلطة على كل فئات الشعب والإسراف فى فرض الضرائب وصرفها فى غير موضعها، والإتجار بصكوك الغفران وبيعها للمذنبين، وهذا هو الأمر الذى كان على لوتر أن يواجهه على نحو ما عرضنا له فى موضعه.

٤. ٤ الإسلام

ونقدم للقارئ ختامًا لهذه الديانات التوحيدية - ديانات أهل الكتاب - الدين الإسلامى، وهو الدين الذى يمثل من منظور أتباعه المسلمين المعتقد الأسمى والأساسى للبشرية، منذ بدء الخليقة وحتى قيام الساعة، وهذا يعنى أن الإسلام يمثل الدين الخاتم والمكمل والمصحح للتحريفات التى تعرضت لها اليهودية والمسيحية الأصلية، رغم نشأته وظهوره فى شبه الجزيرة العربية، التى لم تكن ضمن المناطق التى نزلت فيها اليهودية أو المسيحية.

يمثل القرآن كتاب الإسلام المقدس ومصدره الأول، ويعرض للأديان والمعتقدات الأخرى، وخاصة فى ظاهرة الحوار الدينى السائد فى أيامنا هذه، وليدلى فيه القرآن بأسس التقارب:

"ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن".
(النحل: ١٢٥)

„Rufe zum Weg deines Herrn mit Weisheit und schöner Ermahnung, und streite mit ihnen in bester Weise.“

”قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء.“ (آل عمران: ٦٤)

„Sag: O Leute der Schrift, kommt her zu einem zwischen uns und euch gleichen Wort „.

فالإسلام هنا كدين توحيدى سابق لليهودية والمسيحية، رغم افتراء العديد من مفكرى الغرب، وخاصة المستشرقين ورجال الكنيسة، والهجوم عليه من منطلق أن الإسلام عقيدة مصدرها اليهودية والمسيحية، أو هرطقة ترقيعية من اليهودية والمسيحية. واستمر هذا التوجه الغربى لقرون طويلة يلصق بالإسلام الكثير من الشبهات والافتراءات، إلا أنهم لا ينكرون أو يخفون دهشتهم من السرعة الفائقة التى اكتملت بها رسالة الإسلام، والتى لم تتجاوز ثلاثة وعشرين عامًا، بداية من نزول الوحي على محمد (صلى الله عليه وسلم) واكتمالاً بنهايته، وليكون القرآن المؤخى إلى الرسول الخاتم هو الدستور الثابت، دون أن يحدث أى انقسام أو خلاف تجاهه طوال أربعة عشر قرنًا من الزمان. ويواصل الإسلام قوته واستمراريته رغم ضياع السيادة السياسية والاقتصادية والعسكرية لأتباعه، ورغم افتراء كتاب الغرب فى الحديث عن إسلام سنى، وإسلام شيعى، وإسلام صوفى، وآخر بهائى أو قديانى، أو بإسلام مصرى وهندى وسعودى، أو بإسلام رسمى وإسلام شعبى، متجاهلين فى كل ذلك أن الإسلام فى جوهره واحد لا يعرف التجزئة، وأن العديد من الفرق التى ظهرت فى تاريخ المسلمين اختفت بزوال ما أدى إلى نشأتها، ولم يبق منها بجوار المذهب السنى الممثل لأغلبية المسلمين إلا المذهب الشيعى، والممثل لنسبة محدودة منهم، والذى يتفق غالبيتهم فى الأصول وحب آل البيت وفى التوحيد والنبوة مع المذهب السنى.^(١) ومن هنا يمكن أن نؤكد باليقين، أن أى

(١) مزيد من التفصيلات انظر، السيد الشاهد، الخطاب الفلسفى المعاصر - من العام إلى الأعم، القاهرة ٢٠٠٠ ص ٢٠٠ وما بعدها، وأنظر أيضًا، محمد خليفة، تاريخ الأديان، ص ٢٤٠ وما بعدها.

منصف من الباحثين لا يمكن له أن يقارن وضع الأرثوذكس والكاثوليك والبروتستانت في المسيحية، بوضع أهل الشيعة والسنة، لأن هذه المذاهب المسيحية المشار إليها وصل بها الخلاف إلى اعتبار معتققيها أصحاب ديانات مستقلة. أما الإسلام فهو دين للجميع، وكل المسلمين يؤمنون بإله واحد وكتاب واحد، ولا فرق بين عربى أو أعجمى إلا بالعمل الصالح والتقوى، بل الأكثر من ذلك أن الإسلام هو جوهر هذه الأديان والدعوات وإن اختلفت مسمياتها.

كان سيدنا آدم عليه السلام، أول الأنبياء وأول المسلمين، وانسحب ذلك على كل من جاء من بعده من الأنبياء والرسل:

"ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل" (الحج ٧٨).
„...dem Glaubensbekenntnis eures Vater Ibrahim: Er hat euch Muslime genannt.“

"ما كان إبراهيم يهوديًا ولا نصرانيًا ولكن كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين" (آل عمران ٦٧)
„Ibrahim war weder ein Jude noch ein Christ, sondern er war Anhänger des rechten Glaubens.“

"قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق إلهًا واحدًا ونحن له مسلمون" (البقرة ١٣٣).
„Sie sagten: Wir werden deinem Gott und dem Gott deiner Vorväter Ibrahim, Ismail und Ishak dienen.“

"وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون (المائدة ١١١)
„Und als Ich den Jüngern eingab: Glaubt an Mich und an Meinen Gesandten. Sie sagten :Wir glauben , Bezeuge , dass wir Dir ergeben sind.“

"إن الدين عند الله الإسلام" (آل عمران ١٩) .

„Gewiss, die Religion , ist bei Allah der Islam .“

"اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً"
(المائدة:٣)

„Heute habe Ich euch eure Religion vervollkommnet und Meine Gunst an euch vollendet, und Ich mit dem Islam als Religion für euch zufrieden.“

وكان على مارتن لوتر كأحد رجال اللاهوت أن يواجه هذه المبادئ من منظور مسيحي، وهو المنظور الذي لم يعد يقر بعقيدة التوحيد، والتي تغيرت إلى عقيدة التثليث الممثلة في الإله الآب، والإله الابن، والإله الروح القدس، ويجيء النص القرآني لنقد وإنكار هذا التغيير:

"يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيراً لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض وكفى بالله وكيلاً" (النساء ١٧١).

„O ,Leute der Schrift, übertreibt nicht in eurer Religion und sagt gegen Allah nur die Wahrheit aus. Al –Masih Issa ,der Sohn Mariam, ist nur Allah Gesandter und Sein Wort, das Er érbot, und Geist von Ihm. Darum glaubt an Allah und an Seine Gesandten und sagt nicht „Drei“. Hört auf (damit),das ist besser für euch! Allah ist ein Einziger Gott. Preis sei Ihm,(und Erhaben ist Er darüber),dass Er ein Kind haben sollte! Ihm gehört (alles),was in den Himmeln und was auf der Erde ist, und Allah genügt als Sachwalter.“

والسؤال الذي كان على لوتر أن يطرحه بعد دراسته لدين الأتراك "السراسينر" Die Zarazener (المسلمين) وترجمات قرآنهم هو: إذا كان آدم ممثلاً لتاريخ الخطيئة عند المسيحية، وأول الخلق من المسلمين في الإسلام

وتتوارث ذريته خطيئته الأولى حتى بَعَثَ عيسى عليه السلام، ويؤدي دوره في خلاص البشرية من خطيئتها الموروثة منذ آدم ، فكيف توفق المسيحية بين كون الأنبياء والرسل السابقين معصومين من الخطأ، وبين اعتبار البشرية بكاملها مخطئة بالفطرة والوراثة عن خطيئة آدم الأولى؟!

لم يكن الأمر بالسهولة التي كان على لوتر أن يواجهها سواء طُرح السؤال من معارضيه، أو من أتباعه الفضوليين، خاصة وأن مفهوم لوتر عن الله كان مفهومًا يهوديًا باعتباره منتقمًا. أليس هو الذي أغرق كل البشر في طوفان نوح؟، وأحرق مملكتي السدوم وعمورة؟ واعتبار المسيح القاضي الأخير. وكثيرًا ما كان يُواجه بحادثة صلب المسيح، الإله والرب، وأين كانت القوة التي تحكم الكون والعالم في فترة صلب المسيح وموته؟ وأين كان الله قبل خلق هذا العالم؟^(١)

لقد رفضت اليهودية والمسيحية، ومعهما غالبية زعماء الإصلاح، نبوة محمد، صلى الله عليه وسلم، رغم إقراره بالديانتين السابقتين عليه، ولم يفتن لوتر إلى أن النقد الذي وجه من قبل الإسلام لهاتين الديانتين إنما جاء بهدف التصحيح وليس بهدف الرفض. وهنا تكمن جذور فكر لوتر وتوجهاته، والتي تبين في جوهرها ابتعادًا ملحوظًا - من وجهة نظرنا - عن قيم الإسلام، ولهذا لم يكن الإسلام - كما وسموه - ترفيعًا أو تليفًا أو كما يدعى مؤرخو الأديان في الغرب، ويجيء القرآن على لسان إبراهيم عليه السلام:

"إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين" (الأنعام ٧٩).

„ich wende mein Gesicht Dem zu, Der die Himmel und die Erde erschaffen hat, als Anhänger des rechten Glaubens, Und ich gehöre nicht zu den Götzendienern.“

(١) مزيد من التفصيلات انظر، ول ديورات، والذي يذكر فيه المؤلف الحوار الذي دار بين أحد علماء اليهود الشباب ومارتن لوتر وسؤاله أين كان الله قبل خلق العالم؟ ص ٥٩ وما بعدها.

"قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين". (الأنعام: ١٦١)

„Sag: Gewiss, mich hat mein Herr zu einem graden Weg geleitet, einer richtigen Religion, dem Glaubensbekenntnis Ibrahims, als Anhänger des rechten Glaubens und er war keiner der Götzendiener.“

لهذا لم يكن الإسلام تلقياً لعقائد يهودية ومسيحية، إذ لا يُعقل منطقياً أن يُوجّه الإسلام نقده الشديد لكلا الديانتين اللتين هما فى نفس الوقت، المصدر الذى يُلفق منه ويُبنى عليه مُعتقدٌ جديد. والحقيقة أن الإسلام لم ينقد الديانتين السابقتين إلا بعد تحريفهما، فهو يعتبر بمثابة المصحح لما وقع فيه أهل هاتين الديانتين من الأخطاء والرهبان. أما قبل التحريف فالإسلام يتفق تماماً مع ما جاء بهما من التوحيد والعبادة لله وحده، وإن كان يعتبر أن كل ديانة جاءت لحقبة زمنية محددة قد تختلف فى المنهج والطريقة مع غيرها من الديانات، وذلك انتظاراً للدين الخاتم الأعم الأشمل الذى يصلح لكل زمان ومكان.

اتخذت الدراسات المرتبطة بالفكر البروتستانتي الإصلاحى وصلتها بالإسلام قرباً أو بعداً - من وجهة نظرنا - مناهج عدة:

- الدارسون المسلمون الذين أظهروا عناصر التقارب، وأغفلوا التباعد.
- رجال اللاهوت من المسيحيين العرب وتحاشيهم ذكر أى صلة بين قيم الإسلام وبين قيم الفكر البروتستانتي.
- بعض علماء الغرب المتخصصين فى هذا الحقل من الدراسات الذين ركزوا على وجود علاقة جوهرية بين فكر لوتر وانشغاله بالإسلام وقيمه، وخاصة بعد استيلاء الأتراك على كثير من الممالك الأوروبية.
- لا تزال هذه الدراسات فى بداياتها وتمثل محاولة للتوفيق بين قيم لوتر الإصلاحية والقيم الإسلامية، الأمر الذى حفزهم إلى المناداة ببدء حوار

بناء بين الأديان وعلى رأسها الإسلام، وما يمثله هذا الدين من ثقل في أحداث العالم الحالية.

جاءت علاقة الإسلام بالأديان الأخرى السماوية من منطلق إلهي، وهو الأمر الذي أهملته أبحاث ودراسات المستشرقين:

"وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه... ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون" (المائدة، الآية ٥٠).

„Und Wir haben zu dir das Buch mit der Wahrheit hinabgesandt, das zu bestätigen, was von dem Buch vor ihm offenbart war, und als Wächter darüber..“

فإن الله يأمر هنا رسوله محمداً (صلى الله عليه وسلم) بتصديق الكتب التي جاءت قبله، وأن يشهد بأنها حق وأنها من عند الله وأن القرآن أمين عليها وخاتمتها ومتكفل بالحفاظ عليها، وبهذا يكون الإسلام عودة إلى الدين الواحد والكامل للبشرية:

"ما فرطنا في الكتاب من شيء" (الأنعام، الآية ٣٨).
„Wir haben im Buch nichts vernachlässigt.“

"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي". (البقرة: الآية ٢٥٦).
„Es gibt keinen Zwang im Glauben, Der Weg der Besonnenheit ist nunmehr klar unterschieden von dem der Verirrung.“

لقد ترك الإسلام بهذا التوجه للبشر أعمال عقولهم لكي يختاروا بكامل حريتهم بين ما هو صحيح وما هو خاطئ، دونما قهر أو تعسف، دالا على أساس من التسامح، وحرية الاعتقاد:

"إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء" (القصص، الآية ٥٦).

„Gewiss ,du kannst nicht den rechtleiten, wen du gern rechtleiten sehen möchtest. Allahaber leitet recht, wen Er will.“

"ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء" (البقرة، الآية ٢٧٢)
„Nicht dir obliegt ihre Rechtleitung, sondern Allah leitet recht, wen Er will .“

ونحن نرى أن الإسلام هنا لم يتنازل عن نقده للأوضاع الدينية للشعوب، بل اعتبرها ضرورة عقلية في إطار من الود والتسامح مع أهل العقائد الأخرى، فالمنظور الإسلامى يقوم على اكتساب المعرفة وتحليلها ونقدها، ثم قبولها أو رفضها عن اقتناع كامل، وفي كلتا الحالتين فإن حرية الاعتقاد ممنوحة، والحماية لأهلها مكفولة.

ولعل هذا المنظور يوضح لنا موقف البروتستانت تجاه كتابهم المقدس، الإنجيل، حين تمسكوا بحرية تداوله وتأمينه لكل المؤمنين، وكسر احتكار رجال الدين لتفسيره أو استخدامه، مما جعل من الإنجيل حجر الزاوية في الفكر البروتستانتي، وهو أمر لا شك يمثل موقفاً مشابهاً من الموقف الإسلامى، في العودة إلى الأصول وجعل كتاب المسلمين، القرآن الكريم، متاحاً لكل المسلمين ورفض أى احتكار له بواسطة فئة معينة، وإعطاء المسلم الحق في تفسيره وفهمه طالما توافرت فيه شروط التفسير.

٤. ٥ حوار الأديان

هناك موجة جارفة تسود بلدان الغرب المسيحى فى السعى نحو إيجاد قاعدة مشتركة للحوار بين الأديان، وخاصة فى العقدين الأخيرين من القرن المنصرم. ونعرض لهذه الموجة من خلال عمل جاد قام به عالمان من أهل اللاهوت المسيحى:

الأول هو عالم اللاهوت السويسرى الدكتور هانس كونج Hans Kung ، والثانى، أستاذ الإستشراق الألمانى يوسف فان إس Joseph van Ess، أستاذ اللاهوت بجامعة توبنجن Tübingen، وقد ضمنا حواريهما هذا فى كتابهما المشترك "المسيحية والديانات العالمية"، الصادر فى مدينة ميونخ عام ١٩٨٤، "Christentum und Weltreligionen, München 1984"، والذي انتهى إلى نتائج طيبة، كإثبات نبوة محمد (صلى الله عليه وسلم)، وأن القرآن مُنزل من عند الله، والقول بوجود تحريفات فى الأنجيل الحالية، وفى الأصول الخاصة بالعقيدة النصرانية، مثل "إعادة النظر فى عقيدة التثليث ونبوة الله للمسيح وعصمة البابا".^(١)

يعرض السيد هانس كونج لمراحل الصراع بين الغرب والإسلام ويقسمها بداية بمرحلة التجاهل والإنكار، مروراً بمرحلة التكبر والتعالى، وانتهاء بمرحلة المهادنة والتسامح. ويذكر أن بداية الاتصال الفعلى بين الحضارتين والثقافتين تبدأ بزيارة "بطرس المبجل" عام ١١٤٣ إلى إسبانيا العربية، وقيامه بترجمة القرآن إلى اللاتينية. يجيء بعد ذلك زحف الأتراك على أوروبا الذى وصل إلى أوجه عام ١٥٢٩، ويكون من نتائجه صدور مرسوم بابا روما بحرق ترجمة فينيسيا "البندقية" للقرآن الكريم عن العربية عام ١٥٣٠، ويتلوها ترجمة "ببلياندر"، والتي قدم لها مارتن لوتر عام ١٥٤٣، والتي عرفت فيما بعد بطبعة بازل. يلى ذلك مرحلة المهادنة المتسمة بشيء من التسامح فى عصر التنوير ومسرحية ليسنج "ناتان الحكيم" "Nathan der Weise"، وقصة الخواتم الثلاث "Die Ringparabel"، تلى ذلك دراسات نقدية بداية من القرن التاسع عشر وحتى يومنا هذا^(٢).

يقرر عالم اللاهوت الألمانى "يوسف فان إس"، أن الإسلام هو دين المساواة، ولا يعرف الفوارق الطبقيّة التى عرفناها عند الرومان ومسيحي أوروبا فى

(١) قارن: السيد الشاهد: المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، القاهرة، ٢٠٠١ ص ٢٧ وما بعدها.

(٢) قارن: السيد الشاهد: المرجع السابق، ص ٤٥ وما بعدها.

العصور الوسطى، ويؤكد على أن الإسلام لم يُجبر أحدًا من أهل الكتاب على الدخول فيه، وأن من دخل منهم الإسلام، إنما دخله لما رآه من معاملة حسنة، كما يؤكد على عدم انتشاره بالقوة حتى أنه يذكر أن بعض المحاولات القليلة لنشر الإسلام بالقوة مثلما فعل محمود الغزنوي عام ١٠٠٠ م في الهند قد باءت بالفشل، ويقول ما نصه: "إن الإسلام ينتشر ببساطة ووضوح مبادئه وسماحته التي تصل مباشرة إلى الإنسان أيًا كان مركزه الاجتماعي أو مستواه الثقافي، ولذلك فالإسلام يتميز على المسيحية بما يلي:

- ١- أنه مؤسس على مبادئ عقلية في العقيدة.
 - ٢- التسامح والمساواة في التطبيق واتباع الوسطية والاعتدال.
 - ٣- اعتبار التثليث، الذي تراه المسيحية عقيدة مقدسة، عبثًا منطقيًا.
 - ٤- الرهينة، التي تراها المسيحية تحررًا من قيود الحياة، مبالغة خاطئة.^(١)
- تتامت قضايا الحوار الديني في الغرب بوجه عام بعد أحداث سبتمبر ٢٠٠١ التي وقعت في الولايات المتحدة الأمريكية - في الدول الناطقة بالألمانية بوجه خاص، سواء عُقد هذا الحوار على المستوى العام أو على المستوى الفردي. ونلاحظ من تجاربنا الشخصية أن هذا الحوار تسوده سمات الانفعال، والعاطفة، والابتعاد عن الموضوعية والحيدة. ويرجع ذلك دون شك إلى الخلط الشديد بين الإسلام وجوهره وقيمه ومبادئه وبين سلوك وتصرفات وأخلاقيات أتباعه أو بسبب مجابهات الماضي بالحاضر.

كثيرًا ما يتم هذا الحوار في مناطق شتى على أرض البسيطة مع المسلمين ومع غيرهم، تصحبه وسائل الإعلام والنشر المقرؤة والمسموعة والمرئية. وليس بخاف على كل ذي فطنة أن هذه الحوارات التي تدور تنتهي إلى نتائج مستتبطة

(١) قارن المرجع السابق ص ١٨٥ وما بعدها.

من سلوك المسلمين وتصرفاتهم وعلاقاتهم ببعضهم بعضًا، ومدى تطابق كل ذلك مع قيم ومبادئ الإسلام التي جاوزت الأربعة عشر قرنًا من الزمان. وكان بالأحرى أن ينحى الحوار منحى آخر، وهو استخدام الاستقراء، الذى منه وبه ينشأ حوار، يقوم على دراسة إيجابية وموضوعية عن سلوك وتصرفات المسلم، وخاصة ذلك المسلم المغترب الذى ترك ديار وطنه ليعيش فى الغرب كمواطن ملتزم مسالم متعاون.

لذلك لم يكن من المستغرب أن يتم التركيز ولفت الأنظار إلى تعميم مضامين إسلامية ينادى بها بعض المتشددین، أو قلة من المتعصبين، غالبًا ما تكون خاطئة أو مبتورة من سياقها الصحيح الذى جاء به القرآن أو السنة المؤكدة، كما يرتكب الكثيرون من المسلمين، وربما أيضًا من غيرهم، عقد مقارنات ظالمة عن قضايا الإسلام ورسالته من واقع هويات المجتمع الغربى، كما يقع دارسو الإسلام من أهل الغرب فى نفس الخطأ، حينما يضعون نصب أعينهم قيم وأخلاقيات عصر التنوير وأنماط ديمقراطيات الغرب وحقوق الإنسان، وربطها بالواقع الذى تعيشه الدول الإسلامية أو المجتمعات التى تعيش فيها أغلبية مسلمة.

ينطلق السيد الشاهد فى مؤلفه: "المسيحية والإسلام - من الحوار الى الجوار" فى توجهاته تجاه هذه الموجة من الحوار من منظور:

١- إيمان المسلم بنبوۀ كل الأنبياء الذين تلقوا الوحى الإلهى بداية من آدم عليه السلام، وحتى محمد خاتم الأنبياء.

٢- تلبية الإسلام لكافة جوانب الحياة الإنسانية المادية منها والروحية.

٣- تحبيذ العمل النافع وطلب العلم.

٤- حرية الرأى والمشاركة فى الحكم والانفتاح على الثقافات الأخرى، مصداقًا للحديث الشريف "الحكمة ضالة المؤمن، أنى وجدها فهو أحق الناس بها."

٥- احترام حقوق الملكية الفردية للإنسان، الحفاظ على البيئة، تحريم الظلم الاجتماعي، المساواة بين البشر، والتسامح^(١).

ويدعم الدكتور الشاهد وجهات نظره هذه من خلال آيات القرآن الكريم:
١- "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن". (النحل: الآية ١٢٥)

„Rufe zum Weg deines Herrn mit Weisheit und schöner Ermahnung, und streite mit ihnen in bester Weise.“

٢- "قل هذه سبيلى أدع إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى". (يوسف: الآية ١٠٨)

„Sag: Das ist mein Weg: ich rufe zu Allah aufgrund eines sichtbaren Hinweises, ich und diejenigen, die mir folgen.“

"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن". (العنكبوت: الآية ٤٦)
„Und streitet mit den Leuten der Schrift nur in bester Weise.“

٣- "كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله". (آل عمران: الآية ١١٠)

„Ihr seid die beste Gemeinschaft, die für die Menschen hervorgebracht worden ist. Ihr gebietet das Rechte und verbietet das Verwerfliche und glaubt an Allah.“

■

من هذا المنظور الإسلامى نعرض من جانبنا لمفهوم الحوار ولدوره فى العقيدة الإسلامية، فالحوار هو لغة التجاوب والمراجعة فى أمر ما يُعرض للنقاش.

(١) قارن محمد نبيل غنايم (قضايا معاصرة- دراسة فكرية اجتماعية) القاهرة ٢٠٠٣ ص ٥١ وما بعدها.

ويقول المولى عز وجل:

"قال له صاحبه وهو يحاوره" (الكهف: الآية: ٣٧)
„Sein Gefährte sagte zu ihm, während er sich mit ihm unterhielt...“

"والله يسمع تحاوركما" (المجادلة: الآية: ١)
„....., während Allah euren Wortwechsel hört.“

لهذا لم يكن من المستغرب أن يتسع مجال الحوار في العقيدة الإسلامية ليشمل الكثير من أساليب الحياة والعلاقات بين الناس، ولعل ظاهرة الحوار الإسلامي- المسيحي، والتي تدور في أيامنا هذه على قدم وساق، يمكن أن تمهد الطريق إلى تقارب صادق بين أهل العقيدتين: كالتركيز على إيجاد المساحات المشتركة بين الدينين كالإيمان بالله واليوم الآخر، وبعث الأنبياء جميعًا، وكرامة الإنسان والخلق القويم، والأسرة، وهي أمور لا شك أنها تجمع وتؤلف بين المختلفين. ويرى يوسف القرضاوي: "أننا نحن المسلمين مستعدون للحوار والتقارب، والمهم أن يكون عند الآخرين مثل هذه الروح فيعاملوننا بمثل ما نعاملهم به، ويقتربون منا بقدر ما تقترب منهم"^(١)

وينادي الدكتور محمد عماره إلى ضرورة هذا الحوار في ظل هذا التميز والتعدد والاختلاف باعتبار ذلك سنة إلهية:

"ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين." (الروم: الآية ٢٢).

(١) المرجع السابق، ص ٥٤.

„Und zu Seinen Zeichen gehört die Erschaffung der Himmel und der Erde auch die Verschiedenheit eurer Sprachen und Farben. Darin sind wahrlich Zeichen für die Wissenden“.

"ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين، إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم." (هود الآية ١١٨ والآية ١١٩)

„Und wenn dein Herr wollte, hätte Er die Menschen wahrlich zu einer einzigen Gemeinschaft gemacht. Aber sie bleiben doch uneinig“.

"لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً" (المائدة: الآية ٤٨)

„Für jeden von euch haben Wir ein Gesetz und einen deutlichen Weg festgelegt...“

"ولكل وجهة هو موليها فاستبقوا الخيرات" (البقرة، الآية ١٤٨)

„Jeder hat eine Zielrichtung, zu der er sich hinwendet. So wetteifert nach den guten Dingen!...“

من هذه الآيات البينات نتبين رؤية المسلمين للكون والإنسانية والوجود، وبها يرون هذا العالم كمنتهى لأمم وشعوب وثقافات وحضارات وشرائع، تتوازن بينها المصالح، وتتعاون على البر والتقوى، لا على الإثم والعدوان. وأن هذا الاختلاف الواقع بين البشر هو اختلاف تباين وتكامل وليس اختلاف تناحر وتضاد.

بهذه الرؤية يرى محمد عماره أنه على المسلمين أن يتعاملوا مع التحديات، التي يفرضها الغرب على الإسلام وأمتة وثقافته وحضارته وعالمه، وصولاً إلى تمكين الإسلام والمسلمين من العيش والتعايش الحر مع الآخرين، ومواجهة سياسة القوة والخطرة، التي درج عليها الغرب في التعامل مع الشرق الإسلامي بعد سقوط الشيوعية، والإنفراد بقيادة النظام العالمي. ويجدون أن الإسلام يستعصى على علمنتهم أو التحول إلى صورة من نصرانييتهم، التي اكتفت بما لله، وتركزت

ما لقيصر لقيصر. ويجيء هيننتجتون وينادى بحرب ضد الإسلام والمسلمين، حتى يقبل الإسلام هذه الحداثة الغربية، وهنا يكمن جوهر المواجهة التي فرضها الغرب على الإسلام وأمته.^(١)

جاءت فكرة الحوار بداية من الغرب المسيحي، وذلك بحجة التقارب والتفاهم والتعايش، وهي المقدمات التي تقبع خلفها العولمة والعلمانية، والنظام العالمي الجديد، بعد أن فشل في حروبه الصليبية وفي استعمارها العسكري الحديث، علاوة على قيامه بزرع إسرائيل في قلب الأمة الإسلامية، ويكون هدفه البعيد بعد ذلك الغزو الفكري والثقافي والاجتماعي والاقتصادي المائل أمامنا في أيامنا هذه والذي يتم تنفيذه من خلال ثلاث دعائم: الاستشراق، والتبشير، والحوار.

و لما كان الحوار من الأمور المنهجية المقررة في القرآن الكريم بداية من استخلاف آدم عليه السلام:

"وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون" (البقرة، الآية: ٣٠)

„Und als dein Herr zu den Engeln sagte: „Ich bin dabei, auf Erde einen Statthalter einzusetzen“, da sagten sie: „Willst Du auf ihr etwa jemanden einsetzen, der auf ihr Unheil stiftet und Blut vergießt, wo wir Dich doch lobpreisen und Deiner Heiligkeit lobsingen?“ Er sagte: „Ich weiß, was ihr nicht wisst.“

(١) قارن: محمد عماره: في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ٥ وما بعدها.

وهذه أول قضية يتم فيها تقرير الحوار، واستمراراً بمحاورة إبليس:

"فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر وكان من الكافرين، قال يا إبليس ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي أستكبرت أم كنت من العالين." (ص: الآية ٧٣-٧٥)

„Da warfen sich die Engel alle zusammen nieder, außer Iblis; er verhielt sich hochmutig und gehörte zu den Ungläubigen. Er sagte: „O Iblis, was hat dich davon abgehalten, dich vor dem niederzuwerfen, was Ich mit Meinem Händen verschaffen habe? Verhältst du dich, oder gehörst du etwa zu dem Überheblichen?“

وكذلك حوار مع موسى عليه السلام:

"فلما أتاها نودى يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك، إنك بالوادي المقدس طوى" (طه، الآية ١١-١٢)

„Als er dort hinkam, wurde ihm zugerufen, O Musa Gewiss, ich bin Dein Herr, so ziehe deine Schuhe aus, du befindest dich im geheiligten Tal, Tuwa.“

"وما تلك بيمينك يا موسى قال هي عصا أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ولي فيها مآرب أخرى." (طه، الآية ١٧-١٨)

„Und was ist das da in deiner Rechten, o Musa, Er sagte: „ Es ist mein Stock, auf den ich mich stütze und mit dem ich für meine Schafe Blätter abschlage; und ich gebrauch ihn auch noch zu anderen Zwecken.“

وكذلك الحوار مع سيدنا عيسى عليه السلام:

"واذ قال الله يا عيسى ابن مريم أنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله، قال سبحانه ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق" (المائدة، الآية ١١٦)

„Und wenn Allah sagt: „o Isa, Sohn Mariams, bist du, der zu den Menschen gesagt hat: „nimmt mich und meine Mutter außer Allah zu Göttern?“, wir er sagen: „Preis sei Dir! Es steht mir nicht zu, etwas zu sagen, wozu ich keine Recht habe.“

ولا يَغفل القرآن الحوار مع المشركين ومع أهل الكتاب:

"وهو الذى أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون" (المؤمنون، الآية ٧٨)

„ Er ist es, Der euch Gehör, Augenlicht und Herzen hat entstehen lassen. Wie wenig dankbar ihr seid!“

"يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون" (البقرة، الآية ٤٠)

„O Kinder Israels gedenkt Meiner Gunst, die Ich euch erwiesen habe! Und haltet euren Bund Mir gegenüber, so will Ich Meinen Bund euch gegenüber halten! Und von Mir allein sollte ihr Ehrfurcht haben.“

"ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم" (العنكبوت، الآية ٤٦).

„Und streitet mit den Leuten der Schrift nur in bester Weise, außer denjenigen von ihnen, die Unrecht tun.“

ويذكر المؤرخون فى هذا الصدد الحوار الهادئ والرائع بين المسلمين المهاجرين إلى الحبشة فراراً من ظلم أهل مكة واللاجئين إلى ملك الحبشة، النجاشى، والذى يتبين منه أن الحوار منهج إسلامى قديم يتأيسر على العدل والاحترام والاقتناع بظهور الحق. ويستقبلهم النجاشى، ويُعجب بصراحتهم واعتزازهم بعقيدتهم ويفتح لهم ذياره ويؤمن لهم حياتهم، وذلك من خلال حوار، يكاد يكون الأول من نوعه بين الحضارة الإسلامية فى أول عهدها، والحضارة المسيحية فى

عصرها الوسيط، وهو الحوار الذى يعبر من وجهة نظرنا عن مدى التقارب بين الحضارتين القائمتين على الدين الحنيف، ولهذا لم يكن مستغرباً أن يأمر رسول المسلمين أتباعه بالهجرة إلى أرض هذا الملك، الذى لا يظلم عنده أحد، وكذلك لم يجد المسلمون غضاضة فى أن يعلنوا عنده الاعتزاز بدينهم، وعدم سجودهم له من منظور أن السجود لا يجوز إلا لله. ويتقبل الملك ذلك منهم فى رحابة صدر، ويعلن بصدق أن ما ذكره المسلمون هو النبع الذى يخرج من نفس المشكاة التى خرج منها الإنجيل.^(١)

والسؤال الذى يفرض نفسه فى هذا المقام هو أين ذلك النبع الصافى، الذى قدمته مسيحية النجاشى، من مسيحية أوروبا الحديثة التى تريد تشويه الإسلام وحضارته وتحقيق السيادة على أتباعه؟

لقد بدأت أوروبا أسلوباً جديداً - كما سبق أن ذكرنا - وهو الحوار، كى تحقق من خلاله ما تدعيه من رغبة فى التعاون والتفاهم واحترام الآخر، إلا أن باطن ذلك هو القضاء على الإسلام وتشويه مبادئه وصورته عند أهله وعند غيرهم. ولعلنا نذكر القارئ بالاجتماع الحاشد الذى دعى إليه البابا "أوربان الثانى"، بمدينة كليرمونت بفرنسا فى نوفمبر ١٠٩٥، وحضره كبار الأساقفة والأمراء والإقطاعيين، وفيه يلقي البابا خطبة مؤثرة، تثير حمية المجتمعين تمحورت فى أربع نقاط:

١- الدعوة إلى حملة مقدسة هدفها فلسطين وأراضى المسلمين استناداً على نصوص من الإنجيل.

٢- أن دعوته إلى هذه الحملة باسم الرب، بوصفه نائباً عنه فى الأرض.

٣- الحث على نبذ الخلاف بين المسيحيين وتوحيد جهودهم.

(١) فارن: محمد نبيل غنايم: قضايا معاصرة - دراسة فقهية اجتماعية، القاهرة ٢٠٠٣، ص ٨٢.

٤- منح غفران جزئى لمن يشارك فى هذه الحملة، سواء مات فى الطريق أم قتل.^(١)

ويرى الدكتور محمد البهى أن اتصال الغرب المسيحى بالشرق الإسلامى كان اتصال اعتداء مسلح على مدى قرنين من الزمان، بداية من القرن الحادى عشر إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادى.^(٢) وعلى نفس النهج قامت معظم الدراسات الإستشراقية بوحى من الكنيسة بهدف الانتقاص من تعاليم الإسلام ودحضه وإهدار قيمه، بل وكثلكته تعويضًا عما لحقها من هزائم فى حروبها الصليبية، الأمر الذى أشار إليه الدكتور الفيومى محدّدًا فيه موقف أوروبا العدائى لمدة قرون تجاه الإسلام والمسلمين.^(٣) وهو ما يؤكده أيضًا محمد أسد بمقولته: "إن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح فقط، ولكنه كان قبل كل شىء وفى مقدمة كل شىء شراً ثقافياً قصد به تسميم العقل الأوروبى وخاصة عند الجموع الجاهلة فى الغرب".^(٤)

بواصل محمد البهى شكوكه تجاه هذا الحوار القادم من الغرب المسيحى، الذى يعتبر المسلمين مجرد شعوب غير ذى أصالة ثقافية، وعليهم أن ينتقلوا إلى الحضارة الأوروبية الآرية المسيحية، ويذكرنا بكل وضوح تحذير القرآن الكريم من مواقف هؤلاء الغربيين دعاء الحوار الحديث المتمثل فى قوله تعالى:

(١) قارن النص الألمانى :

„Ich richte mich an die Anwesenden, ich erkundige es Jenen, die abwesend sind; Überdies befiehlt es Christus. AllJenen, die dorthin gehen, ob sie auf dem Landweg marschieren oder übers Meer fahren oder im Kampf gegen die Heiden das Ende dieses Leben in Gefangenschaft finden, werden ihre Sünden vergeben. Dies gewähre ich all denen, die gehen, kraft der Vollmacht, mi der Gott mich ausgestattet hat.“
(www.manfredhiebl.de/urban.htm)

(٢) قارن محمد البهى، الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، القاهرة ١٩٧٣ ص ١٩.

(٣) قارن محمد إبراهيم الفيومى: الفئات التاريخية بين الإسلام والغرب، قضايا إسلامية، سلسلة يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، العدد ٨، القاهرة ١٤١٦هـ-١٩٩٥م ٢٥ وما بعدها.

(٤) قارن محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، نقله إلى العربية عمر فروخ، بيروت ١٩٤٦ ص ٥٨ وما بعدها.

"ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم." (البقرة: الآية ١٢٠)
„Weder die Juden noch die Christen werden mit dir zufrieden sein, bis du ihrem Glaubensbekenntnis folgst.“

أين ذلك كله من حوار الإسلام الذى يدعو إلى الحق والتوحيد الخالص لله
رب العالمين والذى لا يحمل أحداً عليه قهراً:

"لا إكراه فى الدين" (البقرة، الآية ٢٥٦)

„Es gibt keinen Zwang im Glauben.“

"فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر" (الكهف، الآية ٢٩).

„..., wer nun will, der soll glauben, und wer will, der soll ungläubig sein.“

إن الحوار الذى تتبناه الكنيسة الغربية، يتعارض مع كل الثوابت الإسلامية،
فهذا الحوار بالنسبة لهم يمثل جسراً لنقل الثقافة المسيحية إلى الآخرين وغرسها من
خلال استخدام كافة وسائل التقنية الحديثة ومن أخطرها، مشروع القمر الصناعى
"نور ٢٠٠٠" والمخصص لبث برامج التنصير عبر القنوات الفضائية، والعمل على
تنصير كافة شعوب العالم بشتى الطرق، ومنها الحوار.

تلك هى دعوتهم وليس لنا إلا أن نأخذ بزمام المبادرة والدعوة إلى الحوار
الذى أمرنا الله تعالى به:

"قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بينا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك
به شيئاً، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا
مسلمون." (آل عمران: الآية ٦٤)

„Sag: „o Leute der Schrift! Kommt ihr zu einem zwischen uns
und euch gleichen Wort: das wir niemandem dienen außer Allah
und Ihm nichts beigesellen und sich nicht die einen von uns die

anderen zu Herren außer Allah nehmen. Doch wenn sie sich abkehren, dann sagt: Bezeugt, dass wir Allah ergeben sind.“

وعادة ما تتصدى هذه الحوارات لقضايا الصراع الماضى، بمعنى صراع الغرب مع الشرق، مثلما حدث فى الحملات الصليبية وإخراج المسلمين من الأندلس، ثم مواجهات الغزو التركى (الإمبراطورية العثمانية) للعديد من الممالك الأوروبية، والذي بلغ ذروته بحصار فيينا، ويتناسى أولئك وهؤلاء الإسهام العلمى والحضارى، الذى قدمه الشرق للغرب عبر القرون الماضية، والذي اعتبرته زيجريد هونكه Sigrid Hunke فى كتابها المعروف، "شمس الله تسطع على أرض الغرب" "Allahs Sonne auf dem Abendland" ما يمثل الإرث الثالث لأوروبا. وقد أعطت زيجريد هونكه كتابها المشار إليه هذا العنوان، الذى يرمز إلى المعرفة الإسلامية العامة، فهى تربط الشمس الإلهية بمعنى العلم والمعرفة، لأن لفظ الجلالة يعنى بالضرورة العلوم الإسلامية، التى تشرق والتى تعنى أنها مصدر المعرفة للغرب.^(١)

يرى الكثيرون من المنصفين أن مثل هذا الحوار إذا صيغ على أسس موضوعية، يمكن أن يسهم إسهامًا إيجابيًا ونافعًا بين الرسالة الإسلامية، وبين واقع المسلمين. إن الإسلام كما نراه، كل متكامل لا يتجزأ، ورغم وجود ما يقرب من مليار ونصف مسلم على وجه الأرض، وأن هناك سنة صحيحة ومؤكدة إلا أنها لم تتضمن كافة العادات والتقاليد التى تقبلها الإسلام بعد انتشاره فى هذه الأراضى، وعلى امتداد رقعته، وأخذ بها، إما قياسًا، وإما اجتهادًا. ولنا فى رسول الله القدوة الحسنة حينما يقول فى قضية تأبير النخل: "أنتم أعلم بشئون دنياكم...". من الحقائق الثابتة أن الإسلام كدين، يعطى المسئولية الفردية للإنسان، بمعنى أن كل فرد من هذا المليار والنصف مسئول عن نفسه أمام الله يوم البعث:

(١) قارن: زيجريد هونكه. شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون/ كمال دسوقي، بيروت ط ٣ ١٩٧٩ الفصل ٣ و ٤ ص ٣٦٤... قارن الأصل الألمانى شتوتجارت ١٩٧٨ ص ٢٨١ وما بعدها.

"كل نفس بما كسبت رهينة" (المدثر: الآية ٣٨)
„Jede Seele haftet für das, was sie erworben hat.“

"وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه" (الإسراء، الآية ١٣)
„Jedem Menschen haben Wir sein Vorzeichen an seinem Hals befestigt.“

"ألا تزر وازرة وزر أخرى، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى، وأن سعيه سوف يرى، ثم يجزاه الجزاء الأوفى" (النجم، الآية ٣٨-٤١)
„Nämlich, dass keine tragende Seele, die Last einer anderen auf sich nehmen wird. Und das ist für den Menschen nichts anderes geben wird als das, worum er sich selbst bemüht, dass sein Bemühen gesehen wird, dass ihm herauf nach vollem Maß vergolten wird.“

ويذكر الدكتور محمد عمارة الأسس التي تستند إليها كنائس الغرب في نفيتها للإسلام وإنكارها له حتى في عقر دار الإسلام، ويدلل على ذلك بمؤتمر الحوار الإسلامي/المسيحي الذي عقد بالقاهرة بدعوة من المنتدى العالمي للحوار بمدينة جدة ومؤتمر العالم الإسلامي الذي انعقدت جلساته في فندق شيراتون هليوبوليس بالقاهرة في ٢٨ و ٢٩ أكتوبر ٢٠٠١ والذي انتهى برفض ممثل الفاتيكان ونائب الأمين العام للمجلس البابوي للحوار بين الأديان القس خالد أكاش، وممثل مجلس الكنائس العالمي الدكتور طارق متري، اللذين رفضا التوقيع على البيان الختامي للمؤتمر ذلك لأنه وضع في توصياته الإسلام مع اليهودية والنصرانية تحت وصف الأديان السماوية الربانية وقالوا: إن وصف الإسلام كدين سماوي ورباني لا يزال محل خلاف لم يحسم بعد. ويندهش الدكتور محمد عمارة لهذا الموقف الغريب، ويذكر تعليق كل من الدكتور يوسف القرضاوي والإمام الأكبر شيخ الأزهر المشاركين في هذا المؤتمر وليعبرا عن توجس بعض رجال الدين المسيحي من

مجرد وصف الإسلام بالربانية والسماوية وإذا كان الفاتيكان والكنائس العالمية لا تعترف بالإسلام كدين سماوى فلماذا الاجتماع ولماذا اللقاء والحوار؟!

ولا يجد الدكتور عمارة إلا أن يتدثر برأى المستشرق الفرنسى "جاك بيرك" الذى أقر بأن الإسلام هو آخر الأديان السماوية الثلاثة وأنه الدين الذى يعتنقه ويدين به أكثر من مليار نسمة فى العالم وينهى محمد عماره عزاءه هذا بالتأكيد أن المسلمين يجدون أنفسهم فى موقف لا يحسدون عليه من قبل الثقافة الغربية والحضارة الغربية والممارسات الغربية.^(١)

ويتمخض من خلال هذا التطور التاريخى العديد من الأحكام المسبقة المنقوصة والمغلوطه عن الإسلام، مقارنة بما حدث فى التطور الأوروبى والغربى عامة. ولنا أن نتساءل مع الكثيرين، "هل الإسلام فى حاجة إلى حركة إصلاح وتجديد بالمفهوم الأوروبى والغربى بعد تراجع وانحساره من وجهة نظرهم؟، أو أنه دين لا يعرف التجديد والإصلاح بالمفهوم الغربى، ولماذا لم تظهر على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان، شخصية رائدة مثل مارتن لوتر، القس الثائر والمصلح والمجدد للكنيسة والعقيدة المسيحية، بعد أن ران عليها العفن والفساد؟"^(٢)

لعل الإجابة على مثل هذا السؤال تحتاج إلى بحوث طويلة، ولعل وجود كوكبة من رجال الفكر الدينى المستنير، بداية من الإمام محمد عبده، وجمال الدين الأفغانى، والشيخ المراغى، والعقاد، وما ألدوا به من تجديد وقيم إصلاحية لفیه الغنية والكفاية. ونذكر مقولة واحدة للإمام المراغى فى حديث له إلى أهل الغرب: "قدموا أى شىء ينفع الناس، وأنا آتيكم بسند له فى الشريعة الإسلامية."^(٣)

(١) محمد عماره: صورة الإسلام فى الخطاب الغربى ٢، فى: صوت الأزهري، القاهرة، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤ الموافق ١٥ رمضان ١٤٢٥.

(٢) قارن: Abdul Hadi Christian H. Hoffmann :Tajdid:Islam und Erneuerung – Musleme und Luther , in : Publikationen des Deutsch- Islamischen Instituts: <http://www.dii-edu.de/de/islam-luther.html>
(٣) قارن: أمين الخولى: صلة الإسلام بحركة الإصلاح، ج ٩.

ولنا أن نذكر شهادة تتسم بالحيدة والموضوعية عن قيم الإسلام الذي حض أتباعه على معاهدة المشركين والذميين وأهل الكتاب والوفاء بالعهود وعدم نقضها ورد الأمانات إلى أصحابها ومعاملتهم بالحسنى وأن لهم ما للمسلمين من حقوق وعليهم ما على المسلمين من واجبات، الأمر الذي يؤكد المستشرق الهولندي الكبير دي جويه De Goeje في كتابه "مذكرات عن فتح الشام" Memoire sur la conquete de la Syrie ويقول: "حقا كان المزاج العربى فى أحسن صورته وقد لاقوا ترحيباً حاراً من أهل هذه البلاد لحسن معاملة العرب المنتصرين عليهم، وعلى النقيض ما وقع عليهم من عنت واضطهاد من حاكميهم البيزنطيين السابقين." (١)

ويذكر الإمام أبوزهرة أنه بعد أن صار للمسلمين السيادة على بعض ممالك الإمبراطورية الشرقية شعر مسيحيو هذه الممالك بنعمة الإسلام عليهم ونعمة حكم المسلمين لهم بعد أن سامتهم الكنيسة الغربية وملوكها ألواناً من الذل والهوان لقرون طويلة وحتى جاءهم الإسلام فى القسطنطينية وأعطاهم الأمن والاطمئنان لدرجة أن انتشر القول عندهم بتفضيل عمارة السلطان محمد الفاتح على تاج البابا المثلث. (٢)

وليس من قبيل الصدفة أن تعيش الأمة الألمانية هذا التطور، الذى عاشته مثيلاتها من الدول الأوروبية الأخرى، وخاصة بعد فتح الأتراك المسلمين عام ١٤٥٣ للقسطنطينية، التى أسموها فيما بعد "إستانبول"، وهى المدينة التى كانت تمثل عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية، ومركزاً تجارياً مهما لكافة دول أوروبا مع قارتى آسيا وإفريقيا. وكان على هذه الدول الأوروبية أن تبحث عن جديد يعوضها فقدان هذا المركز المهم، واتجهت لإنماء الطرق العابرة للمحيط إلى العالم الجديد، إلى أمريكا عن طريق المحيط الأطلسى. وأدى ذلك إلى ازدهار

(١) محمد حميد الله: Der Islam: Geschichte, Religion, Kultur. Aachen 1415H. 1995, S. 449

(٢) الإمام محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية تبحث فى الأنوار التى مرت عليها عقائد النصارى وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم. القاهرة ط ٣، ١٩٦١ ص ١٥٢ وما بعدها.

البرجوازية فى كل من إنجلترا وفرنسا، وتم القضاء على الإقطاع ومساوئه. وما كان ذلك ليحدث إلا كنتيجة من نتائج سقوط القسطنطينية ووقوعها فى يد الأتراك. وكان على ألمانيا الممزقة والمشتتة أن تلحق بزكاب إنجلترا وفرنسا، اللتين حققتا استقلالاً كاملاً عن وصاية روما، بل وتحررت من كافة الالتزامات والإتاوات المالية التى تفرضها الفاتيكان، ولا عجب بعد ذلك أن يشتد الصراع من جانب روما، والتى حاولت بكل قوة إعاقه وإيقاف مثل هذا التطور فى ألمانيا.

٤. ٦ انشغال مارتن لوتر بالإسلام من منظور بعض علماء اللاهوت الأوروبيين

اعتمد الفكر الأوروبى فى العصور الوسطى وخاصة فيما يتعلق بالنواحى القانونية والسياسية والاجتماعية على رؤية الكنيسة الكاثوليكية وتوجهاتها، وعلى رأسها بابا الفاتيكان، صاحب الموقع الأعلى فى روما، تلك الرؤية التى تدعو إلى ما أسمته بمفهوم المسيحية العالمية، بحيث ينقسم المسيحيون فيها إلى سلطتين (Zwei Reichlehre): السلطة الأولى، السلطة الدينية، وهى ما يمثلها الإكليروس أو ما يسمونهم برجال الدين. والسلطة الثانية، هو السلطة الدنيوية العلمانية المتمثلة فى بقية الشعب، وأعطيت السلطة العليا لرجال الإكليروس، أما الرئاسة العلمانية والدنيوية فلفئة الأخرى.

وكان على لوتر بعد دراسته المتعمقة، أن يواجه هذا الفكر بتخطيط وفكر آخر، وهو ما يمثل - كما سبق ذكره فى موضعه - نقطة البداية فى حركته الإصلاحية، أو كما يقال " القشة التى قصمت ظهر البعير"، وخاصة بعد أن كثرت الشكوى وعم الفساد بين رجال الإكليروس، وفرض شراء صكوك الغفران والتى علق مارتن لوتر بسببها حجج إصلاحه الخمس والتسعين فى أكتوبر عام ١٥١٧، وأعد لها العديد من رسائله ومنشوراته إلى نبلاء الأمة الألمانية المسيحيين، والتى انتشرت

انتشار النار في الهشيم، أو على حد قول أحد رفاقه، يوهانس لينك Johannes Link "كانتشار دوى دق الطبول".^(١)

ولهذا فإننا نرى أن فكر لوتر وتخطيطه لم يكن دافعه إثارة للشغب والتخريب بين طبقات الشعب الألماني، إنما هدفه الفصل في قضايا النزاع والخلاف مع روما والبابا بصورة سلمية.

ويرى العديد من المؤرخين أن علاقات حركة الإصلاح البروتستانتي بالإسلام، ترجع جذورها بداية من دوافع الأوروبيين المسيحيين المشوبة بالخوف من الخطر التركي الزاحف على أوروبا. فمع تولي السلطان سليمان القانوني العظيم الثاني Der Sultan Suleiman dem Prächtigen II السلطة في ١٥٢٠، استولى على المجر في معركة موهاكس ١٥٢٦، والتي قُتل فيها ملكها لودفيج الثاني (لويس) أثناء انسحابه، وبعدها صارت المجر ولاية تابعة للإمبراطورية العثمانية، إبان خلفه يانوس تسابولاى Janos Zapolyaai، ثم حصار الأتراك الأول لفينا عام ١٥٢٩، والحصار الثاني عام ١٦٨٣.

يتولى حكم الإمبراطورية الرومانية في خضم هذا التهديد التركي الزاحف على أوروبا القيصر الشاب الإسباني الأصل كارل الخامس، أحد أفراد الأسرة الحاكمة آنذاك وهي أسرة الهابسبورج، ولم يكن يتجاوز عمره العشرين عامًا. ورغم انتماء هذا الإمبراطور للكنيسة الكاثوليكية، فإنه اضطر إلى مهادنة حركة الإصلاح البروتستانتي بهدف توحيد صفوف جيشه، وخشيته من أن يتحالف البروتستانت مع هذا العدو التركي، وهو تحالف كان دافعه بالدرجة الأولى تغليب الجوانب السياسية والاقتصادية للإمبراطورية ودون النظر للخلاف اللاهوتي الدائر آنذاك، ويرى المؤرخون المحايدون أنه رغم تحالف مملكة البندقية مع ملك فرنسا

(١) قرن Landgraf, S. 96.

"فرانس الأول" مع الأتراك، فإن الباباوية لم تتردد في إقامة علاقات ودية مع الباب العالي Der hohe Pforte.

كان موقف مارتن لوتر من البداية موقفا عدائيا ومضادا للأتراك، رغم مشاهداته من ميل أمراء المناطق البروتستانتية في ألمانيا لجانبهم والعمل على مودتهم، وذلك لدوافع سياسية ودون النظر لمذاهبهم العقائدية المتباينة، وكان يدعم لوتر موقفه العدائي هذا نحو الأتراك، شعوره بالخوف على المسيحية عامة بجانبها الكاثوليكي والبروتستانتى، وخاصة بعد ما رأى من ارتداد للمسيحيين الذين دخلوا الإسلام في الممالك التى فتحها الأتراك.

بدأت ردود أفعال لوتر الأولى في خطاب وجهه إلى حاكم إمارة هيسن، الأمير "فليب فون هيسن" Landgraf Philipp von Hessen بعنوان: "الحرب ضد الأتراك" Der Krieg wider den Türken عام ١٥٢٩، عارضًا على الأمير وجهات نظره لمواجهة الأمر، الذى شغله وشغل غيره من أدباء الرحلات ومؤرخى القرن السادس عشر. وفى نفس العام وجه لوتر منشوره: "عظات للجيش الألمانى ضد الأتراك" "Heerespredigt wider den Türken". وانتهى فى عام ١٥٣١ بتأليف كتاب عن الأتراك وخطرهم تلبية لتوصية من النبيل حاكم ولاية ساكسونيا، "يوهان فريدرش الحكيم" "Johann Friedrich der Weise"، الذى ناشد فيه الأمير والمسيحيين بإقامة الدعاء والصلوات ضد الأتراك.

وفى عام ١٥٣٢ ألف مارتن لوتر كتابًا بعنوان: "دحض القرآن ونقده"، كشروح وهوامش توضيحية لترجمة القرآن لللاتينية، والتى أنجزها القس "ريكاردى توليتانر" Richardi Toletaner، كما وضع فى عام ١٥٤٣ مقدمة لترجمة "ببلياندر" Bibliander الألمانية للقرآن، التى صدرت فى مدينة بازل بسويسرا.

يرى العديد من الباحثين والمتخصصين من أمثال "هارتموت بوبتسن" Hartmut Bobzin و"فالتر بيلتز" Walter Beltz " و"لودفج هاجيمان"

Ludwig Hagemann " وأدموند فيبر وEdmund Weber "فرنسيس نيجل لى" Francis Nigel Lee و"باول راجاشيكار" Paul Rajashekar و"جيرنوت روتر" Gernot Rotter، وآخرين؛ أن انشغال مارتن لوتر بالإسلام لم يكن أمرًا فرعيًا أو جانبيًا، بل كان من القضايا الجوهرية التي كابدها وعاشها، وأدلى فيها بدلوه في الكثير من مؤلفاته وحواراته.

لقد حاول مارتن لوتر كما سبق أن أشرنا — في مواضع كثيرة — مقاومة اتجاه بعض الجماعات المتعاطفة مع الوجود التركي، الأمر الذي استمر الجدل حوله لسنوات طوال، مما حدا بلوتر أن يؤلف بالاشتراك مع صديقه "ميلانشتون" Melanchthon عام ١٥٢٨ مجموعة من التعاليم، موجّهة لمطارنة وقساوسة سكسونيا.

اتخذت هذه التعاليم والمواظع اتجاهين: الاتجاه الأول وهو كتابته لهذه التعاليم كواظع لذاته يرى أن من واجبه أن يؤدي ذلك بنفسه كمثّل يحتذى به، وأما الاتجاه الثانى كاسترشاد لغيره من الواعظين بهدف مواجهة هذا الخطر التركي الجاسم على صدر الأمة الألمانية. وهذا يعنى أن لوتر عاش فى عصر كانت كل الكتابات أو غالبيتها عدائية تجاه الإسلام، وعدائية بوجه خاص تجاه الأتراك كقوة معتدية، ورغمًا من هذا فلم تكن كتابات مارتن لوتر العدائية هذه نابعة من منظور تبشيري، ولا موجهة توجيهًا مباشرًا إلى الإسلام. فهو لا يريد أن يبين للمسلمين نقائص وأغاليط عقيدتهم — من وجهة نظره — ولكنه ركز تعاليمه إلى المسيحيين من أبناء جلدته؛ لكى يوضح لهم بدقة وحسب فهمه عقيدة ودين هؤلاء الأتراك. وهذا يؤكد أن لوتر لم يقصد أو يهدف عملاً تبشيريًا بين صفوف الأتراك، بل كان جُل تفكيره كمسيحي أن الإسلام لا يمثل سوى ظاهرة خارجة عن إطار الكنيسة أو أنه دين غريب عنها، بل نظر إليه على أنه خطر محيق، يصيب جوهر وقيم الكنيسة المسيحية فى مقتل. وقد يلعب دورًا كبيرًا فى ازدياد انقسام العقيدة المسيحية فى وسط أوروبا.

أشار مارتن لوتر في حجة الخامسة من الحجج الخمس والتسعين، التي سبق له أن علقها على باب كنيسة القصر في أكتوبر ١٥١٧ مؤكدًا فيها إدانته الكاملة لممارسة الأعمال المخجلة لبابا روما، فيما يتعلق بإصداره صكوك الغفران، مدعيًا أن إيراداتها تموّل الحروب الصليبية ضد الأتراك، بل واعتبر ذلك نوعًا من الخداع يقوم به البابا تجاه المسيحيين؛ لأن أموال الصكوك هذه كانت تجمع عنوة من أجل ترف وفساد رجال الإكليروس في روما، وقد ترسخ لدى لوتر أن الحرب ضد الأتراك لا طائل من ورائها؛ لأن كافة الكفار من وجهة نظره من أتراك وتتار وغيرهم من الملحدين، ما هم إلا رمز لغضب الله على المسيحيين، مما أدى بخصومه وأعدائه إلى القول بأن توجهاته هذه كانت سببًا في هزيمة المسيحيين الساحقة على يد الأتراك في موقعة "موهاكس" بالمجر ١٥٢٦.

ولا شك أن لوتر ربط أفكاره هذه نحو الإسلام بالأحوال السيئة التي عمت المسيحية والمسيحيين. ولهذا لم يكن من المستغرب مقولته بأن نجاحات الأتراك المسلمين تمثل عقوبة وابتلاء من الرب بسبب ذنوب المسيحيين، وخاصة غير المخلصين منهم. وكان يرى أن الحرب ضد الأتراك لا طائل من ورائها بالوسائل التي يتبعها بابا روما، مثلما حدث في الحروب الصليبية، أي استخدام سلاح السيف والقوة، ولكنه رأى أن حرب المسلمين لا مفر من أن تتم بسلاح العقيدة والإيمان، لأنهم كأعداء يمثلون حقيقة الشيطان، ولهذا لا تتأتى هزيمتهم ودحرهم إلا باللجوء إلى الله وبالتوبة من المعصية والابتغال والصلاة والبكاء.

لقد عبر لوتر مرارًا وبصراحة عن عدم قناعته بالسلاح العسكري أو السلاح التبشيري ضد المسلمين، والذي ثبت عدم جدواه في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، والذي مارسه العديد من البعثات التبشيرية، التي اضطلع بها جماعات التبشير من الفرنسيين والدومنيكان. ويؤكد لوتر نظريته وقناعته في مناسبات عدة بأن قوة الإسلام وانتشاره تمثل عقوبة وابتلاء إلهيًا للمسيحيين أنفسهم، ومن هنا جاء نقده الساخر بتقسيم السلطة بين البابا والقيصر. وهذا يعني أن واجب البابا هو

الحرص الشديد على رعاية ونقاء العقيدة، وواجب القيصير هو اتخاذ الوسائل المناسبة للدفاع والحرب إذا لزم الأمر. وقد تضامن إيرازموس الروتردامي Erasmus مع توجهات لوتر، ناصحًا البابا "ليو العاشر" LeoX بأن الوسيلة الأفضل لحرب الأتراك تكون من خلال عرض روح وتعليمات الكتاب المقدس، وليس عن طريق السيف والقوة العسكرية. ورفض لوتر بذلك أن تُشن حرب عقائدية ضد الأتراك عام ١٥٣٥، اللهم إذا لزم الأمر فسوف تكون حربًا دفاعية تتولاها السلطة الدنيوية.

٤. ٦. ١ دراسة بوبسين (لوتر والقرآن)

انشغل الباحث "هارتموت بوبسن" Hartmut Bobzin، والذي يعتبر من أكبر الدارسين فيما يخص لوتر وعلاقته بالقرآن وبالمسلمين، وذلك في رسالته التي نال بها درجة العالمية عام ١٩٨٣ من جامعة إيرلانجن نورنبرج - Erlangen-Nürnberg Universität بعنوان: "القرآن وعصر الإصلاح - دراسات في التاريخ التمهيدى للعلوم العربية والإسلامية في أوروبا"، نشرتها دار نشر فرنس شتاينر، Franz Steiner Verlag بمدينة شتوتجارت عام ١٩٩٥، بدعم من معهد الإستشراق التابع لجمعية الإستشراق الألمانية في بيروت، المجلد الثاني والأربعين^(١) بعرض وجهات نظر لوتر السلبية عن الإسلام والتي كان يعتبرها لوتر قوة مضادة داخل الكنيسة ومن الجوانب النشطة والفعالة في أعمال لوتر الفكرية، التي لم تثل الحظ الكافي من البحث أو التي تكاد تكون أهملت في الكثير من دراسات رجال اللاهوت آنذاك وحتى أيامنا هذه. وعلينا أن نعيد النظر في دراستها وبحثها.

(١) قارن:

Bobzin, Hartmut: Der Qura'n im Zeitalter der Reformation – Studien zur Frühgeschichte der Arabistik und Islamkunde in Europa, Stuttgart: Franzsteinert, Herg. vom Orient Institut der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft – Beirut, Bd. 42, 1995

وينتهي "بوبتسين" إلى مقولة فحواها أن فكر لوتر هذا يقودنا إلى القول بأنه اعتبر القرآن أهم وثيقة للعقيدة الإسلامية من منطلق مؤلفه "دحض القرآن" "Die Widerlegung des Korans" عام ١٥٤٢، والذي يعبر فيه متسائلا "لماذا ارتضى المرء لفترة طويلة بمعرفة ضئيلة ومعلومات سطحية عن هذا القرآن، وعدم نقله في الوقت المناسب إلى اللاتينية." ^(١) ذلك أن منطقته في هذا القول أن معرفة العدو الجيد تفتح الأبواب على مصراعيها لمهاجمته مهاجمة جيدة، ومن أجل دحض زيف هذا القرآن وخرافاته لا يتأتى إلا بوسيلة عرض هذه العقيدة عرضا موضوعيا، من خلال المعرفة الجيدة لها، وكانت مصادره المتاحة لهذه الدراسة هي:

١- ترجمة القرآن لفراتر ريكاردو ديمونتي كروسي Frater Ricardo de Monte Croce (Confutatio Alcoranie)، وهو راهب دومينيكي توفي عام ١٣٢٠، عاش في منطقة مجاورة لمدينة فلورنتسا، كما تجول لفترة طويلة في الشرق الأدنى، ومارس أعمال التبشير هناك، وكان يجيد العربية، وكثيرا ما كان يحاور العديد من علماء القرآن وقام بتأليف كتاب بعنوان "ضد شريعة المسلمين"، تضمن العديد من الخطايا وسجل فيه ما يجعل من القرآن كتابا غير مستساغ، كما كان يرى أن هذا القرآن يفتقر كلية إلى الترتيب للأحداث على عكس ما جاء في الإنجيل، فالإصحاح الأول لسفر التكوين يبدأ بقصة الخلق كما يقتضيه الترتيب والسياق التاريخي، كذلك ما يتعلق بقصة عيسى. فبالنسبة للقرآن يرى أنه لا يمكن أن نقف فيه على ترتيب زمني، بل على العكس من ذلك يرى بعد السورة الأولى، المسماة بالفاتحة، تأتي سورة البقرة، المسماة طبقا لحادثة البقرة الحمراء، والتي يجدها المرء في سفر العدد، الإصحاح ١٩، أما في السورة الثالثة، وهي سورة آل عمران، فنجد إخبارات عن مولد عيسى إلى آخره. ويقول أنه بجانب الافتقار إلى الترتيب وفقدان التناسق، يعرض للعديد من المتناقضات داخل النص القرآني،

(١) قارن: المرجع السابق ص ١٠ وما بعدها.

إذ يذكر أن القرآن يأمر معتقيه مجادلة معتقى الديانات الأخرى بالحسنى، ومرة أخرى بمحاربتهم أو حتى بقتلهم. ويستهن بعض القصص الواردة بالقرآن، مثل قصة سليمان والنمل، ورحلة الإسراء والمعراج الشهيرة، من مكة إلى بيت المقدس، واستخدام محمد (صلى الله عليه وسلم) في رحلته البراق، وعدم استخدامه في عروجه إلى السماء السابعة.

وكان تأثر ريكاردو في وجهات نظره هذه، بالاعتقاد السائد في المسيحية من قبله لقرون عديدة. وحاول ريكاردو وآخرون من أقرانه الطعن في الإسلام من خلال إظهار التناقض بين القرآن والإنجيل، وركزوا طعونهم في تعارض القرآن الواضح مع المبادئ اللاهوتية للمسيحية، كمسألة بنوة عيسى لله، ومسألة التثليث،^(١) واستشهدوا على ذلك بما جاء في سورة المائدة الآية ٧٣ والنساء الآية ١٧١:

"لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة"

„Fürwahr, ungläubig sind diejenigen, die sagen: Gewiss, Allah ist einer von dreien.“

"يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة، انتهوا خیر لكم إنما الله إله واحد، سبحانه أن يكون له ولد له ما في السماوات وما في الأرض وكفى بالله وكيلًا."

„O Leute der Schrift, übertreibt nicht in eurer Religion und sagt gegen Allah nur die Wahrheit aus! Almasieh Isa, der Sohn Mariams, ist nur Allahs Gesandter und sein Wort, das Er Mariam entbot und Geist von Ihm. Darum glaubt an Allah und Seine Gesandten und sagt nicht „Drei“. Hört auf damit, das ist besser für euch! Allah ist nur ein Einziger Gott, Preis sei Ihm, und Erhaben ist Er darüber, dass Er ein Kind haben sollte! Ihm gehrt

(١) قارن: المرجع السابق ص ٩٣ وما بعدها.

alles, was in den Himmeln und was auf der Erde ist, und Allah genügt als Sachwalter.“

وعيسى فى القرآن هو عبد الله ورسوله ليس إلا، وهو الأمر الذى كان صعبًا للغاية أن يستوعبه الكثيرون من علماء اللاهوت النصارى. وكان عليهم أن يفسروا ويعرضوا هذا التناقض الجوهرى مع العقيدة المسيحية بطرق عدة:

الطريقة الأولى باتهام محمد، وهو الذى كان يُنظر إليه على أنه مؤلف للقرآن وكتابه، وقيامه بتحريف العقيدة المسيحية عمدًا، وجعله مثل الملاحدة القدامى المشهورين أمثال أريو السكندري المتوفى عام ٣٣٦ أو نسطور المتوفى عام ٥١٤، وهما اللذان شككا فى ألوهية المسيح وفى التثليث. وعلى هذا النحو استطاع هؤلاء المبشرون أن يركزوا هجومهم الجدى ضد القرآن من خلال الحجج المحفوظة، من مجادلة أتباع أريو ونسطور.^(١)

والطريقة الثانية هى افتراض أن يكون فهم الكثيرين للعقيدة المسيحية بطريقة خاطئة، وذلك بسبب عدم المعرفة الكافية، أو اطلاعهم على مراجع غير موثوق فى صحتها، ولهذا ينبغى أن يُصحح القرآن، الذى يرون فيه أنه كتاب مبتدع، وليس وحيًا صحيحًا. وإذا رجعنا إلى مملكة بيزنطة، نجد أنها تجاور الدولة الإسلامية، والتى اعتبرت القرآن لفترة طويلة كتاب فرقة مسيحية مرتدة، ولم تعر هذه المملكة -الإسلام وقضيته- اهتمامًا خاصًا، إلا أنه يذكر أن عالم اللاهوت نكتاس فون بيتسانس Niketas von Byzanz والذى عاش فى القرن التاسع الميلادى، كان يملك نسخة من ترجمة للقرآن إلى اليونانية الشعبية، وقد استقى منها الكثير فى مؤلفه عن القرآن: "معارضة الكتاب المزور لمحمد العربى".

(١) عبد الرحمن بدوى: دفاع عن القرآن ضد منتقديه، القاهرة ١٩٩٩، ص ٥ وما بعدها.

"Widerlegung des gefälschten Buches von dem Arabern Muhammad"

والذى ألفه بتكليف من القيصر ميخائيل الثالث الذى حكم هذه الإمبراطورية من عام ٨٤٢ إلى ٨٦٧. هذه الترجمة لم يعد لها وجود، إلا أنها معروفة من خلال الاقتباسات التى استشهد بها نكتاس هذا فى الكتاب المشار إليه. ويتعرف مسيحيو أوروبا على القرآن مع مطلع القرن الثانى عشر عام ١١٤٣ على أول ترجمة لاتينية لمعانى القرآن، والتى ظهرت طبعتها الأولى فى نفس العام، وقام بترجمتها الراهب الإنجليزى روبرت فون كيتون Robert von Ketton وذلك بتكليف من الأسقف بطرس فنرايبيلس Petrus Venrabilis ويعنى بطرس المبجل، الذى كان رئيسًا لدير مدينة كولون، وهى الترجمة ذات الصلة المباشرة بالحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦-١٠٩٩.

كانت وجهة نظر بطرس المبجل هذا أن خطر الإسلام لا يمكن مواجهته بالسلاح، ولا مفر من مواجهته عن طريق الكلمة، وهذا لا يتأتى إلا بمقتضى التعرف على التعاليم الرئيسية للإسلام، كما هى معروضة بالقرآن، ومن خلال رحلاته التفقدية للجزء المسيحى من إسبانيا فى عام ١١٤٢، استطاع أن يقنع روبرت فون كيتون، والذى كان يعمل آنذاك فى حقل الترجمة لبعض الأعمال الرياضية والفلكية، بأن يترجم القرآن إلى اللاتينية. وعلى الرغم من احتواء ترجمة كيتون هذه - والتى يروى أنه قد ساعده فيها رجل عربى - على كثير من الأخطاء، إلا أنها لاقت نجاحًا كبيرًا وبقيت لفترة تربو على الخمسمائة عام المرجع الأهم للتعرف على القرآن فى الغرب المسيحى، بل وكانت نقطة انطلاق لترجمات عديدة إلى لغات شعبية مثل الإيطالية والهولندية والألمانية. ويروى أنه من أكثر العوامل التى ساعدت على انتشار هذه الترجمة، أنها طبعت فى مدينة بازل عام ١٥٤٣ أى بعد ٤٠٠ عام مضت على ترجمتها الأولى ١٤٣:١.

لم يكن صدور هذه الترجمة ١٤٥٣ أمراً سهلاً، وإنما تقرر بعد صراع وجدل مريرين، حول كيفية وإمكانية طباعة كتاب يقول بإلحاد اليهود والمسيحيين في مدينة مسيحية مثل مدينة بازل. وكان رأى المؤيدين ومن بينهم لوثر وصديقه عالم اللاهوت تيودور بيبلياندر Theodor Bibliander (١٥٠٤-١٥٦٤)، الذى قام بنشر الترجمة، أن الحاجة ماسة فى قطاع عريض من المجتمع، لمعرفة دقيقة لعقيدة العدو، وعلى العكس من ذلك بالطبع، فقد حذر المعارضون لذلك، من الخطر الذى قد ينشأ من طبع وتداول كتاب، مثل القرآن، وتأثيره السلبى لاسيما على الكثير من العوام. ويرى البعض أن خلفية هذا الصراع فى هذا العصر، ترجع لوجود تيار قوى من البعض، ضد عقيدة التثليث، وقد اعتقد أن مجيء ذلك قد يكون من البراهين أو الأدلة المستقاة من القرآن. وكان لتدخل لوثر الفعال لصالح المؤيدين أن سمح مجلس بلدية مدينة بازل بنشر وطبع هذه الترجمة، التى ذاع صيتها بشكل كبير، لدرجة أنها طبعت مرة أخرى بعد سبع سنوات من الطبعة الأولى.^(١)

٢- ترجمة القرآن لنيقولاوس فون كوز Nikolaus von Kues ، تحت عنوان: "كبرياتو القرآن" (Cribatio Alcoranie)

٣- ترجمة القرآن تحت اسم "كوربوس توليتانوم" (Corpus Toletanum) ١٥٤٢، والتى رأى فيها لوثر أنها ترجمة ركيكة وسيئة للغاية. وترجع أهمية هذه الترجمة الركيكة إلى أنها قادت لوثر إلى أمرين:

(١) قارن: Hartmut, Bobzin, a.a.O., ص ١٥٦ وما بعدها.

الأول، مراجعة وجهة نظره في ترجمة ريكاردو. والثاني، الشروع في محاولة ترجمتها إلى الألمانية بنفسه وإدخالها ضمن خطط أعماله في الترجمة.

ولما كان القرآن من وجهة نظر المسلمين يمثل معجزة بلاغية ووحياً إلهياً بالنسبة للقارئ، أيما كان هذا القارئ، مسلماً أو غير مسلم، ويتعرف القارئ المسلم على جوهر القرآن ليس فقط من خلال القراءة، وإنما أيضاً من خلال السماع، واستخدام محتوى آياته في حياته اليومية، ولهذا علينا أن نفرق بدايةً، بين التعرف على النص، وبين فهمه واستيعابه، وهنا تكمن الصعوبات الجمة نحو فهم النص القرآني للقارئ غير المسلم.

نذكر في هذا الصدد أديب ألمانيا الأكبر يوهان فولفجانج فون جوته، الذي كان يتعاطف إلى حد كبير مع الإسلام، في عرضه لهذه القضية بالنسبة له شخصياً، فيعبر بطريقة بلاغية مؤثرة عام ١٨١٩ في ملاحظاته ومذكراته من أجل فهم أفضل "لديوان الغربي الشرقي"، أن القرآن هو ذلك الكتاب:

"الذي كلما حاولنا أن نقرب منه، يبعدنا عنه، ثم يجذبنا إليه مرة أخرى، ثم يحملنا على الدهشة، ثم لا نملك بعد ذلك إلا أن نحترمه"^(١).

ولا تعليق بالنسبة لنا أن يكون النص القرآني بهذه الصعوبة على أديب كبير مثل جوته الذي يخشى الاقتراب منه، وهو الكتاب الذي ظل يُنظر إليه في الغرب المسيحي لفترة طويلة على أنه ليس سوى تحريف مغل للإنجيل.

هذه الطبعة التي نُشرت في مدينة بازل عام ١٥٤٣ ، نُسجت حولها العديد من الأساطير، وأبانت الاهتمام البالغ لدراسة الإسلام ومحتواه في أهم المراكز

(١) قارن:

<http://www.ansary.de/Islam/IslForsch1.html>—Anfangszeit der Qura'nüberstzungen , S.1

"Das uns, so oft wir auch daran gehen, immer von neuen anwidert, dann aber anzieht, in Erstaunen setzt und am Ende Verehrung abnötigt"

الحضارية، والمدن الكبرى لحركة الإصلاح الدينى، مثل مدينة بازل وزيورخ وشتراسبورج وفيتنبرج ونورنبرج. كما شهدت هذه الطبعة بداية مرحلة تاريخية لقي فيها المصلح تسفينجلى Zwingli حتفه ١٥٣٢ فى مدينة Kappel، وتولى مواصلة رسالة تسفينجلى بعد موته رجلان: الأول، هو القس هاينرش بولينجر Heinrich Bulinger، والثانى، هو عالم اللاهوت تيودور بوخمان Theodor Buchmann، والذى لُقّب فيما بعد بالأستاذ ببلياندر Bibliander، وكلاهما تربطهما علاقات واهتمامات بالغة بالإسلام وعلومه، وقاما بتأليف كتاب عن الأتراك. واعتبر بعض المؤرخين أن Bibliander من رجال الإصلاح المعتدلين، وأحد كبار علماء اللغة، مثله فى ذلك مثل العالم اللغوى غليوم بوستيل Gullaome Postel ويوهان البرشت فيدمان شتتر Johann Albrecht Widmannstetter، كما يُذكر عنه أنه كان يجيد اللغة العبرية، التى تعلمها على يد أستاذه ببليكان Pellikan وكولمباد Kolampad. وقد عرض بولينجر وببلياندر بالتفصيل فى كتابيهما عن الأتراك لقضاياهم، علاوة على ذلك فقد تقلد ببلياندر بشكل مؤقت رئاسة مجمع Zwingli، وله كتاب فى قواعد اللغة العبرية، وكتب أخرى فى علم اللغة المقارن، وكان أولاً وأخيراً أستاذاً فى تدريس العهد القديم.

يعد العالم يوهانس هربست Johannes Herbst والملقب بأبورينس Oporinus، الذى ترك عمله بجامعة بازل كأستاذ اللغة اليونانية، ممن تفرغوا للعمل بالطباعة بداية من عام ١٥٤٢، وأنشأ مطبعة خاصة به كان من ثمارها طبعة القرآن البازلية. ويُروى أن اهتمام ببلياندر Bibliander بالإسلام بدأ من عام ١٥٣٠ حينما طلب من صديقه أبورينوس Oporinus فى عام ١٥٣٦ شراء كل ما تقع عليه عينيه من مصادر لاتينية أو عربية عن القرآن أو الإسلام أينما يجدها، وأيا كان ثمنها،^(١) غير أن نشاطه قد توقف لفترة مؤقتة خاصة بعد استيلاء

(١) قارن النص الأصى: Bobzin, Hartmut, a.a.O., ص ١٧٦.

السلطان سليمان القانوني على مدينة بوداس Budas. وبعد توقفه قام بتأليف كتاب بعنوان: "نصائح إلى الرفاق المسيحيين في التغلب على وحشية الأتراك".

"Ratschlag an den Genossen christlichen Namens, wie die grausige Gewalt des Türken von Christen ferngehalten werden kann und soll."

وقام بنشر هذا الكتاب لدى الناشر المعروف آنذاك نيقولاوس براينلنجر Nikolaus Praylinger واعتبر هذا الكتاب المقدمة أو التوطئة لطبعة القرآن المشار إليها والتي بذل فيها Bibliander قصارى جهده لإخراجها والانتهاء منها، وفقا لتشريعات وقوانين مدينة بازل. ويتم إعطاء تصريح بالطبع لمثل هذه المؤلفات بعد إقرارها من لجنة ثلاثية مختصة، وإن كانت بعض المطابع لا تلتزم بهذه التشريعات التزامًا كاملاً، بدافع الوقت والتكاليف، وخوفاً من أن يكون المخطوط المراد طبعه يُسئ إلى الشرائع المسيحية. وقد حاول في هذه الأثناء الناشر Heinrich Petri إعادة طبع ترجمة لاتينية للقرآن، انتهت بعدم الموافقة، كما أن ترجمة الطبعة العربية التي تم إنجازها في فينيسيا (البندقية) في القرن السادس عشر، قد منعت الفاتيكان انتشارها والحد من توزيعها، ولكن الناشر أوبورينوس Oporinus استمر في طباعة ترجمة القرآن، رغم تحذيرات بلدية بازل المتكررة بالتوقف، بل وانتهى الأمر بسجنه لهذا السبب لفترة قصيرة، وشاع أمره في مدن أخرى كزيورخ وفيتنبرج وشتراسبورج، ويحاط لوتر وميلانكتون علماً بذلك، كما حدث له عام ١٥٤٢. وعليه فقد اتفق على أن تُضم إلى هذه الترجمة مقدمة شارحة من قبل ميلانشتون ولوتر، وتحمس لهذا الاقتراح المستشرق مارتن بوسر Martin Pucer في شتراسبورج، وقُدِّم المشروع لبرلمان مدينة ريجينسبورج Regensburg

„Bibliander bat dem Freund Opirinus, ihm aus Italien Bücher gegen den Quran, ja auch den Quran selber in Lateinischer und arabischer Sprache zu verschaffen, was immer das Koste und dieser Bitte habe er auch entsprochen.“

بتدعيم إضافي من المستشرق يوهان ألبرشت فيدلمان شنتر، وتحمس أحد المؤيدين لطباعة هذه الترجمة وتداولها في مدينة بازل، وهو المستشرق انتيستس أوزفالد ميكونيوس Antistes Oswald Myconius وذلك من منظورين: الأول، أن يتيقن المرء من تعليمات الكفر التي يحويها هذا الكتاب، والمراد مقاومتها ودحضها؛ والثاني، درء خطر استخدام محتواها استخدامًا خاطئًا قد يلحق الضرر بقارئها ومستخدميها من العامة. وفي السادس من سبتمبر ١٥٤٢ تقدم المستشرق بوسر بالرجاء ومناشدة دوق سكسونيا الأمير فيليب الشجاع Landgraf Philipp den Großmutigen بالتوسط لدى بلدية بازل أن تسمح بالطباعة، وكتب مارتن لوتر خطابًا في هذا الشأن إلى بلدية شتراسبورج وبازل، يبدى موافقته على إصدار هذه الطبعة، وعدم الخوف من تداولها. ويؤكد مايكونس تضامنه مرة أخرى بدفاعه السابق الإشارة إليه بأن معرفة العقيدة المناهضة للكافة أمر لا خلاف عليه، وحتى يتسنى محاربتها، إلى جانب إرفاق ملاحق وإضافات هامشية لهذه الترجمة، لتفادي التأثير السلبي على البسطاء من القراء، ودللوا بأمثلة سابقة على هذا استنادًا على ما حدث من توجيهات بابا روما المنبثقة من مجمع فيينا المنعقد عام ١٣١١-١٣١٢ لرجال اللاهوت Nikolaus von Kues, Bernhard von Clairvaux أن يدرسوا اللغة العربية لمزيد من معرفة هذه الترجمات.

وما من شك أن موافقة لوتر على إصدار الطبعة بما كان يتمتع به من سمعة وشهرة ومكانة، هو الداعم الأكبر للحصول على موافقة بلدية بازل بإصدار طبعة لترجمة القرآن، وكانت حجة لوتر في هذا الشأن ممثلة في مقولته بعدم الإساءة أو تكدير محمد (صلى الله عليه وسلم) أو الأتراك، أو إلحاق الأذى بهم، لأن أية محاولة منهم، أي من الأتراك، في إيصال محتوى القرآن إلينا، ستجعلهم يتيقنون بأنفسهم كم هو ملئ بالأخطاء والزيف والأساطير، التي كثيرًا ما يحاول الأتراك إخفاءها أو تزوينها، مما يجعل المرء يحجم عن ترجمته إلى لغة أخرى. ويعتبر هذا التغيير من قبل لوتر من منطلق المقولة التي ترى أن الرسالة الإسلامية لا تحبذ

ترجمة القرآن بما فيه من زيف وتحفيز للقساوسة والوعاظ المسيحيين بأن المعرفة الجيدة للقرآن هي بمثابة الوسيلة المثلى بالنسبة لهم لتوعية الشعب المسيحي بجبروت محمد، كما هي السلاح القوي للصراع ضد الأتراك والإسلام، ومن هذا المنطلق أيضًا كانت مناشدة لوتر في ختام خطابه لبلدية بازل، أن تنشر هوامشه وتعليقاته الداحضة للقرآن كمرفق، وإذا لم تتم هذه الموافقة فإنه سيعمل على الحصول على موافقة طباعة هذه الترجمة في مدينة Wittenberg، ولهذا وافق مجلس بلدية بازل على الطباعة في خلال أسبوعين من خلال وصول الخطاب إليه.^(١)

وفي ١٥٤٢/١٢/٨ ألمح لوتر من منطلق ما جاء في خطابه المشار إليه أن يتحلل السيد أبورينوس من موقف بلدية بازل، ويقوم بطبع الترجمة في أي دار نشر، وفي أي بلد تقبل ذلك، على ألا يقوم بتوزيعه وتداوله في مدينه بازل، وسرعان ما لبى أبورينوس هذه المناشدة، وكتب لرئاسة كنيسة زيورخ التي وافق رئيسها هاينرش بولينجر على الطباعة، مع مراعاة الشروط التي وضعتها مدينة بازل، وعلى أن يتحمل أبو رينوس المسؤولية كاملة كمؤلف وكناشر.

ولنا هنا أن نذكر أن دور لوتر كان مهما في هذا الاتفاق، وخاصة للمقدمة التي شاركه فيها صديقه ميلانشتون كي ترفق بالطبعة. وتظهر طبعة ببلياندر Bibliander عام ١٥٤٣ أي بعد أربعمئة عام من الترجمة الإنجليزية التي قام بها روبرت فون كيتون Robert von Ketton ١١٤٣ كما سبق القول بذلك، والتي أنجزها آنذاك بتفويض من بطرس المبجل، الذي كان يقوم بجولة تفقدية في طليطلة بإسبانيا، وهي الترجمة التي تعتبر من أهم ترجمات العصور الوسطى، والتي توافقت ظهورها مع ظهور عدد غير قليل من المؤلفات المضادة للعقيدة الإسلامية.

(١) قارن النص الأصلي:

"Das man dem Mahmet oder Turcken nichts verdrieslichers thun, noch mehr schaden zu fügen kan (mehr denn mit allen waffen), denn das man yhren alcoran bey den Christen an den tag bringe, darinnen sie sehen mugen, wie gar ein verflucht, schendlich, verzweivelt buch es sey, voller lügen, fabeln und aller gewel, welche die Turcken bergen und schmucken und zu warzeichen ungern sehen, das man den alcoran ynn andere sprache verdolmetscht"

لم ترق هذه الترجمة لدى لوتر، وكان حكمه عليها حكما سلبيا، معتبرا أن أسلوبها ركيك ومعقد، مما أدى إلى ترده في تنفيذ خطته، التي أشرنا إليها في رغبته في أن يترجم القرآن بنفسه إلى الألمانية، واتجه إلى ترجمة ريكاردو اللاتينية، والتي رأى أنها أنسب في محتواها. ومن المعروف أن ريكاردو نشأ في فلورانتسا وهو أحد مبشرى الدومينيكان، وأهم رجال التبشير في الشرق الإسلامي، الذي أقام فيه فترة ليست بالقصيرة، وعاش بين المسلمين وتعلم العربية وأجادها، وذلك في نهاية القرن الرابع عشر. وكان يهدف في رحلته بحث التقريب المذهبي بين الكنائس الشرقية، إلى جانب مهمة التبشير بين المسلمين بالمسيحية. واعتبرت هذه الترجمة ذات أهمية بالغة في العصور الوسطى، وكثيرا ما كانت تتكرر طباعتها جنبا إلى جنب مع طبعة بيلياندر Bibliander. وقد قدم لوتر لترجمة ريكاردو إلى الألمانية، والتي لم تأخذ حقها من البحث حتى يومنا هذا. ويلاحظ المرء أن النص الألماني كان أقصر من اللاتينية، وفي مقابل ذلك أضاف لوتر في هذه الترجمة العديد من الهوامش والتعليقات، بهدف فهم متن النص وإضافة وجهات نظر جديدة، بأسلوب أكثر قوة من الأسلوب المعتدل لريكاردو.^(١)

توالت بعد ترجمة بيلياندر. والتي قدم لها مارتن لوتر، والمعروفة بترجمة بازل عام ١٥٤٣ ترجمات عديدة تبين مدى تقبل العديد من شعوب العالم ورغبته في معرفة محتوى القرآن، إلى معظم اللغات الأوروبية وعلى رأسها بالطبع الإنجليزية والفرنسية والألمانية، ولو رغبتنا في سرد إحصاء لها منذ حركة الإصلاح البروتستانتي حتى يومنا هذا لاحتاج الأمر إلى أكثر من مجلد لإحصائها، ويعرض في إيجاز الدكتور محمد أحمد منصور في كتابه Deutsche Orientalistik und "Islamwissenschaft, Geschichte und Ziele" لأهمها^(٢)

(١) ١٤٨ ص Bobzin, Hartmut, a.a.O قارن النص الأصلي.

(٢) ترجمة سالمون شفايجر Schweiger Salmon في مدينة نورنبرج، عام ١٦١٦.

• ترجمة المستشرق الألماني أ. ج. هابل E. G. Happel إلى اللاتينية في عام ١٦٨٨.

وكان اتهام لوثر الأساسي الموجه ضد الإسلام، هو زعمه أن محمدًا نفسه أقر بأن كل ما جاء في القرآن ليس صحيحًا، وعليه لا يمكن للمرء أن يمنح ثقته لنفس النص، طالما أن جزءًا به غير صحيح، إذ إن زيف الجزء ينتهي بالتالي إلى زيف الكل، وربما دعم لوثر هذا الزعم من بعض المبالغات التي تم إسنادها إلى

-
- ترجمة المستشرق الإيطالي لودفيكو ماراسي Ludovico Marraci عام ١٦٩٨.
 - ترجمة ديفد نيرتر David Nerreter عام ١٧٠٣ .
 - Theodor Arnold ترجمة المستشرق تيودور أرنولد عام ١٧٤٣.
 - ترجمة ج. سيل G. Salle عام ١٧٣٤ والتي ترجمت في عام ١٧٤٦ إلى الألمانية.
 - ١٧٧٢ ترجمة ديفد فريدرش ميغرلين David Friedrich Megerlin.
 - ١٧٧٣ ترجمة فريدرش إبرهاردت بويزن Friedrich Eberhardt Boysen.
 - ١٧٩٨ ترجمة يوهان كريستيان فيلهلم أوجستي Johann Christian Wilhelm Augusti.
 - ١٨٣٤ ترجمة جوستاف ليبريشت فلوغل Gustav Leberecht Flugel.
 - ١٨٤٠ ترجمة لودفيج أولمان Ludwig Ullmann.
 - ترجمة فريدرش ريكتر Friedrich Rückert، والتي ظهرت بعد وفاته بعامين في عام ١٨٨٨.
 - ١٩٠١ ترجمة ماكس هنجج Max Henning.
 - ١٩١٦ ترجمة جولدميت لاتساروس Goldschmidt Lazarus.
 - ١٩٣٩ ترجمة صدر الدين Sadrudin.
 - ١٩٥٤ ترجمة الأحمدية Ahmadiyya.
 - ١٩٦٣ ترجمة رودى بارت Rudi Paret.
 - ١٩٦٨ ترجمة محمد رسول Muhammad Rassoul.
 - ١٩٨٧ ترجمة عادل خورى Adel Khory.
 - ١٩٨٢-١٩٩٦ ترجمة دار نشر بافاريا Bavaria-Verlag.
 - ١٩٩٦ ترجمة أحمد فون دنفر Ahmed von Dennfer.
 - ١٩٩٨ ترجمة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف المصرية Das Hohe Rat für islamische Angelegenheiten, das gyptische Al-Waqf-Ministerium.
 - يضاف إلى تلك الترجمات ترجمات استجدت وأهمها :
 - ١٩٩٩ ترجمة تجويد القرآن الكريم دار المعركة، دمشق سوريا- ترجمة جامعية بدون.
 - ٢٠٠٠ ترجمة أمير محمد أديب زيدان، والتي نشرت في مدينة أفنباخ على نهر الماين Offenbach am Main
 - وأخيرًا وليس آخرًا ترجمة مجمع الملك فهد بالمدينة المنورة بالمملكة العربية السعودية nig-Fahd-K Komplex zum Druck von Quran والتي أنجزها الشيخ عبد الله الصامت فرانك بوبنهايم Dr. Nadim Elias والدكتور نديم إلياس Abdullah as-Samit Frank Bubenheim

بعض فلاسفة المسلمين كابن سينا وابن ماسويه والفرغانى، الذين ينسب إليهم أنهم نادوا بالعقل وعدم الاعتبار بتعاليم القرآن، وإذا كان غالبية علماء المسلمين نهجوا عكس ذلك فى اتباع تعليمات القرآن^(١)، فمرجع ذلك عند لوتر هو أن تاريخ الإسلام ملئ بالنجاحات والانتصارات المتتالية.

لم تكن معرفة لوتر بالإسلام التفصيلية مختلفة عن الأمور الشائعة والمتوارثة والمحصورة فى ثوب الكنيسة، إلا أن لوتر اختلف عن صديقه ميلانكتون، فى أنه أوصى ونصح بقراءة القرآن قراءة جادة، من أجل فهمه، ولا يمكن لنا كمسلمين أن نتوقع من لوتر أن يخرج عن هذا الإطار، الذى حددته له عقيدته، بل كان عليه كمسيحي وعالم لاهوت يبغي الإصلاح لكنيستته ولأقرانه من رجال اللاهوت، أن يؤكد للجميع توجهه العدائى للعقيدة الإسلامية. ويرى لوتر فى حجج الإسلام أنها على نقيض كامل، من توجهاته وخاصة فى ما يتعلق ببنوة المسيح وألوهيته وموته وبعثه ومقولة الإيمان به كمخلص للبشر وغافر لذنوبهم. إضافة إلى ذلك يرى لوتر أن الإسلام قلل من شأن المسيح وسمو مكانته، مقارنة بعلو مكانة محمد وتفضيل الأتراك له عن المسيح. ويخلص بوبتسين فى بحثه بأن الإسلام جاء لينهى مهمة المسيح كنبى ورسول وأن هذه المهمة وكُلت الآن إلى محمد كخاتم الأنبياء والرسل وأن دعوته تقوم على توقيير واحترام كل الرسل من قبله، وعدم الخلط وتجاوز الحدود بين الله والإنسان. ولهذا كان دور محمد المهم يوم القيامة فى الشفاعة للبشر. وقد استند لوتر فى كافة توجهاته لنقد الإسلام، انطلاقاً من الصراع الدائم فى دوائر الدولة البيزنطية والغرب عامة، ويضاف إلى ذلك أمران آخران: الأمر الأول، هو الإحساس بالطابع المعادى للمسيحية من قبل الإسلام وهو اختلاط الأمور فى التفريق بين السلطة المدنية والدينية، وحيث تعطى

(١) قارن: Bobzin, Hartmut, a.a.O., ص ١٤٨.

الأولوية للسلطة الدينية على المدنية، وعدم الالتجاء إلى الجهاد بحد السيف إلا لضرورة شرعية.^(١)

من هنا كان يرى لوثر عدم شرعية السلطات التركية كسلطة دينية، لأنها ليست كغيرها من السلطات الإلهية التي تجنح للسلم، وتحمي الأتقياء وتعاقب الأشرار. الأمر الثانى هو السماح بالزواج بالعديد من النساء. هذه السلبيات - فى رأى لوثر - لم تُنسخ فى الإسلام لبعث ما هو أفضل منها. فالإسلام عند لوثر كعقيدة، يخاطب العقل البشرى وبذلك تغلب العقلانية فى الإسلام، عما هو الحال فى المسيحية، مقارنة بتعاليم الإنجيل التى يصعب على العقل البشرى استيعابها^(٢). ولهذا أهمل القرآن حسب وجهة نظر لوثر، كل ما جاء بالإنجيل وكان حكم لوثر هنا على الأتراك من خلال تعليمات الإنجيل. وانتهى لوثر بطرح السؤال المزدوج: من هو التركى؟ وماذا يريد من سعيه؟ ويجيب لوثر عن أسئلته هذه فى خطبته الموجهة للجيش الألمانى، بأن هناك طاغيان جباران يريدان هدم العالم على من فيه: الأول، يستخدم الوسائل الدينية، وهو البابا، والثانى، يستخدم الوسائل الدنيوية وهو التركى.

لقد وقر فى ضمير مارتن لوثر بعد معاشته للهزيمة المفجعة التى لقيها المسيحيون على يد الأتراك فى موقعة موهاكس بالمجر ١٥٢٦ أن هذه الهزيمة علامة كبرى من علامات الساعة، ولا شك أنها آتية، مدلا على ذلك بمجريات التاريخ للأتراك والفرس والمماليك أصحاب القوى العظمى فى العالم آنذاك. ومن هنا لم يستطع لوثر كبح جماحه، فى استمراره دحض ونقد محتوى القرآن وتحبيذه التبشير فى أوساطهم. وركز كل همّه بالدرجة الأولى فى تعريف وشرح الكتاب المقدس، من أجل تعرية الإسلام وكشف زيفه كمنافس كبير للمسيحية فى آخر الزمان.

(١) قارن: المرجع السابق ص ٩٣.

(٢) قارن: المرجع السابق ص ٩٠، وينكر لوثر ما نصه.

لم يكن لوتر في هذا الاتجاه صاحب السبق الأول، بل سبقه يوحنا الدمشقي الذي قال بأن العقيدة الإسماعيلية، من العقائد المنافسة للمسيحية وكذلك ما ذكره الإسباني باولوس الفاروسي في القرن التاسع عشر ضد الخليفة الأموي محمد الأول حاكم قرطبة، وانتهى به الأمر بتشبيه البابا والمسلمين بياجوج ومأجوج كشعبيين نشب بينهما الصراع، وهما الشعبان اللذان طاردهما إسكندر ذو القرنين والوارد ذكرهما في القرآن والتوراة. ويواصل لوتر تشبيهه لهذه الشعوب بالتتار والملحدين واعتبار الخطر التركي الداهم كآخر عدو للمسيحية، وأن هذا العدو سيلقى عقابه بلهيب نار السماء وليس بالسلاح البشري. وتبلغ ذروة آراء لوتر بقوله أن مجيء الأتراك على مسرح الأحداث ليس سوى علامة مؤكدة على نهاية العالم الدنيوي ونهاية لعقيدتهم القائمة على السيف والعقل البشري بطريق الغواية والتضليل. ومن هنا لزم الأمر العكوف على دراستها والتعرف على جوهرها.

لقد اعتبر لوتر الإسلام من هذا المنظور، رجسًا من عمل الشيطان وأن محمدًا والشيطان شخصان في شخص واحد. لقد مثل البابا والتركي عنده كطاغيتين من طغاة الجبروت يوم البعث، لمانصبتهم العداء للمسيحية. فالتركي يحارب بسيفه وجسده، والبابا بإقامة الشعائر الدينية الخاطئة والمزيفة والمناقضة لما في الإنجيل. وكانت مطابقة لوتر هذه لقوى الشر والطغيان ممثلة في البابا والأتراك، إلا أنه رأى البابا كعدو أول وحقيقي ضد المسيحية، أما الأتراك فهم مجرد أعداء من الدرجة التالية أو كأشرار للعقيدة المسيحية وكرمز من رموز الخصم داخل الكنيسة^(١). واتجهت التوجيهات اللوترية لمحاربة ذلك من خلال الأناشيد مثل "احفظنا يا رب في كلمتك" "Erhalt uns Herr bei deinem Wort" أو "أرحنا يا رب بموت البابا والتركي" "Steure uns des Papst und der Türken Mord."

(١) قارن: المرجع السابق ص ١٤٧.

واعُتُبرت التوجيهات اللوترية - من وجهة نظر أعداء لوتر - متعاطفة تجاه المذهب "المحمدي"، وأن الكاثوليك اعتبروا لوتر أحد حماة الأتراك والمدافعين عنهم، لأنه كان منحازًا لنوع من الحوار والتفاهم بين الإسلام والكاثوليكية. ويرى البعض أن التعرض لقضية الإسلام في عهد الإصلاح، لم تكن هدفًا في ذاتها، سواء أكان ذلك من قبل لوتر أو من قبل غيره من رجال الإصلاح، مثل ميلانشتون أو بيلياندر أو حتى من قبل الكاثوليك المعارضين له، وإنما جاء هذا التعرض كأحد العناصر المهمة في الجدل القائم بين المذاهب العقائدية القائمة، وبرز هذا العنصر نتيجة للتهديد الجاسم على صدور مسيحي أوروبا من قبل القوة العسكرية للأتراك العثمانيين. وربما كانت هذه القوة الغاشمة سببًا في شدة وحدة النغمة والتعبيرات، التي عرضت وقيلت ضد الإسلام كخصم لدود لهم. وبالطبع لم يكن لوتر استثناء من هذا، خاصة بما عرف عنه من فصاحة اللسان، الذي أدى به إلى التهور في بعض صياغاته ضد الإسلام ونقده، وهو الأمر الذي قاد العديد من علماء المسلمين إلى الدفاع عن هذا التجنى، بل والتقدم بصفة رسمية لقيادات الكنيسة الإنجيلية عام ١٩٨٣ في محاولة لتصحيح الصورة هذه فيما يخص أقوال لوتر العدائية تجاه الإسلام.

ويدافع بوبتسين في هذا الصدد بأنه إذا ما وضع الإنسان أقوال لوتر في سياقها التاريخي والديني للعصر، فسيكون تفهمه لها أفضل من بترها من سياقها، وقد يجد له العذر والمبرر، ويختتم دفاعه هذا بأن فهم لوتر للإسلام لا يزال حتى يومنا هذا قضية حية، لم تخمد أوارها بعد، وأن الإسلام دين جاء بعد المسيحية، ليكون حافزًا ودافعًا للنقد الذاتي لما أصاب الكنسية والدعوة إلى التوبة والتكفير عن الذنوب. ولعل في هذا ما يمثل للتلاقى والاقتراب الذي يعرضه المسلمون في أيامنا هذه على الغرب المسيحي، وهو الأمر الذي عجز عنه لوتر حتى في إمكانية إجراء الحوار مع بني جلدته وأتباع كنيسته، ولكن النقد الذاتي الذي اضطلع به لوتر في مؤلفه: "عظات الدعاء

ضد الأتراك " Die Vermahnung zum Gebet wider den Türken " يمكن أن يؤتى ثماره في الحوار الدائر الآن بين المسيحية والإسلام.

ونحن نعتبر أن لهجة لوتر وصياغاته الحادة كانت من الأسباب التي جعلت صديقه الحميم ميلانشتون يقدم الاعتذار عنها في كلمته أثناء تأبينه فيقول: "قد يلام لوتر في حديثه فيما كتب، ولكن موقعه كمناضل ضد أعداء أقوياء، البابا والأتراك لا بد وأن يؤخذ له في الحسبان. غير أن كل من كان يعرفه عن قرب، يشهد له أنه كان مخلصًا ونقيًا، وأن لسانه كان رطبًا وساحرًا، لهذا كانت هذه الحدة أثرًا مباشرًا نبع من ضغوط الزحف التركي من الخارج ومن الضغوط النفسية وظروفه الأسرية مع الكنيسة من الداخل^(١).

٤ . ٦ . ٢ لوتر وفالتر بيلتس

نعرض الآن لوجهة نظر الدكتور فالتر بيلتس Walter Beltz، أستاذ علوم مقارنة الأديان، بمعهد الدراسات الشرقية - جامعة مارتن لوتر - هالي فيتبرج، والتي نشرها في إطار مقال له، صدر عام ١٩٨٣ بالمجلة العلمية للجامعة، وبمناسبة مرور خمسمائة عام على مولد لوتر، ضمن كتاب تذكاري لمؤلف لوتر: عن حرية الإنسان المسيحي، الذي ألفه عام ١٥٢٠ وذلك تحت عنوان: "فهم لوتر للإسلام والقرآن" "Luthers Verständnis von Islam und Koran"،^(٢)

يعرض الدكتور فالتر بيلتس في مقاله هذا، أن الدراسات البحثية التي عنيت بعلاقات لوتر تجاه الإسلام والقرآن لم تكن في بؤرة الاهتمام حتى من أهل

(١) قارن: Michael Meisner: Martin Luther, Heiliger oder Rebell, S.272 حيث يؤكد ذلك: „Aber nicht nur draußen im Reich zieht eine drohende Gewitterwand auf. Auch im Innern“des Schwarzen Klosters“ schlägt das Schicksal zu und bringt über die Familie Luther schweres Leid.“

(٢) قارن: Wiss. Z. Univ. Halle XXXII' 83 G, H. 5, ص ٨٥-٩١

التخصص. ويُرجع ذلك إلى عدم كفاية مراجعة وتحقيق أعمال لوثر الكاملة، والتي أصدرتها دار نشر بيلو بمدينة فايمار Weimar-Böhlau Verlag ، وانصب التركيز من جانب لوثر على المسألة التركية التي مثلت له تهديدًا ملموسًا ومباشرًا للقارة الأوروبية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر. وكانت عظامه للجيش الألماني ضد الأتراك عام ١٥٢٩ Heerespredigt wider die Türken، والتي ألفها بعد هزيمة المجر الساحقة في معركة موهاكس ١٥٢٦، والتي سبقها بمؤلف آخر هو: "الحرب ضد الأتراك" "vom Kriege gegen die Türken"، يهاجم فيه تعاليم البابا من أجل شن الحملات الصليبية، التي لم يقرأها، لأنها حرب تمت تحت شعار الصليب. وكان يرى أنه إذا كان لا مفر من حرب الأتراك، فإنما يكون ذلك من منظور الدفاع عن الأوطان التي احتلوها دون مبرر.

ويؤكد بيلتس أن معظم المؤلفات التي صدرت عن الحروب الصليبية، اتسمت بطابع عقائدي عدائي نحو المسلمين، وكان على رأسها الكتب الخمسة التي ألفها الأسقف، بطرس المبجل، أسقف دير كولونيا، والمتوفى عام ١١٥٥، والذي ترجع إليه مبادرة أول ترجمة لاتينية مشهورة للقرآن. وتتوالى تراجم أخرى بعد ذلك تتسم بنفس العداء والكراهية كمظهر طبيعي خلفته العصور الوسطى، وهو الأمر الذي عايشه مارتن لوثر أثناء انشغاله العميق بترجمة تيودور بيلياندر للقرآن. يرى بيلتس في هذه الترجمة أنها تعد أول ترجمة علمية، وهي الترجمة التي كتب لوثر مقدمتها بناء على طلب بلدية مدينة بازل، ويدلل على ذلك بنص من قول لوثر: "إذا أراد المرء أن يكدر الأتراك ويلحق الأذى بهم، فلن يتسنى له ذلك إلا بسلاح فهم وتعريف محتوى القرآن من قبل المسيحيين، حتى يتيقنوا بأنفسهم كم هو كتاب سيئ، ملئ بالكاذب والأساطير والهرطقات."^(١)

(١) قارن، النص الأصلي في المرجع السابق ص ٨٦ .

„Man könne dem Türken nicht erdrießlich tun noch mehr Schaden zu fügen (mehr als mit den Waffen), denn daß man den Koran bei den Christen an den Tag bringe, damit sie sehen, welch ein Buch das sei, „voller Lügen, Fabeln und aller Greul“

أخذ لوثر هذه المفاهيم عن الإسلام من معظم المصادر ذات السمات الدعائية والشائعة في عصره، ويتعرف على ترجمة أخرى للقرآن، قام بها الراهب نيقولاوس كوزانوس، وهذا يعنى انتشار إدخال الدراسات الإسلامية وتعلم اللغة العربية ضمن مناهج الجامعات الألمانية، وذلك لتدريسها من منظور أن على رجال اللاهوت قراءة كتب الكفار وحتى يتسنى لهم دحضها ومجابهتها، وإبراز السموم التى تضمنتها. ومن خلال هذا المنظور يفكر لوثر مليًا، أن يترجم القرآن بنفسه إلى الألمانية الذى سبق أن ترجمه القس ريكاردو، ذلك الراهب الذى جال فى بلاد الشرق وأجاد العربية، إلا أنه توقف ولم يسعفه الوقت لذلك، واكتفى بترجمة ببليندر الكاملة عام ١٥٤٢. ويذكر بيلتس أن هذا قد نبع أيضًا من منطلق قلق وخوف لوثر على صمود واستمرارية حركة الإصلاح أمام التهديد التركى مما جعلته لا يفرق فى عداوته بين الأتراك والبابا، لأن كليهما عدو للكتاب المقدس.

ويعرض لوثر على هذا النحو فى مؤلفه "عظات ضد الأتراك" "Vermahnung zum Gebet wider die Türken" والذى جاء به موقع البابا، موقع العدو الأول والأكبر للكنيسة، بغض النظر أن يرتبط ذلك بفهم أكبر للإسلام وقيمه من قبل لوثر، مقارنة بالمسيحية، والتى قادت به فى سنواته الأخيرة إلى حالة من اليأس والإحباط فى أنه فعل ما عليه من واجب لصالح الكتاب المقدس، ومن لم يأخذ بما يقول فليفعل.^(١)

هذا اليأس الذى عاشه لوثر وإحساسه أنه مغلوب على أمره وأنه فقد كل أمل فى توحيد معارضيه من المذاهب المختلفة المتصارعة تجاه حركته الإصلاحية،

٤.

(١) قارن: النص الأصلي فى المرجع السابق ص ٨٦ .

„Ich habe das meine getan, als ein treuer Prophet und Prediger, wer nicht hören will, mag es lassen:“

وفقد لذلك الحماس الذى كان يريد أن يستغله فى تنصير الأتراك دعمًا لبني جلدته من المسيحيين.^(١)

• ويوضح بيلتس أن لوتر أراد من وراء نشر القرآن وتداوله بما فيه من دجل وزندقة، تقوية وشد أزر من ضعفت عقيدتهم من المسيحيين، الذين أراد أن يذكرهم بما جاء فى هذا الكتاب من هرطقات ومتناقضات، وليؤكد لهم أن الإنجيل هو الكتاب المقدس الوحيد الذى لا بديل عنه، والذى يمكن قراءته بالعديد من اللغات الحية، وذلك على النقيض من القرآن، الذى تحرم قراءته بلغة أخرى غير العربية^(٢).

ويرد على ذلك أن القرآن لا تحرم قراءته بلغة أخرى غير العربية وأنه يمكن نقل معانيه إلى أية لغة، وإنما التعبد به فى الصلاة لا يتم إلا باللغة العربية، فالمخصوص باللغة العربية - الذى أساء مارتن لوتر فهمه - هو التعبد وليس مطلق القراءة لترجمات القرآن، وإلا فكيف كان الإسلام سينتشر بين غير العرب وغير المتحدثين بالعربية.

ويختتم بيلتس وجهات نظره عن موقف لوتر من الإسلام والقرآن، بأن الهزيمة التى لحقت بالمسيحيين من قبل الأتراك، ما هى إلا هزيمة سياسية، وليست هزيمة للعقيدة المسيحية. وكان يرى أن نصر الأتراك هذا الذى أحرزوه، أفضل عنده من نصر يحرزه البابا، العدو الحقيقى للمسيحية. ويحاول بيلتس أن يبرر الأوصاف والسماة العدائية التى قال بها لوتر عن القرآن، أنها جاءت من منظور موقعه كرجل للاهوت، وليس كعالم للأديان، يمتلك القدرة على التحليل التاريخى

(١) قارن: النص الأصيل فى المرجع السابق ٨٦ .

(٢) قارن: النص الأصيل فى المرجع السابق ص ٨٨ وما بعدها.

„Bibel und Evangelium... übertreffen in allem den Koran und sind, weil sie in viele Sprachen übertragen seien, schon deshalb ein Zeichen für die Allmacht des wahren Gottes, wohingegen der Koran doch nur als arabisches Buch gelesen werden durfte.“

لنص، واضعًا نصب عينيه كمصلح مقولته الأساسية: "إن الإنجيل، وليس شيئًا غيره هو المقياس لكل الأشياء"^(١).

٤ . ٦ . ٣ لوتر ولودفيج هاجيمان

ننتقل إلى توجهات باحث آخر، وهو السيد لودفيج هاجيمان Ludwig Hagemann، وهو أحد القلائد الذين عرضوا لمارتن لوتر وعلاقته بالإسلام في كثير من الإسهامات وعلى رأسها كتابه: "مارتن لوتر والإسلام" „Luther und der Islam"^(٢).

يعرض هاجيمان في كتابه هذا، للأحكام القديمة المسبقة في ضوء نور جديد، لفهم الإسلام وقضاياها، وذلك من خلال توجهات مارتن لوتر أثناء أحداث حركة الإصلاح، التي دارت رحاها في البيئة الألمانية، ويرى بداية أن الصلات التي ربطت بين المسيحيين والمسلمين كثيرًا ما شابها العديد من الصراعات العدائية، وذلك من منطلق رفض المسيحيين للرسالة المحمدية أو الاعتراف بها، بالرغم من أن محمدًا تحدث ولفترة طويلة بكلام ودى عن المسيحيين، إلا أن الإسلام أصبح السلطة الوحيدة في شبه الجزيرة العربية، وليضم تحت لوائه غيره من أهل الملل الأخرى. وحدد هاجيمان موقف محمد في ثلاث نقاط فيما يخص علاقة الإسلام بالمسيحية:

١- حسمه لقضية يسوع المسيح، بأنه ليس ابن الله كما تعتقد المسيحية.

(١) قارن: النص الأصلي في المرجع السابق ص ٨٩ .

„Luther war kein Religionswissenschaftler, sondern von dem theologischen Grundansatz, dass nur die Bibel, die scriptura sancta, der Maßstab, mensura una, sei:“

(٢) قارن: Hagemann, Ludwig: Martin Luther und der Islam, Altenberg: Christlich-Islamisches Schrifttum, 1988

٢- مقولته أنه خاتم الأنبياء والمرسلين من منطلق القرآن، سورة ٣٣ آية ٤٠.

٣- إقراره أن الدين الحق عند الله هو الإسلام، من منطلق القرآن سورة ٣ آية ١٩ (١).

ولقد كان رد فعل المسيحيين على ذلك، سواء في الشرق أو الغرب، إصابتهم بالفرع لادعاء محمد، أنه كُلف بتجديد دين أبيه إبراهيم وإتمامه، ونظروا إليه على أنه نبي مزيف، أخذ تعاليمه من هرطقات سابقة من اليهودية والمسيحية. واتسعت الصراعات بين المسلمين والمسيحيين لقرون طويلة بالتهديدات والحروب المتبادلة، فمع الانتشار السريع للإسلام وفتح إمبراطورية الفرس وبيزنطة وأجزاء مسيحية أخرى في سوريا ومصر، خضعت كلها تحت لوائه، بل امتد الأمر إلى صقلية وشمال إفريقيا وإسبانيا إلى أن تم توقيفه في عام ٧٣٢م على يد كارل مارتل Carl Martell. وكان هذا التهديد الإسلامي مبعثاً لخوف وكرهية المسيحيين للمسلمين، وأنهم الأعداء الحقيقيون للمسيح، ومن هذا المنطلق تمت الدعوة لحركة الحملات الصليبية على يد البابا أوربان الثاني أثناء انعقاد مجمع كليرمونت ١٠٩٥، والتي لم تحقق أهدافها. وسقطت القسطنطينية في أيدي المسلمين عام ١٤٥٣، وتدفقت حمامات الدم، ورأى المسيحيون أن المدينة المقدسة التي أسسها قسطنطين، تقع في يد الكفار وفقاً لتعبير الأسقف إينيا سيلفو بيكولوموني Enea Silvio Piccolomini، والذي أصبح فيما بعد البابا بيوس الثاني، الذي بعث برسالة إلى الكردينال نيقولاس فون كوز أكد فيها هذا المضمون. (٢)

(١) قارن: المرجع السابق، ص ٧.

(٢) قارن: النص الأصلي:

"So viel Blutvergießen ist angerichtet worden, was Bäche von Blut durch die Stadt flossen. So ist die edle, von Konstantin gegründete Stadt in die Hand der Ungläubigen gekommen..."

استغل السلطان العثماني الصراع الدائر بين الطوائف المسيحية أثناء أحداث حركة الإصلاح في أوروبا، واعتبرها الفرصة السانحة المناسبة لضرب أوروبا في الصميم. وسقطت أمام جحافل جيوشه مدينة بلجراد ١٥٢١، وجزيرة رودوس ١٥٢٣، وفي يوليو ١٥٢٦ قُتل الملك لودفيج الثاني ملك المجر أثناء تفهقره أمام الجيوش العثمانية، وأصبحت فيينا محاصرة أمام هذا الجيش عام ١٥٢٩ ووقعت بودابست تحت قبضتهم ١٥٤١، وأصبح العثمانيون يسيطرون على معظم شواطئ البحر المتوسط، كقوة بحرية عالمية، كما تم في الفترة من ١٥٣٧-١٥٤١ طرد أهل البندقية من أملاكهم، وسقوط جزيرة قبرص تحت أيادي العثمانيين، التي كانت تمثل المعقل الأخير للمسيحية داخل البحر المتوسط.

من هذا الموقف السياسي والعسكري الذي خلقه العثمانيون، يمكن فهم لوتر في توجهاته وآرائه التي قال بها تجاه الإسلام والمسلمين، حيث يعبر في رسالة له عن خوفه وقلقه الداخلي لهذا الخطر التركي الزاحف إلى أوروبا، والذي بدأ يقترب في زحفه إلى أراضي الأمة الألمانية، بعد استيلاء الأتراك على مدينة لوفن الألمانية Lauffen. فيناشد في خطابه المشار إليه عام ١٥٢٩ الذي ضمنه مؤلفه المشهور "Vom Krieg wider die Türken" عن الحرب ضد الأتراك إلى الأمير الألماني فيليب فون هيسن وتحذيره باقتراب الأتراك.^(١)

ووفق هذه الأحوال السياسية حدد لوتر موقفه، من القوى العسكرية الإسلامية، وظهر ذلك جليا في مؤلفه بعنوان: "عظات للجيش الألماني ضد الأتراك" "Heerespredigt wider den Türken" الذي صدر أيضا عام ١٥٢٩. وفي عام ١٥٢٦ عبر لوتر عن هلعه وعزائه - بعد موت الملك المجرى لودفيج الثاني في موقعة موهاكس - إلى أرملته، لأن لوتر رأى في هذا النصر، أن الطريق أصبح مفتوحًا أمام السلطان العثماني، سليمان القانوني إلى فيينا، العاصمة

(١) قارن: النص الأصلي: "weil eben der Türck uns nahe komt..." المرجع السابق، ص ٩.

الأوربية آنذاك. وجاءت كل الجهود التي بذلها إمبراطور النمسا فرديناند Ferdinand لعقد سلام مع السلطان العثماني دون جدوى. وأحس لوثر بالقدوم الوشيك للصدام العثماني مع الألمان. وعبر هذا الموقف المتوتر، حسم لوثر توجهاته بمقاومة الأتراك بنفس سلاحهم. واعتبر لوثر من منظور لاهوتي أن التركي هو عقوبة الله وخادم الشيطان^(١)، رغم أن بابا روما، ليو العاشر، سَفَّه رأى لوثر هذا، وأصدر في ١٥ يونيو ١٥٢٠ نقده لوجهة نظره. ولكن لوثر لم يأبه بذلك وواصل تأكيده لرأيه بأن الخطر التركي: "ليس سوى عقوبة إلهية وأن الصراع ضد الأتراك ليس سوى صراع ضد الرب والذي جعل من الأتراك عقوبة لخطايانا."^(٢)

ويواصل لوثر مقولته هذه بأنه: "لا ينادى بحرب الأتراك، بقدر ما يدعو إلى تحسين سلوك الألمان تجاه الرب."^(٣)

وذلك بالتكفير عن ذنوبهم والتصالح مع الرب، لأن هذا الخطر التركي يمثل أولا وأخيرا عقوبة عادلة إلهية، وهي الرسالة التي توجه بها إلى أمير سكسونيا يوهان فريدريش الحكيم عام ١٥٤١ في عظاته وصلاته ضد الأتراك. وفي موضع آخر يقول: "إنني لا أملك معجزة لإنقاذ ألمانيا، إلا بتحسين أخلاق الناس وسعيهم لرحمة الله، واحترام كلمته أكثر مما هم عليه الآن."^(٤)

(١) قارن النص الأصلي: "der Türke ist Gottes rute und des Teuffels diener"

المرجع السابق، ص ١٠

(٢) قارن النص الأصلي:

"Widder die Turcken streitten ist nit andersz denn widder Got streben, der durch den Turcken unszer sund strafft."

المرجع السابق، ص ١١

(٣) قارن النص الأصلي:

"wydder den Turcken nit zu streitten sey, szondern wyr sollten zuvor unsz bessernn und eynen gnedygen got machen."

(٤) قارن النص الأصلي:

"nu kann ich mich keines wunderzeichens noch sonderlicher Gottes gnaden uber Deuschland versehen, wo man sich nicht bessert und das Wort Gottes anders ehret, denn bisher geschehen."

لهذا كان يرى: "أن التركي معلم لنا، ويعنى بذلك أهله الألمان، وأن لزامًا عليه تربيته وإرشادنا إلى خشية الله وأن نصلى، وإلا سنقع جميعًا في بحار الخطايا كما هو حالنا الآن." (١)

ويناشد لوثر الأمة الألمانية بأنهم لابد وأن يصلوا، حتى يتقوا شر هذا البلاء، وغضب الله عليهم، ويؤكد هذا في رسالة له في مقدمته لترجمة ريكاردو: Ricardo de Monte Crucis: "ولهذا كان التركي يمثل في نفس الوقت عقوبة الله وابتلائه على خطايا المسيحيين المخلصين منهم والفاستدين" (٢)

أما من ناحية توجهات لوثر فقد كان رافضًا لسياسة الحروب الصليبية، منذ البداية، التي كانت منذ عام ١٠٩٦ عنصرًا أساسيًا في الصراع الذي اشتعل في الغرب ضد الإسلام والمسلمين، ورغم أن فكرة الحروب الصليبية، أصبحت الآن من تراث الماضي، إلا أن الصراع مع الإسلام قد بقي، والذي اختلف فقط، هو نوعية إستراتيجية هذا الصراع، وانقسم الغرب المسيحي إلى فريقين تجاه هذه الإستراتيجية:

الأول: يجد أن حل هذا الصراع هو القوة العسكرية وكان يمثل من رجال اللاهوت: برنهارد فون كليرفو، يواخيم فون فيور، جان جيرمان، اينياس سيلفيو بيلوكوموني.

Bernhard von Clairvaux, Joachim von Fiore, Jean Germain, Aeneas Silvio Piccolomini

(١) قارن النص الأصلي:

"also ist der Turck auch unser Schulmeister und mus uns steupen (d.i. züchtigen) unnd leren, Gott furchten und beten, sonst verfaulen wir gantz in sunden und aller sicherheit, wie bisher geschehen."

(٢) قارن النص الأصلي:

"aber weil der Turcke gleichwohl Gottes rute und eine Plage ist über die sunde beide der christen und unchristen odder falschen christen..."

المرجع السابق، ص ١٢.

أما الفريق الثاني ويمثله مجموعة من الرهبان المتقنين، الذين كانوا يرون أن حل الصراع يتأتى من خلال الوسائل السلمية، وعلى رأسهم: بطرس المبجل، روجر بيكون، جون وكليف، جون سيجونيا، ونيقولا فون كوز
Petrus Venerabilis, Roger Bacon, Johann Wyclif, Johannes Segonua, Nikolaus von Kues.

ويعتبر هؤلاء الرواد من الفريق الثاني ممن مهدوا لأحداث حركة الإصلاح الديني، والذي انضم لوتر إلى صفوفهم، لأنه رأى أن حل هذا الصراع عن طريق الحرب، يعتبر حلاً مضاداً للسيد المسيح، وعلامة سلبية للصليب، وحجته في ذلك: "إذا رأيت أني ذاهب إلى الحرب كقسيس وحاملاً للصليب لأحارب باسمه، فإنني أجد لزاماً عليّ الهروب كما لو كان يطار دني في ذلك الشيطان." (١)

وهذا يعني رفض لوتر التام لأي حرب ضد الأتراك تنشأ باسم الصليب، وإذا كان ولا بد من حرب الأتراك بحد السيف، فلا مفر من أن تتم من قبل القيصر وتحت إمرته وتعليماته، وأن تكون لضرورة ماسة، وهي الدفاع عن الوطن والمواطنين، وذلك من منطلق أن الحرب هنا أمر واجب لطاعة ولي الأمر، لأن طاعة ولي الأمر من طاعة الله، وعصيان ولي الأمر عصيان الله، وبهذا فرق لوتر بين السلطتين: السلطة الروحية الدينية، والسلطة العلمانية الدنيوية، التي أدت به في النهاية إلى رفض مبدأ الحروب الصليبية. وانطلاقاً من رأى لوتر هذا، جاءت حجته باعتبار الصراع ضد الإسلام قضية غير دينية، وكانت موافقته على الحرب ضد الأتراك كاختيار إستراتيجي لدرء الخطر التركي من أجل حماية الشعب الألماني، وإيقاف هذا الخطر، ويحاول لوتر انطلاقاً من أحكام الإنجيل، اعتبار الإسلام قوة آخر هذا الزمان. ورأى لوتر هذا من منطلق وجهة نظر هاجيمان

(١) قارن: النص الأصلي:

"und sehe zu Felde ein Pfaffen, odder Creutz Pannier, wenns gleich ein Crucifix selbs were so solt ich davon lauffen als iagt mich der Teuffel."

المرجع السابق، ص ١٣.

لم يكن جديدًا، فقد قال أسقف طليطلة أولوجيوس Eulogius والراهب باول ألفاروسى Paul Alfaro القرطبي بأن سيادة الإسلام ما هي إلا تهينة مبدئية، لظهور الأفخارستية وقضية التناول الخاصة بالعشاء الرباني ضد المسيح، واستوحى هذه النظرة في القرن الثاني عشر الراهب يوخيم فون فيور Joachim von Foire في اسبانيا في عصر الموحدين، وفي فلسطين في فترة حكم صلاح الدين الأيوبي. وشاعت هذه الظاهرة أيضا في روما، بأن عدو المسيح، الذي سيظهر في آخر هذا الزمان سيتقلد عرش الباباوية، ويكون في نفس الوقت ثمرة أنضجتها الكنيسة، وأن الإسلام هو المبشر لذلك. وكانت الرؤيا التي رويت عن Joachim Foire في القرن الثاني عشر بإحياء الإسلام على يد الموحدين في الأندلس، وصلاح الدين في فلسطين، بل ومتحققة في باباوية روما، ليكون بذلك البابا نفسه هو عدو المسيح، كمحصلة من داخل الكنيسة.

كل ذلك تضمنته أحاديث لوتر مع أصدقائه ميلانشتون وفريدريش مايكونيس في ماربورج وأيزناخ، وحديثه المستقى من أقوال الراهب الدومينكانى يوهانس هيلن Johannes Helen من رؤية دانيال وما تنبأ به من مجابهاة الأتراك... فالتركي عند لوتر هو "عدو المسيح والإسلام هو نفس الشيء، هو عدو آخر الزمان، لهذا نظر لوتر إلى الإسلام كقوة دينية، وليس كقوة عسكرية أو سياسية.^(١)" واعتبر أن هناك عدوين: "عدوا من الخارج المتمثل في الإسلام والترك، وعدوا من الداخل المتمثل في البابا، وهو العدو الأول والحقيقي للمسيح".^(٢)

(١) قارن النص الأصلي:

"denn der Teuffel sucht durch seinen zeug den Türcken, freilich nicht allein die weltliche herrschaft, sonden auch das reich Christi und seine heiligen und glieder, von glauben zu stossen..."

المرجع السابق، ص ١٧.

(٢) قارن النص الأصلي:

"und ich halt den Mahmet nicht für den Endechrist, Er machts zu grob und hat einen kendlischen schwartzen Teuffel, der weder Glauben noch vernunft betriegen kan,

لم يكن ظهور الأتراك على مسرح الأحداث في أوروبا مجرد قضية عسكرية فقط، إنما كان تحديًا عقائديًا عند لوتر، الذي لم ينظر إلى محمد على أنه عدو المسيح المتوقع، ولكنه مثل بالنسبة له: "العدو لآخر هذا الزمان، وسينتهي العالم بنصر مؤزر بعد هلاك هذه القوة." (يوحنا ٨، ٤٤)

ويخرج الشيطان ليضل الأمم في كل الأزمنة. ويجمع الأمم التي عددها مثل زبد البحر. (يوحنا ٨/٤٤) "أنتم من أب هو إبليس وشهوات أبيكم، ذاك كان قتالا للناس من البدء ولم يثبت في الحق، لأنه ليس فيه حق، ومتى تكلم بالكذب، فإنما يتكلم مما له، لأنه الكذاب وأبو الكذاب."^(١)

ويرى هاجيمان - مثله في ذلك مثل الكثير من أهل الغرب - أن التوسع الإسلامي تم بقوة السيف والحرب، وهذا كان السبب في عداوة الغرب المسيحي للإسلام، ولم يكن لوتر استثناءً من هذا، والذي انتهى بالقول بأن: "في شريعة المسلمين الذين يدعون أنها موحاة من عند الله، حث على القتل والنهب والفساد في الأرض، ظانين بذلك أنهم يقدمون لله خدمات جليلة."^(٢)

ويرى لوتر أن الإسلام كقوة شيطانية هدفها هدم العقيدة المسيحية، إلى جانب السلطة العثمانية التي شرعها الرب. وجاء ذلك من منظور لوتر في تفريقه بين

Und ist wie ein Heide, der von aussen die Christenheit verfolgt, wie die Römer und andere Heiden gethan haben... Aber der Bapst bey uns ist der echte Endechrist, der hat den hohen, subtilen, schnen, gleissenden Teuffel, der sitzt innwendig in der Christenheit..."

المرجع السابق، ص ١٩ وما بعدها.

(١) قارن، الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد.

(٢) قارن النص الأصلي:

"Es wird yhm yhem gesetz gebotten als ein gut Gottlich werck, schreibt er, das sie rauben, morden, und ymer weiter unb sich fressen und verderben sollen, wie sie denn auch thun und meinen, sie thun Got einen dienst dran."

المرجع السابق، ص ٢٢.

السلطتين الروحية الدينية والدنيوية العلمانية. وهو الأمر الذى لا يقول به الإسلام منذ نشأته الأولى، بأنه مبنى على مجتمع دينى وسياسى (الإسلام دين ودولة) أى أنه مجتمع دينى وثقافى وسياسى فى وحدة واحدة، وهذا يعنى أن قانون الدولة (الشريعة) والدين بكافة عباداته والسياسة أمور يصعب فصل بعضها عن البعض.

كما ينتقد مارتن لوتر شرائع الزواج التى قال بها القرآن -من وجهة نظره- استنادًا إلى حرية الرجل فى الزواج بأربع وبأعداد لا حصر لها ممن يسمونهم (ملك اليمين) واعتبار أن ذلك نوع من الرق والعبودية للنساء وكذا من النقائص التى جاء بها الإسلام. ويدين لوتر هذا بعبارات شائنة فى: "أن للرجل أن يختار من النساء ما شاء، وأن المرأة مجرد سلعة للبيع مثلها فى ذلك مثل البهائم".^(١)

وأخيرًا يعرض هاجيمان للصراع والخلاف بين المسيحية والإسلام، بأن المسيحية تقر بالوهية المسيح، وبنوثة الله، وبروح قدسه وبمولده من خلال مريم، ومعاناته وصلبه وموته ودفنه وبعثه بعد اليوم الثالث من موته إلى السماء، ليجلس فى مملكته الإلهية عن يمين الأب القوى، الذى يسيطر على الأحياء والأموات، وأن أتباع المسيح يناشدتهم الإنجيل بالتعميد، لكى يصيروا من أتباع المسيحية الحقّة، وليتطهروا من الخطايا حتى يعيشوا الحياة الأبدية بعد البعث. واعتبر لوتر أن ذلك هو الدين الصحيح، الذى لا مثيل له عند اليهود أو الأتراك، ولهذا كان الإسلام بالنسبة للوتر مرفوضًا كلية لعدم وجود أية أوجه لاهوتية مشتركة، رغم الصفات التى امتدح بها القرآن المسيح كنبى مرسل، وكذا مدحه الجيد للسيدة مريم وطهارتها من الخطايا، فیسوع بالنسبة للقرآن نبى مقدس، مثله فى ذلك مثل النبى أرميا والنبى

(١) قارن النص الأصلي:

"Yderman zu gibt weiber zu nemen wie viel er wil ... solch wesen ist aber kein ehe und Kan Kein ehe sein, weil Keiner ein weib der mynung nim pt odder hat, ewigkich bey yhr zu bleiben als ein Leib, wie Gottes Wort spricht Gen."

"Der Türcke resist Man und Weib von einander und gibt und verkaufft die Frawen, als werens Kue oder Kelber. Das ist hunde und saw hochzeit, Keine Ehe."

المرجع السابق، ص ٢٥.

يونس، ولكنه ينزع عنه وينفى ألوهيته وبنوته لله، وذلك لما جاء بالقرآن: "يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق..." (النساء: ١٥٧)

كما أن الإسلام يحسم قضية صلب المسيح، بعد ادعاء اليهود بقتله وينفى نفياً قاطعاً مبنيًا على علم الله الدقيق والصحيح أن يكون المسيح قد صلب، وهذه مسألة يقينية في الإسلام لأن الله هو الذي أخبر بها: "وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم..." ، فالقرآن يرى أن هذا القتل كان لشبيه له من اليهود، وأنه لم يصلب ولم يقتل. وهنا يكمن الخلاف الحاسم بين العقيدتين، والذي جعل لوتر ينظر إلى الإسلام نظرة سلبية شديدة، لأن الإسلام بذلك يفرغ عقيدته، التي عاش يناضل من أجلها، من جوهر محتواها. فعيسى عليه السلام، لم يعد هو المخلص والفادي، والملك والغافر للذنوب، والرحيم والأب والابن والروح القدس، والمعمد وصاحب الأسرار الإنجيلية. كل هذا قد أفرغه الإسلام من محتواها. ويعضد هاجيمان وجهة النظر اللوترية بأن التهديد التركي والإسلامي بوجه عام لقيا اهتمامًا كبيرًا من جانب لوتر، وأنه كان يرغب بشدة في المزيد من التعرف على محتوى القرآن بعمق، ونجده يكتب في مقدمته لترجمة القرآن عام ١٥٤٢ الخاصة بالمبشر ريكاردو ديمونت كروسي Recardo de Monte Croce أنه لو سمح له الوقت لشرع في ترجمته بنفسه إلى الألمانية، وهي الخطة التي لم تتحقق له، كما سبق أن ذكرنا في موضع آخر، وخاصة بسبب عدم معرفته باللغة العربية والضغط النفسي والأسرية التي تكاثرت عليه بعد اشتداد زحف الأتراك على الممالك الأوروبية^(١).

(١) قارن النص الأصلي:

"Ich habe des Mahomets Alkoran etlich stück, welchs auff deutsch mocht predigt oder lerebuch heissen, wie des Bapsts Decretal heist. Und er fügt hinzu: "Hab ich zeit, so mus ichs ia verdeutschen, auff das yderman sehe welch faul schendlich buch es ist."
المرجع السابق، ص ٢٩.

ويذكر في مقدمته أنه تعرف على ترجمتين للقرآن: ترجمة ريكاردو، والأخرى ترجمة كريبراتيو Ricardo und Cribratio والتي قام بترجمتها نيقولاوس فون كوز. وكان تقييم لوثر لكلا العملين سلبيًا، من منظور أن الهدف من وراء ذلك هو ترهيب بسطاء المسيحيين من الإسلام. فكلا الترجمتين ليستا سوى مقتطعات من بعض المواضع في القرآن التي يرى فيها أنها تمثل نقضًا للقرآن، إلا أن لوثر لم ترق له ترجمة كوزانوس باعتباره هرقل البابا وساعده الأيمن. وليس بغريب بعد ذلك أن يكرس لوثر جهده، في السعي عام ١٥٤٢ لدى بلدية بازل في الموافقة على طبع الترجمة اللاتينية التي أنجزها الراهب روبرت فون كيتون، بتكليف من بطرس المبجل عام ١١٤٣. وكان لتوسط لوثر في هذا الأمر أن تم منح الترخيص بطبع هذه الترجمة، التي ضمنها لوثر المقدمة في ١١ يناير عام ١٥٤٣ وعبر فيها من ضمن ما اعتقد به بأن ما حفزه إلى ذلك اتقاء لأي ضرر يلحق بجماهير المسيحيين من خلال تناقضات قرآن المسلمين حتى يتيقنوا من محتواه المليء بالأخطاء والشرور والأكاذيب والأساطير.^(١)

٤. ٦. ٤ لوثر وإدموند فيبر

نأتى إلى ما عرضه إدموند فيبر، الأستاذ بجامعة يوهان فولفجانج فون جوته بفراנקفورت، في دراسة نشرها في المجلة المتخصصة في العلوم والتراث الديني بالعدد رقم ١ لسنة ١٩٩٧ تحت عنوان "أهمية لاهوت مارتن لوثر في تأسيس مجتمع متعدد الأديان."^(٢)

(١) قارن النص الأصلي:

"Mich hat das bewogen, das man yhren schaden zu fugen kan, denn das man yhren alcoran bey den christen an den Tag bringe, darinnen sie sehen mugen, wi gar ein verflucht, schendlich, verzwievelt buch es sey, voller lügen, fabeln und aller grewel."

المرجع السابق، ص ٣٣.

(٢) قارن:

Weber, Edmund: Die Bedeutung der Theologie Martin Luthers für die Begründung einer multireligiösen Gesellschaft, in: Journal of Religious Culture, Nr.01- 19970

يتفق فيبر مع معظم الباحثين الغربيين، أن مفهوم التركي كان يعنى به المسلم، والدين التركي أى الدين الإسلامى، وأن الإسلام جاء بمثابة عقوبة وغضب من عند الله، تجاه سيئات المسيحيين. ويحاول إدموند فيبر أن يجد نوعاً من التوفيق الإيجابى، لإسباغ نوع من التعاطف اللوترى تجاه الترك والمسلمين عن غيره، ممن تطرقوا لوجهات نظر لوتر، وعلى سبيل المثال فإنه يرجع اضطهاد ومطاردة الأتراك للمسيحيين إلى سبب إيجابى، لأن المسيح هدف بذلك أن تمتلئ مملكته بالشهداء والقديسين، وهى خدمة لا شك جليلة يقدمها الأتراك لمملكة المسيح باعتبارهم خدماً وعوناً لكل المسيحيين فى محنتهم رغم ما ارتكبوه ضدهم من آثام مصحوبة بالغضب والقسوة. (١)

ولهذا كان لوتر معارضاً لمبدأ شن حرب تحت اسم الصليب أو العقيدة المسيحية، من منطلق رسالة المسيح الذى أثر حياة الزهد والمعاناة، من أجل تخليص أتباعه المسيحيين الأتقياء والتائبين، أما إذا كانت هناك ضرورة للحرب من أجل الدفاع عن النفس والوطن، فهى مهمة السلطة الدنيوية أى القيصر والبابا.

يواصل فيبر تعاطفه مع لوتر، ويحاول إيجاد مخرج إيجابى فيقول، إن لوتر لم ينظر إلى النبى محمد كعدو خطير مثل بابا روما، وإنه لا يمثل خطورة للإنجيل باعتبار أنه لا يمثل العدو الأساسى للمسيحية رغم فظاظته سلوكه وشيطنة أفعاله التى يصعب الإيمان بها. فعلى النقيض من ذلك البابا الذى يجلس على قمة تاج المسيحية

(١) قارن النص الأسمى:

"Er (der Türke) sey zornig und wuetig als er ymer will, mit allen teufeln dazu, so mus er knecht und diener sein der Christen. Und eben damit zu yhrem besten helffen, damit er sie meynet zu verderben."

المرجع السابق ص ٢.

ويكون العدو الأكبر داخل الكنيسة، وأن منصبه قد استخلفه عليه الشيطان، وعلى العكس تماما منصب السلطان التركي، الذي ولاه الله إياه.^(١)

ويرى فيبر في هذه التعبيرات، أن لوتر لم يهاجم محمد أو يضمن عداوة شخصية له، وإنما كان ناقدًا من خلال توجهاته لرسالته وتعاليمه، التي فرغت عقيدته من مضمونها، وهي ألوهية المسيح وبنوته والتثليث وغيرها من أصول المسيحية، والتي يتفق معظم المؤرخين على نكرها، وفي أنها كانت توحى للوتر بأنها مبادئ منغصة، للسيد المسيح ومملكته، وهي المبادئ التي تكمن داخل قلوب المسيحيين وعقيدتهم.

من هذا المنظور يرى لوتر أن الخلاف العقائدي بين المسيحيين والمسلمين يمكن تناوله بالجدل والحوار على النقيض من استحالة مثل هذا الحوار مع أصحاب الدين اليهودي^(٢).

وهذا يعنى أن لوتر أقر نوعًا من القرابة اللصيقة، بين المسيحية والإسلام، وهذا يقدم من وجهة نظره، أساسًا لقيام حوار بين العقيدتين^(٣)

(١) قارن النص الأصلي:

"Ich halte den Mahmet nicht für den Endechrist, Er machts zu grob und hat einen kendlichen schwartzen Teuffel, der weder Glauben noch vernunfft bekriegen kann." Ganz anders der Papst; der sitzt im Tempel Gottes und betrügt die auserwählten Christen durch subtilen Täuschung: "Aber der Bapst bey uns ist der rechte Endechrist, der hat den hohen, subtilen, schönen, gleissenden Teuffel, Der sitzt inwendig in der Christenheit... Dieser Teuffel betreugt... die auserweleten Gottes", sein Amt ist vom Teufel selbst gestiftet. Das Amt des Sultans dagegen ist weltliche Oberkeit, von Gott eingesetzt"

المرجع السابق، ص ٢.

(٢) قارن النص الأصلي: "es leichter mitt inen wirt zu streiten sein denn mitt den Juden"

المرجع السابق، ص ٣.

(٣) قارن النص الأصلي:

"... deshalb der christlich-isalmische Dialog, so muß das Streiten wohl verstanden werden leichter zu bewerkstelligen ist, scheint sehr schnell vergessen worden zu sein: erst langsam bricht sie sich heute wieder Bahn:

المرجع السابق، ص ٣.

وتبلغ قمة تعاطف لوثر تجاه الإسلام- من منظور إدموند فيبر- في نقده الشديد لأولى الأمر من رجال اللاهوت والسياسة والعلماء، لقلة معرفتهم بالمسلمين ودينهم، واعتراض على الكثير من الأكاذيب التي كانت تلتصق أو تقال عن الأتراك، واعتبرها نوعاً من الدعاية لإثارة غضب الألمان عليهم دون وجه حق^(١).

وبهذا يقف لوثر من وجهة نظر فيبر، إلى جانب المسلمين وغيرهم من أهل العقائد الأخرى، ضد موجة العداء الغير مبرر من جموع المسيحيين نحو المسلمين وعقيدتهم.

ويختتم فيبر تعاطف لوثر وجنوحه إلى فهم الإسلام فهماً أفضل، بأن عقيدة الإسلام يصعب محاربتها، والتغلب عليها بقوة السيف، وإنما تكمن هزيمتها في مواجهتها بسلاح المعتقد الديني، وقوة كلمة الله. وهذا يمثل لدى لوثر -كما يعبر فيبر بذلك- القوة الروحية الهائلة لهذا الإسلام، مقارنة بالاعتقاد المسيحي، الذي نخر فيه الوهن والضعف آنذاك، والذي يصعب عليه أن يقف ندا في هذا الصراع بين العقيدتين.

وينتهي فيبر من عرض توجهات لوثر، بأن يجد له العذر الكافي، في اعتراضه الصريح عن قلة معلوماته ومعارفه عن هذا الدين، والذي واجهه المسيحيون بأسلوب دعائي صرف، وليس بأسلوب نقدي، وأنه على قدر المعلومات والمعارف التي وقعت بين يدي لوثر جاء نقده للإسلام، والذي كان كثيراً ما يطوره وفقاً لما يحصل عليه من معارف جديدة لاشك أنها إيجابية، على سبيل المثال مدحه

(١) قارن النص الأصلي:

Man könne... lügen von den Türken ertichtet werden, die nur den Zweck haben "uns Deutschen widder sie zu reitzen

المرجع السابق، ص ٣.

• لم يكن هذا تعاطفاً مع الإسلام من وجهة نظرنا، لأن تقييم لوثر النهائي للإسلام كان مبنيًا على أنه ادعاءات وهرطقات شيطانية مؤكداً كذب نبي الإسلام (صلى الله عليه وسلم) وإنما ما أظهر رأيه على أنه تعاطف هو أنه لا يرى محاربة الإسلام بالسيف وإنما بالرجوع إلى المبادئ الحقيقية للمسيحية كما يزعم. (المؤلف)

لعدد من الفضائل التي يتمتع بها الأتراك في تصرفاتهم الدينية والخلقية التي افتقدها عند الكثير من المسيحيين.^(١)

ولا شك أن أقواله هذه تعكس جانبًا إيجابيًا من نقد لوتر للأتراك، باعتبار أنهم مسلمو هذا العصر مادحًا إياهم، وهو يعظ جموع شعبه من الألمان حين يعتبر الأتراك وسلوكهم كمسلمين يمثلون قدوة طيبة وشجاعة منقطعة النظير، نراها في خشوعهم وصلواتهم، وجدية وصرامة حياتهم وطاعتهم لسلطانهم وأولى أمرهم، وهي الأمور التي كان يتمناها لشعبه أن يكتسبها ويفعل مثلها.^(٢)

وليس معنى هذا أن مارتن لوتر يتعاطف مع الإسلام ولكن معناه أنه يرى أن هؤلاء الأعداء المسلمين قد تحلوا بفضائل وصفات يستكثرها عليهم ويتمنى لو تحلى بها أبناء دينه المسيحيين.

٤ . ٦ . ٥ لوتر وفرانسيس نيغل لى

بعد الدكتور فرنسيس Francis Nigel Lee من كبار العلماء اللوتريين في العصر الحالي، وخاصة بما كتبه عن علاقة لوتر وصلته بالعقيدة الإسلامية، وهو

(١) قارن النص الأصلي:

"bei den Türken viel "feiner tugent" sei; ja, daß das moralische und religise Verhalten der muslimischen Geistlichkeit keinen anderen Schluß zulasse, als "das man sie nicht für Engel und nicht für Menschen ansehen."

المرجع السابق، ص ٤.

(٢) قارن النص الأصلي:

"wirstu sehen bey den Türcken nach dem eusserlichen wandel ein tapffer strenge und ehrbarlich wesen: Sie trincken nicht wein, sauffen und fressen nicht nicht so, wie wir thun, kleiden sich nicht so leichtfretiglich und flich, bawen nicht so prechtig, brangen auch nicht so, schweren, und fluchen nicht so, haben grossen trefflichen gehorsam zucht und ehre gegen yhren Keiser und herrn, und haben yhr regiment eusserlich gefasset und ym schwanck, wie wirs gern haben wollten ynn Deutschen landen."

المرجع السابق، ص ٤ .

يشغل أستاذ علم اللاهوت النظامي وتاريخ الكنيسة بكلية اللاهوت بجامعة بريسبان،
بولاية كوينس لاند، باستراليا. قدم الدكتور دراسته في ٣١ أكتوبر عام
٢٠٠٠ بمناسبة يوم الإصلاح تحت عنوان "لوتر والإسلام والبابوية Luther on
Islam and Papacy"^(١)

يستهل العالم "نيجل لى" عرضه بأن الإسلام عند لوتر كان مجرد نتاج نبع
طائفة مسيحية أطلق عليها مسمى الموحدين الآريانيين، وهى الطائفة التى أنكرت
عقيدة التثليث والوهية المسيح، انطلاقاً من وجهة نظر مؤسسها أريوس الإسكندراني،
ولم يكن أمام لوتر من مفر، من أن يقر بكفر وإلحاد وحرق أريو والذي اتهم من
قبل كنيسة روما بالهرطقة وتم إعدامه عام ٣٣٦م.

يعرض "نيجل لى" لظهور الإسلام عام ٦١٠م ويدعو لوحدة الرأى فى العالم
المسيحى، فى الوقت الذى يستأثر فيه بابا روما، باعتباره صاحب القداسة الوحيد
واضطهاده لكل من يخرج عن طوعه أو رئاسته وبلغ هذا الاضطهاد قمته فى عهد
البابا أنوسنت الثالث، الذى توفى عام ١٢١٦. وكما سبق أن ذكرنا انتشار الإسلام
وفتح أكثر من نصف الممالك الأوروبية وابتلاع معظم مناطق الكنيسة الشرقية فى
وقت وجيز، وتتكون بالتدريج صورة لوتر عن الإسلام من منطلق ما جاء بكتاب
النبي دانيال، والذي كتب لوتر مقدمته عام ١٥٣٠ وذلك عن رؤيا لصورة رجل
يمثل أربعة قطاعات تمثل توارىخ متتابعة، لحلم الملك نبوخذ نصر، ويؤول لوتر
هذا الحلم على النحو التالى: القطاع الأول الممثل فى الرأس بمملكة بابل وآشور،
والقطاع الثانى الممثل فى الأكتاف لمملكة ميديس وفارس، والقطاع الثالث الممثل
فى الصدر لمملكة الإسكندر الأكبر واليونان، والقطاع الرابع الممثل فى الساق

(١) قارن:

Francis Nigel Lee: Luther on Islam and The Papacy, Brisbane, Queensland,
AUSTRALIA – FOR THE Reformatin Day 31:10 2000. <http://dr-frnlee.org/>

ويعنى به الرومان والتي تمثل نهاية العالم والتي أراد أن يقسمها إلى ثلاثة قطاعات أخرى من الساق: تقسيم أصابع القدم إلى عشر أصابع وهو ما حدث للإمبراطورية من تفتيت دولها في القرن الخامس الميلادي. ويؤول لوتر تفكك الإمبراطورية بأجزاء اعتراها الضعف ولتتهض ممالك أخرى بهدف الاستيلاء عليها، وهو ما حدث من ازدهار مملكة الأتراك الزاحفة إلى أوروبا، وكان لوتر يرى أن على هذه الإمبراطورية أن تقوم بالدفاع عن المسيح ومملكته في نهاية الأمر. ويواصل لوتر بذلك تصويره بأن ليس هناك ثمة خلاف بين العدو التركي، وعداوة البابا، فإذا كانت تركيا لا تحترم شعائر موسى من وجهة نظره، فإن البابا ينتهك على الدوام أسرار القربان المقدس. ويركز لوتر على أن الأتراك أفضل بكثير من البابا وأفعاله، لأنهم لا يرغبون أحدًا على الاستخفاف بالمسيحيين، وأنهم شديداً الإخلاص لعقيدتهم، أما البابا فكانت أعماله، تؤدي إلى ملء جهنم بالمسيحيين. ويمثل البابا للوتر المضطهد للمسيحيين، والصديق المزيف باعتباره في موقع القمة، وما يمثله من السوء والخزيان. أما العدو التركي، فتأتي عداوته عند لوتر في المرتبة الثانية، واعتبر مجيء الأتراك وانتصاراتهم في أوروبا، يمثل عقوبة وغضب من عند الله. لم يكن البابا عند لوتر منشغلاً سوى بجمع إيرادات صكوك الغفران، والإتاوات والهدايا لنفسه ولحاشيته، حتى أنه يروى أن رجل اللاهوت من حاشية البابا كان يبلغ دخله أكثر من عشرة آلاف جولدن سنوياً، وهي مبالغ تكفي لإعاشة ملك بحاشيته.

ويركز هذا الباحث على الجانب الآخر، وهو العرض لوجهة نظر لوتر المتعلقة بالأتراك، ويقول إن لوتر كان لا يعتبر محمدًا، العدو الأساسي للمسيح، رغم أنه كان يرى في محمد إنساناً فظاً وشيطاناً أسود، مثله في ذلك مثل غيره من الوثنيين والملحدين، الذين يريدون هدم المسيحية من خارجها، ولرفضه الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وإنكاره لكل أصول المسيحية الخاصة بالغفران والتوبة والخلاص.

فإذا كان محمد قد ارتكب المحرمات، فى أمور الزواج وتعدد الزوجات واقتناء العشرات مما ملكت الأيدي، فإن البابا تجاوز كل هذا وجعل الأعداد الغفيرة من النساء عشيقات له، حتى ولو كن من الغوانى والعاهرات. لقد شبه لوتر العدوين بياجوج ومأجوج. كان لوتر يواجه هذين العدوين بكلمات الكتاب المقدس النقية والطاهرة وحتى ينال دعم المسيح له من خلال الأخذ بتعاليمه، ومن خلال تحسين سلوك المسيحيين. ورفض لوتر لهذا السبب وجهة نظر الباباوية، فى شن الحروب الصليبية باعتبارها حرب عدوانية واستعمارية، وإذا كان لوتر قد سمح بالحرب ضد الأتراك فقد كان ذلك من منطلق أنهم يقومون بالاستيلاء على أراضى الغير، رغم أن مجيأهم هذا كان يمثل غضب الله على المسيحيين.

يذكر هذا الباحث وجهات نظر لوتر فيما يخص القرآن ونبي الإسلام، ويذكر عن لوتر قوله أنه لو أسعفه الوقت لشرع فى نقل القرآن إلى الألمانية رغم رؤيته أنه كتاب ملئ بالزيف والأكاذيب، ويذكر أن هناك مديح جيد من قبل قرآن المسلمين، للمسيح ومريم وأنها طاهران وبلا خطايا، إلا أنه يعتبر المسيح مجرد نبي كآرميا ويونس ونوح، ثم يدعى محمد لنفسه بأنه آخر مبلغ للرسالات، وبذلك يهدم محمد الإله يسوع ومملكته، مثله فى ذلك مثل البابا، جاء برسالة لتحطيم المسيحية بقوة السيف، فإذا كان البابا هو العدو الأول للمسيح، فإن التركى والمسلم هو الشيطان الأكبر وعلى المملكة المسيحية جمعاء أن تصلى ضد كليهما. وبالعالم لوتر فى الكلام عن الحياة الزوجية فى الإسلام وأن الزواج بأى عدد من النساء مرهون برغبة الرجل، فتكون المرأة بذلك مجرد سلعة تباع كقطعان الماشية، رغم أنه لم ينكر أن الأتراك والمسلمين أقرؤا الإنجيل ككلمة الله التى أوحى بها إلى نبيه عيسى عليه السلام، كما وقرؤوا المسيح وأمه. ولكن محمدًا - من وجهة نظره - كان لديهم أعلى رتبة منه وأن المسيح ليس إلهاً.

وقد تكلم لوتر أيضًا عن وحشية الأتراك فى الحرب، وحث نبلاء الأمة الألمانية على الاستعداد لحربهم، وكان ذلك نتيجة لما حدث من هزيمة للمسيحيين

من الأتراك بالمجر فى معركة موهاكس، والتى قتل فيها ملكهم لويس الثانى فى عام ١٥٢٦ والتى قتل فيها أيضاً أكثر من ١٢٠٠٠٠ من جنود المجر، وكان يرى أن هزيمة الأتراك لن تتم إلا بعون من المسيح ودعمه. فقد رأى أن عداوة البابا للمسيحية كانت عداوة فى صميم روحها، أما عداوة الأتراك فكانت فى صميم جسدها، البابا عدو من داخل الكنيسة والتركى عدو من خارجها. ويذكر لوتر من ضمن ما يذكر بعض فضائل المسلمين وسلوكهم، من خلال مشاهداته للأتراك كعدم شربهم للخمر، التى يرى أنها من أسباب يقظتهم وكسبهم للحروب، ولأن الشراب مفسدة للجسد ومهلكة للأموال. كما أن الأتراك لا يعيشون عيشة الترف التى شاعت فى الباباوية، ويميلون إلى الزهد فى المأكل والملبس، ومع هذا لا يتوانى لوتر عن الدعوة لقتالهم والقضاء عليهم، مثلهم فى ذلك مثل البابا فى روما، ويؤلف فى هذا الشأن الكثير من الأناشيد الدينية الحماسية متوجهاً إلى الرب فيها، بدعمه فى محاربة البابا والأتراك اللذين شبههما فى أحد عظاته عام ١٥٤٤ بأن كليهما، ويعنى هنا البابا والأتراك، بالمعلمين غلاظ القلوب يعملان فى مدرسة تلاميذها من الثيران والحمير وهو الأسلوب الذى أشرنا إلى غلظته ورداءته وعنفوانه ولكنها هى سمة العدو فى نظره الذى لم يؤمن بالمسيح.

٤ . ٦ . ٦ لوتر وباول راجشور

يشغل الباحث "باول راجشور" Paul Rajschaur حالياً سكرتيراً للحوار مع أهل العقائد الأخرى فى المؤسسة الدولية اللوترية، بجنيف بسويسرا، وكان قبلها أستاذاً للاهوت النظامى بكلية اللاهوت، جامعة بانجالير بالهند، ويعمل حالياً أستاذاً للاهوت بكلية للاهوت، جامعة أسلو بالسويد.

يركز باول راجاشيكار Paul Rajashekar فى بحثه، عن لوتر وأهم الأبحاث التى أنجزت فى القارة الآسيوية، علاوة على صلة لوتر بالأديان الأخرى

وعلى رأسها الدين الإسلامى وخاصة صورة الإسلام فى العصور الوسطى التى استند إليها فى فهمه لهذا الدين من هذا المنظور وذلك على النحو الآتى^(١):

يعرض الباحث هنا عن مجمل الأبحاث التى أنجزت فى القارة الآسيوية عن مارتن لوتر ويرى أنها قليلة للغاية نظراً لاتساع القارة الآسيوية وقلة عدد المسيحيين من أنصار العقيدة اللوترية باستثناء اليابان والذين يبلغ عددهم حوالى خمسة ملايين إلا أنه رغمًا من ذلك فقد ترجمت معظم أعمال لوتر إلى العديد من اللغات الآسيوية، ويعرض إلى جوار ذلك أهم الباحثين فى هذا المجال وعلى رأسهم كارل بارنو، إيميل برونر، ورينهولد نيبور، وأنشئت أول بعثة تبشيرية للبروتستانت فى الهند عام ١٩٥٠، بمناسبة مرور ٤٥٠ عام على ميلاد مارتن لوتر، ولم يكن هناك توجهات محددة عند لوتر نحو الديانات فى آسيا، باستثناء دين الأتراك والذى كانت صورته سلبية عنده، ويعرض أيضاً استخدام لوتر لمفهوم الترك، بمصطلح عام وشائع من مصطلحات العصور الوسطى، وهو ما يعتبر مرادفاً فى أيامنا هذه لمصطلح الإسلام والمسلمين. ويمكن النظر إلى توجهات لوتر تجاه الإسلام، من منطلق زوايا سياسية وتاريخية متعددة، ومن خلال وجهات نظره، عند تواجد مملكتين، مملكة الحرب ومملكة السلم، انطلاقاً من توجهاته القومية ومن خلال أفكاره اللاهوتية المرتبطة بالتبرير بالإيمان، من خلال الكتاب المقدس، وبمبدأ التناول، الذى يخبر بظهور الشيطان كعقوبة إلهية فى نهاية الزمان، ضد فساد المسيحيين. وتجمعت كافة توجهات لوتر عن الإسلام مستندة إلى تقاليد طويلة، من تفسيرات العصور الوسطى لدى مسيحي الغرب، وبعض المصادر اللاتينية التى تحدثت عن الفكر الإسلامى، على أنه عقيدة ناجحة، انتشرت فى وقت قصير ومددهش، ومثلت قوة ضخمة لما تضمن محتواها ميراث العلم والفلسفة اليونانية. وازدهرت الفلسفة المدرسية الإسلامية فى الوقت الذى عم فيه الجهل

(١) J.P. Rajashekar: Luther and Islam: An Asian Perspective, S. 15 , www.tf.uio.no/lo/lck/rajashekar.html

والعزلة لمسيحي الغرب. ويذكر فضل ابن سينا والغزالي وابن رشد، في تعريف المسيحية ورجال اللاهوت في هذا العصر بمبادئ الإسلام وقيمه، ومع هذا فكانت نظرة الأوروبيين عدائية للإسلام، كقوة سياسية بداية من الحملة الصليبية الأولى، وحتى فتوحات الإمبراطورية العثمانية في أوروبا في القرن الثالث عشر. ويعتبر الباحث توجهات لوتر وأحكامه على الإسلام، من وجهة نظر مبادئه وتعاليمه الإصلاحية، ومن منظور وظيفته، كأحد رجال اللاهوت وتأملاته وقناعته بآراء أسلافه، أمثال روجر بيكون، ويان هوس، وجون سافينيون، وإيرازموس، والذي عارض مثلهم فكرة الحروب الصليبية وفكرة تمويلها من قبل المسيحيين، لأن نصر الأتراك كان بالنسبة له عقوبة من عند الله للغرب المسيحي، وعلى رأسه البابا في روما وأتباعه، والذي كان يعتبره لوتر أكثر عداوة وضراوة على المسيحيين، من العدو التركي نفسه.

التوجه الثاني للوتر والذي رأى فيه عن قناعة، خطوة الزحف التركي بعد استيلاء الأتراك على بلجراد ١٥٢١، وعلى المجر ١٥٢٦ على يد السلطان العثماني سليمان القانوني الثاني، وعلى أن يحارب الأتراك بمثل سلاحهم تحت قيادة وريادة القيصر. ومن خلال هذين التوجهين لجأ لوتر إلى دراسة كنه وماهية المسلمين من خلال كتابهم المقدس القرآن، والذي رغب في ترجمته بنفسه إلى الألمانية، هذه الرغبة التي لم تتحقق. وكتب مقدمة الترجمة اللاتينية المعروفة بترجمة بيبلياندر التي تمت بمباركة بطرس المبجل ١٥٤٣، واشتهرت هذه الطبعة بعد ذلك بطبعة بازل. ويحاول الباحث أن يلفت النظر إلى التغير الطفيف، الذي طرأ على توجهات لوتر بعد تقديمه لترجمة القرآن المشار إليها بما يلي:

"إن الإيمان التركي ما هو إلا ترقيع من اليهودية والمسيحية، وبعض الاعتقادات الوثنية الأخرى، حيث يطلق نبيهم محمد مديحه عن المسيح، وعن مريم والحواريين، وغيرهم من القديسين المسيحيين، وأنهم قد أخذوا رفض شرب النبيذ والخمر والصوم لفترات معينة من العام عن اليهود، وشعائر الاغتسال والوضوء

عن بعض الطوائف النصرانية، وأن الأتراك "المسلمين" يقدسون الأعمال الدينية المقدسة مثل ما يفعل رهباننا، ويعتقدون بحياة أخرى، في يوم الحساب كما أنهم يؤمنون بالبعث بعد الموت، وهو ما لم يؤمن به بعض الباباوات في عقيدتنا^(١)."

ويلخص الباحث بقية وجهات نظر لوتر عن الإسلام، وفق عديد من الاقتباسات أخذها من بطون مؤلفات مارتن لوتر في هذا الشأن وعلى رأسها مؤلفه: "عظات ضد الأتراك" و"حياة وعادات الأتراك".

يقدم لوتر في هذين المؤلفين النقاط الجوهرية التي يرى فيها الخلاف الجذري بين المسيحية وبين الإسلام، ونذكر على سبيل المثال بعض الاقتباسات التي قال بها لتبين ذلك الخلاف.

فيعرض في اقتباسه الأول ما نصه: "إن نبي المسلمين محمدا يمدح في المقام الأول بكل إجلال المسيح وأمه مريم، وأنهم أطهار بلا خطايا، إلا أنه رغم هذا المديح فإن المسيح عنده ما هو إلا نبي مثله في ذلك مثل غيره من الأنبياء المرسلين كالنبي أرميا والنبي نوح، وبذلك يكون نبي المسلمين قد أنكر بنوة الله لعيسى وألوهيته، علاوة على عدم اعتقاده في المسيح بأنه مخلص هذا العالم والذي من أجل خطاياهم مات بعد أن أتم رسالته^(٢)."

(١) قارن لنص الأصلي:

" Turk's faith is a patchwork of jewish, christian and heathen beliefs. He (Muhammad) gets his praise of christ, Mary, the apostles, and other sants from the Christians. From the jews he gets abstinence from wine and fasting at certain times of the year, washing like the Nazarites (Num.6:1-2) and eating of the ground. And the Turks perform the same holy works as some of our monks and hope for ever lasting life at the judgment= =Day, for, holy people that they are an, they belive in the resurrection of the dead, though few of papists believe in it."

www.tf.uio.no/lo/lck/rajashekar.html , J.P. Rajashekar: Luther and Islam: An Asian Perspective, S. 15

(٢) قارن النص الأصلي:

"In the first place, he (Muhammad) greatly praises Christ and Mary as being the only ones without sin, and yet he believes nothing more of Christ than that he is a

أما الاقتباس الثاني الذي قال به لوتر فيتضمن "أن محمدًا قد بالغ في مدحه لنفسه، وأنه قد جاء ليتم ما جاء به عيسى من قبله وحث العالم على الدخول في حظيرة الإيمان، حتى ولو اضطر لتحقيق ذلك بالسيف. ولهذا فإن الأتراك المسلمين كانوا يعظمون محمدًا أكثر من تعظيمهم للمسيح الذي انتهت رسالته وتولاها من بعده نبيهم محمد." (١)

أما الاقتباس الثالث والذي رأى لوتر فيه تقريبًا كاملاً لما جاء به المسيح: "لقد أنكر محمد أن المسيح ابن الله وأنه مات من أجل خطايانا، وأنه رفع إلى السماء لنكون في حياة أفضل معه، كما أنكر الإيمان به وبعده، وأنكر الروح القدس وكل العطايا التي يهبها لنا المسيح." (٢)

holy prophet, like Jeremiah or Jonah and denies that he is God's son and true God. Furthermore, he does not believe in Christ as the saviors of the world, who died for our sins, but that he preached to his own time and completed his work before his death, just like any other prophet...

المرجع السابق، ص ١٥.

(١) قارن النص الأصلي:

On the other hand, Muhammad highly exalts and praises himself and boasts that he had talked with God and the angels, and that since Christ's office of prophet is now complete he had been commanded to bring the world to his faith, and if the world is not willing, to compel it or punish it with the word; there is much glorification of the sword in it. Therefore the Turks think that their Muhammad is much higher and greater than Christ, for the office of Christ has come to an end and Muhammad's office is still in force....

المرجع السابق ص ١٥.

(٢) قارن النص الأصلي:

Muhammad denies that Christ is the son of God. He denies that He has died for our sins. He denies that he rose for our life. He denies faith in Him remits sin and justifies us. He denies that His coming judgment of the living and the dead. Perhaps there is a resurrection of the dead, but he believes in a judgment by God. He denies the Holy spirit and His gifts.

المرجع السابق ص ١٥.

٤٠٦٠٧ لوتر ومؤسّسات المجتمع اللوتري

تذكر مؤسسة الدعم المالى للمجتمع اللوتري فى مقال لها بالإنترنت www.lutheramsonline.com تحت عنوان: "السير على درب مارتن لوتر، لوتر والإسلام" والذى نرى فيه توجهات مارتن لوتر وتقديمه للإسلام منذ أن كان شابا ١٥١٨ ، وحتى آخر يوم فى حياته، أن الإسلام ليس سوى عقوبة أنزلها الرب لمملكة المسيحيين، التى عم فيها العفن والفساد والجحود بنعم الله، والتعامل مع جماعات الكفر والمال والجنس، مما أدى إلى تصدع بنيانها وإلحاق غضب الله عليها، وبناشد معلمى ورهبان الكنيسة الألمانية، أن يأخذوا على عاتقهم إيقاظ الوعي الدينى لدى أمتهم، من خلال التقوى وخشية الله، للتكفير عن ذنوبهم.

وكان دائما ما يطرح السؤال على نفسه، وعلى أفراد شعبه، عن ضيقه لصبر الرب على استمرار هذا الفساد، والذى سبق له أن عاقب أمة نوح فى القرون الماضية لغيهم وفسادهم، وأن الأوان عليه أن يحمى عزته بهذه العقوبة الممثلة فى الإسلام، التى ابتلى بها الشعب الألمانى. وقد كان معروفا أن لوتر ظل طوال حياته أستاذا بالجامعة ومحاضرا لطلابه للعهد القديم والجديد، واستقى لوتر بذلك مفهومه عن الإسلام من كتاب النبى دانيال، الوارد بالفصل السابع، والذى يقدم رؤية الملك نبوخذ نصر، ومجملها، وجود حيوانات أربعة تمثل مملكة الإمبراطورية الرومانية. ويذكر هذا المقال الشيق، المكتوب بالإنجليزية محتوى خطاب لوتر إلى الراهب نيقولاوس هاوسمان Nicolaus Hausmann، يضمنه فهمه لمصطلحى ياجوج ومأجوج، وأن المسلمين يمثلون العدو الدنيوى لشعب الله فى المملكة المسيحية، أما البابا فهو العدو الروحى للمسيح والكنيسة. ويوضح هذا المقال رأى لوتر فى الإسلام المأخوذ -من وجهة نظره- عن العقيدة اليهودية والمسيحية وعبادات وثنية أخرى، وهو بذلك يمثل مجرد عمل ترقيعى من كل هذه

الأصول. ويناشد المسيحيين أنه من حماقة، أن يستبدلوا عقيدتهم التي تمثل عقيدة الأمل في الخلاص، بنظام ديني آخر ليس فيه الوعد الإلهي، والذي يتضمن عبادات، إن دلت على شيء، فإنما تدل على سوء فهم طبيعة الإله، الذي رفض رسالة المسيح كمخلص ووسيط، مما أفرغ المسيحية من جوهرها. كما أنها مثلت المعارف اللاهوتية في هذا القرآن، الرفض لما جاء بالإنجيل^(١).

ويبتدع المسلمون إنجيلاً خاصاً بهم أسموه القرآن، وهذا يعني أن المسلمين قاموا بخلق نظام لاهوتي ضد نظام الخلاص المسيحي، والذي يرى فيه لوثر صعوبة فهمه عن طريق الحس البشري والعقل القاصر عن إدراك مكنونات العقيدة المسيحية. ولهذا اختلفت العقيدة الإسلامية اختلافاً جذرياً عن المسيحية، الممثلة في التثليث والتجسيد. وكل ذلك يمثل نوعاً من الهرطقة، التي أنكرت التثليث وسلب الألوهية عن الرب واختلاق إله جديد، وهذا يعد من عمل الشيطان، الذي دأب على مهاجمة المسيح من منظور ثلاث حجج:

أولها، عدم تحميله موضع الألوهية، وثانيها، عدم تحميله أن يموت إنساناً، وثالثها، عدم تميزه بصفة الخلاص للمسيحيين.

وهذا يؤدي إلى أن الطعن في أي جزء، يعني عدم مصداقية بقية الأجزاء.

ويستكمل لوثر وجهات نظره في السنوات الأخيرة من حياته، أن المسلمين بقوا على عقيدة النساطرة، والتي تعني أن المسيح، هو ابن مريم، وليس ابن الله، وأنه نبي مميز، ورجل عظيم بعثه الإله برسالة، أكملها قبل موته، كأي نبي آخر، لكنه لم يكن عظيماً في عظمة النبي محمد، الذي استبدل رسالة المسيح برسالته الإسلامية. ومن هنا جاءت تعاليم الإسلام كعاصفة كاسحة ضد ألوهية المسيح.

(١) هذا الادعاء من جانب لوثر يمثل دلالة واضحة على عدم استيعابه للمرآت العديدة التي ذكرها القرآن بشأن الوعد الإلهي والبشارة بالجنة، وخاصة ما ذكر عن سيد المرسلين عن بعثه بشيراً ونذيراً. (المؤلف)

واعتبر لوثر ذلك حجر عثرة عند المسلمين تجاه بنوة الله للمسيح وجعله كلمته، وأنه أراد أن يجعل له إلهًا غير المسيح، باحثين عنه في السماء دون جدوى.

ويواصل لوثر رأيه في العقيدة الإسلامية بأنها العقيدة التي ترى - من وجهة نظره - إغفال دور السلطة الدنيوية^(١). فالمسلم لا يهتم كحاكم المحافظة على المال والعرض ومعاقبة الأشرار ومستغلى السلطة، بقدر ما يدعو إلى القتل والتدمير لأرواح البشر، من خلال تعليمات القرآن، وتدميرهم جسدياً وروحياً، من خلال أكاذيبه واحتقاره لمسائل الزواج والنساء.

ويواصل لوثر عظاته ونصائحه، التي يمجّد فيها المواطن المسيحي باعتباره المواطن الأول، لأنه لا جدوى من أن يحارب هذا المواطن المسلمين بقوة السيف، وإنما بقوة الكلمة والتقوى، الأمر الذي لم تأخذ به الكنيسة الرومانية.

أما فيما يخص الحروب الصليبية، فقد اعتبرها لوثر نوعاً من الخلط بين السلطة الدنيوية والدينية، وكانت سبباً في غضب الله على المسيحيين بنصر الإسلام والمسلمين، ونادى بحرب المسلمين - إذا كان لا مفر من حربهم - من خلال الرجوع عن ارتكاب المعاصي، وتوقير الرب وكلمته، لأن لوثر اعتبر الألمان ممثلين لصوت الله، وأنهم منوط بهم هذا الواجب. كما كان يرى أن قرار شن حرب على المسلمين، هو أمر يخص القيصر، كارل الخامس، فهي مهمته الموكلة إليه من الرب، لحفظ رعيته والدفاع عنهم. وهنا تكون الحرب مشروعاً، إذا جاءت بأمر من القيصر وتحت لوائه، وعلى كل أفراد الرعية طاعة ذلك، لأن طاعة القيصر من طاعة الله والعكس.

(١) هذا الادعاء اللوثرى يمثل قصوراً لفهمه للعقيدة الإسلامية وإلقاءه التهم جذافاً، فكيف كان الإسلام مغفلاً لدور السلطة الدنيوية، فالمعروف عن الإسلام هو توازنه بين الدين والدنيا وبين الدين والسياسة. ومعروف للقاصي والداني أن الإسلام دين ودولة وأنه أمر بالمحافظة على العرض والمال لانهما يعدان في الإسلام من الكليات الخمسة الأساسية التي أمر الإسلام بالمحافظة عليها.

وينتهى هذا المقال بإدانة مسيحي أوروبا عامة، وألمانيا خاصة، لأنهم يعيشون حياة فاسدة، ولا يشكرون نعم الله عليهم. ولهذا جاءت عقوبتهم بانتصار الإسلام، الأمر الذى يعنى من وجهة نظر لوتر، تحطيم عقيدة الناس وتفرغ المسيحية من مضمونها، وعلى رأسها تحطيم المسيح ذاته. ولهذا يناشد السلطتين أن يحاربوا بكلمة الرب، حتى يكونوا كفتناً ونداً لهذا العدو المسلم.^(١)

٤ . ٦ . ٨ لوتر وجيرنوت روتر

ونختتم هذه التوجهات التى أدلى بها البعض من علماء الغرب المسيحي بمقال نرى فيه توازناً وموضوعية، قلما نجدها عند الكثيرين صاغها صاحبها فى قالب أدبى، وهو السيد "جيرنوت روتر، Gernot Rotter الأستاذ بجامعة هامبورج تحت عنوان: "الإسلام والغرب - التقارب المفقود"^(٢) "Islam und der Westen. Die verlorene Nähe

وقد سبق لنا التنويه عن هذا المقال فى مقدمة الكتاب لما به من إيجابيات تعرض مباشرة صور العداء المتواصل، التى يتبناها الغرب تجاه الإسلام والعرب والشرق عموماً. فماذا يقول:

- "أهل الغرب هم أهل الخير والعطاء، أما الآخرون فهم الأشرار والأعداء."
"Die Guten sind wir- die Bösen, der Feind jeweils die anderen".

- "تبني الغرب مقولة صدام الحضارات، التى قال بها صامويل هانتجتون Samuel Hantington، والتى ستقود دون أدنى شك لحرب ضروس، بين حضارات الغرب والشرق وخاصة بين الغرب والإسلام"

(١) مزيد من التفاصيل انظر: www.lutheramsonline.com

(٢) قارن : Rotter, Gernot: Islam und der Westen – Die verlorene Nähe –

<http://stud-www.uni-marburg.de/~Alm.htm>

"Künftige Konflikten zwischen den großen Kulturräumen, vor allem zwischen den islamischen und den westlichen Raum".

- اعتقاد المسيحيين في الشرق والغرب أن الإسلام ما هو إلا لون جديد من المسيحية.

"der Islam sei eine neue Variante des Christentums."

- تقييم وسائل الإعلام في الغرب للحرب الأهلية في لبنان، بأن وراءها المسلمين اليساريين ضد المسيحيين اليمينيين.

"der Bürger Krieg in Libanon sind die Moslems die Linken und die Christlichen die Rechten ."

- المسلمون الأصوليون مقبولون في السعودية، ولكنهم مرفوضون في إيران.

"Die guten Fundamentalisten sind die guten in Saudie Arabien und die bösen in Iran."

- ثلاثة صدامات عسكرية تبرز صورة عداة الغرب تجاه الإسلام:

١. معركة توربواتيه عام ٧٣٢ م والتي أنقذ فيها كارل مارتنل الغرب، من شرور المسلمين. Carl Martell und Schlacht Tours und Bouaters

٢. الحروب الصليبية التي لم يعد لها في الوقت الحالي البريق الكافي للانتصار المسيحي على المسلمين، ولكن تبقى مرارتها في حلق أهل الغرب، بعد فقدانهم مدينة القدس الشريف على يد صلاح الدين الأيوبي.

٣. إيقاف الزحف التركي على وسط أوروبا والبلقان من قبل الأمير أوجن .Prinz Eugen

- الادعاء الباطل بأن الإسلام انتشر بالحديد والنار، وأن المسلمين معتدون ومجرمون ويمثلون خطرًا على الحضارة الأوروبية، وهي الصورة التي انطبعت لدى الغرب منذ العصور الوسطى، ولطوال أربعة عشر قرنًا من الزمان.

- اتهام الغرب للإسلام بأنه دين عدواني، الأمر الذي تدحضه الوقائع والأحداث التاريخية، بداية من الحروب الصليبية، ثم طرد واضطهاد اليهود والمسلمين، بل وتقتيلهم حرقًا في إسبانيا، وفرض السيطرة على العالم العربي، وتأسيس دولة إسرائيل تحت زعامة أمريكا، بهدف استغلال ثروات المنطقة ونهب نفطها، من خلال تثبيت حكومات مطيعة للغرب، حتى ولو أدى الأمر إلى التدخل العسكري، مثل ما حدث في حرب الكويت والعراق وحروب التطهير العرقي في البوسنة وفلسطين.^(١)

- التفكير العقلاني عند الغرب، والعاطفي عند المسلمين، يؤدي إلى مزيد من القلق والخوف تجاه فقدان الهوية بين كلا الطرفين.

- تصوير الإسلام للمرأة من تعدد للزوجات، والكلام عن الحور العين بالجنة، يقدم الإسلام على أنه دين شهواني جنسي، الأمر الذي ما زال يستمر الاعتقاد به حتى العصر الحاضر، ولننظر إلى مصطلح كلمة حريم. والرد على ذلك الادعاء، أن الإسلام يفضل كقاعدة عامة، الزواج بواحدة، أما التعدد فهو الاستثناء.^(٢) وهذا ما نجده في الآية الكريمة من سورة النساء:

"فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة" (الآية ٣)

"Wenn ihr aber befürchtet, nicht gerecht zu handeln, dann (nur) eine ..."

(١) تواصل أمريكا هذا المسلسل من خلال الحرب في أفغانستان والعراق مخفية نواياها الإمبريالية بحجة القضاء على الإرهاب، علاوة على تهديدها لدول أطلقت عليها دول محور الشر إيران، وكوريا الشمالية... (المؤلف)

(٢) قارن النص الأصلي:

Die Eine bildet die Regel, die Mehrehe bildet die Ausnahme.

فهل حان للغرب أن يفهم ذلك؟! للأسف لا، بل وحاول مواصلة عدائه وهجومه على المرأة المسلمة، ضارباً المثل بذلك الكتاب المشبوه، الذي تحول إلى فيلم سينمائي للسيدة، بيتي محمودي، "ليس بغير ابنتي"^(١) "Nicht ohne meine Tochter"، والذي أصبح يمثل نمطاً إكليشياً لدى الغرب، وليكون ستاراً لإخفاء عورات نسائهم في الغرب، وما هو متفش بينهم من فساد ودعارة وانحطاط خلقى، الأمر الذى يراه المسلمون نوعاً من الإهانة والتحقير للمرأة في الغرب.

- يواصل العداء الغربى تجاه الإسلام والممتدة جذوره لأكثر من ألف عام مضت، ونادرًا ما يطفو على السطح أصوات قليلة، تنادى بحوار سلمى بناء بين الحضارتين، وإن حدث ذلك فإنما يكون من باب الاستثناء من بعض دوائر المتقنين العقلاء، وخاصة أولئك الذين أبرزوا دور الحضارة العربية في العصور الوسطى.

- سقوط القلعة الحصينة المتمثلة في مدينة عكا عام ١٢٩١ فى أيدي المسلمين، وخروج الصليبيين منها مدحورين، أدى إلى تخفيف وضعف حدة الصراع لفترة غير طويلة، بين أوروبا اللاتينية المسيحية، وبين العرب الملقبين بالساراسينيين (المسلمين)، ويسود من جراء ذلك نوع من ازدراء وإهمال الثقافة العربية إبان عصر النهضة، التى قامت على أسس الحضارة اليونانية والرومانية.

- بعد فتح المسلمين للقسطنطينية فى القرن الخامس عشر وزحف الأتراك على أوروبا، يعاد سيناريو التهديد الإسلامى، الذى أدى بالمصلح مارتن لوتر أن يبرز هذا التهديد بين ضفتى كتابه الذى ألفه عام ١٥٤١: "عظات الصلاة ضد

(١) كتاب "ليس بدون ابنتي" "Nicht ohne meine Tochter" يتضمن رواية أدبية وتحولت إلى فيلم سينمائي للأديبة الأمريكية "بيتى محمودي" Betty Mahmoody، صاحب نشر الكتاب ضجة واسعة فى نهاية ثمانينيات القرن العشرين فى عالم الغرب، ويعرض لقصة زوجة أمريكية سافرت مع زوجها الإيراني الجنسية فى زيارة لأهله بمدينة طهران، وهناك يتغير سلوك الزوج ويسوء معاملتها مما يجعلها تفكر فى تدبير خطة للهروب إلى بلدها مع ابنتها. عرضت الكاتبة لكثير من الأمور الدعائية المشوبة بالسطحية وعدم مطابقتها لواقع المجتمع الإيراني وحضارته وعاداته وتقاليده، مرتكزة فى ذلك الى موجة الكراهية الأمريكية للمجتمع الإيراني بعد الثورة الإسلامية، الأمر الذى حدا بكثير من القراء أن يحكموا على الكتاب بأنه يمثل سلسلة من الأساطير والأغاليط غير الموجودة فى المجتمع الإيراني. (المؤلف)

الأتراك"، والذي يقول فيه "إن الإسلام هو العدو الخارجي، أما البابا فهو العدو الداخلي".

- مع ظهور فكر التسامح في عصر التنوير، وتجليات الفكر الرومانسي وازدهار علوم الشرق، تغيرت حدة العداء وتحولت إلى لون من المهادنة والتصالح، وإلقاء بعض الإشاعات الإيجابية على العقيدة الإسلامية، فيكتب الفيلسوف الألماني ليبنتس Leibnitz عام ١٧١٠ "نظرية العدالة الإلهية"، وأن محمدًا لم يبتعد في ما جاء به عن التعاليم الأساسية الكبرى للدين، وقد تنامت أعداد أتباعه بين شعوب آسيا وإفريقيا، الأمر الذي عجزت أن تحققه المسيحية"، لقد قضى المسلمون في البلاد التي فتحوها على كافة ألوان الإلحاد. ويجيء الأدب الكلاسيكي ممثلًا في ليسنج وجوته وروكرت، عارضين لوحات إيجابية عن الإسلام والعرب.

- رغم النجاح الشعبي وال جماهيري الذي لقيه الأديب الألماني كارل ماي في وطنه، وفي الغرب، لتقديمه صورة مغلوطة عن الإسلام والعرب، دون سابق معرفة بهم، مقدما إياهم على أنهم أشخاص سذج أغبياء بدائيين ومتوحشين، في مقابل تحضر ومدنية الغرب، ممثلًا في شخصية الألماني الأري، كارا بن نمسي، Kara bin Nemsى والذي رفع عظمته إلى عظمة المسيح، وهو الأمر الذي سلكه نابليون بونابرت في غزوته على مصر والشرق، كرسالة وكواجب تبشيري لتحضير وتنوير شعوب الشرق.

- استمرار ادعاء التفوق لدى الغرب أثناء الاستعمار المدعم بالسلاح والتكنولوجيا حتى يومنا هذا.

- محاولات مضادة من قبل أهل الشرق والمسلمين للوقوف على أقدامهم عن طريق اللجوء لدعم دول المعسكر الشرقي السابق لهم كي يمدّهم بالسلاح الضروري للدفاع عن أنفسهم أو التوصل لتصنيع القنبلة الذرية الإسلامية أو نزوح

العديد من المسلمين إلى دول الغرب فهي كلها من الأمور التي أدت إلى ازدياد العداء تجاههم من قبل الغرب.

- استمرار العداوة من قبل الغرب للمسلمين، تحت رموز أخرى مثل منع الحجاب عن المسلمات، على اعتبار أنه رمز من رموز الدين الإسلامي. أو توتر العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، وأزمة الهويات الحضارية القادمة من الغرب، التي لم تجد القبول لدى المسلمين، مما يزيد العداوة بين كلا الطرفين، ووصف الإسلام بالرجعية والأصولية المتشددة، الأمر الذي حدث واستمر لأكثر من ألف عام.

- يختتم جيرنوت روتر ملحمته هذه، بالإشارة إلى هدف كان قد وضعه الأسقف بطرس المبجل، رئيس أساقفة دير كلوني، Coluny والذي أقدم على تشجيع أول ترجمة للقرآن بهدف مناهضة الإسلام ودحضه وتبيان مساوئه، من خلال محتواه، الأمر الذي كان يمثل خطوة تقدمية شجاعة يخاطب فيه المسلمين بما يلي:

"إنني أهاجمكم - ليس كما يفعل بنى جلدتى بسلاح السيف والمدفع، بل أهاجمكم بسلاح العقل والرشد، وليس بسلاح الكراهية، بل بالحب والمودة".
ويعلق روتر على أن الأمر لو استمر في هذا الاتجاه، لتحقيق المزيد من التآلف بين الحضارات والثقافات ولما كنا وصلنا إلى ما نحن عليه الآن.

ولعلنا نضيف توضيحًا لما قال به روتر في مقولاته هذه، قد يفهم من بين السطور. فحينما بدأ المسيحيون بطرد واضطهاد المسلمين من إسبانيا عام ١٤٩٩ لم يتورع الجنود الإسبان، عن قتل آلاف المسلمين في غرناطة وغيرها، بل وحرق الآلاف من كتب التراث العربى والإسلامى. وحدث آخر أشد ضراوة من ذلك لم يشأ روتر أن يذكره، وهو ما صرح به القائد الأعلى لقوات حلف الناتو، الجنرال

جون جالفين John Galven ، حينما كان يودع قوات الحلف بمدينة بروكسل قائلا ما نصه: "إننا (الغرب) قد كسبنا الحرب الباردة بعد سبعين سنة من الصراع، والآن علينا أن نواجه محور الصراع الأساسى الذى استمر تجاهنا لأكثر من ألف وثلاثمائة عام، وهو الصراع الكبير ضد الإسلام. "إنها العبارة التى وجدت انتشارا سريعا فى إعلام الغرب، مدعمة بشبح الإسلام الجاثم على أوروبا الذى يمثل بالنسبة لهم ما أسموه بالخطر الأخضر(الإسلام وأتباعه)، بعد زوال الخطر الأحمر (المعسكر الشيوعى ودوله)^(١)، وهو الأمر الذى علق عليه الكثير من أهل السياسة، أن أوروبا وأمريكا يبدو أنهما لا تستطيعان أن تعيشا دون أن تصورا لنفسيهما عدوا، عليهما مواجهته، وحينما تنتهيان من الخلاص، من صراع ما، تكونا قد فقدتا أهميتهما، فسرعان ما تسعيان دون توقف للبحث عن صراع وخطر جديد.

ولعل الدراسة التى قاما بها كل من الدكتورة لطيفة إبراهيم خضر^(٢) فى كتابها "الإسلام فى الفكر الغربى" والسيد إبراهيم نافع^(٣) رئيس تحرير جريدة

(١) قارن: Schweizer, Gerhard: Islam und Abendland – ein Dauerkonflikt, Stuttgart, 1995, S. 9

(٢) قارن لطيفة إبراهيم خضر: الإسلام فى الفكر الغربى ، ط ١ القاهرة ٢٠٠٢
تعرض الباحثة فى دراستها هذه لأطروحة فرنسيس فكرياما الخبير بمركز بحوث الخارجية الأمريكية عن نهاية التاريخ ورفض الدين وقيوده وأطروحة صمويل هانتجتون أستاذ العلوم السياسية بجامعة هارفرد عن صدام الحضارات والتى كشفت الحقد الغربى الدفين ضد الإسلام وحضارته (ص ٢٦، ٧٧ وما بعدها) وتذكر الباحثة الكثير من تصريحات قيادات الغرب المحمومة للقضاء على الخطر الأخضر الذى حل محل الخطر الأحمر، ولا مفر عندهم من تحقيق ذلك إلا بحرب دينية تهدم فيها مكة ويدمر الحجر الأسود ويذهب المتطرفون المحمديون إلى الجحيم بداية من ريتشارد نيكسون وهينرى كسنجر ومارجريت تاتشر وفرانسوا ميترأ وكثيرين غيرهم. (ص ٨٠ وما بعدها)

(٣) قارن إبراهيم نافع: جنون الخطر الأخضر وحملة تشويه الإسلام ، ط ١ القاهرة ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
ويعلق الباحث على تصرفات قيادات الغرب على مدى التاريخ بداية من الحملات الصليبية التى وعدت المتطوعين فيها بالغفران فى قتالهم ضد الملاحدة المسلمين وهى بذلك تمثل تصرفات محترفين وتتم عن ثقافة وثقاليد راسخة هدفها القضاء على عقيدة المسلمين الدينية الخاطئة وتنصيرهم بكل وسائل التبشير ويثبت ذلك بكل وضوح فى تعامل الغرب مع شعوب العالم الإسلامى معاملة تتسم بالدونية والبربرية من منظور أنها شعوب قاصرة بيولوجيا وفكريا وغير ناضجة فى أن تدير أمورها بنفسها (ص ٢٦، ٤١، ٥١). هذا ويواصل الباحث فى إظهار وكشف محاولات الغرب الرامية إلى إسلام معدل من وجهة نظرهم وذلك من خلال تعديل مناهج التعليم الدينى والزعيم بأن كل مسلم هو إرهابى بتحريض من دينه

الأهرام القاهرية لخير دليل على ترويض وإخضاع العالم الإسلامى، وذلك بفرض نموذج سياسى واقتصادى واجتماعى معين عليه.

نكتفى بهذا كختم لسلسلة الأبحاث والمقالات التى أدلى بها علماء الغرب فى هذا الشأن، ونعرض فى إيجاز لأهم المؤلفات العربية أو المترجمة من لغات أخرى إليها.

وعقيدته (ص ٥٧). ويواصل الباحث ذكر العديد من هذه المحاولات التى تهدف إلى تشويه سمعة المسلمين وزعزعة إيمانهم بمعتقداتهم وإشعارهم بالدونية، وتبلغ قمة هذا التعصب الممقوت أن تنشر صحيفة أمريكية رسمًا كاريكاتيريا يصور نبي المسلمين يجر سيارة محملة بالقنابل ص (٩٠).

٧٠٤ دراسات استهلاكية لبعض علماء المسلمين

نود الإشارة في هذا الصدد أن هناك العديد من المصادر والمؤلفات التي عرضت لحركة الإصلاح الديني قد صدرت باللغة العربية، إلا أن غالبيتها ألفت من قبل رجال الدين المسيحيين، وتضمنت في معظمها عروضاً مسهبة عن سيرة وحياة هذا المصلح الكبير، وأهم القيم والتغييرات الجذرية التي أحدثها في العقيدة المسيحية، ومن قراءتنا لهذه المؤلفات، وجدنا أن معظم مصادرها أخذت عن الإنجليزية أو الفرنسية، والنادر منها ما أخذ عن اللغة الأم لمارتن لوتر، ونعني بها الألمانية. هذا من جانب. ومن جانب آخر، أن معظم هذه المؤلفات أغفلت - من وجهة نظرنا - أمرين: الأول المتمثل في الإسهام اللغوي، ودور اللغة وقوتها، والتي كانت سلاحاً داعماً، لنجاح حركة لوتر الإصلاحية. والثاني هو تجنب ذكر انشغال هذا المصلح بالعقيدة الإسلامية، عقيدة الأتراك المهددين لوطنه وعقيدته. رغم أن هذا الانشغال لدى لوتر كان من القضايا المركزية التي أثارت اهتمام هذا المصلح والتي عرضنا لها في مواضع سابقة وسنعرض لها بمزيد من التفصيلات على الصفحات التالية.

و كما ذكرنا سالفاً نؤكد القول بأن ما وقع تحت أيدينا من مصادر كتبها علماء مسلمون، عن حركة الإصلاح وزعيمها مارتن لوتر مازالت - من وجهة نظرنا - محدودة للغاية، وأهمها:

- مقال الدكتور حسين مؤنس المنشور في كتابه: "صور من البطولات العربية والأجنبية" تحت عنوان: "راهب يهز الدنيا".
- "رسالة التوحيد"، الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥) تحقيق الدكتور محمد عمارة.
- كتابا الدكتور السيد الشاهد "الخطاب الفلسفي المعاصر (من العام الى الأعم)" و"المسيحية والإسلام، من الجوار الى الحوار".

- كتاب الدكتور محمد خليفة حسن "تاريخ الأديان".
- كتاب الدكتور جاد طه: "ألمانيا إلى أين المصير"، رقم ٥٥٧ من سلسلة إقرأ.
- كتاب الشيخ محمد أبوزهرة محاضرات في النصرانية.
- كتاب الشيخ أمين الخولي "صلة الإسلام بإصلاح المسيحية".

٤. ٧. ١ دراسة الدكتور حسين مؤنس

يرى الدكتور حسين مؤنس في مقاله المشار إليه، أن لوثر كان رجلاً أقرب إلى أن يكون ولياً من أولياء الله الصالحين، وأن إيمانه لم يكن مقصوداً به خداع الناس، وإنما كان حرباً على الفساد والمفسدين، وتجلت عظمتة في كونها ليست في حاجة إلى تأكيدها، أو البرهان عليها، لأنها برهان نفسها وإعلان جلالها، بما تركته من أثر في حياة الملايين من البروتستانت وما قدمته من فكر ساهم في تحرير العقل البشري في هذا العصر^(١). وعلى هذا النسق يواصل كاتب هذا المقال عرض حياة وسيرة هذا الراهب، معدداً جهاده المتواصل ومعاناته مع أصدقائه وأعدائه على السواء، بصورة إيجابية لم يكتب مثلها من الأوروبيين حتى من أقرب الناس تعصيذاً وتأبيداً له. كان يرى فيه شجاعة وجرأة في الحق، ومتصدياً لأكبر قوة عاتية، ممثلة في البابا وكل رجال اللاهوت الممثلين له، ونادى بتوجهات مثلت الأساس لهدم سلطان الباباوية، جاعلاً صلته بذلك بالله مباشرة ودون وسيط، معتبراً أن ما تفعله الباباوية في روما من فرض لصكوك الغفران، وإهداء الشموع، وتقديس مخلفات الرسل، على أنها عقبات تحول بين الإنسان وخالقه، وأن الإيمان

(١) قارن: حسين مؤنس، صور من البطولات العربية والأجنبية، القاهرة ط ١ ١٩٩٢، ط ٢ ٢٠٠٠ ص ٢١٣ وما بعدها.

بالله وحده هو سبيل الرحمة والمغفرة، التي هي الجزاء الأوفى للمؤمن، ويكون البابا بذلك وكنيسته خارجين عن الدين.

ويواصل صاحب المقال عرض إنجازات هذا الراهب البسيط، الذي نشأ في مدينة صغيرة في ألمانيا أيسلين، ويتوج هذا الإنجاز للوتر في زعزعة الكنيسة الكاثوليكية بأجمعها والبابوية بجلالها.

ولا يغفل هذا المقال في مدحه لهذا الراهب، أن يذكر إيقاظه للوعي الوطني الألماني، وأنه قاد أمته الألمانية إلى تحقيق حلمها القديم، وتخليصها من استبداد بابوية روما وتسلطها. ويشحذ قلمه بكتاباتة التي عمت أرجاء ألمانيا كلها وعلى رأسها: "حول حرية رجل مسيحي"، و"خطاب إلى نبلاء الشعب الألماني المسيحي"، و"مدخل في الأسر البابلي للكنيسة". وكان ميدان تدريس ونشر هذه المؤلفات الوطنية جامعة فينتبرج، والتي أصبحت تمثل مركزاً مهماً لتعاليم لوتر ودراساتها، متحدية بذلك التعاليم القديمة، التي كانت تضطلع بها الجامعات القديمة مثل جامعة السوربون. وجاءت جماهير وطلاب العلم من كل صوب وحذب ليتلقوا أصول الدين عن مارتن لوتر وزملائه، وليخرج من رحابها العديد من المؤلفات لدعم هذه العقيدة الجديدة وتنمية الشعور القومي الألماني.

يختتم الدكتور مؤنس مقاله الذي يمثل ترنيمة غنائية عن نجاح حركته الإصلاحية، والتي ارتكن فيها إلى ثلاثة محاور يسرّها له الله سبحانه وتعالى، وهي وجود حماية له من قبل ولي الأمر، ووجود عدد من الأصدقاء المخلصين له، المدعّمين لفكره، وأخيراً وجود الميدان الخصب لفكره ودعوته. وجاءت حماية ولي الأمر له، ممثلة في كنف أمير سكسونيا فريدريش الحكيم، الذي تعاطف معه ولم يسلمه لأعدائه المغالين في الضلال، وفي إنشائه لجامعة فينتبرج، والتي كان لوتر أحد أساتذتها. أما الأصدقاء المخلصين، وكان على رأسهم أستاذه ومعلمه، فيليب ميلانكتون، أستاذ اليونانية بجامعة فينتبرج، ومؤلف كتاب الأسس القويمة للكنيسة Luci communis، والذي كان عوناً كبيراً للوتر في ترجمة الإنجيل إلى

الألمانية^(١). أما الميدان الخصب فكان ممثلاً في جامعة فينتبرج، والتي ألفت في رحابها الكتب الكثيرة المؤيدة للعقيدة الجديدة، وولدت تحت سقفها الشعور القومي الألماني، وظهرت أوائل الكتب باللغة الألمانية.^(٢)

يأخذ الدكتور مؤنس على لوثر موقفه الغريب والمستهجَن تجاه مطالب الفلاحين العادلة، والتي نادوا بها في ثورتهم ضد حكامهم من النبلاء والأمراء، واعتبر أن هذا الموقف من الأخطاء التي لا تغفر له، لأنه بموقفه هذا يكون قد ساعد على انتصار الأمراء وسيادة إقطاعيات العصور الوسطى على البلاد، والتي لم تستطع التخلص منها إلا خلال الحرب العالمية الأولى. رغمًا من ذلك فإن الدكتور مؤنس يحاول أن يبرر خطأ لوثر هذا وانضمامه إلى الأمراء من منظور أنه كراهب يجهل الكثير من أسرار السياسة وتطور تاريخ الأمم، إلى جانب أنه كان يكره الثورات وسفك الدماء، وكان لا يرغب أن تصبح حركته الإصلاحية البروتستانتية مرادفة للفوضى. ولعل الأمر الجدير بالذكر هنا أن الدكتور مؤنس استقى معلوماته في هذا المقال عن مصادر ألمانية، وهو أمر يحسب له في أنه أخذ المعلومة من مصادرها الأولى، خلافاً لما درج عليه رجال اللاهوت المسيحيين، الذين كانت معظم مصادره غير ألمانية، وقد عرضنا ذلك بالتفصيل في الفصول

(١) يذكر الدكتور حسين مؤنس في مقاله حديثاً عن لوثر يصف فيه نفسه مقارنة بهذا الصديق: "كنت جلفاً كثير الضوضاء تنثر في نفسي العواصف وأشوق إلى الكفاح تشوقاً، وقد برأني الله على طبع كفيل بأن يعينني على حرب عدد لا يحصى من الجبابرة والشياطين، وأن أقتلع الجذور والأحجار، وأن أجتث الشوك والقتاد، وأن أزيل أشجار الغابات الواسعة، ولكن الأستاذ فيليب أقبل على رقيقاً عطوفاً مستبشراً بما وهبه الله من صفات أفاض الله خيراتها عليه..." ص ٢٢٢.

قارن:

Zitelmann , Arnulf : Ich , Martin Luther- Starke Sprüche über Weiber, Fürsten, Pfaffen

undsoweiter , Frankfurt / Main 1982, Kap. eins :., Ich muss die Klötze und Stämme roden, Dornen und Hecken weghauen, die Pfützen ausfüllen und bin der grobe Holtzfäller, der die Bahn brechen und zurichten muss."

(٢) قارن: حسين مؤنس، صور من البطولات العربية والأجنبية، القاهرة ط ١ ١٩٩٢، ط ٢ ٢٠٠٠، ص ٢٢٢.

السابقة من الكتاب وهي المصادر التي تتناول أحداث حركة الإصلاح الديني بوجه عام. (١)

وكان على رأس المصادر التي أخذ منها الدكتور مؤنس والتي ذكرها في نهاية المقال المشار إليه. (٢)

ونكتفى بهذا القليل من الكثير الذي عرض له هذا المقال، والذي يعطى القارئ بكافة تفصيلاته صورة إيجابية بهيجة لا تحتاج إلى تعليق، غير إضافة ما وقر في عقل وقلب، كاتب المقال من موضوعية وحيدة ونقاء سريرة وصفاء نفس تجاه هذا المصلح، وما قدمه من اجتهاد والذي يراه الإنسان المسلم من منطلق عقيدته أنه حتى في حالة الخطأ يثاب بأجر، وإذا أصاب فيضاعف له هذا الأجر.

(١) نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- الدكتور القس فايز فارس: "أضواء على الإصلاح الإنجيلي"، القاهرة، ١٩٨٤.
 - موريسون: "حياة لوتر"، والذي قام بترجمته القس "باقي صدقة"، القاهرة ١٩٧٧.
 - الدكتور القس حنا جرجس الخضرى: "المصلح مارتن لوتر - حياته وتعاليمه"، القاهرة، ١٩٧٧.
 - الن هوايت: "الصراع الكبير"، وترجمه إسحق فرج الله، ونقحه أنطوان عبيد، ط ٣، بيروت، ١٩٧٧. (طبع من هذا الكتاب عشرون مليون نسخة)
- ويؤخذ على هذه المصادر، أنها أغفلت كلية صلة مارتن لوتر وحركته الإصلاحية بالإسلام، ولعل في هذا الإغفال ما يبرره من منطلق معتقدهم الراسخ الذى سبق أن أشرنا إليه، وهو عدم إقرارهم بنبوة محمد عليه الصلاة والسلام بعقيدته. (المؤلف)

(٢) قارن: حسين مؤنس:

Berger, A.E: Martin Luther in kulturgeschichtlicher Darstellung, 2 Bände, Berlin, 1895

Enders, L.: Dr. Martin Luther – Briefwechsel, 5 Bände, Frankfurt und Stuttgart, 1884-93

Kolde, Th.: Martin Luther. Eine Biographie. Gotha, 1884-93

Kostlin, J.: Martin Luther. Sein Leben und seine Schriften, 2 Bände, 1875

Lang, H.: Martin Luther. Eine religiöse Charakterbild, Berlin, 1890

٤ . ٧ . ٢ دراسة الدكتور محمد خليفة حسن

نعود الى ما عرض له بعض العلماء الباحثين من المسلمين، وهو يمثل في هذا الميدان الواسع نقطة من بحر. ونواصل عرض الدراسة التي اضطلع بها الباحث الدكتور محمد خليفة حسن، أستاذ تاريخ الأديان، بجامعة القاهرة في كتابه: "تاريخ الأديان- دراسة وصفية مقارنة". فبعد دراسة وعرض مستفيضة لأديان العالم التوحيدية وغير التوحيدية، يبلور آراء مارتن لوتر الإصلاحية وعلاقتها بالإسلام في النقاط التالية:

- ١- الاعتقاد برمزية التعميد والعشاء الرباني انطلاقاً من مقولة التبرير بالإيمان، أى أن الإيمان وحده هو وسيلة الخلاص.
- ٢- منع الوساطة الدينية بين الإنسان والله وحض دور القس أو الكاهن في قيامه بدور الوسيط، انطلاقاً من عدم قدرته على التأكد من توبة وندم الخاطئ.
- ٣- اعتبار القداس عقبة أمام الإيمان الذاتى حتى أنه جاهر بإلغائه، كى تزول أية وساطة بين الله والناس عدا وساطة المسيح.
- ٤- الله وهب الخاطئ نعمة الصفح وجعله عضواً في كهنوت كل المؤمنين.
- ٥- الإنسان المبرر بالإيمان يتعامل مباشرة وبشكل حر مع الله وبدون واسطة القداس أو الكهنة.
- ٦- رفض مبدأ عصمة الباباوات والمجامع الكنسية.
- ٧- التركيز على الكتاب المقدس كأساس وحيد للعقيدة النقية.
- ٨- الإيمان الصحيح هو الثقة الشخصية فى المسيح وفى الخلاص الذى يقدمه.
- ٩- كل مسيحى ينال بالروح القدس، نعمة الفهم ونعمة تفسير الوحي.
- ١٠- اعتبار الكهنة مغتصبون لكافة حقوق المؤمنين.

- ١١- الحرية الدينية للمؤمنين هي الطريق الأمثل لحريتهم السياسية والاجتماعية.
- ١٢- الاحتكام إلى نصوص الكتاب المقدس فقط، بمعنى الرجوع إلى الأصول وإتاحة نصوصه للجميع، والعمل على ترجمته إلى اللغات القومية حتى يستطيع الجميع قراءتها وفهمها.
- ١٣- إلغاء عزوبة رجال الكهنوت والاتجاه إلى الزواج وتكوين الأسرة.
- ١٤- عدم تقديس المخلقات الأثرية وآثار القديسين والشهداء.
- ١٥- تحقيق الحرية الكاملة للأمة الألمانية والجهاد لاستقلالها دينيا وسياسيا واقتصاديا عن روما.
- ١٦- نقض الحكم الباباوى وتعاليمه والذي كان يمنح لكل شئ ثمنه.
- ١٧- إزالة الفوارق بين رجال الدين والكهنوت وغيرهم من المدنيين والعلمانيين.
- ١٨- الاهتمام بالروح الفردية وسيادة الفرد واكتسابه ذاتية من خلال قوة الإيمان، التي فيها تكمن الحرية الحقيقية للمسيحي المؤمن بشركته مع المسيح.
- ١٩- إلغاء الفروق بين الكاهن وغير الكاهن، اللهم في ممارسة العمل الذي يشغله، وهو لا يعلو شأنًا عن عمل الفلاح في الحقل أو السيدة في المنزل.
- ٢٠- إبراز أهمية العمل في الحياة الدنيا وربطه بممارسة الشعائر الدينية، فالعمل حلوة وعذوبة ولا مكان للرهبانية.

وينتهي الباحث محمد خليفة إلى قيم سبع في المعتقد البروتستانتي، يرى فيها أنها تعكس اتفاقاً تاماً في أصولها مع الرؤية الإسلامية، وتتجاوب مع النقد الإسلامي للمسيحية، والذي جاء في القرآن وبعض المصادر الإسلامية الأخرى^(١).

ويقرر على استحياء أنه قد يكون هناك استجابات أخرى لهذا الإصلاح البروتستانتي جاء من داخل المجتمع الألماني، ولكن هذا التصور لا يقف عقبة في إمكانية حدوث هذا التأثير الإسلامي، على بعض زعماء الإصلاح وبخاصة على مارتن لوتر نفسه، وهو الأمر الذي يؤيده في العصر الحاضر الكثير من الدراسات الغربية والعلماء في الغرب والشرق. ولا ينكر محايد في أن موقف البروتستانت المسيحي من استخدام الكتاب المقدس كأصل لا بديل له، وتمسكهم بحرية تداوله وتأمينه لجميع المؤمنين به، وكسر احتكاره على رجال الدين، واستخدامه الأمر الذي يمثل حجر الزاوية في الفكر البروتستانتي، وهو أمر مشابه إلى حد كبير بموقف العقيدة الإسلامية من العودة إلى الأصول والعودة إلى الكتاب المقدس، القرآن الكريم، ويكون متاحاً لكل المسلمين ورفض أي احتكار لقراءته وتفسيره وفهمه.

-
- (١) يلخص الدكتور محمد خليفة هذه القيم السبعة على النحو الآتي:
- ١- الاعتراف بالسلطة للكتاب المقدس وحده والاحتكام إليه وقياس أعمال الكنائس وقرارات المجامع عليه.
 - ٢- منح حق قراءة وفهم الكتاب المقدس لكل المؤمنين به فأصبح حق الفهم والتفسير متاحاً للجميع.
 - ٣- لكل كنيسة رئاسة خاصة بها ولا توجد رئاسة عامة.
 - ٤- إنكار استحالة الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه في العشاء الرباني، ويكون العشاء بذلك ذكرى لأعمال المسيح.
 - ٥- إنكار حق الكنييسة في منح الغفران واعتباره مرتبطاً بعمل الإنسان.
 - ٦- إنكار الرهبنة لعدم وجود أصل لها في الكتاب المقدس.
 - ٧- عدم تقديس الصور والتماثيل في الكنائس والسجود لها.
- قارن: محمد خليفة: تاريخ الأديان، ص ٢٣٥ وما بعدها.

٤. ٧. ٣ دراسة الدكتور السيد الشاهد

نعرض لباحث آخر شغل نفسه لفترات طويلة بدراسات متنوعة لقضايا الحوار بين الأديان، وهو "السيد الشاهد"، والذي ضمن آراءه فيما يخص مسائل الإصلاح البروتستانتي في كتابيه: الكتاب الأول: "الخطاب الفلسفي المعاصر من العام إلى الأعم، القاهرة، ٢٠٠٠، والكتاب الثاني: "المسيحية والإسلام - من الجوار إلى الخوار، القاهرة، ٢٠٠١، علاوة على ذلك فقد أسهم بالعديد من المقالات، والتي شارك بها في مؤتمرات عدة في هذا الشأن.

يعرض السيد الشاهد لمارتن لوتر ولمحاولاته المستمرة في إصلاح الكنيسة، مؤكداً "أن ثورة مارتن لوتر والمصلحين من قبله، لم يكن سببها الوحيد الأوضاع الداخلية، ممثلة في فساد الكنيسة الاجتماعي والخلقي، أما السبب الذي يقول به، فهو دخول الفكر الإسلامي عقيدة وفكرًا إلى الغرب، وهو الأمر الذي يتطابق مع رأي جوستاف لوبون في كتابه: "حضارة العرب" حيث يقول: "وظلت أوروبا زمانًا طويلًا لم يبدُ فيها بعض الميل إلى العلم، إلا في القرن الحادي عشر والثاني عشر، حيث رفعوا أكفان الجهل الثقيل عنهم، وولوا وجوههم شطر العرب الذين كانوا أئمة لأهل الغرب، فلم يكن فقط فكر ابن رشد أو غيره من الفلاسفة المسلمين هو السبب الرئيسي، بل الإسلام في مجمله عقيدة وفكرًا، كان هو المحرك للعقل الأوروبي بعد أن أيقظه من سبات، دام طوال عصور الظلام والعصور الوسطى"^(١) وحجة السيد الشاهد في ذلك، أن القرآن الكريم قد ترجم إلى اللاتينية عام ١١٤٣، بتأييد ودعم بطرس المبجل، وتلاه وضع قاموس لاتيني-عربي، مكن علماء الغرب من ترجمة ما يريدون من الكتب، إلى جانب وجود رجال من أهل الكنيسة

(١) قارن: غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠، ص ١٢٥ وما بعدها، قارن أيضًا: السيد الشاهد، الخطاب الفلسفي المعاصر - من العام إلى الأعم، ص ٢٢٣ وما بعدها.

فى القرن الثالث عشر، ممن كانوا على معرفة جيدة بالقرآن، وعلى رأس هؤلاء مارتن لوتر، الذى كان يعرف القرآن معرفة متعمقة، وله كتابات وأبحاث علمية تدل على مدى اهتمامه وتأثره به، مما حدا ببعض رجال الكنيسة المحافظين آنذاك، اتهمه بأنه يريد إقامة مملكة محمد فى أوروبا، بدلا من مملكة عيسى، كما يستشهد السيد الشاهد، علاوة على ذلك بعدد من رفاق لوتر، الذين دخلوا الإسلام. ويواصل السيد الشاهد دراسته ويقول إن من ينظر إلى المذهب البروتستانتي وتعاليمه، فسيجد بسهولة أثرا واضحا لتعاليم الإسلام، وخاصة فيما يتصل بعقيدة التثليث وتفسيرات بنوة عيسى لله، فهى الأعمدة التى مثلت عقيدة الكنيسة آنذاك، ويردد مقولة مأثورة عن لوتر: "أولى أن نكون تحت حكم الأتراك، من أن نكون تحت حكم الباباوات"، وكذلك قوله: "إن المسيح الدجال الحقيقى ليس محمداً، بل البابا فى روما، وأن كنيسة روما هى كنيسة الشيطان". وخص لوتر ذلك فى كتابه الذى أطلق عليه مسمى "ضد الباباوية التى أسسها الشيطان".^(١)

يذكر السيد الشاهد أن التأثير بثقافة أخرى لا شك يفيد الثقافة المتأثرة، قوة أو ضعفاً وهو الأمر الذى قاد أوروبا، إلى شن ما أطلق عليه الحروب الصليبية والتى هدفت فى المقام الأول، إلى إرهاب المسلمين وخلعهم من عقيدتهم والتى هى مصدر تراثهم وثقافتهم والعمل على تنصيرهم، وكانت الثقافة الإسلامية تشكل خطراً كبيراً على ثقافة المجتمع فى الغرب المتسمة بالضحالة، والتى سوف تؤدى لا محالة إلى إلغاء أو إضعاف سلطة الكنيسة التعسفية على أفراد المجتمع، ومن هنا انبثقت فكرتها من داخل الكنيسة، وكانت قياداتها من رجال الكنيسة. يدعم هذا رأى ساذيرن Sazern فى كتابه: "صورة الإسلام فى أوروبا فى العصور الوسطى": "كان كثير من رجال الغرب المسيحى يرقبون بقلق كيف تؤثر القيم الإسلامية على الفهم المسيحى، تأثيراً تدميراً - كما يدعون - عندما تواجهها، لهذا

(١) قارن: السيد الشاهد، الخطاب الفلسفى المعاصر - من العام إلى الأعم، ص ١٩٧ وما بعدها.

قال رجال اللاهوت أن حماية المسيحية من الإسلام لا تكون إلا بضربة عسكرية، يتم فيها الاستيلاء على أرضه وإقناع معتقيه باتخاذ المسيحية ديناً لهم.^(١) ويبدو السيد الشاهد اندهاشه من انتظام النصرانية في جيوش ترفع شعار الدين، الصليب، إذ إن الحروب الصليبية هي أول حرب من النصارى ترفع شعار الدين وتسمى به. والسؤال الذى يفرض نفسه هنا، كيف يتفق ذلك مع مبادئ النصرانية المسالمة والتي تدعو ألا يرد النصرانى على الإيذاء بالمثل:

"وأما أنا فأقول لكم: لا تقاوموا الشر، بل من لطمك على خدك الأيمن، فحول له الآخر أيضاً. ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضاً. ومن يسخرك ميلاً واحداً فاذهب معه اثنين. ومن سألَكَ فأعطه، ومن أراد أن يقترض منك فلا تردّه".^(٢)

فكيف يحدث هذا فى مجتمع يدين بهذه التعاليم، ويشن حرباً هجومية خارج حدود بلاده، أليس ذلك مناقضاً لما يدعون التدين به؟^(٣)

لقد كانت هذه الحروب من وجهة نظرنا، محصلة حتمية من آثار احتكاك النصارى بالمسلمين، ومعرفة مكانة الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال عندهم، ويكتشف هنا رجال الكنيسة هذه الحقيقة التى قادتهم للدعوة لهذه الحرب، ولأول مرة فى تاريخ النصرانية يصدر النداء إلى القتال من البابا، وليس من القيصر، وهى المقولة التى دعمتها وبللتها الكاتبة الألمانية "زيجريد هونكه" فى كتابها

(١) قارن ساذرن: "صورة الإسلام فى أوروبا فى العصور الوسطى"، ص ٢٩٧ .

(٢) الإنجيل – العهد الجديد، القاهرة ١٩٩٩، متى: ٥ / ٣٩-٤٢ ص ٦. قارن أيضاً:

Matthäus 5 / 39- \$2 „ Ich aber sage euch, dass ihr euch dem Bösen nicht widersetzen sollt, sondern wenn dich jemand an deine rechte Backe schlägt, dem halte die andere auch hin. und wenn jemand gegen dich klagen und dir deinen Rock nehmen will, dem lass auch den Mantel. Und wenn dich jemand nötigt, eine Meile mitzugehen, so geh mit ihm zwei. Gib dem, der dich bittet, und wende dich nicht von dem, der etwas von dir borgen will „ S.7 ,in :Die Bibel – nach der Übersetzung von Martin Luther „, 2.Auflage Berlin 1981.

(٣) قارن السيد الشاهد ص ٢٩٨ .

المشهور: "جمال على قباء القيصر" Stuttgart Kamele auf dem Kaisermantel 1976 حينما عرضت لنداء ودعوة البابا أوربان الثاني عام ١٠٩٥ بالمجمع الكنسي بمدينة كليرمونت بفرنسا لشن هذه الحرب قائلا: "إن الذين يموتون وهم في الطريق إلى القتال ضد العرب والأتراك المسلمين، أو بعد وصولهم إلى الشواطئ أو قبل ذلك في الماء، أو أثناء القتال ضد الكفار، سوف تغفر لهم جميع ذنوبهم، وأنا أضمن لهؤلاء هذا الغفران بقدرة الله التي أعطيت لي، لعل الذين كانوا جنودًا مقابل أجر زهيد يلقون الآن الثواب الأبدى".^(١)

هذه العبارات التي قال بها البابا أوربان الثاني ليست سوى ترديد لما جاء في القرآن:

"ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرًا عظيمًا" (النساء ٧٤)

„ So sollen denn diejenigen auf Allahs Weg kämpfen, die das diesseitige Leben für das Jenseits verkaufen. Und wer auf Allahs Weg kämpft und dann getötet wird oder siegt, dem werden Wir großartigen Lohn geben“ (Sure 4/74)

"ولئن قُتلتم في سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون". (آل عمران: الآية ١٥٧)

"Und wenn ihr auf Allahs Weg getötet werdet oder sterbt, so sind Vergebung von Allah und Erbarmen fürwahr besser als all, dass sie zusammentragen." (Sure 3/157)

وتدور عمليات إشغال الفكر وإعمال العقل عن تعليمات الكنيسة بداية من شكوك بيرنجر التوري، في أمر الأفخارستية الخاصة بالعشاء الرباني، حيث يتم تحول الخبز والنبيد إلى لحم ودم المسيح، وشكوك روسلين الكميني (١٠٥٠-١١٢٠)،

(١) قارن السيد الشاهد: الخطاب الفلسفي المعاصر، ص ٢٩٩ وما بعدها.

وبيتروس أبيلارد (١٠٧٩-١١٤٢) اللذين قالا بأنه لا ينبغي أن نؤمن بشيء قبل أن نفهمه، وتلاهم في هذا التوجه عالم الطبيعة روجر بيكون، ومارسيليو البادوانى، ووليم فون أوكام.

كانت الحروب الصليبية من منظور الحبر الباباوى، دفاعًا من جانب الكنيسة عن نفسها بعد أن رأت الزحف الإسلامى الثقافى يكاد أن يطيح بسلطانها، واستمرت المواجهة بعد ذلك إلى فترة أطلق عليها مرحلة الغضب والكراهية العمياء والعمل على دحض الإسلام ونقده، والتي تلتها بعد ذلك مرحلة الفهم، التي جاءت من علوم الإستشراق، وأخيرًا مرحلة الإفادة والتأثر، بداية من عصر التنوير وما تلاه من عصور بعد ذلك. ويؤكد العديد من المؤرخين المنصفين أن الحضارة الغربية، لم يكن لها أن تقوم أصلاً لولا تأثيرها بالفكر الإسلامى، وهذه قضية مسلم بها في الشرق والغرب. وهذا يدل على أن الغرب المسيحى لم يكن يرفض كل شيء في الإسلام، وإنما كان يرفض فقط الاعتراف به كدين صحيح، بعد أن كشفت له عناصر قوته المتمثلة في أنه دين يركز على وحى وعقل وعلم ودين ودنيا وعمل بلا انفصال، مشمولاً بمبادئ سهلة الفهم لكل المستويات العقلية، وهي لا شك صفات لا تتوافر في النصرانية الكنسية.

لقد وجدت الكنيسة نفسها في موقف حرج مصيرى، خاصة بعد انتشار الفكر الإسلامى وبعد ظهور النزعة العقلية والعلمية في بلادها، بداية من القرن الثالث عشر الميلادى، ومع ازدياد النداء لتحديد سلطة الكنيسة وتقليصها وقصرها على أمور الدين. وكان عليها أن تختار بين أن تتنازل عن سلطة الدنيا، وتحتفظ بالسلطة الدينية أو تخسرهما معاً، واختارت الأولى، بعد تردد دام عدة قرون، ثم سمحت لرجالها أن ينكبوا على دراسة الفكر الإسلامى، رغم اختلاف مواقفهم، إلا أنه لا يمكن إنكار تأثيرهم بهذا الفكر، وخاصة في مجال العقيدة، وخير دليل على ذلك هو أن مارتن لوتر الذى انشق عن الكنيسة الكاثوليكية، وأسس المذهب البروتستانتي في النصف الأول من القرن السادس عشر، كان متأثراً إلى حد بعيد في عقيدته

بالإسلام، رغم قسوته الظاهرة على الإسلام والمسلمين وخاصة شخصية الرسول (صلى الله عليه وسلم)، يثبت وجهة النظر هذه تعاليمه التي خالف بها الكنيسة الكاثوليكية في أمور أساسية منها:

١- رفضه للوساطة بين العبد وربّه عن طريق البابا أو للقس في العبادة أو الاعتراف أو طلب الغفران.

٢- رفضه عصمة البابا والنظام الباباوى من أساسه.

٣- تفسيره المخالف في ما يخص عقيدة التثليث وتحريمه القول به في الصلاة.

٤- إمكانية معرفة الله عن طريق الفطرة، أى الطبيعة والوصول إلى المبادئ والقيم الخلقية عن طريق العقل، بشرط الإيمان لأن العقل لا يمكن أن يناقض الله أو يتفوق عليه.

٥- أمره بترجمة الكتاب المقدس إلى اللغات الحية.

٦- الإيمان بالقضاء والقدر مع تحمل الإنسان لمسئولية فعله.

٧- وصفه لكنيسة روما بأنها كنيسة الشيطان والبابا بالمسيح الدجال.

٨- تحريم التماثيل والصور^(١).

٤ . ٧ . ٤ دراسة الإمام محمد عبده

قبل أن نعرض لمحاضرات الإمام أبوزهرة ولمقال الشيخ أمين الخولى، المشار إليهما في مقدمة الكتاب، فإننا نعرض في عجلة سريعة لما ذكره المجدد

(١) قارن: K. Heusi. Kompendium der Kirchengeschichte, Tübingen, 1981, ص ٣٠٣ وما بعدها

الكبير، الإمام محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥)، في "رسالة التوحيد"، الجزء الثالث، تحت عنوان: "الإصلاح الفكري والتربوي والإلهيات".^(١)

يقدم الإمام الشيخ محمد عبده في كتابه المشار إليه، أصول المسيحية الستة، المتمثلة في: الاعتقاد بالخوارق، وسلطة التدرج الرئاسي، والزهد في أمور الدنيا، واللجوء إلى الرهبة، والإيمان بغير المعقول، والاعتقاد باحتواء الكتاب المقدس لكل ما يحتاج إليه البشر، في المعاش والمعاد، والتفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى ولو من الأقربين.^(٢)

يواصل الإمام محمد عبده في عرضه لانقسام وتفرق شيع وأحزاب الإصلاح المسيحي تجاه الكنيسة الكاثوليكية، ويرجع نشأة حركة الإصلاح هذه بوجه عام إلى تعاليم الإسلام، ويشيد بالأدب التي جمعها الصليبيون المحاربون في المشرق، وبالمكاسب العلمية، التي اقتبسها سفراء أوروبا في الأندلس الإسلامية. وكانت الثمرة لكل ذلك مجسدة في حركة الإصلاح الديني المسيحي، وأن المذهب البروتستانتي الجديد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الإسلام.^(٣)

وينتهي الإمام بإبراز الكراهية الشديدة التي كان يكنها مارتن لوتر لأرسطو وفلسفته، وإسباغه لقب الخنزير الدنس والكذاب عليه. ويقارن الإمام ذلك الرأي الخاطئ - من وجهة نظره - بالمقولة المضادة، التي قال بها علماء المسلمين وفلاسفتهم، حينما مدحوا أرسطو ولقبوه، في تواضع جم، بالمعلم الأول، على اعتبار أن فيلسوفهم الكبير، الفارابي المعلم الثاني.^(٤)

(١) قارن: الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم الدكتور. محمد عمارة، ج٣، الإصلاح الفكري والتربوي والإلهيات، ط١، القاهرة، ١٩٩٣، ص ١٨٣ وما بعدها.

(٢) قارن: المرجع السابق، ص ٢٧٧ وما بعدها.

(٣) قارن: المرجع السابق، ص ٤٧٨ وما بعدها.

(٤) قارن: المرجع السابق، ص ٢٩٣.

ويقر الإمام محمد عبده بأن حركة الإصلاح المسيحية أدت إلى رفع السيطرة عن ضمائر الناس وعقولهم، وبزوغ شمس العلم، إلا أنه يعيب على أحد كبارهم، المصلح كالفين Calvin، الذي أصر على عقوبة الإعدام لكل من يخالف مبادئ مسيحيتة.^(١)

٤ . ٧ . ٥ دراسة الشيخ محمد أبوزهرة

نعرض الآن في إيجاز لما جاء في محاضرات الإمام أبوزهرة عن الإصلاح البروتستانتي والتي يذكر فيها الضغط الكبير الذي مارسته الكنيسة الكاثوليكية على المسيحيين وفرض الآراء إلى حد الغلو، بل وحرق وتعذيب كل من تراه يخالف رأيها بلا رفق وبما لا يليق برجال الدين^(٢)، الذين حكموا بالموت على العديد من العلماء والمفكرين أمثال هوس وجيروم وأبيلارد وجاليليو وغيرهم. كما فرضت الكنيسة سلطانها على الملوك والأمراء، وأصبح للبابا السلطان الكامل والمطلق على كل المسيحيين لا فرق بين سائس ومسوس أو حاكم ومحكوم. ويقوم البابا إنوسنت الرابع في عام ١٢٥٠ بعزل ملك فرنسا فريدرش وحرمانه من بركة الكنيسة. علاوة على ذلك فقد أرهقت الكنيسة جماهير المسيحيين بفرض إتاوات مالية باهظة وعلى رأسها صكوك الغفران، لينفقوها وفقاً لرغبات قياداتها وفي غير محلها. وتواصل الكنيسة استبدادها بإعطاء نفسها الحق المطلق في فهم نصوص الكتاب المقدس وتفسيرها دون سائر الناس ولا معقب لما تقول.^(٣)

يذكر الإمام أبوزهرة مسألتين رئيسيتين حفزت رجال الإصلاح في جراءة نحو إصلاح الكنيسة بالحسنى أو بغيرها، وهما مسألة استحالة الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه يوم الفصح ومسألة امتلاك الكنيسة حق الغفران والإفراط

(١) قارن: المرجع السابق، ص ٢٩٢ وما بعدها.

(٢) محمد أبوزهرة: محاضرات في النصرانية... ص ١٥٣.

(٣) المرجع السابق، ص ١٥٥.

فى تطبيقه. الأمر الذى أدى الى نقشى الحياة العابثة والفاسقة بين رجالاتها. ويستنكر البعض منهم هذا الوضع ورفضوا الأخذ بما يسمى بالأسرار المقدسة للكنيسة وعلى رأسها سر الاعتراف ومحو الإثم أو تقريره، ويبرز من بين أولئك المصلحين إيرازموس، وتسفنجلى، وكلفن، ومارتن لوتر.

يعرض الإمام أبوزهرة لسيرة لوتر الذاتية ولنزعته الدينية القوية، رغم دراسته للفلسفة التى لم تبعده عن دراسته للاهوت، بل ظلت عنده خادمة ومتممة له، ويعود لوتر بعد رحلة حج إلى مقر الكنيسة المقدسة فى روما منزعجاً ومصدوماً إلى وطنه ألمانيا، مستنكراً المفاقد والخطايا التى كان يرتكبها رجال الدين، وتشتد ثورته على الكنيسة التى تأمر بمحاكمته وحرمانه فى اجتماع مدينة فورمس ١٥٢١.

. يستخلص الإمام أبوزهرة أهم القيم التى نادى بها لوتر وذلك على النحو التالى:

- ١- إصلاح حال الكنيسة ورجالها لا إلى هدمها ومحاربة سلطانها.
- ٢- عدم النظر إلى البابا على أنه خليفة للمسيح لأنه بشر يخطئ ويصيب.
- ٣- إقرار حق الزواج لرجال الدين.
- ٤- إلغاء حق الكنيسة فى احتكار فهم نصوص الإنجيل وشرحه، وإعطاء هذا الحق لكل مسيحي مثقف.
- ٥- ترجمته الإنجيل إلى الألمانية ليقراه كل الألمان.
- ٦- اعتبار العشاء الربانى تذكيراً لما قام به المسيح من فداء للخليفة.
- ٧- إنكار حق الكنيسة فى الغفران.

٨- إنشاء كنائس جديدة للمذهب الإصلاحى الجديد ترعى آراءهم وتوجهاتهم الدينية سميت بالكنائس الإنجيلية من منظور أنها لا تخضع إلا لأحكام الكتاب المقدس (الإنجيل).

٩- انتشار المذهب الإنجيلى فى ألمانيا، والدنمارك، وسويسرا، وإنجلترا وأمريكا الشمالية.

١٠- إلغاء رئاسة الكنيسة العامة، وإعطاء الحق لكل كنيسة فى أى مكان فى الوعظ الدينى والإرشاد لمن يريد المزيد من المعرفة.

١١- عدم الصلاة بلغة غير مفهومة للمتعبدين ووجوب كون الصلاة بألفاظ يفهمها العابد يردد معانيها ويقصد مراميها.

١٢- إنكار تحول الخبز إلى جسد المسيح والخمر إلى دمه.

١٣- إنكار الرهبنة لأنها تمثل كبت للجسد الإنسانى وتعذيب له من غير ضرورة.

١٤- عدم تقديس الصور والتماثيل فى الكنائس.

وينتهى عرض الإمام أبوزهرة فى بحثه هذا بالاتفاق التام مع ما عرضه أستاذ الجيل أمين الخولى بأن معظم هذه القيم التى نادت بها حركة الإصلاح البروتستانتية بربادة مصلحتها الأكبر مارتن لوتر قد اقتبسها فى الغالب أولئك المصلحون من نور الإسلام.^(١)

٤. ٧. ٦ دراسة الشيخ أمين الخولى

يمثل بحث أستاذ الجيل، الأستاذ أمين الخولى بالنسبة لنا رؤية علمية عميقة، لعالم جليل وقمة خالدة من القيم الإسلامية، لهذا لم يكن مستغرباً من الإمام الأكبر

(١) قارن المرجع السابق، ص ١٧٢ وم بعدها .

الشيخ مصطفى المراغى، حينما فوضه، ليتحدث باسم الأزهر أمام المؤتمر الدولى السادس لعلوم الأديان، والذي انعقد فى بروكسل ببلجيكا عام ١٩٣٥، وذلك عن أحداث حركة الإصلاح الدينى المسيحى وعلاقتها بالقيم والمبادئ الإسلامية، والذي عقب عليه فضيلة الإمام، بأن بحث الأستاذ الخولى يعد من الموضوعات البكر، وهو بحث طريف وغريب. ونحن لا نملك إلا أن نقول إن هذا البحث يمثل القدوة الحسنة فى حرية الفكر ونزاهة النظر الدينى عند كبار علماء المسلمين. ويعتبر صاحب البحث أن مثل تلك الدراسات المتعلقة باتصال الأديان تعد خطوة صالحة فى سبيل السلام العالمى والأخوة الإنسانية.^(١)

وينشأ الاتصال فى العادة بين الأقوام، وخاصة بمخالطتهم ودراسة حياتهم الاجتماعية للأقطار، التى يجاور فيها المسلمون إخوانهم من المسيحيين، ويعتبر أمين الخولى زعيم حركة الإصلاح، مارتن لوتر، رجلا شجاعا وجعل من الإصلاح حقيقة واقعة. ويعرض فى مبحثه لثلاث نقاط رئيسية:

أولها، الاتصال المادى بين العقيدتين.

وثانيها، الاتصال المعنوى والروحى.

والثالث، الاتصال الذى تمخض عن أحداث حركة الإصلاح من منظور إسلامى. ولعله من المفيد أن نوجز هذه النقاط الثلاث على النحو التالى:

بدأ الاتصال المادى مباشرة بعد ظهور الإسلام فى القرن السابع، وانتشاره السريع واستقراره لفترات تطول أو تقصر، فى شرق وجنوب وغرب أوروبا وغالبية شواطئ البحر المتوسط، بل ويذكر المؤرخون أن المسلمين استقر بعضهم فى القرن الثامن والتاسع والعاشر عند مضائق جبال الألب، بل وسيطروا على

(١) قارن: السيد الشاهد، ص ١٧ وما بعدها.

مناطق الاتصال بين فرنسا وإيطاليا وإسبانيا التي تؤدي إلى بقية الممالك الأوروبية وعاشوا هناك ليزرعوا ويعمروا ويتزوجوا ويتناسلوا.^(١)

وتدور الدائرة مع نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادي عشر، وتلقى أوروبا برجالها وشبابها في حرب ضروس، أطلقوا عليها الحروب الصليبية، وقاموا بتأسيس إمارات أوروبية مسيحية في قلب العالم الإسلامي.

إن انتشار الإسلام السريع ونشوب الحروب الصليبية على ما عرضنا، ليمثل لونا من التصادم والتلاقى في نفس الوقت، بين أهل العقيدتين، ويقدم المزيد من المعارف بينهما، سواء من خلال الأسرى الذين يتم أسرهم من كلا الجانبين أو من خلال التفاوض بين قيادات الطرفين. ويذكر ابن خلدون في مقدمته، عن هذه الفترة، أن العديد من الأوربيين كانوا يقاتلون تحت اللواء الإسلامي بالأندلس، وأحيانا ما كان يحدث العكس في استخدام الإفرنج جندا من المسلمين للحرب في صفوفهم. وسأهم ذلك أيضا في الاتصال بشكل مباشر، بل ويذكر بعض المؤرخين أن الإمبراطور فريدريش الثاني الأكبر، فون اشتاوفن، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة، استخدم جيشا عربيا كاملا ضد البابا في روما. ومن طبائع الأمور أن يصاحب هذه الحروب المتبادلة، وهذا الصراع، ألوان من الدعاية لكلا الفريقين من المقاتلين، وبخاصة الدعاية التي تخص الجوانب الروحية والدينية، والتي تضعف أو تقوى الروح المعنوية للمقاتلين، وكثيرا ما كان يحدث ذلك من خلال المنشورات وقصائد الشعر. ويذكر الكامل لابن الأثير ألوانا من دعايات الإمبراطور البيزنطي ناقفور فوقاس الثاني، في حروبه ضد المسلمين، التي استهدف بها الفت في عضد الجيش الإسلامي. ويذكر الخولى أن ناقفور هذا كان ابنا لأحد المسلمين من أهل طرسوس، يعرف بابن الفقاس، وتنصر وعلا شأنه حتى ملك الروم وتوج

(١) لمزيد من المعلومات يرجع لكتابي Ferdinand Keller, M. Renaud عن غارات العرب على فرنسا وسويسرا في القرن الثامن والتاسع ولعاشر) وقام بترجمة الكتابين إلى العربية الأمير شكيب أرسلان تحت عنوان "غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط"

إمبراطورًا عليهم، وقد استخدم في حربه المعنوية ضد المسلمين القصائد الشعرية، والذي أعلن من خلالها عزمه على طرد العرب من الأراضي التي فتحوها، وإرجاعهم إلى أرض الحجاز، وكان يرد على مثل هذه الوسائل الدعائية بأخرى مضادة من جانب قيادات جيوش المسلمين، وكثيرًا ما كانت تمس قضايا وأسس دينية.

أثمرت هذه الحرب المتبادلة عن ما يمكن أن نطلق عليه المحطات الدينية، وهي الأماكن التي يتم اختيارها من قبل الجيش الفاتح، لاستقرار جالية من جنوده ويتبع ذلك بالطبع إنشاء دور للعبادة لهذه الجالية. ويذكر المؤرخون أن ملك الروم أنشأ مسجدًا بالقسطنطينية في عام ٤٤٠ من الهجرة والموافق ١٠٤٨ من الميلاد، وأهداه للخليفة الناصر لدين الله، بهدف أن تقيم فيه الجالية الإسلامية شعائر الصلاة. وحدث نفس الأمر من الجانب المسيحي حينما أسسوا الكثير من دور العبادة في معاقلم بالشام. وكانت تنتهي هذه الحروب بعقد الهدنة وطلب الصلح وتوطيد الصلات بين الطرفين، وتتبادل الوفود التي كان من بينها رجال الدين، مثل اختيار القاضي أبي محمد بن الطيب الباقلاني سفيرًا مفاوضًا بين المسلمين والروم الشرقيين.

يحدثنا ابن الأثير عن أحداث عام ٣٧١هـ عن حوار دار بين الإمبراطور الروماني وبين الباقلاني، وكان الروماني يقصد من هذا الحوار السخرية وإحراج هذا العالم، موجهًا إليه السؤال التالي مطالبًا بالإجابة عنه: "تخبرني عن قصة عائشة زوج نبيكم وما قيل فيها؟" فرد عليه القاضي أبو بكر بما يلي: "هما اثنتان، قيل فيهما ما قيل، زوج نبينا ومريم بنت عمران. فأما زوج نبينا فلم تلد، وأما مريم فجاءت بولد تحمله على كتفها، وكل قد برأها الله مما رميت به." وهذا الرد المفحم للباقلاني على الإمبراطور إن دل على شيء، فإنما يدل على سرعة خاطر أولئك الرسل والمبعوثين لأولى الأمر، معبرين عن هذه المواقف بكل شجاعة ودون خوف أو وجل. ومقابل ذلك على الجانب الآخر ما فعله الملك أوتو Otto

الجرماني، في القرن العاشر عندما أوفد إلى قرطبة أحد علماء اللاهوت، الراهب جان، من دير جورس، بالقرب من مدينة ميتس Metz ، وكان الهدف من إيفاده أن يقيم حوارًا يجادل فيه، الخليفة الناصر الأندلسي، بقصد اعتناقه المسيحية، ومثل هذا الاتصال حدث في صور أخرى، وخاصة بعد انحسار المد الإسلامي، وبعد استرداد جزر البحر المتوسط، وتتنصر معظم مسلميها أو بقاء بعضهم كعبيد وأقليات ضعيفة. حدث هذا في أسبانيا وفرنسا والمجر، حتى أن من بقي منهم على إسلامه كان لسانه لا يختلف عن لسان الغالبية من الفرنجة.

وهناك نوع آخر من الصلات بين أهل الدينين على مستوى القيادات الحاكمة، تدفعهم في ذلك المصالح الخاصة أو السياسية، من خلال وسائل التودد لكلا الطرفين، حتى لو أدى ذلك إلى تجاوز الخلاف وتخطي الحدود الدينية. وكثيرًا ما حدث ذلك الاتصال عن طريق المصاهرة كزواج السلطان العثماني أورخان من تيودورا، ابنة الإمبراطور، والراهب كانتا كوزينو، والتي أبقاها على دينها المسيحي، أو زواج أمير الأندلس عبد العزيز بن موسى بن نصير بأرملة الملك لوزريق، وأطلق عليها اسم وردة المسيحيين، والأمثلة في هذا المجال كثيرة.

وفي مجال آخر تستبين العلاقات بين أهل الديانتين، وذلك في سعي رجال الدين من كلا الطرفين، سلمًا أو حربًا، بهدف نشر دين الطرف تجاه الآخر وكسب المزيد من الأتباع، ولا عجب أن ظلت الكنيستان الشرقية والغربية متحدتين حتى القرن العاشر الميلادي، وظل التعاون بينهما حتى بعد انفصالهما. ويتوجه علماء التبشير ورجال الكنيستين نحو الشرق، مع بداية القرن الثالث عشر للتبشير بين المسلمين، ومثالا لذلك توجه الراهب سان فرانسيسكو^(١) إلى الملك الكامل الأيوبي

(١) مشهور تحت اسم، فرانس فون أسيسي Franz von Assisi ، نسبة إلى المدينة التي عاش فيها عام ١١٨٢ كابن لأحد التجار الأغنياء، توفي عام ١٢٢٦، واتجه إلى التصوف والدعوة إلى المسيحية، عن طريق التجوال بين البلاد، وأسس جماعة الآباء الفرنسيسكيين. وكان من ضمن رحلاته العديدة بلاد المغرب التي حاول أن يقوم بالتبشير فيها، كما شارك في الحملة الصليبية الخامسة على مصر، وحاول مرارًا أن يقنع السلطان محمد الكامل، في دمياط، لاعتناق المسيحية.

فى دمياط ١٢١٦ يدعوه لاعتناق المسيحية هو وأتباعه، والراهب رامون لول (١٢٣٢-١٣١٦)^(١)، الذى كثيرا ما كانت تتتابه مشاعر جادة للتبشير بين المسلمين بالشرق. ويذكر فى هذا الصدد الرسالة المشهورة التى بعث بها البابا ليو الثانى إلى السلطان محمد الفاتح بعد فتح القسطنطينية، يدعوه فيها إلى اعتناق المسيحية شارحا له محاسنها لترغيبه فى ذلك.

يضاف إلى كل ذلك، رحلات وسياحات أهل الملتين من الشرق والغرب، التى كان يقوم بها التجار ورجال الأعمال، والتى كان لها الأثر القوى فى دعم الصلات بين هذه الشعوب. ويذكر فى هذا الصدد الآثار التى تركها تجار المسلمين لدى الأقوام فى إفريقيا وآسيا، مما ساعد على نشر عقيدتهم نتيجة لاختلاطهم مع أهل هذه البلاد وجوهر ومبادئ عقيدتهم، وينسحب ذلك بلا شك على رحلات المسلمين إلى أرض الغرب، وما تركوه من آثار فى فكرهم وعقائدهم.

نعرض الآن إلى العامل الثانى، والذى يتمثل فى الاتصال المعنوى والفكرى والروحى، وهو الاتصال الذى رمزت له الباحثة "زيجريد ونكى" بالميراث الثالث لأوروبا، قاصدة بذلك الفترة التاريخية من القرن الثامن حتى القرن الثالث عشر،

(١) "أحد الفلاسفة الكبار المتصوفين فى القرون الوسطى، بلغت مؤلفاته فى هذا المجال ما يربو عن ستين مجلداً باللاتينية، وأكثر من عشرين بالإسبانية القديمة (الكاتالانية). عاش فترة طفولته وشبابه فى جزيرة مايوركا الإسبانية، إبان الحكم الإسلامى لها. كان من هواة قرض الشعر، كما كان من الدعاة المسيحيين شديدي البأس، وكان من مقصده الأساسى دعوة المسلمين إلى المسيحية، كما كان يميل إلى التصوف، وهو أول من اقترح على رؤساء الكنيسة فى أوروبا تأسيس أقسام علمية لتدريس اللغة العربية فى الجامعات الأوروبية، وهى الفكرة التى تحققت قبل وفاته عندما تم إقرارها فى المجمع الكنسى، بمدينة فينا ١٣١٢، وتأسست خمسة أقسام لتدريس العربية واللغات الشرقية بجامعات باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وسلامانكا، والجامعة البابوية فى روما. بلغت شدة حماسه للدعوة الديلية أثناء شيخوخته، فقد سافر عدة مرات إلى المغرب، وتونس ليدعو المسلمين إلى دين المسيح، وسُجن من جراء هذا الأمر ورجم. توفى عن عمر يناهز ٨٤ عاماً. من أهم مؤلفاته، التى تُبين تأثيره الشديد بالدين الإسلامى وفلسفته وكتابه: "التأمل فى الله"، و"الكافر والعارفون الثلاثة". كان رامون لول بجيد العربية ويؤلف بها، وقرأ مؤلفات ابن سينا، والفارابى، وابن رشد."

مزيد من التفاصيل انظر، براند ماتوثيل فايشر: الشرق فى مرآة الغرب، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٨٣، ص ٣٧ وما بعدها.

حيث ازدهرت الأمة الإسلامية واضعة كافة إمكانياتها في خدمة الإنسانية شرقاً وغرباً، في الوقت الذي ساد الأمم الأوروبية الجهل والامية، بداية من أشرافها وأمرائها، وانتهاء بأدنى مواطنيها، وهي الفترة التي كان للعرب والمسلمين فيها أستاذيتهم وريادتهم وقيامهم بدور المرشد الأمين، في مد الأوروبيين بفروع العلم والمعرفة. ويروى أن البابا سلفستر الثاني عام ٩٩٩ تعلم على أيدي أساتذة من العرب المسلمين، وأن مترجماً يسمى قسطنطين الإفريقي ترجم الكثير من العلوم العربية في القرن الحادي عشر، وحذا حذوه مترجمين آخرين أمثال يوحنا بن داود الأندلسي، وجيرار الكريموني، وأفلاطون التيفولي، في القرن الثاني عشر وازدهرت حركة الترجمة وحلقاتها في صقلية ونابولي وطليطلة وقشطالة وفرنسا، حيث يرعاها الأمراء والملوك وعلى رأسهم الإمبراطور فريديريك الثاني فون اشتاوفون، وابنه مانفريد فريديريك، والفونس الحكيم القشطالي. وترجمت أعمال أرسطو من العربية إلى اللاتينية وغيرها من المؤلفات العربية والإسلامية التي انتشرت في معظم الممالك الأوروبية، ويقودنا هذا إلى أن مثقفي الأوروبيين كانوا على دراية جيدة بالعلوم العربية والإسلامية وخاصة بالفلسفة الإسلامية، وقد دفع هذا الكثير منهم إلى التعمق في دراستها، أو نقل العلوم منها حتى أنه يذكر أن بعض الباباوات والملوك، كانوا يجيدون التحدث بها. ويذكر الراهب بيكون في القرن الثالث عشر أن الفلسفة أخذت عن العرب، ولا يستطيع المرء أن يفهمها كما يجب إلا إذا عرف اللغة التي أخذت منها، وخاصة فلسفة ابن سينا وابن رشد. ومن هذا المنظور أمكن قيام حركات مضادة تجاه الإسلام من الكثيرين في أوروبا، من خلال تعلم العربية والدراسات الشرقية، كأداة لحرب صليبية معنوية. وكان صاحب السبق في هذا المجال الراهب المحب للعربية رامون أول، الذي أسس معاهد ومدارس لنشر التبشير بين المسلمين، وحذت حذوه العديد من الجامعات الأوروبية في إنشاء أماكن مخصصة للدراسات العربية والإسلامية، وساهم في هذا العمل التبشيري اللغة العبرية شقيقة العربية ومشاركة العديد من علماء اليهود، كما ترجمت أعمال كثيرة عربية وإسلامية من العبرية إلى اللاتينية، ولهذا كان لا مفر لزعماء حركة

الإصلاح الدينى فى أوروبا وألمانيا، من أن يتعلموا اللغة العبرية ويجيدوها من أمثال القس يان هوس التشيكى وجون ويكيليف الانجليزى ومارتن لوتر الألمانى والكثيرين من أقرانهم. وساد هذا الاتصال الفكرى عبر تراث العربية والعبرية الفلسفة التى عمت أوروبا فى هذا العصر والتى كان جل اهتمامها الجانب اللاهوتى. ولا ينكر محايد ودارس للفلسفة فى هذا العصر، أنها كانت ذات ريادة إسلامية، وخاصة بعد ترجمة أعمال الغزالى والكندى والفارابى وابن سينا وابن رشد وغيرهم، وقد تجلت سمات هذه الريادة الإسلامية فى أفكار فلاسفة الغرب، من أمثال يوحنا دينيس، اسكوت الاسكتلندى، وكبار المتصوفين من أمثال إيكهارد، وتاولر، والبرشت الكبير، وتوماس الإكوينى. لقد أثرت هذه الريادة الإسلامية على الفكر العقلى والدينى للباحثين من النصارى، الذين وعوا ودرسوا العلوم الإسلامية من مصادرها. ونجد الراهب بطرس المبجل، رئيس دير مدينة كولون بفرنسا، يعضد ترجمة القرآن إلى اللاتينية فى القرن الثانى عشر ١١٢٢م وهى الترجمة التى جاهد لوتر مرارًا للحصول على موافقة السلطات على إصدارها من بلدية بازل ١٥٤٣م، علاوة على ذلك فقد تمت ترجمات كثيرة من العربية إلى اليونانية فى القرن الرابع عشر تحت رعاية إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية فى بيزنطة، يوحنا كنتا كوزينى والملقب بيوحنا السادس، بل وصل الأمر ببعض القساوسة أنهم كانوا يقرأون القرآن بالعربية، وفقًا لرواية القس الإيطالى ريكاردوا المتوفى ١٤٢٠. ولا نغفل فى هذا الشأن البطريرك يحيى، والملقب بحنا الدمشقى، الذى عاش فى القرن الثامن، هو وأبيه، فى قصر الخليفة الأموى، عبد الملك بن مروان فى دمشق، والذى اعتبره الأوربيون أحد كبار علماء اللاهوت المدافعين عن المسيحية، ويجىء من بعده تيودور أبو قره، عالم اليونانية والعربية، والذى ألف أكثر من أربعين كتابًا عن الإسلام واليهودية والمسيحية.

لقد ارتبطت هذه الصلات المعنوية بمجال اللاهوت والفلسفة بهؤلاء العلماء من أمثال بطرس المبجل ١١٤١، الذى درس أصول النظريات الإسلامية فى إسبانيا، ورامون لول، الذى صاغ لاهوته عن العرب ورسالته عن أسماء الله المائة، كل هذا وإن دل على شيء فإنما يدل على قوة اتصال الغرب بالفكر الدينى الإسلامى، وما يتعلق به وبأتباعه.

ولعل دراستنا هذه تقودنا إلى دُرر فترة تاريخية عايشها المسلمون فى الأندلس وذلك من خلال سطور رسالتين متبادلتين منذ أكثر من ألف سنة بين عاهل إنجلترا والخليفة العربى فى الأندلس . تكشف هاتان الرسالتان عن مدى عمق التلاحم بين الحضارات وسمو الحضارة العربية ودورها الرائد فى تقدم الحضارة العالمية. نقدم سطور الرسالتين ونترك التعليق للقارئ :

"من جورج الثانى ملك إنجلترا وغالة والسويد والنرويج إلى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس، صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام، بعد التعظيم والاحترام ، فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة، فأردنا لأبنائنا اقتباس نماذج هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم ونشر أنوار العلم فى بلادنا. وقد وضعنا ابنة شقيقنا الأميرة (دوبانت) على رأس بعثة من بنات أشراف الإنجليز لتكون موضع عناية عظمتكم ورعاية الحاشية الكريمة، وحذب من لدن اللاتى سيتولين تعليمهن. وقد أرفقت مع الأميرة الصغيرة هدية متواضعة لمقامكم الجليل، أرجو التكرم بقبولها ، مع التعظيم والحب الخالص، جورج"^(١)

ولنا أن نعمن النظر فى إجابة الخليفة العربى على هذه الرسالة:

(١) تضمنت هدية سمو ملك إنجلترا ، الملك جورج إلى الخليفة العربى شمعدانين من الذهب الخالص مع أوان ذهبية للطعام عددها ٢٢ قطعة من روائع الفنون السكسونية، قارن : حسن أغا : الرقى العظيم ، الأهرام القاهرية ، ٢٧/ ١٠/ ٢٠٠٤ ص. البريد الألكترونى.

"بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبيه سيد المرسلين، وبعد: إلى ملك إنجلترا وإيكوسيا وإسكندناوة الأجل، لقد اطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعينهم الأمر على طلبكم. وعليه فإننا نعلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من بيت مال المسلمين دلالة على مودتنا لشخصكم الملكي، أما هديتكم فقد تلقيتها بموفور السرور، وبالمقابل أبعث إليكم بغالى الطنافس الأندلسية، وهى من صنع أبنائنا هدية لحضرتكم وفيها المغزى الكافى على التفاتنا ومحبتنا والسلام ،،،هشام (١)"

نعود مرة أخرى إلى أستاذ الجيل أمين الخولى ، ونرى عرضه الموضوعى لحركة الإصلاح البروتستانتي، وارتباطها بالعلوم الإسلامية، وإلى الدور الرائد والكبير الذى تركه العالم الأندلسى أبو محمد على بن أحمد بن حزم الظاهري، الذى جعل من إسبانيا الإسلامية، مرآة صافية تتجلى فيها شتى المذاهب الإسلامية، وأداة مهمة وفعالة فى نقل تأثير العرب المسلمين للغرب المسيحى، أليس هو العالم الذى أخذ المعنى الظاهري للقرآن والأحاديث الموثوق بها، ناقلا كافة أفكار الفرق الإسلامية، التى وُصفت بالشطط ونقدت نقداً شديداً، وأجاب على مواضع الاختلاف اليهودية والمسيحية وفاقته شهرته الآفاق لسنوات طويلة بعد وفاته وحتى يومنا هذا. ويرى الكثير من الدارسين الغربيين أن كبار رجال اللاهوت أمثال بطرس المبجل، استفادوا وعرفوا عن قرب آراء ابن حزم وعلى الأخص قيادات وزعماء حركة الإصلاح الدينى التى وجدت فى البيئة الألمانية تربة خصبة لها.

(١) - يضيف السيد حسن أغا فى مقاله المشار إليه بأنه كان على رأس هذه البعثة الأميرة دويانت ومعه ١٨ (ثمانى عشرة) من بنات الأشراف والأعيان، يرافقهن إلى إشبيلية كبير موظفى القصر الملكى النبيل سيفليك. ويبلغ التلاحم الإنساني نروته إذا علمنا أن كثيراً من هؤلاء المبعوثات لم يعدن بعد ذلك إلى ديارهن، بعد أن ربط الحب والزواج بينهن وبين زملاء الدراسة من الفتية العرب ، منهن الأميرة البلجيكية مارى جوييه التى أحبها وتزوجها الأمير حسن بن المهدي، وشونا ابنة الكونت سيرجاك الهولندى، وربىكا ستلرت من بنات العائلات الألمانية النبيلة. قارن : نفس المصدر السابق.

من جانب آخر لا يمكن أن نغفل أثر الإمبراطور الجرمانى، فريديريك الثانى، وتفضيله الثقافة العربية الإسلامية على الثقافة اليونانية، حتى لقبه الناس بالسلطان المعمد. وكان يعيش هذا الإمبراطور وفقاً لأسلوب عربى إسلامى، حتى أنه أنشأ قصوراً مستقلة خاصة للنساء. وهى ما يطلق عليها الغرب حالياً لفظ "حريم". وقد كانت علاقة فريديريك الثانى هذا بالشرق حميمة، وبلغت أعلى قممها مع مصر وتونس، وخلدته زيجريد هونكه فى كتابها: "شمس الله تسطع على أرض الغرب" "Allahs Sonne auf dem Abendlan" و"جمال على معطف القيصر" "Kamele auf dem Kaisermantel".

ولا نغفل أن نذكر الفونس الحكيم ووالدته الأميرة سيفيفيا، الأسرة الحاكمة، لدولة بافاريا، وهو الأمير الذى يضارع فريدرش الثانى فى حبه للشرق والثقافة الإسلامية، ويضم إليه الفيلسوف البرت الكبير، الذى كان أحد أصدقاء ابن الأمير فريدرش. وكل هؤلاء وغيرهم من المحبين للثقافة الإسلامية، لا شك أنه قد أصابهم حظ غير متواضع منها، ويعطى هذا الحب للثقافة الإسلامية القناعة بوجود صلات قوية مع البيئة الألمانية فى القرن الرابع عشر وهو القرن السابق مباشرة لحركة الإصلاح.

كانت مملكة بافاريا تمثل مركزاً لللاهوت الكاثوليكي، على الرغم من أنها كانت معقلاً لأعداء السلطة الكنسية من رهبان الفرنسيسكان، الذين عملوا فى بلاط الملك لودفيج (لويس)، وهم ما يروى عنهم أنهم من أنصار الفلسفة الرشدية من أمثال مارسيليو دى بادوفا، وأوكام Occam، صاحب التأثير الفكرى القوى على مارتين لوتر، وهو الذى واجه ملك بافاريا فى هذا الشأن بقولته المشهورة: "دافع عني بسيفك، أدافع عنك بقلمى".^(١)

وإن دل هذا على شيء إنما يدل على قوة التأثير الإسلامى على الرهبان والفلاسفة والمتصوفة، وكذلك أيضاً على الجماعات الدينية، مثل جماعة "أخوة

(١) قارن أمين الخولى، ص ٥٣.

وأخوات الفكر الحر"، وذلك على المستوى الأوروبي بوجه عام، وعلى المستوى الألماني "الميدان الأخير لحركة الإصلاح"، بوجه خاص. ونحن نتفق مع الأستاذ الخولى فى مبحثه الشيق المتعمق اتفاقاً تاماً تجاه عرض النتائج التى تمخضت عن هذه الحركة، بداية من القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن السادس عشر، والذي يبين بجلاء ارتباط العقيدة الإسلامية كأحد العناصر القوية والمؤثرة فى حركة الإصلاح هذه وذلك على النحو التالى:

إلغاء سلطة الكنيسة والحد من هيمنتها على حياة الناس فى المجتمعات المسيحية. وكان ذلك انطلاقاً من تحرر بعض الكنائس فى الممالك الشرقية، التى دخلها الإسلام ووضعت تحت رعايته وحمايته. كما ساعد على ترسيخ هذا الأصل ما نتج من ضعف الحماية الدينية بعد إنتهاء الحملات الصليبية.

١- تحرير العقل والفكر انطلاقاً من تأثير المعارف العلمية والفلسفة القادمة من الشرق الإسلامى، وخاصة فلسفة ابن رشد التى قال عنها رينان فى مؤلفه "تراث الإسلام": "إن الرهبان الفرنسيكان كانوا الأنصار الأقوياء للفلسفة الإسلامية ومبادئ ابن رشد فى أوروبا...".^(١) بهذا كان هؤلاء الرهبان أشد المقاومين للسلطة الكنسية، ولذلك كانت فلسفاتهم الملقبة بالفلسفة المدرسية تلقى مصير الحروب الصليبية، بعد أن أخذت على عاتقها فى البداية حماية العقيدة، على يد ألبرت الكبير وتوماس الإكوينى، ولكنها سرعان ما انتهت فيما بعد إلى إحياء حركة عقلية ترفض كل تدعيم للعقيدة أو حماية لها.

٢- ظهور حركات التجديد والخروج على الكنيسة، الذى كان نتيجة لصدى التقدم العقلى المتأثر بالفكر الإسلامى، مثل جماعة الفالدينيين المنتسبين إلى بطرس فالدوس فى مدينة ليون، والذين خرجوا على الكنيسة اقتناعاً منهم بأنها ابتعدت عن أصول الإنجيل، ولم يعتدوا بوساطة رجال اللاهوت، بل عملوا على هدم سلطة

(١) المرجع السابق ص ٥٧ .

البابا. وقد عاش رواد حركة الفرنسيسكان والدومنيكان كمبشرين في الشرق الإسلامي، واستمرت محاولاتهم إلى جانب التبشير بين المسلمين إعادة المسيحيين إلى الحياة المسيحية وفقًا لما جاء في الكتاب المقدس^(١).

وأخيرًا وليس آخرًا، فإننا نذكر فرقة "أخوة وأخوات الفكر الحر" في بافاريا وسويسرا، التي يجنح أعضاؤها إلى شيء من التطرف، وهي الفرقة التي كانت توجهاتها متأثرة بآراء الفيلسوف إيمالاريكو ديبينا، الذي كانت صلته الوثيقة بالفلسفة الإسلامية معروفة، وقد نفت هذه الفرقة ألوهية المسيح ووساطة رجال الإكليروس.

هذا فيما يخص الآثار العامة، أما ما يخص الآثار الخاصة ذات الصلة والعلاقة الوثيقة بقيم ومبادئ الإصلاح البروتستانتي فيمكن أن نرجعها إلى الأصول الآتية:

١- الأصل الأول، والذي غطى جميع الولايات الألمانية وشاع بين مؤيدي هذه الحركة والتمثل في رفض السلطة الكنسية الممثلة في البابا ورفض المجامع اللاهوتية. وقد تمخض هذا الأصل بداية، على يد الفالديين في القرن الثاني عشر في جنوب فرنسا. ومن المعروف صلتهم الوثيقة بالثقافة الإسلامية القريبة منهم في إسبانيا، وكما سبق أن ذكرنا أن رواد هذه الفرقة، هم من أشد القوى في نقد السلطة الكنسية، وانتشار الكثير من الأعمال الأدبية بعد ذلك، ولنا في مسرحية ليسنيج "ناتان الحكيم" قدوة حسنة كمسرحية تناقش فيها، قضايا الأديان الثلاثة. لقد أسست جماعة الفالديين حججها لنقد تأليه البابا والاعتراف بالقضايا وبيع صكوك الغفران التي قررتها كنيسة روما بمقولة: "إن كنوز الصالحات تدخر من أعمال الصالحين،

(١) تنسب حركة الفرنسيسكان إلى الراهب فرنسيسكو الأسيسي الذي عمل مبشرًا بالشرق وهو صاحب اللقاء المشهور مع الملك الكامل في دمياط، أما حركة الدومنيكان فترجع إلى الراهب دومنيكوس الإسباني الأصل والمؤسس لديوان التفتيش في طليطلة ١٢١٦. وكما سبق أن ذكرنا أن رواد هاتين الحركتين كانوا على صلة وثيقة بالبيئة الإسلامية مثل البرت الكبير وروجر بيكون ودينس سكوت وتوماس الإكويني والإسكندر هليسي وغيرهم. (المؤلف)

ليباع منها لغيرهم" وكان تأثير الإسلام واضحًا على فكر هذه الجماعة لدحضهم فكرة بيع التوبة، التي كانت كفكرة أو كأصل تمثل إنجازًا كبيرًا من إنجازات الإصلاح البروتستانتي التي استقاها لوثر من فكر الفيلسوف أوكام، وصاحبه ببيل واثيل، وكان الإسلام في ذلك حاسمًا قاطعًا:

"ولا تزر وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير" (فاطر، الآية ١٨)

„Keine Last tragende Seele nehmt die Last einer anderen auf sich. Und wenn eine Schwerbeladene zum Mittragen ihrer Last aufruft, wird nichts davon für sie getragen, und handelte es sich dabei um einen Verwandten. Du kannst nur diejenigen warnen, die ihren Herrn im Verborgenen fürchten und das Gebet verrichten. Und wer sich läutert, läutert sich nur zu seinem eigenen Vorteil. Und zu Allah ist der Ausgang.“

"كل نفس بما كسبت رهينة" (المدثر، الآية ٣٨)
„Jede Seele haftet für das, was sie erworben hat“

"لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت" (البقرة، الآية ٢٨٦)

„Allah erlegt keiner Seele mehr auf, als sie zu leiste vermag. Ihr kommt nur zu, was sie verdient hat, und angelastet wird hier nur, was sie verdient hat.“

"يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يومًا لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئًا" (لقمان، الآية ٣٣)

„ o ihr Menschen, fürchtet euren Herrn und habt Angst vor einem Tag, an dem weder ein Vater etwas für sein Kind begleichen kann, noch ein Kind für seinen Vater etwas wird begleichen können.“

كل هذه الآيات القرآنية كان يعرفها العديد من المثقفين الأوروبيين، الذين كانوا يجيدون اللاتينية، ولا شك أن المسيحية قد عرفتھا، عندما كانت الكنيسة تباع صكوك الغفران وتستغلھا لتأييد سلطاتھا. وقد تأثر لوتر بفلسفة أوكام التي اعتبرت أن حكومة الخلفاء الراشدين أفضل الحكومات، وأن أشد أنواع الظلم يجيء من ظلم رجال الدين، هذه الحكومة الراشدة التي لا تعطى لنفسها شيئاً من السلطان الديني على الأشخاص، ولا تحتفظ لنفسها بشيء من التميز.

٢- الأصل الثاني، من أصول الإصلاح اعتمد على فكرة أن النجاة والخلص مرتبط بتصحيح العقيدة. فالنجاة منحة من الله يتلقاها كل إنسان من ربه، ودون العمل التوسطي للكنيسة في ذلك، إذ لا وساطة للكنيسة بين الله والناس. إنها عبارات لوتر التي أراد بها إبعاد العقيدة، عن رجال الكنيسة وأن يجعلها حقاً لكل فرد، ولا احتكار لأحد فيها، وهي الأفكار التي أدت إلى إلغاء سلطة البابا، بل بدا لبعض الأوروبيين أن هذه الفكرة وجدت صداها في تصوف مايستر إيكهارت الألماني، والذي تغنى "بأن الروح الإنسانية، نفحة من الأذى وشرارة إلهية، فلا ينبغي أن يقوم شيء من الوسائط بين الله والعقل، بل يتم الاتصال السريع بينهما مباشرة، ولا شك أن هذا المتصوف الألماني كان متأثراً بفلسفة الإمام الغزالي بشهادة العديد من الأوروبيين أنفسهم.^(١)

٣- الأصل الثالث، ويتمثل في أن كلمة الله، هي الرابط الوحيد وأن السلطة مرجعها الكتاب المقدس وحده، ولا شيء غيره ونبذ ما هو غير ذلك، سواء جاء من البابا، أو من المجامع، أو من رجال اللاهوت، وهي فكرة تلاءمت وروح

(١) ولد إيكهارت في عام ١٢٦٠ في مدينة شتراسبورج ودرس اللاهوت في باريس، وعرفت مدرسته باسم المدرسة الصوفية الألمانية وهو أحد كبار الدومنيكان. (المؤلف)

التجديد الدينى. ويرى البعض أن هذه الفكرة هى تلك التى قال بها الفالدينيون، متأثرين بإسبانيا الإسلامية المجاورة لهم والمستندة لفلسفة ابن حزم الذى نادى بأخذ العقيدة من الكتاب وصحيح السنة فقط.

٤- الأصل الرابع، وهو تفسير الكتاب المقدس وحق شرحه وتأويله، وهى الفكرة التى نادى بها حركة الإصلاح البروتستانتي، بأن كل مسيحى له الحق فى تفسير الكتاب المقدس وتأويله، ولقد اصطدمت هذه الفكرة مع الكنيسة الكاثوليكية، كما يرجع هذا الأصل الذى نادى به لوتر إلى العلاقة المتشابهة بين الدين والفلسفة، التى سادت العصور الوسطى، وإلى آراء ابن رشد التى ضمنها كتابه: "فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال"، وهى الفكرة التى حاولت الكنيسة الكاثوليكية أن تقضى عليها فى مهدها، من منطلق أنها السلطة الوحيدة صاحبة الحق فى تفسير نصوص الإنجيل. ومعروف أن هذا الأصل يقول به علماء التفسير فى الإسلام، وينادون بتحكيم الأصول الأدبية والعقلية عند الاشتغال به، ودون سلطة لأحد بعينه فى ذلك، أو الرجوع لسلطة معينة تتولى مراقبة هذا التفسير.

٥- الأصل الخامس، الذى صار حوله جدل كبير وهو قضية سر التناول، سواء أكان هذا الجدل بين المذاهب المسيحية المختلفة، أو بين المدارس الإسلامية. ويطلق على هذا المصطلح "الأفخارستية"، وهو المبدأ الذى يعنى التحول الحقيقى لجسد المسيح ودمه فى القربان، إلى الخبز والنبيذ. وقد اعتمد زعماء الإصلاح فى فكرتهم هذه، بما قال به الراهب بطرس اللومباردى والفلاسفة أوكام، وإيلى ومن بعدهم، مارتن لوتر. وتمخضت هذه الفكرة من المعاناة المتعلقة بالتوفيق بين الدين والفلسفة، ويطلق رجال اللاهوت "مصطلح التناول" إستنادًا إلى العشاء الأخير الذى تناوله المسيح مع تلاميذه وحواريه.

٦- الأصل السادس، "قضية الصور"، وهى القضية التى نادى بإبطال عبادة الصور ورفعها من الكنائس. بل وصل الأمر فى بعض الأحيان إلى تدنيسها وتحطيمها، ويرى المؤرخون أنها قضية قديمة قدم التاريخ المسيحى نفسه، وأنها نشأت فى عصور مبكرة قبل عصر الإصلاح، بل يقال إن فكرتها نشأت قبل ظهور

الإسلام. ويروى عن إمبراطور القسطنطينية الملقب باليساويرى ٧٢٦م أنه أقلق سلام الكنيسة وقام بتحطيم الأصنام داخلها.

وينهى أستاذ الجيل الأستاذ أمين الخولى مبحثه الفريد هذا، بعبارة لألفريد جيوم، تضمنها كتابه: "تراث الإسلام- الترجمة العربية"، تتسم - من وجهة نظرنا- بالموضوعية والحيطة العلمية الحقة، ونصها:

"سوف نرى عندما تخرج إلى النور الكنوز المودعة في دور الكتب الأوروبية، أن تأثير العرب الخالد في حضارة العصور الوسطى، كان أجل شأنًا وأكبر قدرًا مما عرفناه حتى الآن." (١)

ويعلق الأستاذ الخولى بأن ذلك قد يحدث، إذا ما توافرت الرغبة العلمية لدراسة هذه الصلة بين الديانتين في نزاهة وإخلاص. وحتى يتيقن المرء أن أثر الإسلام في حياة أوروبا الدينية لا يقل قيد أنملة عن أثره في حياتها الفلسفية والعلمية والفنية.

(١) قارن أمين الخولى: صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ج ٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣، ص ٧٨.

كلمة ختامية

الخلاصة والنتائج

بعد العرض الذى تضمنته فصول الكتاب السابقة عن مارتن لوتر وحركة الإصلاح البروتستانتي والتي يتبين منها مدى اقترابها من قيم الإسلام ومبادئه أو ابتعادها عنه، كان لزامًا علينا أن نستخلص ما يلى:

١- لم تنل الأبحاث العلمية المتعلقة بحركة الإصلاح المسيحى ومدى صلتها بالإسلام حظها من الاهتمام إلا بعد انشغال الغرب بأحداث الثورة الإيرانية عام ١٩٧٨م وانهيار المعسكر الشيوعى كقوة عظمى أمام قوة الولايات المتحدة الأمريكية التى بدأت تظهر على الساحة الدولية. وهنا نشأت فكرة حوار الحضارات وحوار الأديان؛ سواء كان هذا الحوار بين الإسلام كدين وبين غيره من الأديان الأخرى أو بين حضارة الإسلام وحضارات دول العالم، شرقه وغربه، شماله وجنوبه.

٢- من بين هذه الدراسات القليلة ما تعرض للصلة بين الإسلام والحركة الإصلاحية التى قادها الراهب "مارتن لوتر"، والتي يستبان فى بعضها تقارب ما بين قيم الإسلام ومبادئه، وفى بعضها الآخر تباعد عنه. ويعد هذا التقارب من الإسلام أو التباعد عنه نابعًا من الخوف والقلق الذى تركه زحف الأتراك الساحق داخل الممالك الأوروبية، والذى لم تنج منه الأراضي الألمانية التى اندلعت فيها حركة الإصلاح الدينى آنذاك، الأمر الذى أدى إلى قيام علاقات وصلات دبلوماسية مع العاصمة التركية "إستانبول" من قبل القيصر الكاثوليكي الشاب "كارل الخامس" و"ملكة البندقية" وبعض أمراء المناطق البروتستانتية الألمانية.

٣- خلق هذا الزحف التركى والقلق الذى انتاب مسيحي أوروبا والغرب موقفًا مشابهًا كالذى نعيشه فى عصرنا الحاضر، وهو قيام أولى الأمر آنذاك بالعمل على تأمين ممالكهم من هذا الخطر المتجسد فى الأتراك المسلمين، وفى الاهتمام المتزايد لدى الطبقة المثقفة فى معرفة المزيد عن حضارة وديانة هذا العدو الزاحف، ولتكون هذه المعرفة سلاحًا جيدًا فى مواجهة

هذا الخطر، الأمر الذى حفز شعوب هذه الممالك إلى المزيد من دراسة القرآن والعلوم الإسلامية، والذى أدى بدوره إلى ظهور العديد من المؤلفات والمطبوعات للتعريف بالأتراك وإحياء حركة ترجمة القرآن، التى صدرت بداياتها فى العصور الوسطى. وهذا ما نلاحظه بعد أحداث الحادى عشر من سبتمبر ٢٠٠١ من رواج ملحوظ لدور النشر التى تهتم بكل صغيرة وكبيرة لها صلة بالعقيدة الإسلامية ومن نفاذ الطباعات فى هذا المجال نتيجة الإقبال الشديد على اقتنائها ودراستها. وكان لمارتن لوتر إسهامه الواضح فى هذا الصراع المحتدم من منظور خوفه كراهب ومصلح على مسيحيتته وأتباعها، وخاصةً حينما شاهد العديد من أتباع ديانتته يعتنقون الدين الإسلامى فى البلاد التى حكمها الأتراك.

٤- اتجهت نية مارتن لوتر إلى محاولة ترجمة القرآن بنفسه إلى الألمانية، مثلما فعل فى ترجمة الإنجيل، إلا أن عدم معرفته بالعربية، وتزايد مشاغله مع المناوئين لحركته والرافضين لتوجهاته الإصلاحية ولعقيدة التثليث والمعمدين الجدد أعاقه عن تنفيذ هذا المشروع. ولهذا ترسخت معرفة لوتر للإسلام من خلال ما سمعه عن الأتراك وهى معرفة اتسمت بالسطحية، مما نتج عنها بأن وضعهم ضمن أعداء عقيدته من الملاحدة واليهود علاوة على كونهم غزاة قضوا على الأخضر واليابس فى الممالك الأوروبية التى استولوا عليها. وهو الأمر الذى زاد من حدة مارتن لوتر فى هجومه عليهم وعلى عقيدتهم، التى اعتبرت نبيهم محمدًا خاتم الأنبياء، وهو بذلك قد احتل موقع المسيح، مما بدا للوتر أن تلك العقيدة تمثل العدو الثانى للعقيدة المسيحية وتفرغاً لمضمونها.

٥- يشرع لوتر فى تأليف بعض الكتب عن هذا العدو التركى بهدف تحفيز شعبه للوقوف ضد هذا العدو من منظور سياسى وليس من منظور لاهوتى، ولأن حربه بالسيف - حسب معتقده - ليست وسيلة من وسائل

الكنيسة، اللهم إذا كان الأمر يتعلق بالدفاع عن الوطن وحمايته. واعتبر لوثر الإسلام بأنه عقيدة جماعة مسيحية ضالة من الهراطقة وخليط من اليهودية والمسيحية وبعض الأديان الوثنية الأخرى. إلا أنه لم يغفل في نفس الوقت الإقرار بعقلانية المفاهيم الإسلامية وخاصة في سنواته الأخيرة، التي رأى فيها الخطر المحدق بالكنيسة وبمشروع حركته الإصلاحية.

٦- انتهى لوثر إلى القناعة بأن انتصار الأتراك ما هو إلا عقوبة إلهية ضد الفساد الذي شاع بين المسيحيين، وأن نهاية العالم لاشك قادمة، ويجعل من البابا والتركى العدوين الأساسيين للمسيحية، فالبابا يمثل العدو الأول والأكبر والأخطر؛ لأنه يمثل الشيطان القابع في عقر دار المسيحية، أما التركى ونبيه محمد فتأتى عداوته في المرتبة الثانية بعد البابا- ولهذا جاء تفسيره لنصرهم ونجاحاتهم بأنها عقوبة إلهية. فالخطر التركى عنده هنا خطر عدو قادم من خارج الكنيسة مثله في ذلك مثل خطر اليونان والرومان وغيرهم من الوثنيين.

٧- اعتمد مارتن لوثر في حكمه على الأتراك وعقيدتهم على المعارف السائدة التي قال بها من سبقوه من علماء اللاهوت المسيحي في العصور الوسطى من منظور معاشته الشخصية للدمار الذى ألحقه الأتراك بالممالك الأوروبية، هذا علاوة على عدم احتكاكه بالمسلمين العرب بسبب بعدهم الجغرافى عنه. إلا أنه لم ينكر العديد من العناصر الإيجابية لحضارة الأتراك مقارنة بمثيلتها فى ألمانيا، وشجبه للسلوك الفاحش الذى يحدث كثيراً من النساء الألمانيات، وكثيراً ما كان يُذكر بنى جلدته بالنقاط الإيجابية عند الأتراك المسلمين الذين لا يشربون الخمر ويقتصدون فى الطعام والشراب ويرتدون الثياب المتواضعة والنظيفة ويؤدون الصلاة فى صفوف متجانسة ومتألّفة، بالإضافة إلى ترابطهم وتسامحهم وشجاعتهم فى

قول الحق وهي الأمور التي لا تتوافر عند الكثير من مسيحي أوروبا آنذاك.

٨- أسهم مارتن لوتر في إصدار الترجمة الألمانية للقرآن، والتي اضطلع بها صديقه الراهب "بيلياندر" عام ١٥٤٣ في مدينة بازل، رغم الخطورة التي أبداهها رجال اللاهوت حيال هذا الأمر. وما كان لهذه الترجمة أن تصدر إلا بعد أن قدم لها "مارتن لوتر"، وضممتها وجهات نظره، الأمر الذي دفع أولى الأمر إلى الموافقة على طبعها ونشرها.

وكان لا مفر أن يستعين "مارتن لوتر" بالمعارف السائدة آنذاك داخل الكنيسة والتي تتعلق بدحض القرآن، وإبراز ما جاء فيه من تناقضات تضمنتها الترجمة اللاتينية لـ"ريكاردو دي مونت كروز"، الأمر الذي جعل بعض المؤرخين لسيرة لوتر يعيبون عليه أنه كان من الأحرى به أن يسترشد بترجمة الراهب "تيقولاولوس الكوزاني"، والتي كانت تمثل آنذاك معبراً جيداً ومحاولة جادة لفهم الإسلام. إلا أن عقيدة "مارتن لوتر" كراهب ومصلح ديني أصبحت راسخة في أعماقه، ويصعب عليه تغييرها أو الإقلاع عنها، وخاصة بعد قناعاته الكاملة بعدم إمكانية تحقيق مشروعه التبشيري في تنصير الأتراك واليهود، ومحاولة إدخالهم حظيرة المسيحية، الأمر الذي سبب له المزيد من الاحباط واليأس:

"لم يكن في استطاعتنا البتة تنصير هؤلاء المسلمين، وخاصة الأتراك منهم، ذلك لأنهم شديداً الثبات في عقيدتهم، وبالمثل فإنهم شديداً الثبات في السخرية من عقيدتنا، ولا يتخرجون من إبداء هذه السخرية عبر الضحك والاستهانة بنا، علاوة على ذلك فإن الأتراك واليهود كليهما يعتبران أن الإنجيل كتاب مقزز لا يريدون حتى مجرد ذكره أو سماع اسمه."

ومن هنا جاء رد فعله في نهاية الأمر بأن الأتراك من بين أشد الأعداء الذين ينبغي محاربتهم، من خلال معرفة دقيقة لكتبهم وعقيدتهم، حتى يمكن الانتصار عليهم.

٩- تيقن لوتر أن الإسلام يخلو من عقيدة التثليث ويرفض ألوهية المسيح وبنوته، ومن هنا جاء حكم لوتر السلبي عن الإسلام، الأمر الذي يكاد أن يكون قلباً لنظرية التحريف من جانب "ريكاردو" والتي قال بها المسلمون عن المسيحية، وهو إن دل على شيء فإنما يدل على تناقض واضح، إذ كيف يكون محتوى القرآن خليطاً من كتبهم السابقة، وكيف يكون في نفس الوقت أمراً خاطئاً رغم إغفالهم التام ذكر القرآن في العهد القديم أو الجديد.

١٠- ينتقد لوتر ما تضمنه القرآن من أساليب بلاغية وتعبيرات جمالية، وخاصة فيما يتعلق بتأثيرها حينما تتلى على السامعين من المسلمين، واعتبر هذا الأمر غير مرغوب فيه ومعييب في نفس الوقت، من منظور أنه على الكتب المنزلة والموحي بها أن تتأى عن ذلك. ويمثل هذا الرأي من وجهة نظرنا تناقضاً لا يتفق وقيم حركته الإصلاحية الإنجيلية، التي اعتمدت أساساً على تمجيد لوتر للغناء والموسيقى والإنشاد، وسلاح اللغة وجمال أساليبها وقوة تأثيرها على جماهير الشعب، وهي القيم التي لولاها ما كتب لحركته الإصلاحية النجاح. ورغمنا من تناقضه هذا إلا أنه اعتبر دراسة القرآن وفهمه أداة فعالة لمحاربة أعدائه، الأتراك وغيرهم، وعلى رأسهم عدوه الأساسي المتمثل في بابا روما، وكافة الحركات المناهضة له والذين خالفوه الرأي، وعلى رأسهم الراهب العالم "ميشائيل سيرفيت".

١١- أبانت دراستنا لتوجهات "لوتر" الإصلاحية أموراً مثيرة وغريبة ومتناقضة فيما يخص صلة العقيدة المسيحية بالعقل الإنساني وإنكاره لقدرات هذا العقل، بل واعتبر استخدام العقل في الأمور العقائدية ضرباً

من الحماسة ونوعاً من الغباء، رغم أنه في سنواته الأخيرة تقبل توجهات الفلسفة المدرسية التي نادى بها "توماس الأكويني"، والتي حاولت أن تجد حلاً توافقياً لهذا التناقض بين المسيحية والعقل، وذلك من خلال إحياء آراء "أرسطو" و"ابن سينا" و"ابن رشد" و"ويليام فون أوكام"، والتي حددت قدرات العقل الإنساني تجاه الرب، وأن الأعمال الصالحة كثرت أو قلت فهي مجرد جهد إنساني لعقله، الذي هو في الأصل منة من الإله، الأمر الذي قاد "لوتر" أن يرى في هذا العقل نبعا إنسانياً مبتكراً، ومنحة إلهية يتمتع بها المؤمن والكافر. إلا أنه لم يذهب بعيداً عما انتهت إليه المدرسة الفلسفية انطلاقاً من مبدأه أن تكون الفلسفة خادمة للعقيدة وليس العكس، واعتبر أن العقل من هذا المنظور أمراً تحوطه الغرابة، حتى أنه شبه العقل الأرسطي بامرأة عاهرة. ومن ثم يرى "لوتر" أن العقل ينبغي ألا يخرج عن إطار وظيفته الدنيوية المحدودة، وألا يتدخل في أمور العقيدة، وألا يكون وصياً أو رقيباً على الرب. وهنا يمكن الإشارة إلى مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية البالغة الأهمية في هذا الموضوع التي أعطت فكراً غير مسبوق في بيان العلاقة بين العقل والنقل وإزالة التناقض الظاهري الذي قد ينشأ بينهما بسبب عدم صحة النقل أو عدم صراحة العقل.

ثمة تناقض آخر نجده أيضاً عند "مارتن لوتر" في صياغته لحكايات "إيسوب" والتي صاغها على لسان الحيوان والطير، وفي إكسابها قيماً تقوم على العقل والحكمة، فضلاً عن ذلك إطراؤه للعلم الوافر الذي أفاء به علماء المسلمين على الغرب المسيحي في مجال الفلك والطبيعة والطب والرياضيات، ووصفاً إياهم بالعقلانيين مثلهم في ذلك مثل مفكرى اليونان والرومان مثل "أفلاطون" و"شايرون"، ورغم تمجيده إياهم اعتبرهم في نفس الوقت ممن ضلوا الطريق لاستخدامهم العقل والفلسفة.

١٢- رغم هذه التناقضات التي وقع فيها "لوتر" إلا أننا نرى في قيم حركته الإصلاحية أنها اعتمدت في المقام الأول على تقديم الرأي العقلاني ضد العقيدة المسيحية السائدة آنذاك والتي أصابها الجمود والركود وطغيان المادة واستغلال البسطاء، الأمر الذي انتهى "بلوتر" إلى نقده المريع لصكوك الغفران وحياة العزوبة والرهينة لرجال الإكليروس وتقديس رفات الأولياء وتمثيلهم وصورهم وتوسط رجال اللاهوت بين العبد والرب، وانتهى إلى رفضها، الأمر الذي دعا كثيرًا من الدارسين شرقًا وغربًا إلى القول بالتقارب الشديد بين قيم حركته الإصلاحية وبين قيم ومبادئ الإسلام.

١٣- تطرقت كوكبة من كبار المفكرين المسلمين في دراستهم لحركة الإصلاح الديني في أوروبا بوجه عام وألمانيا بوجه خاص، وبالتالي لرائد هذه الحركة وزعيمها الراهب "مارتن لوتر". وانتهى هؤلاء المفكرون في دراساتهم المرتكزة على عقلانية الدين الإسلامي وقيمه الرافضة أوجه الفساد في المجتمع، وذلك قياسًا بما كان سائدًا في تقاليد الكنيسة الكاثوليكية الجامدة، والتي ثارت عليها حركة الإصلاح البروتستانتية، مقدمة بذلك مجموعة من المبادئ والحجج الإصلاحية مضيئة تقاربًا مع المنظور الإسلامي، وخاصة فيما أدلت به في قضايا عصمة البابا، وسلطاته المطلقة في تفسير الكتاب المقدس، وتوسط رجال اللاهوت في غفران خطايا البشر، علاوة على رفض الرهينة وحياة العزوبة، وتقديس رفات القديسين وصورهم ومخلفاتهم.

١٤- حفز أولئك المفكرون المسلمون في حكمهم وتقييمهم لحركة الإصلاح الديني وذلك لما تدعو إليه من الأمور الإيجابية مثل رفض حياة المعاناة والبؤس التي لقيها بسطاء المؤمنين الفقراء، والأخذ بالجوانب المشرقة الإنسانية، وأن يكون رجوع أولئك المؤمنين إلى الله مباشرة ودون

وساطة، ودعوة رجال الإكليروس للزواج كشريعة إلهية، وحق التعلم والعمل، والاستمتاع بكافة مباحج الطبيعة كمنة وهبة عظيمة من قبل الرب.

١٥- ويلاحظ على وجهات نظر الدارسين من المسلمين بداية من "الإمام محمد عبده" وحتى يومنا هذا أنهم أغفلوا الجوانب السلبية والتناقضات التي وقع فيها مارتن لوتر وعلى رأسها آراؤه السلبية ضد الإسلام والمسلمين المتمثلين في الأتراك الذين عرفهم عن قرب.

واقصرت دراستهم في التركيز على أوجه التقارب بين حركة الإصلاح وبين المفاهيم الإسلامية، ولعل أبرز مثال واضح لذلك هو ما عرض له المؤرخ الإسلامي "الدكتور حسين مؤنس" من تمجيد لشخصية مارتن لوتر كراهب قدوة، وكرجل من رجال الله الصالحين، رغم موقفه العدائي الواضح من ثورة الفلاحين في وطنه، ودعاه للأمراء والنظام الإقطاعي.

١٦- اعتبر "الدكتور/ محمد خليفة حسن" حركة الإصلاح الديني المسيحي مجرد تغيير كنسي داخلي بهدف معالجة الأحوال المتدهورة في الإكليروس الكاثوليكي داخل بابوية روما، بداية من حركة الفالدينين، وجماعات الرهبان المتسولين أمثال "الوكليفيين" و"الهوسيتيين"، وعلماء حركة الإنسانيات أمثال "أولريش فون هوتن" و"جون ويكلف" و"يان هوس" و"جيروم البراجي" و"سافونا رولا"، ونهاية "مارتن لوتر"، و"كالفين"، و"إرازموس فون روتردام"، و"تسفنجلي". ويستقر في وعي "الدكتور خليفة" وجود تطابق واقترب للتوجهات البروتستانتية مع الرؤية الإسلامية، إلى جانب تجاوبها مع النقد الإسلامي للمسيحية، كما ورد في القرآن الكريم وفي المصادر الإسلامية الأخرى.

أما ما أثاره الدكتور محمد خليفة بشأن إمكانية حدوث تأثير إسلامي من عدمه على زعماء حركة الإصلاح، وعلى رأسهم مارتن لوتر نفسه، تأتي إجابته على النحو التالي وهو أن هناك بعضاً من الدراسات الغربية في هذا الشأن، إلا أنه أغفل ذكرها تماماً، متعللاً بأنها غير وافية.

ولعل الدراسات التي عرضنا لها في هذا الشأن - وهي دراسات تفصيلية - تتعلق بحركة "لوتر" الإصلاحية والإسلام لتعد بمثابة رد كاف على تساؤل "الدكتور خليفة". وعلى رأسها العديد من مقالات "لودفيج هاجمان" و"إدموند فيير" و"فالتر بلتز"، "هارتموت بوبسين" و"جيرنوت روتر" وغيرهم، علاوة على اشتغال "لوتر" بترجمة القرآن، ومحاولة دحضه، ولم يكن اهتمام مارتن لوتر بالإسلام أمراً فرعياً، ولكن كان من القضايا الجوهرية التي كابدها وعاشها كما أسلفنا.

١٧- ذهب الدكتور "السيد محمد الشاهد" في عرضه الموجز لأهم الشخصيات التي عارضت سلطة رجال الكنيسة المطلقة، الأمر الذي أدى إلى تأخر تطور الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى عن غيرها، واعتبر دخول الفكر الإسلامي كعقيدة إلى الغرب، كمحرك للعقل الأوربي، وأن "مارتن لوتر" على رأس من اهتموا بدراسة القرآن، بل وعقد العزم على ترجمته، ورغم حملته القاسية على القرآن ونبي المسلمين، إلا أنه لم ينج من اتهام معارضيته من رجال الإكليروس بأنه يريد إقامة "مملكة محمد" في أوروبا بدلاً من "مملكة عيسى"، وينتهي "الدكتور الشاهد" إلى تقارب واضح بين تعاليم المذهب البروتستانتي وبين تعاليم الإسلام.

١٨- يخلص "الإمام محمد أبو زهرة" في محاضراته عن النصرانية إلى وجود تقارب جلي بين قيم الإصلاح الديني البروتستانتي وبين قيم الإسلام، ولم يكن هذا ليحدث إلا مع سيادة العقل الإنساني لدى مثقفي أوروبا، الذين رأوا عن قناعة ومن خلال الدراسات التي تلقوها على يد أساتذة مسلمين، مستبشرين

بروح عقيدتهم التي ترفض أية سلطة لأحد من رجال الدين على قلوب المؤمنين، وأنه لا توجد وساطة بين الله والعبد، ويستطيع العبد أن يدعو في كل وقت، فيجده قريباً منه.

ونجد ثمة تشابه بين رأى "الإمام محمد أبو زهرة" والاتجاه الذى عرض له "الدكتور الفيومي" حينما ذكر أنه لولا المسلمون لبقى الأوروبيون يهيمنون فى ظلمات الجهل، ولو لم يأت المسلمون إلى أوروبا لما نشأت البروتستانتية.

علوة على هذا ينتقد "أبو زهرة" دور الكنيسة الكاثوليكية وطريقها الخاطئ الذى ظهر واضحاً فى قرارات المجامع الكنسية التى عقدتها، وإصدارها للعديد من قرارات الحرمان والطرْد لكل مفكر يوافق رأيه العقل ويخالف رأى الكنيسة، ووصل هذا الاستبداد الكنسى قمته فى إرهاب المسيحيين وفرض الضرائب الباهظة عليهم من قبل الكنيسة، وإذا بهم ينفقونها بترف بالغ فى متاع الدنيا العارض، حتى أنها سنت بدعة "صكوك الغفران"، التى مكنت رجال الكنيسة من ابتزاز أموال الناس لينالوا بها عرض الدنيا، وفى نفس الوقت لينال بها العصاة الهراطقة. دون حرج مغفرة الرب، مما جعلهم يرتكبون ما يشاءون من معاصٍ لقناعتهم بأن هذه الصكوك سوف تغفر لهم ما تقدم وما تأخر من ذنوبهم. ويعرض "الإمام/ أبو زهرة" فى إيجاز شديد للسيرة الذاتية "لمارتن لوتر" وإلى نزعتة الدينية وزيارته لروما مقر الكنيسة المقدسة، ليجدها مدينة لاهية عابثة، حيث يرى بنفسه أقرانه من رجال الإكليروس الذين دنستهم المفاصد زاعمين أن بيدهم مفاتيح الملكوت فى السماوات والأرض، وسر التوبة، وأبواب الغفران. ورغم ثورة لوتر على أولئك الغلاة فى الفساد فإنه لم يكن يرغب على الإطلاق هدم الكنيسة وإنما كان يريد إصلاح حالها، وحال رجالها، وإعطائهم من الحق ما أعطته لهم الكتب المقدسة. وكان من أهم إنجازاته فى هذا الشأن

انشغاله بترجمة الإنجيل إلى الألمانية ليجعل لكل مسيحي مثقف الحق في فهم نصوصه، وليتمكن كل ألماني من قراءته واستخدامه في أمور دينه ودنياه، هذا ولا ينسى "الإمام/ أبو زهرة" إبراز آراء بعض زعماء حركة الإصلاح الآخرين أمثال: "تسفنجلي" في سويسرا و"كلفين" في فرنسا.

وينتهي "الإمام أبو زهرة" في دراسته القيمة إلى حصر لأهم قيم ومبادئ الإصلاح المتمثلة في الرجوع لنصوص الكتاب المقدس وفي رفض مبدأ الرئاسة والتدرج الوظيفي في الكنيسة، كذلك رفض سلطة الغفران لرجل الدين، وعدم الصلاة بلغة غير معروفة أو مفهومة، ورفض الرهبنة والعزوبية، وأخيراً إنكار قدسية الصور والتماثيل ورفات القديسين. ورغماً من كل هذه الإيجابيات يرى "الإمام أبو زهرة" أن حركة الإصلاح لم تسر إلى مسك ختامها وذلك بعودة تلك الديانة إلى جذورها الأولى التوحيدية وسارت في طريق آخر وذلك بسبب ما دعت إليه كافة المجامع الكنسية، وأن يتجه المسيحيون إلى لب العقيدة، مستشهدين في ذلك برأى "رينان" و"تولستوي"، واعتبار المسيح رسولاً كغيره من الرسل، وأن الله واحد أحد يعتقد به اليهود والمسيحيون والمسلمون.

١٩- عرضت دراسة "الشيخ أمين الخولي" لصلة الإسلام بالإصلاح المسيحي في أوروبا والتي أعدها أثناء إقامته في إيطاليا (روما)، وعرض بعض قطوف منها في مؤتمر "بروكسل" عام ١٩٣٦ بتكليف من شيخ الأزهر آنذاك "الشيخ محمد مصطفى المراغي". إلا أن هذه الدراسة لم تجد الاهتمام الكافي من قبل الدارسين المسلمين أو من غيرهم، اللهم ما جاء بشكل هامشي عابر من بعض أقرانه وتلاميذه من أمثال "الإمام أبو زهرة" و"محمد الفيومي" و"عبد الرحمن بدوي" و"محمد عمارة"، بل أن البعض منهم للأسف قد أغفلها إغفالاً تاماً - رغم أنها دراسة سابقة لدراساتهم بأكثر من سبعين عاماً - خاصة فيما عرض له "محمد خليفة" و"السيد الشاهد".

ولا شك أن الدراسة التي قام بها "الشيخ الخولي" تعد من الدراسات الجادة، والتي تُعدّد الصلات والتأثيرات المتبادلة بين حركة الإصلاح البروتستانتي وبين القيم والمبادئ الإسلامية التي سادت أوروبا في العصور الوسطى.

وانتهج "الشيخ الخولي" منهجًا علميًا مقبولاً، حيث أبرز محتوى الاتصال المادى والمعنوى بين قيم الإصلاح البروتستانتي وقيم الإسلام، وما تركته حركة الإصلاح من آثار على الحياة الفكرية الأوروبية، كما يعرض "الشيخ الخولي" بعضاً مما ذكره مؤرخو الغرب عن قلوب الجنود المسلمين الذين انقطعت بهم السبل أثناء الفتوحات الإسلامية في أوروبا، وطاب لهم المقام، وأن ما تبقى منهم بعد هزيمتهم في فرنسا على يد "كارل مارتل" في معركة "توروبواتيه" عام ٧٣٢م، أن انتشروا في أنحاء عديدة في جنوب أوروبا، وسيطروا على العديد من المناطق في إيطاليا وفرنسا وألمانيا في الفترة من القرن الثامن وحتى القرن الرابع عشر، وأحكموا سيطرتهم على الطرق بين جنوب وشمال أوروبا، بل ويذكر "الشيخ الخولي" أنهم أقاموا لسنوات طوال بمدينة "أفنيون" التي أصبحت فيما بعد مقراً أساسياً للبابا؛ وهو الأمر الذي يعنى به "الشيخ الخولي" بالاتصال المادى. وينهى الشيخ الخولى مقولته هذه بأن هؤلاء استوطنوا في هذه المناطق من أوروبا وعملوا وتزوجوا ونسلوا فيها. ويرى "الشيخ الخولى" أن هذا الاتصال قريب الشبه بما حدث في الممالك الصليبية في الشرق والأندلس وجزر البحر المتوسط، وفي النهاية يخلص "الشيخ الخولى" بأن هؤلاء الجنود الذين أصبحوا فيما بعد من سكان أوروبا يمثلون نواة المصلحين والتأثيرين على ظلم الكنيسة الكاثوليكية واندلاع حركات الإصلاح السابقة "لمارتن لوتر" من منظور تشبعهم بالفكر الإسلامى قبل استقرارهم النهائى فى هذه المناطق واحتكاكهم بسكانها.

أما فيما يخص الاتصال الروحى فقد تمثّل فيما عرف بحرب المنشورات المتبادلة، وتوظيف سلاح اللغة نثرًا وشعرًا بين كلا الطرفين المتحاربين، وكانت هذه المنشورات تحوى الكثير من القيم لكلا الديانتين. وخاصة في

أوقات الهدنة، حيث يسود السلام بين كلا الطرفين وليلعب الاتصال الدبلوماسي والسياسي دوره فيها بين قيادات الطرفين، ويركز "الشيخ الخولى" في دراسته هذه على اهتمام الأوربيين البالغ بالعلم العربى وباللغة العربية، وعلى رأسهم الإمبراطور "فريدريش الثانى" وابنه "مانفريد"، وتشجيعهم لحركة الترجمة من العلم الإسلامى والفلسفة الإسلامية، وتظهر أسماء عربية في سماء أوروبا أمثال: "الكندى" و"الفارابى" و"ابن سينا" و"ابن رشد" و"الغزالى"، وهم الأعلام الذين ترجمت معظم أعمالهم إلى اللغة اللاتينية، واستقبلها كثير من علماء أوروبا استقبالا طيبًا، مما حدا بمجموعات منهم إلى انتقاد سلطة الكنيسة وسيطرتها على الحياة العامة، وكان ذلك نتيجة منطقية للتأثير الإسلامى على آرائهم، وباعتًا على حركة الإصلاح البروتستانتى التى قامت فيما بعد .

٢٠- توضح دراسة "الشيخ الخولى" أهم مظاهر التأثير الإسلامى على حياة المسيحيين فى الغرب، وأبرزها الحد من سلطان الكنيسة وتحرير العقل وظهور حركات التجديد والتى سميت فيما بعد بحركات الخروج على الكنيسة، ورفض سلطة الباب، ورفض قرارات المجامع الكنسية، والعودة إلى كلمة الله فى الكتاب المقدس، وأن يكون لكل مسيحى الحق فى قراءة وتفسير الإنجيل بلغة مفهومة، وأخيرًا موضوع التناول، وإنكار الاستحالة الحقيقية لجسد المسيح ودمه إلى الخبز والنبيذ. ولا ينسى "الشيخ الخولى" فى نهاية بحثه ذكر تحريم الصور والتماثيل فى بيوت العبادة المسيحية كأحد المفاهيم البروتستانتية؛ الأمر الذى يتبين منه وجود ثمة تقارب بين قيم الإسلام وقيم الإصلاح البروتستانتى.

٢١- كان أول من عرض للتقارب بين قيم الإسلام وقيم الإصلاح هو ما أدلى به "الإمام محمد عبده" فى الجزء التاسع من رسالة التوحيد، والتى قام بتحقيقها "الدكتور محمد عمارة"، حيث انتهى فيها إلى العديد من أوجه التشابه باستثناء عدم الإقرار بنبوة محمد (صلى الله عليه وسلم).

٢٢- بعد موضوع لوتر والإسلام من أكثر الموضوعات التي لقيت في الآونة الأخيرة دراسات مستفيضة ومناقشات عدة واهتمامات بالغة، إلا أنه لم يتبين منها بوضوح ذلك التقارب والتباعد بين كلا الفكرين.

ويرى فريق من المفكرين الأوروبيين أن التاريخ الأوروبي نشأ نتيجة تطور أفكار نابغة من داخل المجتمع الأوروبي نفسه، وأن حركة الإصلاح ما هي إلا نتيجة الموقف الداخلي المتدهور في الكنيسة الكاثوليكية في ذلك الوقت.

يتفق مع هذا الرأي الباحث المصري "الدكتور محمد خليفه حسن"، والذي يرى أن حركة الإصلاح قضية داخلية تمس الكنيسة والديانة المسيحية بالدرجة الأولى. ويرى الفريق الآخر بوجود تقارب بين قيم حركة الإصلاح والقيم الإسلامية وعلى رأسهم "الشيخ أمين الخولي" و"الإمام محمد أبوزهرة"، وهي دراسات لم تجد طريقاً ممهداً بين علماء اللاهوت.

كما ظهر فريق متقف آخر استولت عليه نزعة الفكر الأوروبي، وما ينشر في وسائل الإعلام الغربية عن احتياج الإسلام إلى مصلح ومجدد مثل "مارتن لوتر"، الأمر الذي شجع كثيراً من علماء الإسلام على الرد على هؤلاء المتقفين، وذلك من خلال دراساتهم لما نادى به "لوتر" من وجهة النظر الإسلامية، وهو الأمر الذي عرضنا له في فصول سابقة من هذا الكتاب.

لعل كتابنا هذا يمثل إضافة لما قدمه "الأستاذ الخولي" استمراراً لهذه الرسالة السامية ولأهمية هذا الأمر ولجديته، وحتى تزول الغشاوة عن أعين المتشددین والمتعصبين، من أتباع الديانتين متوخين في ذلك منهج إمامنا "الخولي" بالحيادة الكاملة والأمانة العلمية، وعرض وجهات النظر من مصادرها الأصلية، لكل من أدلى بدلوه في هذا الموضوع.

سجل بالأحداث التاريخية المهمة لحركة الإصلاح الدينى

- ١٤٨٣ مولد مارتن لوتر فى العاشر من نوفمبر بمدينة آيسلين.
- ١٤٨٤ نزوح هانس لوتر والإقامة بمدينة مانسفيلد التى اشتغل فيها بأعمال التعدين، ومولد المصلح السويسرى تسفنجلى، وصدر مرسوم البابا أنوسنت الثامن الخاص بمطاردة المشعورين والسحرة باعتبارهم هراطقة.
- ١٤٨٦ تولى الأمير فريدريش الحكيم كأمر منتخب لولاية سكسونيا، وتولى ماكسميليان الأول ملكاً لألمانيا.
- ١٤٨٧ رحلة برتولوميو دياز الى رأس الرجاء الصالح.
- ١٤٨٨ أول التحاق للوتر بالمدرسة فى مدينة مانسفيلد.
- ١٤٩٢ بداية ولاية البابا الكسندر الخامس لعرش البابوية فى روما، واكتشاف كولومبس كوبا وجزر هاييتى وأمريكا، واختراع العالم الألمانى مارتن بيهام أول كرة أرضية.
- ١٤٩٣ بداية تولى ماكسميليان قيصرًا للإمبراطورية الألمانية.
- ١٤٩٦ مولد القيصر كارل الخامس، حفيد ماكسميليان.
- ١٤٩٧ انتقال لوتر لمدرسة ماجدبورج ثم مدرسة أيزناخ، ومولد فيليب ميلانشتون فى ١٦ فبراير.
- ١٤٩٨ انتشار رسومات الفنان الألمانى ألبرشت دورر: عن نهاية العالم وعن الفارس والموت والشيطان، واكتشاف فاسكو ديجاما للهند.
- ١٤٩٩ نشوب الحرب التى دارت بين القيصر المتحالف مع الشفابيين ضد سويسرا.
- ١٥٠٠ اختراع العالم الألمانى بيتر هينلين لأول ساعة جيب.

- ١٥٠١ بداية دراسة لوتر بجامعة إيرفورت التي حصل منها في عام ١٥٠٢ على درجة البكالوريوس.
- ١٥٠٣ بداية ولاية يوليوس الثاني عرش البابوية.
- ١٥٠٥ حصول لوتر على درجة الماجستير وقراره في ١٧ يوليو دخول دير الرهبان الأوجستينيين، وتعيين الرسام الألماني المشهور لوكاس كراناخ في بلاط الأمير فريدرش بمدينة فيتبرج.
- ١٥٠٦ شروع البابوية في إعادة بناء كاتدرائية القديس بطرس في روما.
- ١٥٠٧ الممارسات الأولى لأداء الصلاة وشعائر البركة الكنسية داخل الدير الأوجستيني من قبل لوتر.
- ١٥٠٨ إلقاء لوتر لفترة مؤقتة محاضرات بجامعة فتتبرج، وجامعة إيرفورت ١٥٠٩.
- ١٥١٠ رحلة لوتر في نوفمبر إلى روما بتكليف من رئاسة الدير الأوجستيني، المؤسسة الدينية التابع لها.
- ١٥١٢ حصول لوتر على درجة الدكتوراه في ١٩ أكتوبر.
- ١٥١٣ بداية ولاية ليو العاشر عرش البابوية.
- ١٥١٥ حصول لوتر على منصب نائب الأسقف لمقاطعتي تور نجن وما يسن، وليكون رئيساً لأحد عشر ديرًا من أديرة الرهبان الأوجستينيين.
- ١٥١٦ تأسيس أول إدارة نظامية للبريد في ألمانيا، اقتناع لوتر بمبدأ (البار بالإيمان يحيا) من خلال محاضراته في علم اللاهوت.
- ١٥١٧ تعليق لوتر في ٣١ أكتوبر حججه الـ ٩٥ على باب كنيسة القصر، بمدينة فتتبرج وتضمينها شجب محاولات تتسل Tetzel في الترويج لصكوك الغفران وتطبيق مبدأ التبرير بالإيمان.

- ١٥١٨ كتاب لوتر في مارس عن عظاته ضد صكوك الغفران ورحمة الله، واستدعاء لوتر في ١٠ أكتوبر للتحقيق معه بمدينة أوجسبورج من قبل مندوب البابا كاجيتان، وتولى صديقه ميلانشتون منصب الأستاذية بجامعة فيتنبرج، وزعامة تسفنجلى لحركة الإصلاح الدينى فى سويسرا.
- ١٥١٩ مناقشات ليبتزج المفتوحة، وإمكانية تخطئة المجامع البابوية وفقاً لمبادئ يان هوس وويكليف، وموت الإمبراطور ماكسميليان، وانتخاب القيصر كارل الخامس وتتويجه فى مدينة آخن Aachen إمبراطوراً لألمانيا، ورحلة ماجلان حول العالم.
- ١٥٢٠ رسالة لوتر إلى نبلاء الأمة الألمانية، ورسالة "السبى البابلى للكنيسة"، وصدور مرسوم بابوى بهرطقة لوتر، ورد فعل لوتر بحرق المرسوم البابوى وكتابة رسالة: "حرية الإنسان المسيحى" ثم حرق مرسوم البابا ضد لوتر، وتعيين القس موننتسر Müntzer واعظاً بمدينة تسفيكاو Zwickau بناء على توصية من لوتر.
- ١٥٢١ انتشار مرسوم فى كافة أرجاء ألمانيا بشأن إلحاد لوتر وحرق مؤلفاته، والإقامة فى قلعة الفارتبورج والبدء فى ترجمة الإنجيل، ونشوب قلاقل فى فيتنبرج.
- ١٥٢٢ عودة لوتر الى فيتنبرج، وإخماده القلاقل وظهور أول طبعة من ترجمة العهد الجديد بالألمانية؛ محاولة لوتر إيقاف تيار المتشددىن أمثال كارل شتيت وموننتسر وكذلك المنادىن بإعادة التعميد كخطر. يهدد حركة الإصلاح ويخرجها عن مسارها.
- ١٥٢٣ كتاب لوتر عن سلطة أولى الأمر الدنيوية.

- ١٥٢٤ رسالة لوثر إلى كل مستشاري المدن الألمانية، وكتابه الذي رد فيه على حجج إيرازموس عن حرية الإرادة، واندلاع حرب الفلاحين الألمانية الكبرى في يونيو ووقوف لوثر ضد هذه الثورة إلى جانب الأمراء.
- ١٥٢٥ كتاب لوثر: "ضد أعمال السلب والنهب والقتل" التي قام بها الفلاحون. الزواج من الراهبة كاترينا فون بورا وجولاته التفقدية ورسائله وعظاته عن السلام، ووفاة أمير سكسونيا فريدرش الحكيم، وهزيمة الفلاحين الكبرى في مدينة فرانكنهاوس والتي تلاها باثني عشر يومًا إعدام زعيم حركة الفلاحين مونتسر شنقا، ومعركة بافيا بين كارل الخامس وفرانس الأول ملك فرنسا.
- ١٥٢٦ انتصار الأتراك الساحق في معركة موهاكس بالمجر وقتل ملكها لويس الثاني.
- ١٥٢٧:١٥٢٩ استمرار الحوار مع تسفنجلى حول العشاء الرباني ولقاءات مدينة ماربورج، وتأليف كتابي قواعد تعليم الدين المسيحي الكبير والصغير.
- ١٥٣٠ موت والد لوثر، وتأليف كتاب رسالة للمترجم، وتتويج كارل الخامس إمبراطورًا على ألمانيا على يد البابا كليمنتس السابع.
- ١٥٣١ تأسيس ولايات تحت إمرة حكام بروتستانت ونشأت المدن البروتستانتية تحت مسمى اتحاد شمالالدين، وموت تسفنجلى في معركة كابل. وتغدو القضية البروتستانتية الشغل الشاغل للأمراء.
- ١٥٣٢ وفاة أمير ساكسن يوهانس فون ساكسن وعقد الصلح الديني في نورنبرج.
- ١٥٣٤ إكمال لوثر ترجمة الإنجيل ونبوع حركة الإصلاح بشمال ألمانيا وخاصة في منطقة بومرن.
- ١٥٣٥ هزيمة زعماء المومدين الجدد والمتحمسين في مدينة مونستر.

- ١٥٣٦ وفاة إيرازموس.
- ١٥٣٧ جولة لوتر إلى مدينة شمالكالدن، وتأسيس أول شركة لاستخراج الفحم الحجري بمدينة تسفيكاو.
- ١٥٣٩ الإقرار بالزواج للثاني لأمير هيسن وموت الأمير جورج السكسوني.
- ١٥٤١ اشتداد مرض لوتر واجتماع برلمان الرايخ بمدينة ريجينسبورج، التي تم فيها عقد اتفاق سرى بين الأمير فيليب فون هيسن مع القيصر كارل الخامس.
- ١٥٤٢ تولى نيقولاوس أمسدورف أسقفية نومبورج تسايتس.
- ١٥٤٥ كتاب لوتر ضد البابوية في روما " إهداء من الشيطان"، وظهر العديد من المؤلفات المعادية لليهود التي استقامها لوتر من قيم العصور الوسطى ودمغهم بأسوأ الصفات، حتى أن البعض اعتبره أبًا للنازية التي أحرقت اليهود في أوروبا في القرن العشرين.
- ١٥٤٦ رحلة لوتر إلى أيسلين واشتداد المرض عليه وموته في ١٨ فبراير، بداية الحروب الشمالكالدينية.
- ١٥٤٧ معركة ميلبورج، وقوع أمير ساكسن يوهان فريدريش أسيرًا، واستسلام مدينة فيتنبرج للإمبراطور كارل الخامس.
- ١٥٤٨ ظهور حركات مضادة لحركة الإصلاح البروتستانتي.

المؤلف فى سطور

- الاسم : محمد أبو حطب خالد
- تاريخ الميلاد : ١٨ أكتوبر ١٩٣٧
- محل الميلاد : أبنوب – أسيوط
- عنوان المنزل : ٦ شارع عبد الواحد فهمى شقة ٨ – هليوبوليس (غرب) – مصر الجديدة – القاهرة
- الحالة الاجتماعية : متزوج
- إجابة اللغات : العربية – الألمانية – الإنجليزية
- تليفون المنزل : ٠٠٢٠٢٦٣٥١٧٩٠
- محمول : ٠٠٢٠١٢٣٤٢٧٤٥٧
- البريد الإلكتروني :
abuhattab@hotmail.com
abuhattabm@yahoo.com

- آخر مؤهل علمي :
- دكتوراة الفلسفة فى اللغة الألمانية و آدابها – كلية علوم اللغة الألمانية و آدابها - جامعة ليبزيج – بتقدير امتياز - ١٩٧٣ م.

- التدرج الوظيفي :
رئيس قسم اللغة الألمانية – كلية اللغات و الترجمة – جامعة الأزهر (١٩٧٣ – ١٩٩٨)
وكيل كلية اللغات و الترجمة – جامعة الأزهر (١٩٧٨ – ١٩٨٠)
عميد كلية اللغات و الترجمة – جامعة الأزهر (١٩٨٠ – ١٩٨٤) - (١٩٨٦ – ١٩٨٩)
عميد كلية الألسن ورئيس قسم اللغة الألمانية - جامعة المنيا (١٩٩٧ – ٢٠٠٢)

- عضوية المؤسسات العلمية والثقافية :
- عضو الاتحاد الدولى لمعلمى اللغة الألمانية منذ ١٩٦٩ .
- عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية – وزارة الأوقاف (مصر) منذ ١٩٨٥ .
- رئيس اللجنة التخصصية الألمانية – وزارة التربية و التعليم منذ ١٩٨٠ .
- رئيس اللجنة الفرعية للغة الألمانية- المركز القومى للامتحانات والتقويم التربوى منذ ١٩٨٥ .
- عضو الرابطة المصرية لخريجي المعاهد الألمانية منذ ١٩٧٥ .
- عضو الهيئة الألمانية للتبادل العلمى فرع القاهرة منذ ١٩٨٨ .
- عضو المجالس القومية المتخصصة – شعبة التعليم الأزهرى منذ ١٩٨٨ .

- مقرر اللجنة العلمية الدائمة لترقية أساتذة اللغة الألمانية – المجلس الأعلى للأزهر منذ ١٩٨٣.
- عضو اللجنة الفرعية الفنية لمشروع تطوير كليات التربية بجمهورية مصر العربية- وزارة التعليم العالي ٢٠٠٥ .

- الأبحاث و المؤلفات العلمية :
تجاوزت الأعمال العلمية المائه (حتى نهاية عام ٢٠٠٤) مابين بحث ومقال وكتاب (تأليف أو ترجمة أو مراجعة لترجمة) وأغلب هذه الأعمال منشور باللغة الألمانية.

- الإشراف العلمى:
إشراف وتحكيم ما يربو عن ٦٠ (ستين) رسالة ماجستير ودبلوم ودكتوراه إلى جانب تحكيم عشرات الأبحاث المقدمة من أصحابها للنشر فى المجالات والحوليات العلمية، علاوة على الأبحاث المقدمة للترقية إلى درجة أستاذ مساعد ودرجة أستاذ بالجامعات المصرية.

- جوائز وأوسمة:
 - جائزة وسام ياكوب وفيلهلم جريم – ألمانيا ١٩٨٣ .
 - وسام الاستحقاق من الطبقة الأولى – ألمانيا ١٩٨٤ .
- إسهامات أخرى :
 - تدريس اللغة الألمانية وآدابها بالجامعات المصرية وبعض الجامعات الأجنبية.
 - المشاركة فى العديد من الترجمات الشفوية والتحريرية والفورية فى الداخل و الخارج.
 - المشاركة فى العشرات من المؤتمرات العلمية فى الداخل والخارج.
 - المساهمة فى تأسيس أقسام اللغة الألمانية بجامعات الأزهر وحلوان والمنوفية والمنيا.
 - المساهمة فى تأسيس كلية اللغات والترجمة بجامعة الأزهر وكلية الألسن بجامعة المنيا.

Muhammad Abu-Hattab Khaled, Dr. phil.
Professor, geb. 1937 (Abnub Assiut, Oberägypten).
Al Azhar Universität
Sprachen- und Übersetzungsfakultät
Deutschabteilung
Kairo – Nasr City
T. (002 02) 61 88 07, 61 88 08
Private Anschrift
6 Str. Abdel-Wahed Fahmy/ 8 Heliopolis (West)

Kairo - Ägypten

T: 002 02 6351790

**Handy: 012 3427457
0104978038**

**E-mail: abuhattab@hotmail.com
abuhattabm@yahoo.com**

F Sprachwissenschaft, Deutsch als Fremdsprache,
Literaturwissenschaft,
Übersetzungswissenschaft, Komparatistik.

Pr Leipzig 1973, Ernennung zum Ass.-Prof. 1978. Ernennung
zum Prof. 1983

M *Internationaler Deutschlehrerverband. – Bund der Ägypter
deutscher Bildung.
Kairoer DAAD.*

St Seit 1964 fortlaufend Stipendien, Forschungsaufenthalte und
Ehreneinladungen von der BRD, DDR, BRÖ, der Schweiz und
den arabischen Staaten –
Grimm-Preis der DDR (1983) –
Bundesverdienstkreuz 1. Kl. (1984).

B Vizedekan 1978 -1982,
Dekan der Sprachen- und Übersetzungsfakultät der Al Azhar
Universität. 1982-1989.

Leiter des Komitees für das Fach Deutsch im ägyptischen

Unterrichtsministerium. Ex- Leiter des Übersetzungskomitees im

internationalen Hohen Rat für islamische Angelegenheiten.

Dekan der al-Alsun- Fakultät der al- Minia Universität und
Abteilungsleiter der Deutschabteilung – 1997 - 2002

- Pda** - Analyse und Wertung vom Inhalt und Struktur des Lehrbuches: "Deutsch für Araber" von Steppat-Klopfer, Diplomarbeit (M.A.), Leipzig 1971.
- Zur Entwicklung und zu einigen gegenwärtigen Problemen des Deutschunterrichts: in Ägypten. Diss. Leipzig 1973.
 - Aussprache Probleme der deutschen Sprache für Araber und ihre Überwindung im Unterricht. Kairo 1977.
 - Österreichische Literatur in Ägypten. Kritische Gedanken zu Barbara Frischmuths Roman: "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne", (Autorenkollektiv Mitverfasser, Heinz Gstrein, Heinz), Kairo 1978.
 - Einführung in die deutsche Rechtschreibung: Geschichte, Reform und Regelwerk für deutschlernende und -lehrende Araber. Kairo 1980.
 - Zur Interpunktion im Deutschen mit Hinweisen für deutschlernende Araber. Kairo 1980.
 - Zur deutschen Intonation. Lehr- und Übungsmaterial für arabische Studenten. Kairo 1981.
 - Al Azhar: Eine Universität. Eine Institution und ein religiöses Zentrum. Zum Anlaß des 1000jährigen Jubiläums. Kairo 1983.
 - Zur Landeskunde des deutschsprachigen Raums. Kairo 1983.
 - Einführung in die deutsche Sprache: Grundkurs (1). Kairo 1983.
 - Einführung zum Al-Azhar Symposium über György Sebestyen, (Autorenkollektiv, Hr..Abu-Hattab / Huber), Kairo 1983.
 - Informationen zur Landeskunde der deutschsprachigen Länder – mit einem deutsch- arabischen Glossar. Mitverfasser: Kristian Bosselmann / Mohammed Ahmed Mansour, Kairo 1996

- Einführung in die deutsche Sprache – Grundkurs ,Mitverfasser Mohammed Ahmed Mansour / Heinrich Schlemmer. Kairo, 1998
- Einführung in die richtige Artikulation des Deutschen für Araber, Kairo 1999/2000
- Auslese aus der deutschen Dichtung, Kairo 2000.
- Zur Neuregelung der deutschen Rechtschreibung, Kairo 2000.
- Grundgedanken zur Methodik der germanistischen Forschung, Kairo 2000.
(Autorekollectiv, Mitverfasser M. A.Mansour , H.N. Günther)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 1999/2000.
(Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 1999/2000.
(Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 2000/2001.
(Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 2000/2001.
(Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 2001/2002.
(Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 2001/2002.
(Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 2002/2003.
(Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 2002/2003.
(Autorenkollektiv)

- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 1. Schuljahr, Kairo 2003/2004.
(Autorenkollektiv)
- Leitfaden für die Evaluation des Schüler, 2. Schuljahr, Kairo 2003/2004.
(Autorenkollektiv)
- Die deutschsprachigen Länder: Tatsachen und Informationen,(mit einem deutsch- arabischen Glossar von Mohamed Ahmed Mansour) , Kairo 2002/2003.
- Deutsche Phonetik für Araber – Deutsch-arabisches Glossar, Kairo 2003/2004.
- Reiseführungstipps für das ewige Nilland Ägypten, Kairo 2003/2004.

Pdb – Zu einigen Schwierigkeiten für Araber beim Erlernen der deutschen Sprache,

Teil I,In: DaF Leipzig(1976) H. 3. S. 166 - 171

- Zu einigen Schwierigkeiten für Araber beim Erlernen der deutschen Sprache, Teil II, In: DaF (1976) H. 4, S. 235 - 241
- Zu einigen Schwierigkeiten der deutschen Phonetik im Deutschunterricht für Araber. In: FLTS 2 (1978). S. 3- 33
- Versuch einer kritischen Analyse zum Bild der islamischen Mystik in Barbara Frischmuths Roman, "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne". In: FLTS 2 (1978). S. 37- 56
- Zu Möglichkeiten und Grenzen des Sprachvergleiches: Deutsch/Arabisch, In: FLTS 3 (1980). S. 3- 28
- Kritische Betrachtungen zum Deutschtum in Ägypten vor dem ersten Weltkrieg. In: FLTS 3 (1980). S. 31- 55
- Das Werk Borcherts im Hinblick auf die Wirkungsmöglichkeit in Ägypten. In: FLTS 4 (1980). S. 56-80
- Der Koran als eine Quelle für Thomas Manns Roman „Joseph und seine Brüder". In: FLTS 4 (1980). S.81- 98
- Zum Bild des Propheten Muhammad In bezug auf seine Darstellung in Europa. In: FLTS 6 (1982). S.3-20

- Stefan Zweig (1881-1942). Aus Anlaß der Stefan Zweig-Ausstellung vom 17.4-30.4.1982 an der Al Azhar Universität. In: FLTS 6 (1982). S.27- 35
- Zu den Funktionen und Verwendungsbereichen des Artikels im Deutschen und Arabischen. Versuch eines syntaktischen Vergleichs. In: FLTS 6 (1982). S. 3- 18
- Johannes Tralows Roman "Mohammed". Eine kritische Analyse aus arabisch-islamischer Sicht. In: FLTS 7 (1982). Supplement. S.1- 22
- Zur Stellung der österreichischen Literatur innerhalb des deutschsprachigen Raumes und ihre Beziehungen zum Orient. In: Panonia [Wien/Eisenstadt] 4 (1983). S.3- 8
- Arthur Schnitzler. Ein österreichischer Schriftsteller der Jahrhundertwende. Aus Anlaß einer Ausstellung vom 22.3.-29.3.1983 an der Al Azhar-Universität. In: FLTS 9 (1983). S.1- 12
- Al AzharUniversität. Vergangenheit und Gegenwart. In: JahrbWGoetheV, Wien 1984. S. 633 - 645
- Einführung zum Al-Azhar Symposium über György Sebestyen. In: Al Azhar Symposium. Kairo 1983. S. 1-10
- Kulinarische Literatur zwischen literarischem Erbgut und modernem Lebensgefühl. Anmerkungen und Reflexionen zu György Sebestyen. In: Al Azhar Symposium. Kairo , 1983. S. 69- 73
- Die deutschen Partikeln. Aus Anlaß des Erscheinens eines neuen Übungsbuches. Rez. In: FLTS 10 (1985). S. 1- 6
- Jürgen Weil in Kairo. Ein österreichischer Schriftsteller und Arabist besucht Ägypten. In FLTS 11 (1985). S. 3-10
- Situation und Perspektiven des Deutschunterrichts an der Al Azhar. In: FLTS 12 (1985), S. 1- 7
- Sprachdidaktik und die deutschen Partikeln. Rez. In: FLTS 12 (1985). S.9- 15

- Semantische Übersetzungsprobleme am Beispiel von Barbara Frischmuths Roman "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne". In: STZ 1985. S. 285 - 287
- Zum interkulturellen Beitrag des Deutschunterrichts in Ägypten. In: DaF 6 (1985).
- Übersetzungsprobleme semantischer Natur im Deutschen und Arabischen. Zur Übersetzung von B. Frischmuths Roman "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne". In: FLTS 13 (1986). S. 1 - 10
- Blick auf ein buntes Feld. Anmerkungen zur frühen DDR-Lyrik. In: FLTS 14 (1986). S.157 - 166
- Die Groß-Kleinschreibung im Deutschen. Eine aktuelle Stellungnahme. In: FLTS 15 (1986). S. 3 - 8
- Zur Rolle der Al Azhar bei der Aufbewahrung und Verifizierung des arabisch-islamischen Erbes. Vortrag aus Anlaß des 1000. Jahrtages der Abfassung des Kitab Al Fihrist durch Muhammad b. Ishaq an-Nadim, gehalten an der Martin-Luther-Universität, Halle. In: Vorträge zum Internationalen Johann-Fück-Kolloquium zur Arabistik und Islamkunde. 1987.
- Al- Azhar - Universität und die Kulturbeziehungen zwischen Österreich und Ägypten, FLTS , 16 (1987)
- Versuch einer kritischen Würdigung von Rückerts Übersetzung von Al Hariri-Makkamen. In: FLTS 19 (1989). [Wieder in: Festschrift der 24. Orientalistentagung. Köln 1989].S. 7- 13
- Besonderheiten eines DaF-Lehrbuches für arabischsprechende Lerner. In: Moderner Unterricht. Deutsch als Fremdsprache. Anspruch und Wirklichkeit. Wien 1989. [Wieder in: FLTS 20 (1990)]. S. 1- 17

- Islamische Mystik in der deutschsprachigen Belletristik. Der Roman "Das Verschwinden des Schattens in der Sonne" von Barbara Frischmuth. In: Gott gehört der Osten und der Westen. Islamisches Morgenland und christliches Abendland. Köln 1990/1991. (-Kölner Veröffentlichungen zur Religions-geschichte). S.299 - 308
- Zur Vermittlung des deutschen Alphabets für deutschlernende Araber, In :KGS 7 (1993),S.37-51
- Deutsch an der Al Azhar. In: Minbar (1983).
- Zum Bild des Islam und des Propheten in der deutschen Literatur. In: Minbar ,(1983).
- Zur Stellung der Frau im Islam. In: Minbar (1984).
- Aspekte der germanistischen Forschungstätigkeit an der Al-Azhar Universität in Kairo – Translationsprobleme im Deutschen und Arabischen am Beispiel von Friedrich Rückert Übersetzung der Makamen von al-hariri unter dem Titel : „Die Verwandlung des Abuzeid von Serug und der arabischen Übersetzung des Romans“ Das Verschwinden des Schattens in der Sonne “von Barbara Frischmuth, In :KGS,Bd 8 / 1994-1995 ,S.151-166.
- _ Al-Azhar Beitrag zur österreichischen Literatur- gehalten als Referat auf dem
Symposium Ingeborg Bachmanns, Kairo (22-23 November 1993) ,publiziert
in : Festschrift zum 60 . Geburtstag von Nabil Kassem - Ain Shams Universität,
Siehe Iman Schalabi / Ellen Tichy / Dietlinde Gisper (Hr.):
Das nahe Fremde
und das entfremdete Eigene im Dialog zwischen den Kulturen, Hamburg.
Kairo, 1996 , S. 107- 114.
- _ Die Rolle der Al- Azhar und das arabisch-islamische Kulturerbe, In :Ibn an-Nadim

und die mittelalterliche arabische Literatur – Beiträge zum
ersten Johann

Wilhelm Fück Kolloquium, Halle (1987) – Wiesbaden 1996,
S. 127 – 135

– Karl May- Opfer, Mitläufer und Gestalter seiner Zeit, In
:KGS.,Bd.10,1997, S.
67- 87

Pa – الألمانية في الأزهر، العدد الخامس، المجلة، برلين ١٩٧٥ ، ص ٢٦.

Deutsch an der Al -Azhar . In: Al Majallah [Berlin] (1975). H.
5. S. 26

– التدريس والتعليم والبحث العلمى فى خدمة المجتمع، المجلة، العدد الثالث،
برلين ١٩٧٦ ص ٢٢-٢٥.

Unterricht, Erziehung und Forschung im Dienste der
Gesellschaft. In: Al Majallah [Berlin] (1976). H. 3. S.22-
25

- الألسنية فى خدمة التفاهم بين الشعوب، حديث مع أ.د. محمد أبو حطب الحائز على جائزة
ياكوب و فيلهلم غريم ص ١٨ ، المجلة، العدد الثانى ، برلين ١٩٨٤

Die Sprache im Dienste der Völkerverständigung- Gespräch
mit Prof. M. Abu-

Hattab zum Anlass der Grimm-Preis-Verleihung in Berlin.

- مدخل فى دراسة الزمن بين العربية و الألمانية ، مجلة كلية اللغات و الترجمة ، جامعة
الأزهر، القاهرة ١٩٨١-٥ ص ٦٧-٨٩.

- Einführung in das Tempussystem Arabisch/Deutsch. In: FLTS
5, Kairo 1981, S.
67-89

- زمن المضارع بين العربية و الألمانية، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر،
القاهرة، العدد ٥-
١٩٨١ ص ٩١-١٠٩

Das Präsens im Arabischen und Deutschen. In: FLTS 5,
Kairo 1981, S.91-109.

- زمن الماضى بين العربية والألمانية، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة،
العدد ٧-١٩٨٢ ص ١-١٦.

- Das Präteritum im Arabischen und Deutschen. In: FLTS 7, Kairo 1982, S.1-16.
- هيرمان هيسه، أحد عمالقة الأدب الألماني، مجلة كلية اللغات و الترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد ٨-١٩٨٤ ص ١٠١-١٢٢.
- Hermann Hesse (1877-1962). Eine Größe deutscher Literatur der Gegenwart. In: FLTS 8, Kairo 1984, S.101-122.
- مكانة هيرمان هيسه الأدبية بين الشرق و الغرب، مجلة اللسان، العدد الثاني يونيو ١٩٨٤، القاهرة ص ٤٥-٤٨.
- Zur Stellung Hermann Hesses Werk zwischen Orient und Okzident. In: Majallatu Allissaan (1984), Kairo 2-1984, S. 45-48.
- الاسلام في الكتاب التعليمي بمدارس جمهورية ألمانيا الاتحادية وأهمية كتاب (تحليل الكتب التاريخية حول موضوع الاسلام)، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد ١٦-١٩٨٧ ص ١-٨
- Der Islam in den Schulbüchern der Bundesrepublik Deutschland. Analyse der Geschichtsbücher zum Thema Islam. In: FLTS 16, Kairo 16-1987, S.1-8.
- واقع الاسلام في ألمانيا الاتحادية، مجلة كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد ١٧-١٩٨٨، ص ١-٩.
- Zur Stellung des Islam in der Bundesrepublik Deutschland. In: FLTS 17, Kairo 17-1988, S. 1-9.
- دور الأزهر في المحافظة على التراث الاسلامي و تحقيقه، مجلة كلية اللغات و الترجمة، جامعة الأزهر، القاهرة، العدد ١٨-١٩٨٩ ص ١-١٢.
- Zum Beitrag der Al Azhar in der Aufbewahrung des islamischen und arabischen Kulturerbes. In: FLTS 18, kairo 18-1989, S.1-12.
- الإمام القرطبي وبعض انطباعاته عن مصر من خلال تفسيره: الجامع لأحكام القرآن، الكتاب التذكاري للمؤتمر السنوي: أعلام الصعيد: المؤتمر السنوي كلية الدراسات الإسلامية جامعة المنيا في الفترة من ١٤-١٦ مارس ١٩٩٨ ص ٤٧٥-٤٩٠.
- Der Imam Al-Qurtubi und seine Eindrücke über Ägypten anhand seiner Quranauslegung "Al-Gama' Li-Ahkaam El-Quran": gehalten an der internationalen jährlichen Tagung der Fakultät der Al-Minia Universität (14-16 März 1998), In : Festschrift und Jahrbuch

der "Ober-ägyptischen Prominenten-Gelehrten-Tagung" al-Minia, 1998.

– رفاعة الطهطاوى اللغوى و المترجم الموسوعى و المؤلف: الكتاب التذكارى لمؤتمر
أعلام الصعيد: المؤتمر السنوى كلية دار العلوم جامعة المنيا فى الفترة من ١٢-١٥ مارس
١٩٩٩ ص ٣٧٣-٣٩٥.

- Rifaa al-Tahtawi der Philologe, der Übersetzer und der Literat,
gehalten an der internationalen jährlichen Tagung der dar ululum
Fakultät der Al-Minia Universität (12-15 März 1999), In :
Festschrift und Jahrbuch der „Oberägyptischen Prominenten-
Gelehrten-Tagung“ al-Minia, 1999.

- اللغة و دورها فى هوية متكلميها، المؤتمر العلمى السنوى، كلية دار العلوم - جامعة المنيا
١٩ - ٢١ نوفمبر ٢٠٠٠ الكتاب التذكارى ، ص ١٣٥ - ١٣٨.

- Die Sprache und ihre Rolle zur Identität ihrer Sprecher)
gehalten an der jährlichen Tagung der Da al-ulum- Fakultät
der Al-Minia Universität (19-21 November 2000, Minia), In:
Festschrift der Tagung, Minia 2000. S.135-138.

اللغة كظاهرة إنسانية - حدود المقارنة بين اللغة العربية كلغة سامية والألمانية كلغة
هندو جرمانية، مؤتمر العلوم الإنسانية وتكاملها (رؤية مقارنة) كلية الآداب جامعة
المنيا ١٩-٢١ مارس ٢٠٠٢ الكتاب التذكارى ، ص ٦١ - ٦٨

- Die Sprache als ein menschliches Zeichen – Die Grenzen eines
Vergleichs

zwischen dem Arabischen als einer semitischen Sprache und
dem Deutschen

als einer indoeuropäischen Sprache – Jährliche Tagung der
Philosophischen

Fakultät der Al-Minia Universität mit dem Thema : "Die
humanistischen Wissen-

schaften und ihre Integration – eine vergleichende Sicht,(19.3
-21.3.2002), In:

Festschrift der "Faculty of Arts – Minia University, Minia
2002 .S.61-68

Ua - DDR: 300 Fragen , 300 Antworten Kairo: Al-Ahram Al
Tugaryia 1969.

٣٠٠ سؤال و جواب _ ألمانيا الديموقراطية ، الأهرام التجارية ، القاهرة، ١٩٦٩

- Sicherheitsmaßnahmen zur Vorbeugung von Bränden bei der Herstellung und Verwendung von Acetilin-Gasen, Berlin 1968.
- أمن العمل والوقاية من الحريق فى مراحل إنتاج وتعبئة واستخدام الأسينيلين
- Aus österreichischer Literatur der Gegenwart. Barbara Frischmuths Roman: Das Verschwinden des Schattens in der Sonne, Kairo 1982.
- توارى الظلال فى الشمس، القاهرة، ١٩٨٢.
- Rotkäppchen, In: Auslese aus der deutschen Dichtung, Kairo, 2000, S. 124- 136
- ذات الكاب الأحمر .
- Dornröschen ,In: ebenda ..., S.137 – 149
- وريدة الشوك.
- Die Bremer Stadtmusikanten, In: ebenda..., S. 150 - 162(entnommen aus : Die Kinder-und Hausmärchen der Brüder Grimm, Berlin 1984bel,
- جوقة مدينة بريمن الموسيقية.
- Eich, Günter, Züge im Nebel, In: ebenda
- قطارات فى الضباب، جوتتر أيش .
- Kreuder, Ernst, Phantom der Angst, In: ebenda
- شبح الخوف، إرنست كرويدنر .
- Böll, Heinrich, die ungezählte Geliebte In: ebenda, Kairo, 2000.
- حبيبتي غير المعدودة، هاينريش بيل.
- Eichendorff, Joseph, aus dem Leben eines Taugenichts, In: Ebenda
- من مذكرات حياة عديم النفع، جوزيف فون أيشن دورف .
- Ausbildung- Schule –Toleranz, Europäische Abschlusstagung: Dr. Islam in den europäischen Schulbüchern (19-21 Februar 1993) Köln ,1993 Köln 1993
- التعليم، المدرسة، التسامح، محصلة المؤتمر الأوربي الختامي: الإسلام فى الكتب المدرسية الأوروبية من ١٩-٢١ فبراير ١٩٩٣ – كولونيا ١٩٩٣ (عربى - ألماني)
- Adelbert Stifter, Brigitta, (Eine Novelle), Kairo 2002

- من روائع الأدب العالمي، بربجتا، أدليبرت شتيفتر، القاهرة ٢٠٠٢
- Ua* - Muhammad Hosni Mubarak :Über Bildung und Erziehung – Ein Blick in die Zukunft, Kairo, 1992.
- مبارك والتعليم – نظرة إلى المستقبل، محمد حسنى مبارك، القاهرة ١٩٩٢.
- Mubarak und die Ausbildung – Ein nationales Projekt zur Entwicklung der Ausbildung - Der Präsident als Aufklärer, Erläuternde – Zeilen zu seinen Ausführungen, Erneute Hoffnungen und vielversprechende Erwartungen zur neulichen Präsidentschaft, (Hr.Ministerium für Erziehung und Unterricht), Kairo 1999
- مبارك والتعليم – المشروع القومى لتطوير التعليم – سطور مضيئة لإنجاز رئيس مستنير وآمال متجددة وطموحات واعدة فى ولاية جديدة - إصدار وزارة التربية والتعليم، القاهرة ١٩٩٩.
- زيجريد هونكى، العقيدة والعلم- وحدة الدين الأوروبى وعلم الطبيعة (تحت الطبع)
- Sigrid Hunke: Glauben und Wissen. Die Einheit europäischer Religion und die Naturwissenschaft, Hildeshneim:Olms, 1987
- Pda u.Pa*
- Das deutsche Wesen im Wandel der Jahre – Betrachtungen eines arabischen Germanisten , in : Ischraqa, eine Zeitschrift für Kultur und wissenschaftliche Forschung ,(Hr. Ministerium für Hochschulwesen,Kairo,Bd 26/2002,S.24-51
- الذات الألمانية على مر العصور – تأملات عربى متخصص فى علوم الجرمانيات، إشراقة العدد ٢٦ لسنة ٢٠٠٢، إصدار الإدارة العامة للبحوث الثقافية، وزارة التعليم العالى القاهرة، ص ٢٤-٥١.
- Der Beitrag des Arabischen und des Deutschen zur Pflege und Aufbewahrung der islamischen Kultur und die Herausforderungen unserer Zeit, In: Ischraqa

a.a.O.Bd.27 /2002, S.36- 62

- إسهام العربية والألمانية في رعاية وحفظ التراث الإسلامى أمام تحديات العصر، المرجع السابق العدد ٢٧ لسنة ٢٠٠٢ ص ٣٦ – ٦٢.

- Ägypten- ein beliebtes Thema in der Weltliteratur – Das Land des ewigen

Stroms in einigen Werken deutschsprachiger Literatur- Teil I,
In: Ischraqa,

a.a.O. Bd.28 /2003 ,S.26-47

- صورة مصر فى الأدب العالمى – مادة أدبية مفضلة، قطوف عن مصر بلد النيل الخالد فى عيون الأدب الألمانى، الجزء الأول، المرجع السابق العدد ٢٨ لسنة ٢٠٠٣ ص ٢٦ - ٤٧.

- Ägypten - ein beliebtes Thema in der Weltliteratur – Das Land des ewigen

Stroms in einigen Werken deutschsprachiger Literatur- Teil II
– John Knittels

Roman : El hakim (1936) ,In : Ischraqa, a.a.O.Bd.29 /2003.S.55 – 76

- صورة مصر فى الأدب العالمى – مادة أدبية مفضلة، الجزء الثانى، مصر فى عيون الأديب السويسرى جون كنيثل، فى رائعته رواية: الحكيم (١٩٣٦) المرجع السابق، العدد ٢٩ لسنة ٢٠٠٣ ص ٥٥ - ٧٦.

Ägypten - ein beliebtes Thema in der Weltliteratur – Das Land des ewigen

Stroms in einigen Werken deutschsprachiger Literatur. Teil III
– Das Ägyptenbild im Werk Rainer Maria Rilkes – ein außergewöhnlicher Beitrag des Dichters zur Bekanntmachung Europas mit dem Islam, S. 35-53, Bd. 30, März 2004

- صورة مصر فى الأدب العالمى – مادة أدبية مفضلة، الحلقة الثالثة، صورة مصر فى أعمال راينر ماريا ريلكه، إسهام فائق فى تعريفه أوروبا بالإسلام، ج ٣٠، مارس ٢٠٠٤.

Ägypten - ein beliebtes Thema in der Weltliteratur – Das Land des ewigen

Stroms in einigen Werken deutschsprachiger Literatur. Teil IV ,
Zum Bild der

altägyptischen Kultur im Werk Rainer Maria Rilke, Bd. 31, Oktober 2004

- صورة مصر فى الأدب العالمى – مادة أدبية مفضلة، الحلقة الرابعة، الحضارة المصرية فى أعمال راينر ماريا ريلكة الأدبية، العدد ٣١، أكتوبر ٢٠٠٤.

Das Ägyptenbild in Thomas Manns Tetralogie „Joseph und seine Brüder“. In: The Journal of languages and translation volum 1 Nr. III, Part I, S. 1-35, Al-Minja, 2004

Revision von Übersetzungen literarischer Werke aus dem Deutschen ins Arabische mit eigener Einleitung:

- Dürrenmatt, Friedrich: Der Mitmacher
- مسرحية: المشارك، فريدرش دورنمات، سلسلة مسرحيات عالمية، الكويت ١٩٩٠
- Sternheim, Karl: Der Snob
- مسرحية: الوضيع المتعظم، كارل شترن هايم، سلسلة مسرحيات عالمية، الكويت ١٩٩٠
- Keller, Gottfried: Kleider machen Leute
- أقصوصة: الملابس تصنع الناس، ترجمة عماد بكر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢.
- Storm, Theodor: Regentrude
- أقصوصة: ربة المطر، ترجمة عماد بكر، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٢.
- Dürrenmatt, Friedrich: Der Verdacht
- رواية: الاتهام، فريدرش دورنمات، ترجمة عماد بكر K القاهرة ٢٠٠٢.

المراجع و المصادر

I. Die arabischen Quellen

- "حرية الإرادة بين نعم أو لا- حوار ساخن بين لوثر وإيرازموس" ترجمة: ألقى فاضل، تقديم القس: عبد المسيح اسطفانوس، القاهرة ١٩٩٦.
- موريسون: حياة لوثر، ترجمة: القس باقى صدقة، القاهرة، ١٩٧٧.
- أديب نجيب سلامه: تاريخ الكنيسة الإنجيلية فى مصر (١٨٥٤-١٩٨٠)، ط١ القاهرة، ١٩٨٢.
- الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده، تحقيق وتقديم الدكتور. محمد عمار، ج٣، الإصلاح الفكرى والتربوى والإلهيات، ط١، القاهرة، ١٩٩٣.
- الإمام محمد أبو زهرة: محاضرات فى النصرانية تبحث فى الأدوار التى مرت عليها عقائد النصارى وفى كتبهم وفى مجامعهم المقدسة وفرقهم. القاهرة ط٣، ١٩٦١.
- أمين الخولى: صلة الإسلام بإصلاح المسيحية، ج ٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٩٣.
- الإنجيل - العهد الجديد، القاهرة ١٩٩٩.
- إنجيل متى فى الكتاب المقدس بالعهد القديم والجديد القاهرة ١٩٧٧ ص ٤٩ ج.
- باقى جيد بشارة: أضواء على تاريخ ظهور البروتستانت. فى أوروبا ومصر، القاهرة، بدون.
- براند مانوئيل فايشر: الشرق فى مرآة الغرب، دار سراس للنشر، تونس، ١٩٨٣.

- جاد طه: ألمانيا إلى أين المصير، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٠، سلسلة إقرار ق.م ٥٥٧
- حسين مؤنس، صور من البطولات العربية والأجنبية، القاهرة ط ١ ١٩٩٢، ط ٢ ٢٠٠٠.
- حنا جرجس الخضرى: مارتن لوثر، حياته وتعاليمه، بحث تاريخى عقائدى لاهوتى، القاهرة، ١٩٨٣.
- دكتور أحمد يوسف، جريدة الأهرام ٢٠-٨-٢٠٠٣.
- زيجريد هونكه. شمس الله تسطع على الغرب، ترجمة فاروق بيضون/ كمال دسوقي، بيروت ط ٣ ١٩٧٩.
- سارزن: "صورة الإسلام فى أوروبا فى العصور الوسطى".
- السيد الشاهد: المسيحية والإسلام من الجوار إلى الحوار، القاهرة، ٢٠٠١
- السيد الشاهد، الخطاب الفلسفى المعاصر - من العام إلى الأعم، القاهرة ٢٠٠٠.
- شمس الدين محمد بن أبى بكر بن قيم الجوزية ٦٩١هـ - ٧٥١هـ "هداية الحيارى فى أجوبة اليهود و النصارى" القاهرة ٢٠٠٣.
- صلاح حاتم: "فى تاريخ الدين والفلسفة" اللاذقية، سوريا، ١٩٨٨.
- عبد الحميد عبد الرحمن: حول وظيفة الحكاية المصاغة على لسان الحيوان فى أدب عصر التنوير الألمانى، رسالة ماجستير، المنيا ٢٠٠٥م.
- غوستاف لوبون، حضارة العرب، ترجمة عادل زعيترة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٠.
- فايز فارس: أضواء على حركة الإصلاح الإنجيلى، القاهرة، ط ١، ١٩٨٤.
- مارتن لوثر: شرح موجز لأصول التعليم المسيحى، الكتاخيسمس الصغير، كتاب عن العقيدة المسيحية، ترجمه إلى العربية: مورييس أديب

- جهشان، بيروت: المركز اللوتري للخدمات الدينية في الشرق الأوسط، ١٩٨٨.
- محمد أبو حطب خالد، الألسنية في خدمة الشعوب، المجلة ط ١٩٨٤/٢، برلين.
 - محمد أبوحطب خالد: الذات الألمانية على مر العصور - تأملات عربى متخصص في علم الجرمانيات - إشراقة، دورية تصدرها الإدارة العامة للبحوث الثقافية، قطاع الشؤون الثقافية والبعثات - وزارة التعليم العالى، جمهورية مصر العربية، العدد ٢٦، القاهرة يونيو ٢٠٠٢.
 - محمد أبوحطب خالد: قطوف من الأدب الألماني، القاهرة ٢٠٠٠.
 - محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، نقله إلى العربية عمر فروخ، بيروت ١٩٤٦.
 - محمد البهى، الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى، القاهرة ١٩٧٣.
 - محمد خليفة: تاريخ مقارنة الأديان دراسة وصفية مقارنة، القاهرة، ٢٠٠٠.
 - محمد عمارة: صورة الإسلام فى الخطاب الغربى ٢، فى: صوت الأزهر. القاهرة، ٢٩ أكتوبر ٢٠٠٤ الموافق ١٥ رمضان ١٤٢٥.
 - محمد عمارة: فى فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، القاهرة، ٢٠٠٣.
 - محمد نبيل غنايم: قضايا معاصرة - دراسة فقهية اجتماعية ، القاهرة ٢٠٠٣.
 - ميرل دوبنياه: تاريخ الإصلاح فى القرن السادس عشر، ترجمه عن الإنجليزية إبراهيم الحرائى ط٣ بيروت ١٩٨٢.
 - ول ديورانت: قصة الحضارة، ج ٥، مجلد ٦، الإصلاح الدينى، ترجمة محمد على أبو درة، مراجعة على أدهم، إصدار، الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٧٣.

- ول ديورانت: قصة الحضارة، جزء ٣، مجلد ٦، الإصلاح الديني، ترجمه عن الإنجليزية د. عبد الحميد يونس، مراجعة: على أدهم، إصدار، إدارة الثقافة، جامعة الدول العربية، القاهرة ، ١٩٧١ .

II. Die fremdsprachigen Quellen

- Abdulrahman, Abdulhamid: Zur Funktion der Fabel in der Literatur der deutschen Aufklärung, MA, Al-Minia 2005.
- Autorenkollektiv :Martin Luther –Kolloquium, Akademie der Wissenschaften ,Berlin 1983.
- Beinteker Horst, Martin Luther - Die reformatorischen Grundschriften in 4. Bd., Bd. II, Reform-Theologie, Kirche und Gesellschaft, dtv. 1983.
- Beinteker Horst: Martin Luther - Die reformatorischen Grundschriften in 4. Bd., Bd. I, Gottes Werke und Menschen Werke, München 1983.
- Bobzin, Hartmut: Der Qura'n im Zeitalter der Reformation – Studien zur Frühgeschichte der Arabistik und Islamkunde in Europa, Stuttgart: Franz Steinert, Herg. vom Orient Institut der Deutschen Morgenländischen Gesellschaft – Beirut, Bd. 42, 1995.
- Bornkamm, Karin/ Ebeling, Gerhard: Martin Luther – ausgewählte Schriften – Briefe, Bd. VI, Frankfurt M., 1982 .
- Bornkamm, Karin/ Ebeling, Gerhard: Martin Luther, BdV Kirche – Gottesdienst, Schule, 1982 .
- Bornkamm, Karin/ Ebling, Gerhard (Herg.): Martin Luther- Ausgewählte Schriften, Bd. I, Aufbruch der Reformation, Frankfurt M. 1982.
- Bothmar, Hans-Casper Graf von: Kalila und Dimna: Ibn al-Muqaffa's Fabelbuch, Reichert Verl., Wiesbaden 1981.

- Deutsch als Fremdsprache /1984 und 1 /1986.
- Die Bibel – nach der Übersetzung von Martin Luther , 2. Auflage Berlin 1981.
- Dithmar, Reinhard: Fabeln, Parabeln und Gleichnisse; Paderborn; München; Wien; Zürich; Schöningh, 1995.
- E.G. White: Der große Konflikt, 1. Aufl.-, München: Inter-Euro Publishing, 1998.
- Ebeling, Gerhard: Luther, Einführung in sein Denken, 4. Aufl., 1981 .
- Francis Nigel Lee: Luther on Islam and The Papacy, Brisbane, Queensland, AUSTRALIA – FOR THE Reformatin Day 31:10 2000.
- Gremmels, Christian: Luther- Lesebuch, Darmstadt, 1983.
- Große,Rudolf: Martin Luther Sprichwortsammlung, Leipzig, 1983.
- Hagemann, Ludwig: Martin Luther und der Islam, Altenberg: Christlich-Islamisches Schrifttum, 1988.
- Hamid al-Allah, Muhammad: Der Islam: Geschichte, Religion, Kultur. Aachen 1415H. 1995. .
- Haussi, Karl :Kompendium der Kirchengeschichte, 16. Auflage, Tübingen 1981.
- Herder: Über die neue Deutsche Literatur, München, Bd. I, 1953.
- Kleine Enzyklopädie – Die deutsche Sprache , in zwei Bänden, Autorenkollektiv, Band 1, Leipzig 1967. .
- Kroker, Ernst: Katharina von Bora- Martin Luthers Frau, In: Kloster Nimbschen und Katharina von Bora – Sachsverlag- Beucha, 1993.

- Landgraf, Wolfgang: Martin Luther, Reformator und Rebell, Berlin 1981.
- Maess, Thomas: Dem Luther aufs Maul geschaut, Kostproben seiner sprachlichen Kunst. Leipzig, 1981.
- Mansour, Muhamed Ahmed: Deutsche Orientalistik und Islamwissenschaft, Geschichte und Ziele, Kairo 2003, S. 55ff. und in die Einführung in die Koranwissenschaften, Kairo 2002, S. 104ff.
- Meisner, Michael: Martin Luther Heiliger oder Rebell, 3. Auflage, Leipzig 1981.
- Moeller, Bernd: In: Martin Luther – ausgewählte Schriften, Bd. V
- Nayhaus, v. Graf Hans Christof: Martin Luther, der Prophet in der deutschen Sprache, In: Lettres européennes. Paris, Hachette, 1992 .
- Nickel, L. Heinrich/ Raphael, Pregla u.a.: Martin Luther und Halle, Franckesche Stiftungen: Halle, 1996
- Peter Meinhold: Luthers Sprachphilosophie, Berlin, Jacob Grimm: Deutsches Wörterbuch, 1845.
- Rößling, Udo/ Ambors, Paul u.a: Reisen zu Luther. Erinnerungsstätten in der DDR, 2. bearb. Aufl-, Berlin, Leipzig: Tourist, 1988
- Scheel, Heinrich (Hrsg.): Martin Luther. Kolloquium anlässlich der 500. Wiederkehr seines Geburtstages (10 November 1483), Berlin: Akademie, 1983
- Schreckenbach, Paul/ Neubert, Franz: ein Bild seines Lebens und Werks, mit 384 Abbildungen, vorwiegend nach alten Quellen, Leipzig 1916.

- Schweizer, Gerhard: Islam und Abendland – ein Dauerkonflikt, Stuttgart, 1995.
- Stolt, Brigit: Sakralsprache – zu Luther Zeit und heute. In: Linguistische Studien, Berlin, Heft 77.
- Treu, Martin: Martin Luther und Torgau, 2. Aufl.-, Drei Kastanien: Torgau, 2001
- Umberto Eco „Der Name der Rose“ Aus dem italienischen ins Deutsche von Burkhard Kroeber- Titel des Originals :Il nome della rosa, Milano 1980- Stuttgart, Hamburg, München 1982.
- Weber, Edmund: Die Bedeutung der Theologie Martin Luthers für die Begründung einer multireligiösen Gesellschaft, in: Journal of Religious Culture, Nr.01- 1997.
- Will Durant. The Story of Civilisation, Vol. 6, Book 3, the Reformation, Cairo, 1971.
- Wiss. Z. Univ. Halle XXXII' 83 G, H. 5
- Wolf, H: Eine Einführung in germanistische Lutherstudien, Stuttgart-Berlin 1980.
- Zitelmann, Arnulf: Ich, Martin Luther- Starke Sprüche über Weiber, Fürsten Pfaffen und so weiter, Frankfurt/Main 1982.

III. Internet-Literatur

- [http:// www.alt.wittenberg.de/seiten/personen/cruciger.html](http://www.alt.wittenberg.de/seiten/personen/cruciger.html)
- [http:// www.bautz.de/bbkl/f/franz_v_as.shtml](http://www.bautz.de/bbkl/f/franz_v_as.shtml)
- [http:// www.christen-und-juden.de/html/luther.htm](http://www.christen-und-juden.de/html/luther.htm)
- [http:// www.de.wikipedia.org/wiki/John_Wyclif](http://www.de.wikipedia.org/wiki/John_Wyclif)
- [http:// www.heiligenlexikon.de/Biographien/Johannes_Tauler.html](http://www.heiligenlexikon.de/Biographien/Johannes_Tauler.html)
- [http:// www.heiligenlexikon.de/biographien/john_wyclif.html](http://www.heiligenlexikon.de/biographien/john_wyclif.html)
- [http:// www.heiligenlexikon.de/glossar/waldenser.html](http://www.heiligenlexikon.de/glossar/waldenser.html)
- [http:// www.hyperkommunikation.ch/personen/eco.html](http://www.hyperkommunikation.ch/personen/eco.html)
- [http:// www.koenigsfeld.org/m_hus.html](http://www.koenigsfeld.org/m_hus.html)
- [http:// www.luther.de/lu96/eisl/gebhaus.html](http://www.luther.de/lu96/eisl/gebhaus.html)
- [http:// www.luther.de/lu96/eisl/hist.html](http://www.luther.de/lu96/eisl/hist.html)
- [http:// www.luther.de/themen/buegenh.html](http://www.luther.de/themen/buegenh.html)
- [http:// www.luther.de/themen/jonas.html](http://www.luther.de/themen/jonas.html)
- [http:// www.luther.de/themen/lac.html](http://www.luther.de/themen/lac.html)
- [http:// www.luther.de/themen/melanch.html](http://www.luther.de/themen/melanch.html)
- [http:// www.luther.de/themen/spalatin.html](http://www.luther.de/themen/spalatin.html)
- [http:// www.luther.de/themen/friedr.html](http://www.luther.de/themen/friedr.html)
- [http:// www.luther.de:95Thesen](http://www.luther.de:95Thesen)
- [http:// www.philosophenlexikon.de/ockham.htm](http://www.philosophenlexikon.de/ockham.htm)
- <http://de.wikipedia.org/wiki/waldenser>
- <http://dr-frnlee.org/>
- <http://eis.bris.ac.uk/~gexnel/teaching/landesk/luther.html>

- <http://stud-www.uni-marburg.de/~Alm.htm>
- <http://www.ansary.de/Islam/IslForsch1.html>
- <http://www.berg.heim.at/tibet/450000/god/luther-sprueche.html>
- <http://www.cs.ualberta.ca/~wfb/cantatas/80.html>
- <http://www.luther.de/legenden/baeume.html>
- <http://www.lutheramsonline.com>
- <http://www.udoklinger.de/Fabeln/Gattung.htm>

المراجعة اللغوية : رجب الصاوي
الإشراف الفني : أنجي جودج



كانت حركة الإصلاح التي قام بها لوتر تمثل دون منازع عملاً من أكبر الأعمال في عصره، وبخاصة بعد إعادة بناء كنيسة قائمة على فكره ومنهاجه، تقف جنباً إلى جنب مع كنيسة روما. وكان من ثمراتها الإنجازية ما يطلق عليه المؤرخون "ألمنة" الكتاب المقدس، والذي اعتبروه من أكثر أعمال لوتر شمولاً وإيجابية وخلوداً. وتم ذلك بعد اجتياز طريق طويل من الصعوبات ومن خلال تجميع اللهجات المحلية والإقليمية وضمها للغة الديوان السكسوني والقيصري.

